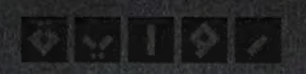


رواية
الإبداع الفكري
ستة
مكتبة
أيمن العتوم
الطبعة الرابعة
لوحة الغلاف للفنانة منار العكور





أيمن العتوم

2022م

تأليف أيمـــن العتـــوم

تصميم عبدالعزيـز عصمـت

zezodedo@hotmail.com

الناشر



شركة الإبداع الفكري

للنشر والتوزيع - الكويت

الرقم المعياري الدولي ، ردمك :
978 - 9921 - 714 - 66 - 1

رقم الإيداع : 2022 / 1630

للشراء عبر الانترنت www.ebdaafekry.com

هاتف: 965 22675321+

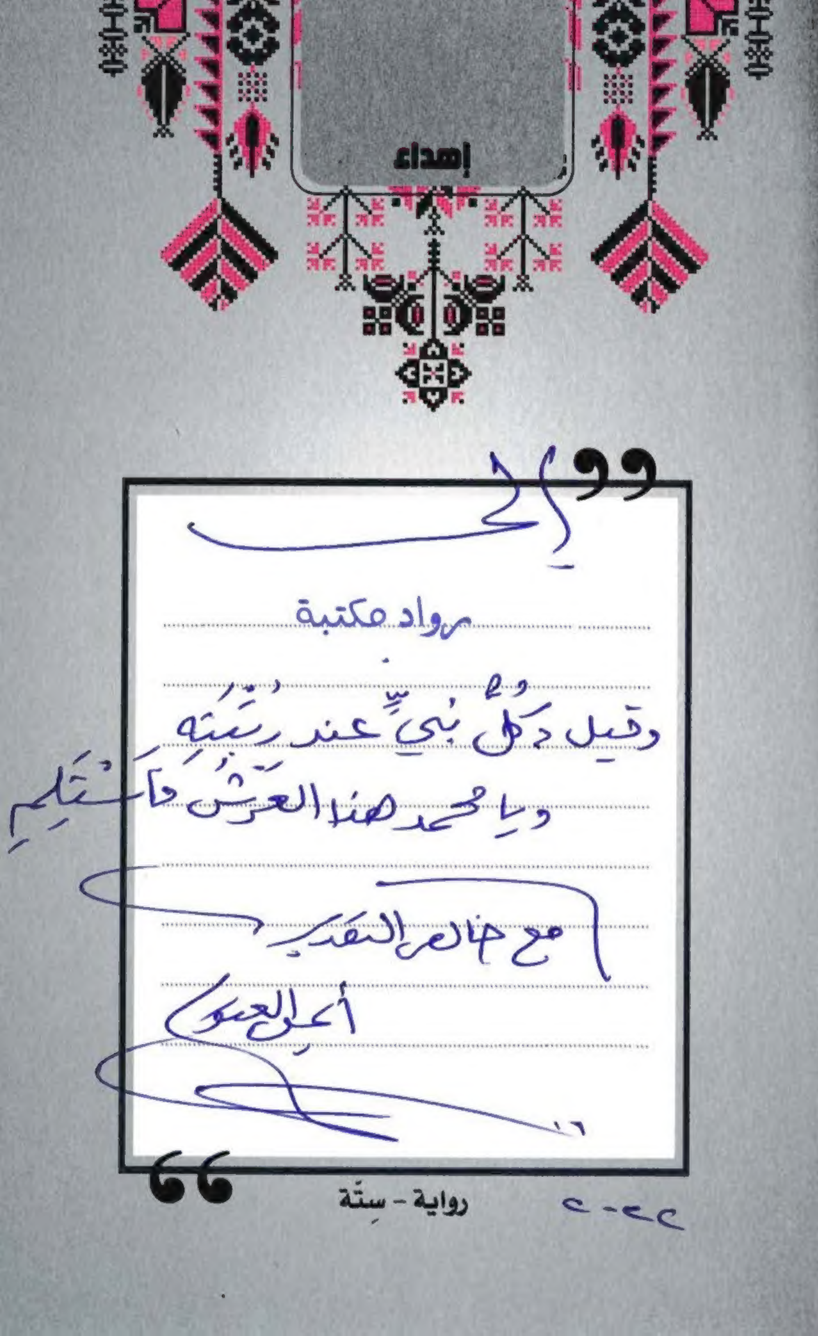
فاكس: 965 22675365+

العنوان: ص ب 28589 الصفاة 13146 الكويت

2022

ebdaafekry info@ebdaafekry.com ebdaafekry.com

تمت الطباعة في المطبعة الألمانية للطباعة والتغليف


إهداء
إلى
رواد مكتبة
وقيل لكل نبيٍّ عند رتبته
ويا محمد هذا العرش فاستلم
مع خالص التقدير
رواية - سِتّة

(٠)

كيفَ نكونُ نَحنُ؟!

إنّها سنوات الصّبر والكِتمان، لن أقول سنوات الخَفاء والحرمان، فالحرمان كان لأولئك الّذين لا يَعلَمون بأمرنا، ولا يُدرِكون سِرّنا، ولا يفعلون فِعلنا... إنّها السّنوات الخُضر اليانِعات، فالعِجافُ اليابِسات لم تكنْ إلاّ لأولئك الّذين لم يخطرْ ببالهم أنْ ينظروا من النّافذة يومًا، أو أنْ يسألوا سؤالاً عادِيًا عمّا يختبِئ خلفَ هذه الأبواب الصّامتة والباردة.

كيفَ يكون السّرّ لذيذًا إلى هذا الحَدّ؟! بل كيفَ يكون التّعبُ حُلوًا إلى هذا المَدى...؟! وكيفَ نكون نحن؟ نحن الّذين لم تكنْ أمّهاتنا ترى وجوهنا في الشّهر أو الشّهرين مرّةً واحدةً!! نحنُ نبتُ الرّبا، ونحن ذَوْبُ الغَمام، ونحنُ سِرّ الله، ونحنُ أولئك البُسطاء الّذين جمَعَهمُ حلمٌ واحدٌ، واحدٌ فقط؛ كان حلمًا بسيطًا جدًّا، ولكنّه كان عنيدًا.

قال له عمّار: «ارفع السّبّابة... نحنُ موحّدون... من أجل هذا الواحد الّذي في الأعالي، الّذي يرانا في كلّ حين، نفعل كلّ هذا... نحن لا نضربُ بقوّتنا بل بقوّة الله، سهمُنا طائشٌ وسَهم الحقّ صائب».
وهَرّ الكلب.

بقي وحده بعد أنْ خرجَ آخِرُ الحالِمين... حدّق النّظر فيها، سَمِعَ صيحاتِ استِغاثةٍ مرعوبة، رأى جُثثًا تتطاير، أجسادًا بلا أعناق، وأُخرى تجري بلا رؤوس، ثُمّ تخرّ على الأرض مُضرّجةً بالدّماء... ابتسم، لا يُمكن أنْ يكون رأى كلّ ذلك في هذه المادّة الصّغيرة الّتي انتهيا من تشكيلها للتّوّ

على سبيل التّجربة، لكنّه الخَيال الّذي صَنَعَتْه أُمنياته في أنْ يتحوّل هذا الخيال إلى حقيقة... ازدادتْ ابتِسامتُه وهو يرى الرّؤوس الّتي تدحرجتْ تفغر أفواهها، وتنظر بعيونٍ مفتوحةٍ سَكَنَها الفَزَع... كان يُقرفِصُ وهو يرى ذلك كلّه، أرادَ أنْ يتربّع على الأرض، أنْ يرتاح فَرِحًا بما أنجز... لكنّه وقف على قدمَيه، ومَضى إلى ستارة النّافذة، أزاحها ليسمح للشّمس أنْ تُجفّف المادّة الطّريّة، لكنّه تذكّر ما قاله له رفيقُه، فأسرع ليُعيد السّتارة إلى ما كانت عليه... وقبلَ أنْ يفعل دَوّى صوتُ انفِجارٍ حقيقيّ هذه المرّة، لم يُمهِله الوقتُ لكي يسمعه، فقد جعله يطير من أرض الغرفة إلى سقفِها كومةً من لحمٍ يحترق...!!

لم ينبح الكلب، كان يعرفُ أنّ صاحبه أمَرَه ألاّ يفعل وهم في هذه الغرفة، حتّى لا ينبِّه مَنْ في المُحيط إلى موقعهم، كانتْ مَهمّته تنحصرُ في أنْ يمشي في الشّارع الّذي أمام الشّقّة، مِئَتَي متر عن اليمين المُمتدّ ومثلها عن اليسار، وإذا رأى حركةً مريبةً أو أحدًا - ليسَ مِمّن يعرفهم من خلال رائحتهم يقترب من المكان - فعليه أنْ يُهرَعَ إلى صاحبه ويُنبّهه على وجودِ غريبٍ فيأخذوا احتياطاتهم. لكنْ... هذه المرّة حينَ دوّى هذا الصّوت المرعب، ركضَ بقوّة وبسرعةٍ إلى صاحِبه، عبرَ الأدخنة والأتربة والحديد والزّجاج المتكسّر والبقايا الّتي خلّفها الانفِجار، وتخلّص منها إلى صاحبه، وأطلقَ صوتًا حزينًا مكبوتًا خرج من أعماقه، اقتربَ منه، وأراد أنْ يقبض بفكّيه على كمّ صاحبه ليسحبه إلى الخارج، لكنّ جسده كان متفسّخًا، فارتأى أنْ يخرج إلى الشّارع وينبح على أحد العابرين لكي يُنقِذَ صديقَه... لكنّه تذكّر أنّه لا يستطيع أنْ يستعينَ بأحدٍ، فأصابتْه الحرقة، غير أنّه لم يكدْ يخرج إلى الشّارع حتّى رأى (عمّارًا) وقد عادَ بعدَ أنْ سَمِعَ صوتَ الانفِجار.

كان ذلـك في الشُّـقّة رقـم (١١)، الشُّـقّة الّتـي شَـهِدَتْ كلّ هـذا المجـد، وتحوّلـتْ إلى رمـزٍ بطـوليّ، لم يكـنْ أحـدٌ يعـرفُ عنهـا شيئًا، كان تنـام بـين حاكـورةٍ مـن الأشـجار العاليـة المنُتشرة عـلى الأطـراف أعـلى مـن السّـور، والنّوافـذ الغامضـة، ولم يَرْتَـبْ فيهـا أحـدٌ مـن الجـيران يومًـا... لكـنّ هـذا الانفِجـار الّـذي حـدثَ في هـذه السّـاعة مـن ظهـيرة اليـوم جعـل البِنايـة كلّهـا ترتـجّ، تتأرجـح، وتـكادُ تسـقطُ مـن عليائِهـا خـارّة عـلى تـراب الحاكـورة جبـلاً مـن رُكامٍ ورمـاد... سُـمِعت هـذه الأصـوات عـلى بُعـدِ أكثـر مـن (٥٠٠) مـترٍ مـن المكـان، كان جسـدُه في اللّحظـة الّتـي طـار فيهـا ليلتَصِـق بسـقفِ الغرفـة لثـوانٍ قبـل أنْ يبـدأ رحلـةَ سـقوطه مـرّة أخـرى إلى الأرض يشـهدُ عـلى أبـوابٍ تنخلـع، ونوافـذ تتكسّـر، وجـدرانٍ تنقـضّ... ثُـمّ سـقط، سـقطَ جُثّـة، جُثّـة يعلوهـا الغُبـار والحجـارة، والرّمـاد، وبقايـا مـن دُخـانٍ خلّفـهُ احـتراقٌ مَهُـول!

(١)

الثّائرون لا يَمُوتُون... والمُقاتِلون لا يَرْتاحُون!

في المُستشفى، لم يعرفْه أحدٌ، حتّى أُمّه. وَحْدَه رفيقُه القديم - الّذي غادره في اللّحظات الأخيرة - عرفه من عينَيه المُسبَلَتَين اللّتَين تظهران من خلفِ الشّاشِ الأبيض. كان جسده كامِلاً - فيما عدا هاتين العينَين الحالِمَتين - مُغطّى بالشّاش الأبيض، ورِجلاه المُجبّرتان داخل الجِبْسِ ترتفعان على حاملةٍ كأنّما تهمّان بالطَّيَران من جديد... إنها غيبوبةٌ طويلة في بِئر احتراقِه العميق، كان يُدرِكَ أنّ ألمَها لا يُساوي شيئًا أمام ألم الغِياب، الغِياب عن الفِكرة، الفِكرة الّتي تُقرّبه من أنْ يرى حُلُمه في طَهارة وطنه غير مَخدوشةٍ لا يُدنّسها أيُّ لئيمٍ خبيث.

غرفته في المُستشفَى تحمل الرّقم (١١)، ذات الرّقم الّذي حملتْهُ الشّقّة الّتي نقلتْه من هناك إلى هنا، كأنَّ قَدَرَه المكتوب يريدُ له أنْ يواصِل الطّريق، مهما كان طويلاً وشاقًّا، ليس جديدًا عليه يقينُه هذا: نحنُ لا نموت، الثّائرون لا يموتون، الّذين يحلمون بالحرّيّة لا يفنَون، والّذين يرتبطون بالأقدار الإلهيّة مُحالٌ عليهم أنْ ينتهوا!!

مرّتْ ثلاثةُ أشهر، لم يكنْ قد استفاقَ من غيبوبته إلى اليوم، أُمّه كانتْ تجلسُ عندَ قدَمَيه تبكي، تتمسّح بهما، ونشيجُها يرتفعُ في هواء الغرفة البَكْماء الّتي تُشارِكُها هذا الحُزنَ على ما آلَ إليه. كانتْ تأتي إلى سريره كلّ يومٍ تفعل الشّيء ذاته، تسيلُ دُمُوعُها على الجِبْسِ فيكادُ يخضرّ، وتنظر إلى الطّعام المركونِ عندَ رأسِه مُتحسّرةً على أنّه لن يكونَ قادِرًا على أنْ يأكل منه لُقمةً واحدة، ومع ذلك ظلّتْ تصحو مُبكّرًا، تُعدّ له منذُ الصّباح الطّعام، وتذهبُ به إلى المستشفَى، لكنّ الطّعام كان يبرُدُ في كلّ مرّة ويرجِعُ معها يبكي لِبُكائِها.

في الشّهر الخامس استفاق من غيبوبته، نظَرَ إلى السّقف فرأى نفسَه يطيرُ المرّةَ الأولى، وحينَ كان يَهوي في خيالِه ظَنّ أنّه من المروءة ألاّ يسقط، فهَمّ بالقِيام من سريره، لكنّ كلّ شيءٍ عاقَه عن الحركة، فأعاد رأسَه إلى السّرير وركنَ إلى الخَدَر الّذي في أطرافه. هذه المرّة بكتْ أمّه من الفرحة، لقد نظَر في وجهها ونظرتْ في وجهه، خرّتْ على جبينه تُقبّله، كانت آثار الحروق على وجهه تخفتُ مثلَ شمسٍ غارِبة... ومع قُبُلاتِ أمّه بدأ يتعافَى.

أوّل كلمةٍ نطقَ بها: «هل تمّتِ العمليّة؟» لم تعرفْ أمّه ما تقول، بيدَ أنّ صوتَه الّذي أعادَ روحَها الهارِبة إلى جسدها، وقلبَها المثقوب إلى نبضِه جعلها تردّ بدموع مُنهمِرة. ثُمّ أجال بصره في أنحاء الغرفة البيضاء الغريبة، وبالكاد خرجَ منه السّؤال الآخَرُ الموجوع: «أين ريّان؟». أرادتْ أمّه أنْ تُجيبَه، لكنّ الكلب قفز إلى سريره، وراح يضمّه بكلّ ما في الكون من شوق، وندّتْ ضحكة صعبةٌ من فمه: «أنتَ لا تزال هنا؟!». وقالتْ أمّه: «لم يفارقْ غرفتَكَ منذُ خمسة أشهر!».

في اللّيل، يرى صديقه (عمّار) في المَنام، لقد كان قادِرًا على تطوير مادّة (أمّ العبد)، يراه يقوم بتصنيعها، إنّه حاذقٌ، لو أنّه تعلّم على يدَيه، يندم، لقد استعجلَ تجفيفَها، كيفَ يستندُ إلى شَغَفه دون أنْ يستعين به؟! منذُ تلك اللّحظة الفارقة في حياته يوم التصقَ جسدُه بالسّقف تعلّم أنّه فوقَ كلّ ذي علمٍ عليمٌ، لقد استعجلَ فحُرِم. ما زال يحلم، ما زال يرى أنّه سيُصلِحُ خطأه إذا أعطاه الله حياةً جديدةً، وسيجلسُ بين يدَي (عمّار) تلميذًا يتلقّى عن أستاذه حتّى حركاتِ أصابِعه.

لا يكفّ عن الحُلم منذُ أنْ أفاق من غيبوبته، كان يرى الباب المُغلَق، خلفَ الباب سِرّ، وللسّرّ غُموض، وللغموض خيالٌ يذهبُ به

إلى حيث لا أحدَ يرى ما يرى سِواه... كان يَرَى ظِلّه يكبر، ويصعد إلى أعلى بدلاً من أنْ يمتدّ على الأرض، كان يرى الطّائرات تمرّ عبر ظِلّه العالي الّذي يُطاول عنان السّماء، تمرّ الطّائرات الّتي تبدو كحشراتٍ صغيرةٍ من أذنه اليُمنى وتخرج من أذنه اليُسرَى، فلا يشعر إلاّ بطنينِها، وشيءٍ من الوخز الخفيف، ثُمّ صوتُها وهي تبتعدُ مُخلّفةً وراءَها سُحُبًا بيضاءَ، كانت هذه الطّائرات لا تكفّ عن التّحليق فيه، لم تكنْ لترتفع أعلى من هامته، كانتْ دونَها دائِمًا، ها هو سِربٌ جديدٌ من الطّائرات قادمٌ من بعيدٍ، يدخل من عينَيه، ويخرج، ثُمّ يلتفّ فيعود ليدخل في ثنايا شَعره، شَعَرَ بدغدغةٍ في هذا الشَّعر، فنفضَ رأسَه فتساقطت الطّائرات وتقافزتْ على الأرض بين قدمَيه تعوي كأنّها جِراءٌ صغيرة... ثُمّ ها هو سربٌ آخر من الطّائرات، الطّائرة الّتي في المقدّمة تضربُ سُرّته، دغدغتْه، ضَحِك، ثُمّ كركرَ... منذُ أنْ كان في الرّابعة وهو يرى الطّائرات على هذا النّحو، إنّها لُعَبٌ تحاول أنْ تُثير غضبَه أو تُفجّره، ولكنّه كان يشعر بمرور عجلاتها على رقبته فيضحك، وبِوَخز أجنحتها في خاصرته فيُكركر... وباستِثناء أنّها لا تكفّ عن التّحليق في خياله فإنّها لم تكنْ تُسبّب له أيّ إزعاج.

قال له عمّار: «إنّني جائع». كانا طفلَين. أجابَه: «فلْتُطعِمْك أمُّك». ردّ: إنّ أمّي ماتت. هَزّ رأسه وصمت، وسأله عمّار من جديد: «نحن صديقان. أطعِمني». أجابه: «اذهبْ إلى أبيك». «أبي هو الآخر مات». «أينَ مات؟». «ماتَ على الجبهة». «ماتَ على الجبهة؟ ماذا تعني؟». «إنّهم يُسمّونها كذلك. ولكنّني لا أعرفُ ما تَعني. كلّ ما أعرفه أنّه ماتَ هناك. قالوا إنّ شيئًا كبيرًا كان قادِمًا من طائرةٍ تحلّق في السّماء هبطَ عليه دُفعةً واحدةً، ثُمّ لم يعثروا بعدَ ذلك على أيّ شيءٍ منه». «ماذا تعني؟». «اختفى بعد أنْ أطلقت عليه الطّائرة تلك القذيفة».

«كيفَ يختفي؟ أنتَ تمزح؟». «أنا أيضًا سألتُهم: كيفَ اختفَى أبي، لا بُدّ أنّكم تمزحون!». لكنّهم لاذُوا بالصّمت. «ألم تذهبْ إلى الجبهة لتبحثَ عنه؟». «حاولتُ، لم أكنْ أعرفُ أينَ تكون هذه الجبهة، ولم يدلَّني عليها أحد!». «لو أنّكَ خرجتَ تبحث لربّما وجدتَه». «قالوا لي إنّه اختفى تمامًا». «لا يُمكن للإنسان أنْ يختفي تمامًا... هكذا فجأة... لا بُدّ أنْ تعثر ولو على قِطعةٍ منه؛ هل جرّبْتَ أنْ تبحثَ عن عينَيه؟!».

مرّتْ عشرةُ شهور، ثُمّ سقطَ الكلام. ونامَ الزّمن. فلمّا استيقظَ وجدَ أنّهما صارا أطولَ إصبعًا عمّا كانا عليه، وأنّ الحارة الّتي نام فيها أيّامَ كان طِفلاً قد امتلأتْ بالأطفال الجُدُد!!



(٢)

ياسَمينُ فِلَسطين

لم نشبعْ من خُبزٍ قطّ؛ ولذلك كُنّا نعرفُ قيمته، كُنّا نعرفُ نِعمة الله فيه، وكُنّا نعرفُ أنّنا إذا شبعْنا نسينا، وكانت الحقيقة الوحيدة أنّنا ما دمنا مَنفيّين في أوطاننا فلن يمدّوا لنا أيديهم بكسرةِ خُبزٍ واحدة. وكانت القناعة نصف السّعادة، وبها كُنّا نقطع نصف الطّريق، وكان الله يقطع بنا النّصفَ الآخَر.

«إنّكَ تُصوّب بشكلٍ جيّد». قال لي ذلك أبي. كنتُ صغيرًا، صغيرًا جِدًّا. هل يُمكن أنْ أتذكّر؟! نعم. الأطفال يتذكّرون أكثر من الكِبار، إنّهم لا ينسَون بسهولة. كان ذلك عصر يوم جمعة. أَخَذَنا أبي إلى أحدِ الأحراش. وركَزَ كعب البندقيّة على كتفي، وقال لي: «اثبُتْ. كتفُكَ الصّغير هذا لن يظلّ صغيرًا. من الجيّد أنْ تُعوّده على كعوب البنادق من الآن». ثُمّ اقتربَ منّي وهمسَ في أُذني: «هل ترى الهدف؟». «أراه يا أبي». «هل إصبعكَ على الزّناد؟». «نعم يا أبي». «حدّقْ بعينَي الصّقر. اكتمْ نَفَسَك....» تراجَعَ هو إلى الوراء، فيما تحفّزتُ أنا، ثُمّ صرخَ بصوتٍ عالٍ: «الآنَ أَطْلِقِ الرّصاص». وضغطتُ على الزّناد، سمعتُ صوتَ أزيزٍ حادّ... ثُمّ... فقدتُ الوعي.

بقيتْ كتفي مُتورّمة ثلاثة أسابيع. لم أكنْ أدري أنّ البندقيّة قد قذفتْني بعيدًا وأردتْني أرضًا، وأنّ قوّة ارتِدادها على كتفي الصّغيرة قد جعلتْني أُغادر إلى عالَمٍ آخر. كان عالَمًا من البَياض، لم أرَ فيه شيئًا سوى نورٍ قويّ لكنّه هادِئ يتسلّل من خَلَلِ الأشجار الباسِقة. ظلّ هذا النّور رفيقي في فترات حياتي اللاّحقة كلّها!

حينَ جلسْنا في الصّفّ، كان ذلك في (عَرّابة)، كان مقعدنا المُشترَك في الصّفّ الثّاني الابتِدائيّ، تذكّرتُهُ؛ إنّه ذلك الولد ذو الحاجِبَين الكثيفَين والشّامة الّتي بحجم حبّة العدس فوقَ جفنه الأيمن، الولد الّذي طلبَ منّي أنْ أُطعمه لقمةً واحدةً من السّاندويتشة الّتي في يدي ولم أَقْبلْ.

حاولتُ ألاّ أنظر في وجهه، كان هو الآخر يخفِضُ رأسَه وينظر من زاوية عينِه اليُسرى بوجلٍ، لقد أدركَ أنّ الفجوة الّتي صنعَها ذلك الطّلبُ بينَنا لن تُردَم بلقاءٍ قَدَريّ على مقعدِ دراسةٍ لا ندري بعدُ أينَ يحملنا... ظلَلْنا صامِتَين، أرادَ أنْ يقول شيئًا ولكنّه توقّف قبل أنْ ينبِسَ بحرفٍ، لقد كانَ يدور في أعماقي من التّردّد مِثلُ ما كان يدور في أعماقه، غيرَ أنّ الخجل هو الّذي حَمَلَني على ذلك لا الوجل. حرّكتُ يدِي باتّجاه حقيبتي القماشِيّة الّتي خاطَتْها أمّي لي. دَسستُ ذراعي في فراغِها. لم تكنْ تحمل شيئًا كثيرًا؛ دفترًا لأخي الأكبر، كان يستخدمه في السّنة الفائتة، محَتْ أمّي حروفه المكتوبة بقلم الرّصاص، وأعادتْ تأهيله لأكتبَ فوقَه من جديدٍ، وقلمَ رصاصٍ ذهبَتْ أختي بنصف قَوامه فيما مضى، وبقي لي النّصف، كانتْ أمّي قد بَرَتْه بمِبراة احتفظتْ بها لتبري قلمَين آخرَين لبقيّة إخوتي قبل أنْ تودِعه هنا، وتُوصيني بالمحافظة عليه. و... ساندويتشة... أخرجتُها كمن يُخرِج كنزًا ثمينًا، قلّبتُها أمام عينَيّ الشّغوفتَين، ثُمّ وضعتُها على الدُّرج أمامي، ودفعتُها باتّجاه (عمّار) وأنا أشعر بأنّني أفقدُ شيئًا من ذاتي، وقلتُ: «خُذْ... كُلْ... جِيعان؟». نظَرَ إليها أوّلاً بحذر، ثُمّ صَعّدَ نظَره إليّ ولمعتْ عيناه، تحرّكتْ شفتاه كما يتحرّك جناحا ذُبابَة، سمعتُ لتخيّلي طنينَهما، افترّتْ شَفَتاه، وأرادَ أنْ يهمسَ بكلمةٍ واحدة، لكنّ شَفتَيه سرعان ما ذابَتا ولاذتا بالصّمت، ثُمّ أدار وجهه إلى الجهة الأخرى، سمعتُ صوتَ دموعٍ صامتةٍ في عينَيه، مرّتْ لَحَظاتٌ بطيئة

علينا، قبل أنْ أُزحْزِح جلستي لأقتربَ منه قليلاً، وأضع يدي على كتفِيه، وأقول بصوتٍ خفيضٍ وَدود: «كُلْ.. أنتَ جيعان». كانتْ يدي الّتي هبطتْ على كتفه بحنوّ قد حرّكتْ همودَه، انتَفَض من مكانه، زحفَ بجسده مُبتعِدًا عنّي، ونظر إليّ بعينَين لامِعتَين، ودون أنْ يقول شيئًا هوَى على السّاندويتشة، أزال الورق الّذي يُغلّفها، وراحَ يأكلُها بنهم، أكلَ أربعَ لقماتٍ أو خمسًا قبل أنْ يتوقّف وسط اللّقمة الخامسة، ويُبطئ من سرعته في المضغ، ويَلُوك الكلمات مع الخُبز: «وأنت؟ جيعان؟». لم أقلْ شيئًا. لا أدري كيفَ تكونُ إجابةُ سؤالٍ كهذا! كُنّا جميعًا جوعَى. الشّوارع، والكلابُ الضّالّة، والحجارةُ القديمة، والنّوافذ المُطفأة، وبيوت الطّين... حتّى القطط الّتي كانتْ تختبِئ في الأزقّة كانتْ جائعة. مَدّها نحوي وهو يهزّ رأسَه: دورُك. وأخذتُها بينَ يدَي، وانقضضتُ عليها آكلُ منها بِنَهَمٍ، وهتف في هذه الغمرة: «لا تأكلْها كلّها... اتركْ لي شيئًا»، وانتزَعَها من بين يدَيّ، وراحَ يُلقِمها فَمَه، ونظر إلى فمي المُغطّس بالزّيت، ونظرتُ إلى أسنانه الموشومة بالزّعتر، وانفجرْنا في لحظةٍ واحدةٍ بالضّحك، ثُمّ... صِرْنا صديقَين.

وكبُرْنا. كيفَ يكبُر الأطفال؟ لا أحدَ يدري على وجه الدّقّة. بالحبّ؟ ربّما. بالجوع؟ مؤكّد. بالخُبز؟ أنا أشكّ. بالبرد؟ ربّما يهرمون به. بالذّكريات؟ قد. بالنّسيان؟ مُحال. بالخوف؟ مُمكن. لكنّهم على أيّة حالٍ يكبرون، وتكبر معهم أحلامهم.

مَنْ يدري ما سنكون عليه غدًا؟ مَنْ يعرفُ كيفَ يكونُ شكل القَدَر؟ مَنْ يستطيع أنْ يسمع صوتَ الهاتفِ من وراء جدار الغيب: أنتَ لي. هل نحنُ لأقدارنا؟ أنا كنتُ من النّوع الّذي يعرفُ قدَرَه، بل كنتُ من النّوع الّذي يصنعه.

إنّها أيّام المدرسة. لا شيءَ فيها غير عاديّ. صرنا نتقاسَم أنا وعمّار السّاندويتشة، لكنّها كانتْ واحدة. إنْ صنعتْها له أختُه تقاسمْناها، وإنْ صنعتْها أمّي لي فعلْنا الشّيء ذاته. وإنْ لم تصنعْ لنا أيٌّ منهما شيئًا شربْنا ماءً. وكان يكفي لِمَنْ جرّب الجوع. وكان الماءُ لأكثر أولاد المدرسة طَعامَهم. ولم نكنْ نتذمّر من الجوع باستثناء أمعائِنا، ولم نكنْ نعرفُ إنْ كان علينا بسبب هذا الجوع القاسي - الّذي لا نعرفُه بل نعيشُه، ولا نسمع عنه بل يعيشُ فينا - أنْ نتذمّر أم لا.

وكان لدينا زيتونٌ كثيرٌ في (عَرابَة)، وفي الصّيف، في العطلة الصّيفية كانت عارِضَتا المرمى شَجرَتَي زيتونٍ عاليتَين. وكُنّا لا نعرفُ إنْ كان الزّيتون الّذي ينتشر على الجوانب، وفي الأطراف يفرح إنْ أحرزَ أحدُنا هدفًا، أو يحزن إذا وقعَ أرضًا. ولم يكنِ الزّيتون ينبتُ في التّراب فحسب، كان ينبتُ بالإضافة إلى ذلك في قلوبنا، لأنّنا كُنّا نتخيّل أنّ شكلَه يُشبِه شكلَ أفئدتنا، ولو أردتُ أنْ أُحدّثكم عن الزّيتون، فلا شكّ في أنّني سأُحدّثكم عنّا، كانت شجرات الزّيتون الّتي في حقلنا الّذي يبعدُ كثيرًا من هنا هي مصدر حياتنا، لا أعني أكثر من أنّه كان طَعامَنا طَوال السّنة، كُنّا ننتظرُ عامًا كامِلاً كي نجني ثمارَه في برد الخريف لنشعر بشيءٍ من الدّفء طيلةَ عامٍ بأكمله، قبل أنْ يشحّ في الصّيف لنبتهل إلى الله أنْ يُغيثَه قبل أنْ يُغيثَنا... غير أنّ هاتين الزّيتونتَين الّلتين اتّخذْنا منهما أنا وعمّار عارضَتي الملعب كانَتْ لهما معنا حكايات مختلفة... حينَ نعودُ من المدرسة، نتوجّه إليهما قبل البيت، بعيدتان هما من بيوت الصّفيح والإسمنت والأتربة، يُسنِد عمّار ظهره إلى إحداهما، وأُسند أنا ظهري إلى الأخرى، سمّى عمّار زيتونتَه (ياسمين)، وسمّيتُها (فلسطين)، وكُنّا نُناديهما بتتابعٍ، فإذا بدأ هو سَمِعَتا النّداء منّا: «ياسمين فلسطين»، وإذا بدأتُ أنا انسابَ صوتُنا: «فلسطين ياسمين»، ولا أدري إنْ كان عمّار

لـه حبيبـة اسـمُها (ياسـمين)، فقـد كُنّـا صِغـارًا عـلى الحـبّ، لربّـما هـو اسـم أُختـه الّتـي ترعـاه، أو أمّـه الّتـي ماتـت، أو ابنـة عمّـه، لم أكـنْ أدري... ولكنّ المُرجّـح أنّ خيالَـه هـو الّـذي اخـترع هـذا الاسـم الجميـل. نُسـنِدُ ظهرَينـا، وننظـر إلى الأفـق البعيـد، أسـمع حُزنًـا في صوتـه: «لا أنسـاها». أسـأله: «مـن؟». «أُمّـي». «كيـفَ تتذكّرهـا وأنـتَ لم يكـنْ عمـركَ أكثـر مـن أربـع سـنوات؟». «إنّـني أتذكّرهـا جيّـدًا. وأنـتَ؟ هـل تنسَـى؟». «أنسـى مـاذا؟». «تنسَـى أُمّـك؟». «مَـنْ ينسَـى أُمّـه؟!».

بقينـا نجلـسُ في ظلّهـما كلّـما عُدْنـا مـن المدرسـة ثـلاث سَـنَواتٍ، دأبْنـا عـلى ذلـك حتّـى في أيّـام المطـر، نتبلّـل؟ ومـاذا في ذلـك؟ لقـد كان الـبردُ يغلّـف أضلُعَنـا منـذُ وُلِدْنـا، فـما الجديـد؟ مـاءُ هـذه السّـماء طاهـر. نُلقـي أسـئلتنا الّتـي تشـكّلتْ خـلالَ يـومٍ منـذُ أمـسِ، لكنّنـا نقولهـا ونحـن واقفـان حتّـى لا تتلـف ثيابنـا بالطّـين.

إنّـه يـوم الخميـس، السّـابع عـشر مـن إبريـل عـامَ ١٩٨٦م... كان يومًـا جميـلاً، كان الحقـل مليئًـا بالـورود البهيجـة، ونَسَـمات الهـواء عليلـة، وثُغـاء بعـضِ الشّـياه الرّاعيـة موسـيقى... كان كلّ شيءٍ يبعـثُ عـلى الفرحـة، إلاّ أنّنـا بكَيْنـا بُـكاءً مريـرًا، وعـلا صوتُنـا بالنّحيـب... أمّـا لمـاذا؟ فلـشيءٍ سـيكون لـه مـا بعـده... لقـد مرَرْنـا بـ (ياسـمين فلسـطين)، فوجدْناهمـا مُلقَاتَـين عـلى الأرض وقـد اقتُلِعتـا مـن جذورهـما، وأُكِبَّتـا عـلى وجَهَيهـما، كانتـا مُنكفِئتَـين كأنّهـما جُثّتـا فتاتَـين انتُهِـكَ جسـداهما، وسُـلِبت منهـما الحيـاة... حـينَ وقعـتْ عيوننـا عليهـما ذُهِلْنـا أوّل الأمـر... ثُـمّ صرخَ عـمّار وولـوَل: «مَـنْ فعـل هـذا؟». صرخـتُ بـدوري: «يـا ملاعـين، إنّهـا لنـا... لمـاذا تفعلـون ذلـك؟!». «مَـنْ فعـل ذلـك؟». «الصّهيانـة... القَتَلَـة». رَكَضْنـا نحوهمـا وجَثَوْنـا عـلى رُكَبِنـا، واحتضـنَ كلّ واحـدٍ منّـا زيتونَتـه، وبكـى عـمّار أكثـر، لقـد تذكّـر كيـفَ كان يَحضـن أمّـه، وشـعرَ اليـوم كأنّـه يفقـد أمّـه للمـرّة

الثّانية... وأمّا أنا فوقفتُ على رِجلَيّ بتحدّ، وأدرتُ نظري حولي فرأيتُ عددًا كبيرًا من شجرات الزّيتون هاويةً على الأرض، ورفعتُ قبضتي في الهواء، ورحتُ أتوعّد: «سأقتلكم كما قتلتموها أيّها الصّهاينة... سأذبحكم كما ذبحتموها... سأنتقم منكم أيّها المُحتلّون». فيما كان عمّار لا يزال يحتضنُ ياسَمينه.. ثُمّ وقف على رجلَيه ومشى نحوي، وتعانقْنا، وبقينا مُتعانِقَين أكثر من عشر دقائق تسيلُ دموعنا بصمتٍ على خدودنا، وترتجّ أجسامُنا... لم يكنْ لنا من عَزاء... سألني: «ماذا سنفعل بهما؟». رددتُ: «ندفنهما كبطلتَين». «ندفنهما؟». «نعم». «أينَ؟». «هنا، في مكانهما، عليهما ألاّ يُغادِرا هذا التّراب». صمتَ عمّار وخرّ على الأرض أمام ياسمينه، وهتف: «هل ستُسامحاننا؟». «أجل». نظر نحوي وهو على قرفصته تلك: «كلاّ... اسمع». وصمت: «اسمعْ إليهما، إنّهما تقولان: أين كُنتما ونحن نتعرّض للذّبح؟». «كُنّا في المدرسة». «ليسَ عذرًا». «ماذا كُنّا سنفعل؟». «كُنتما تستطيعان الدّفاع عنّا». «لم يكنْ ذلك بأيدينا». «بأيديكم شيءٌ قد يعوّضنا». «....؟» «الثّأر». كانتْ فيهما بقيّة من حياةٍ تنسلّ من خلال الجذور العتيقة الّتي مرّ على وجودها أكثر من ألفَي عام، كان التّراب اللّاصق بهما يتساقطُ عنهما رُوَيدًا رويدًا مثلما تتساقطُ روح الشّهيد قبل أنْ ترتقي إلى الأعالي.

سألني عمّار: «هل يجب علينا أنْ نُقيم لهما جنازة؟!». «جنازة؟». «أليستَا شهيدتَين؟». «بلى. ولكنْ كيفَ يُمكن أنْ نُقيم لهما تلك الجنازة؟». «ربّما شبيهة بتلك الّتي أقاموها لأبي». «أبوكَ تحوّلَ إلى أشلاء، لم يبقَ له منه شيءٌ». ولكنّهم أقاموا له جنازة». «ربّما. لكنّنا لا نقدر على حملهما، وليسَ لدينا تابوتٌ لهما». «كلّ توابيت الدُّنيا لا تتّسع لهما». «سندفنها هنا على هيئتَيهما، فقط نُغطّيهما بالزّهور مثل بقيّة الشُّهداء، ونُكفّنهما بالعنبر، والشّذى، ورائحة الأرض».

(٣)

الأبواب

التقينا في الطّريق التّرابيّة، كان مطر اللّيلة الفائتة قد حوّلها إلى طينٍ، كُنّا نغوصُ فيها، ونضعُ حقيبَتَنا المدرسيّة فوقَ رؤوسنا نتّقي مزيدًا منه، قلتُ له وأنا أنظر من تحتها: «كيفَ سنصل في هذا المطر الشّديد إلى المدرسة؟!». ردّ: «مشيًا» وضحك. ضحكتُ بدوري: «لم أُرِدْ منكَ أنْ تجيب. لكنْ هل نعودُ إلى البيت؟». «نحن لم نعدْ إلى البيتِ في الثّلج. هذا مطر». لم يكدْ يُتمّ جملته حتّى انزلقتْ رِجله في الطّين، ووقع على الأرض، ووقعتْ منه حقيبتُه الّتي غطستْ في الوحل هي الأخرى، ونهض، لم يكنْ يدري كيفَ يمسح هذا الطّين عنه، تركَ المطر يفعل ذلك... ضحكتُ بصوتٍ أعلى هذه المرّة: «تريدُ أنْ تمضي إلى المدرسة...؟ هه..؟». «سنمضي، ولن نعود». وضع الحقيبة فوقَ رأسِه من جديدٍ، ومشى بعرجٍ وحذرٍ مُحاولاً ألاّ يسقط: «هَيّا... بنا...». «المدرسة بعيدة، نحتاج إلى نصف ساعةٍ حتّى نصل إليها... هل أنتَ مجنون؟ دَعْنا نَعُدْ إلى البيت». «أنا لن أعود..». كان السّيلُ قد تشكّل، وتدفّق نحوه هذه المرّة، غَطّى هديرُهُ على صوتِه الضّعيف وهو يحاول أنْ يرفعه: «أنا لن أعود... قلتُ لك ذلك.. إذا أردتَ أنْ تعودَ أنت... فعُدْ». خجلتُ، أردتُ أنْ أشتمه، ولكنّ اصطكاكَ أسناني من البرد حال دون ذلك». حاولتُ أنْ أحتضن الحقيبَةَ بين ذراعيّ على بطني من أجل أنْ أستجلبَ الدّفء لكنّها زادَتْني بردًا. مضى أمامي، ومضيتُ خلفَه أتّقي الرّياحَ والمطر، كان يبدو بجسده الضّئيل المُرتجف سفينةً ضخمةً تشقّ عُبابَ الماء متقدّمةً إلى الأمام رغم كلّ شيءٍ، احتميتُ به حتّى وصلْنا إلى المدرسة نِصفَ ميتَين. واكتشفْنا ونحن نلج من البوّابة إلى الدّاخل أنّ أكثر طُلاّب المدرسة لم يأتِ. قلتُ له:

«أرأيتَ...؟! تبدو المدرسة فارغة... حتّى الحارس ليسَ موجودًا».
شَدّني من يدي، ومضى بي إلى الدّاخل. ولجْنا إلى صفّنا، لم يكنْ فيه أحد، جلسْنا على مقعدنا نعصر ثيابنا المُبلّلة، فتحتُ حقيبتي، فوجدتُ كتبي قد ذابَ ورقُها بسبب البلل الشّديد، واختلطت الأوراق بالزّيت والزّعتر. نقّبتُ الورق الّذي انعجن مع الخُبز، وقدّمْتُها لرفيقي: «كُلْ». ردّ: «لم تبدأ الحصص. نأكلها في الفرصة». نظرتُ إليه: «أُريدُ أنْ آكل... ليس هناك حصص ولا فُرصة. كُلْ نحن جوعى». تردّد قبلَ أنْ يقسم العجينةَ إلى نصفَين، ويمدّ لي نصفي، ويهتف: «سأُخبِّئ نصفي إلى الفُرصة».

اعتدْنا بعدَ ذلك على المطر. على الجوع. على الطّريق الّتي أكلتْ من أقدامنا، وانطبعتْ عليها ذكرياتُنا. كان كلّ شيءٍ في تلك الطّريق يعرفنا؛ ذلك أنّنا كُنّا نكلّم كلّ ما فيها. كُنّا نقول للشّجر الهزيل: «صباح الخير». فيردّ بانحِناءةٍ من أغصانه. وكُنّا نهتفُ في الأمّ الّتي تنشرُ غسيلَها على الحِبال أمام البيت: «أينَ ابنُكِ؟». فتجيبُنا بدمعة، ثُمّ تطلبُ منّا أنْ ننتظرها قليلاً، تدخل البيت وتعود ومعها عروسةُ الزّعتر. وكُنّا نسأل الفتاة الّتي تُمشّطُ شعرَها أمام المرآة: «أينَ حبيبُكِ؟». فتجيبُنا بنظرةٍ ساهمة. وكُنّا نمرّ على العصافير النّائمة على غُصُون الأشجار فنهزّها قائلين: «استيقِظي... استيقِظي لقد بدأ النّهار». وحينَ نعودُ في المساء كُنّا نلمسُ بوّابات الصّفيح، وننقر عليها بأصابِعنا أغنيةً اخترعناها معًا: «هذا البابُ الأوّلُ بائِسْ... يَحْكِي قِصّةَ أرْمَلَةٍ فَقَدَتْ فارِسَها فِي الحَرْبِ فَما ثَمّة فارِسْ... هذا البابُ الثّاني يُخفِي قِصّةَ شُهَداءِ القَصْفِ، لَقَدْ كانُوا سِتَّ مَناراتٍ في اللّيْلِ الدّامِسْ... ماتَ الخَمْسَةُ بَقِيَ السّادِسْ... احْكِ القِصّةَ يا مَنْ ظَلَّ يَتِيمًا ووَحِيدًا... كَيْفَ يَفُوهُ الآيِسْ؟! هذا البابُ الثّالِثُ... والرّابِعُ...

والخامِسْ... عُدَّ كما شِئْتَ مِنَ الأَبْوابِ تَجِدْ حُزْنًا، وشُموعًا ذابَتْ، وَرَحِيلاً مِن بَعْدِ رَحِيلٍ... وشهيدًا في الحرب وراء شهيدٍ... يتلوه شهيدٌ لم يخرجْ بعدُ من الفِكرةِ.. وعلى كَفّيه تَحطُّ نوارِسْ... وَحَكايا تَرْسُمُ خارطةَ الأيّام ووَجْهًا عابِسْ... إلاّ أنَّ البابَ العاشِرَ كان يُخبِّئُ فَرَحًا يَتَشكَّلُ كالوَرْدَةِ في الحَقْلِ اليَابِسْ... قالَ البابُ المُتفائِلُ: لَنْ نَيْأَسَ... خَلْفَ اللَّيْلِ الفَجْرُ... وَرَاءَ الأَيْكَةِ غَيْمٌ... فَوْقَ الأَرْضِ المَذْبُوحَةِ رَبٌّ حارِسْ... لا لا.... لا لا... لا لا». ونرقُصُ كحَجَلتَين.

في الصّفّ السّابع دخل على الخطّ معنا (سمير)، كان يركضُ في السّاحة دون توقّف. لم نكنْ ندري لماذا يفعل ذلك! كان يدور حول السّاحة ثلاث دوراتٍ أو أربعًا، ثُمّ يتوقّف لبرهةٍ يلتقطَ أنفاسَه اللاّهِثة، ثُمّ يُتابِع الرّكض حول السّاحة. وقفتُ له في إحدى الدورات، أمامه مباشرةً، أرادَ أنْ يتنحّى عن طريقي، لفّ جذعه حتّى دون أنْ ينظر في وجهي وأراد أنْ يُتابع، فأمسكتُه من ذراعه اليُسرى: «توقّفْ...». حاول التّخلّص من قبضتي، كنتُ أشدّ عليها بقوّة، فلم يستطع، هتفتُ من جديد: «مِمّ تهرب؟». لم يُجب، حاول ثانيةً أنْ يتملّص، لكنّني كنتُ أقبضُ على ذراعه بقوّة أكبر، صرخ: «اتركْني». «لن أتركك حتّى تقول مِمّ تهرب؟». «أنا لا أهرب من شيءٍ... اتركني». «أنتَ تهرب...». انتفض: «وليكنْ. ما شأنُكَ يا كوز الذُّرة؟». كان رأسي في صِغَري والشَّعر الّذي فوقَه يُشبه كوز الذُّرة بالفِعل. صرختُ بالمقابل: «لن أتركك يا رِجل السِّلْعُوّة». لفّ قبضة يده اليُمنى، ولكمني على وجهي، فرأيتُ نجوم الظّهر كما يقولون، كانتْ ضربةً قاسِيةً لدرجة أنّني أفلتُّ ذراعه اليُسْرى وترنّحتُ، وكدتُ أسقطُ لولا أنّني استعدتُ توازني، وتراجعتُ إلى الوراء خطوتَين، ثُمّ هجمتُ عليه، ورحتُ ألكمه بيدَيّ، وأرفسُهُ برجلَيّ، وتبادلنا اللّكمات والرّفسات،

ولمّا تدخّلتْ أطرافٌ أخرى، زاد عدد اللّكمات والرّفسات، وتحوّلنا خلال أقلّ من خمس دقائق إلى كتلةٍ بشريّة متناقضة الألوان ترتفع فيها أشرعةٌ وتهبطُ أخرى.

جاءَ أبي بناءً على طلب المدير، لم يكنْ له أبٌ، سألني المدير: «لماذا ضربْتَه؟». أجبتُه: «لأنّه كان يهربُ، وأبي قال لا تهربْ ولا تدعْ أحدًا يهرب». أرادَ المدير أنْ يضحك يومَها أمام تفاجُؤ أبي، ولكنّه وجّه سؤالاً آخر إلى شقيق سمير: «أنتَ أخوه؟» ردّ. «نعم». «في أيّ صفٍّ أنت؟». «في الثّاني الإعداديّ». «وأين أبوك؟». «لقد ماتَ منذُ أكثر من عشر سنوات». خفض المدير طرفَه، أراد أنْ يقول: «الآباء يموتون هنا مبكّرًا». لكنّه عدلَ عن ذلك وقال: «أنا أبوكما». وقام من مكتبه واحتضنَهما. نظرتُ إلى المدير كأنّني أقول: «وأنا؟ ألا تحتضنني أيضًا؟». كأنّني سمعتُه يردّ: «لديكَ أبٌ يحتضنُك». وبدل أنْ يفعل ما تخيّلْتُه قال لي: «عليكَ أنْ تعتذر له». وزممتُ شفتَيّ. وحثّني أبي على أنْ أفعل، فبقيتُ على إصراري. وهتفَ المدير: «لن تخرجا من هنا قبل أنْ تتعانَقا». ورأيتُ (سمير) يُبادِر، ويلتفّ من بين يدَي المُدير ويُقْبل إليّ مُعانِقًا. ولم أدرِ ما الّذي حدث في هاتَين الخُطوتَين اللّتَين اتّخذهما تُجاهي، لقد شعرتُ أنّ ذراعَيه اللّتَين تَلتفّان حولي عريشتان من الياسمين، وشممتُ فيه رائحة التّراب، وشعرتُ أنّني كنتُ محتاجًا إلى عناقٍ كهذا من زمنٍ بعيد. وأردتُ أنْ أبكي، ولكنّ الدّمعة توقّفتْ في عينِي. وبقيتُ مشدوهًا لا أدري ما أفعل. ولكنّنا... صِرنا بعدَ ذلك صديقَين.

شكّلْنا بمرور الأيّام ثلاثيًّا مَرِحًا. دخلتْ قِصص الشّهداء في أحاديثنا. كانتْ (عَرابةُ) تضجّ بالشّهداء يومئذٍ، ما من بيتٍ إلاّ فيه شهيد، وما من طفلٍ فيها إلا وهو ابنُ شهيدٍ أو أخو شهيدٍ أو مشروع

شهيدٍ. قال سمير لعمّار: «كيف مات أبوك؟». ردّ كأنّه سمع السّؤال ألف مرّة من قبل: «على الجبهة». «أيّة جبهة؟!». «لا أدري. كنتُ صغيرًا وقتَها لأعرف». «ولكنّني أعرفُ كيفَ ماتَ أبي». «كيف؟». «حينَ كبرتُ أخبرني عمّي بذلك؟». «كيف؟». «في الجبهة كان مع صديقِه خلفَ المتاريس في الخطوط الأماميّة يقنصون الجنود... رفعَ صديقُه رأسَه من خلفِ هذه المتاريس، فصاحَ به أبي: اخفضْ رأسكَ أنتَ تُقدّمه لهم هديّة... لكنّ صديقَه لم يُعجِبْه ذلك، فوقفَ بكامل قَوامِه، وراحَ يلوّح ببندقيّته صارخًا في الجنود: لن تمرّوا إلاّ على جُثّتي.. شدّه أبي من ذراعه: يا مجنون سيكتشفون موقعنا، اخفضْ رأسَكَ، كانتْ هناك طائرةٌ في السّماء، تدور فوقهم... لكنّه أفلتَ من يدِ أبي، وقفز من فوق المتاريس وراحَ يُصوّب رصَاصَه إلى الجنود تارةً وهو يمشي بخطواتٍ عصبيّة إلى الأمام ويرفع البندقيّة إلى الطّائرة ويرشقها بالرّصاص، كانتْ رصاصاتُ بندقيّته تنهمر في كلّ اتّجاه... عصافير هاربة تنفر من قمم الأشجار. ظلّ يتقدّم ويُصوّب وأبي يصرخ به من خلف المتاريس: الطّائرة توقّفتْ فوقَنا تمامًا... سيقتلوننا، ولكنّه كان لا يزال يتقدّم كأنّه أصمّ... لم يصبر عليه أبي كثيرًا فلحق به من أجل أنْ يُعيدَه إلى الخندق ويحتميا به من الموتِ المُحقّق، ما كاد أبي يخطو خُطوتَين باتّجاهه حتّى أتتْهما تلك القذيفة الصّاروخيّة، فتحوّل إلى أشلاء، وأبي قُطِعتْ رجلاه، وظلّ ينزفُ حتّى مات... لم ينجُ منه إلاّ قميصُه!». وصمت. نظرَ عمّار في وجه سمير، وغلّفتْ سحابةٌ من الحزن وجهه قبل أنْ يُغمغم: «إنّه أبي». كانت عيوننا نحن الثّلاثة صامتةً خلفَ طوفانٍ من الكلام. ردّ سمير مستفهِمًا باستنكار: «صديقُ أبي؟!». «إنّه هو». لقد حاول أنْ يُخبِّئه عن الموت، ولكنّ الموتَ خبّأهما. «هل أخبرتْكَ أُمّكَ بذلك؟!». ردّ عمّار: «أمّي ماتت بعدَ أبي بشهرَين، ولم يُمهلْها الحُزنُ أنْ تحدّثني عن طريقة استشهاده...». «كيف عرفتَ إذًا؟». «من صوتِ القذيفة الّذي

لا يزال يطنّ في أذني... وأُمُّك؟ لِمَ لَمْ تقلْ لكَ كيفَ ماتَ أبونا؟». «لأنّها لا تريدُ أنْ تبكي أمامنا. كانتْ تقول ذلك لقميصه الّذي عادوا به إليها من الموت، تُكلّمه كأنّ صاحبه ما زال حَيًّا. وتجلسُ أمامه في اللّيالي الطّويلة ساعاتٍ تُسامره... وتبكي... أمّا أمامنا فكانتْ لا تبكي لأنّها كانتْ تخجل من أنْ تفعل ذلك أمام غيره!!».

في الثّالث الإعداديّ دخل دائرتَنا المُغلَقة عضوٌ رابع، اسمُه (حمدي)، كان صموتًا، له عينان ذابِلتان، وأنفٌ مشطوفٌ، وشفتان رقيقتان كخيط، ووجنتان بارِزتان. كان يُكثِر الجُلوس في الزّاوية البعيدة من ساحةِ المدرسةِ قريبًا من بوّابتها. يجلسُ على دَكّةٍ طَوال الوقت صامِتًا دون أنْ يفعل شيئًا. كان منظره مُستفِزًّا بالنّسبة لي. على شمسِ الضُّحى كانتْ تتلألأ خصلات شعره الأشقر الطّويل، ونمشُ وجهه الأشهب. لا أدري لماذا كان جلُوسُه على تلك الهيئة يستفزّني، كنتُ أمرّ من جانبه والوّح بيدَي، وأقومُ ببعضِ الحركات برجلَيّ قافِزًا أمامه كجندب، وأهتفُ: «يا سحليّة البراري ألا تسمعني؟!». ولم يكنْ يحرّك ساكِنًا، بل لم يكنْ يُكلّفُ نفسَه أنْ يرفعَ وجهه في وجهي إذا كان مُطرِقًا في الأرض. لم يكنْ سهلاً الحصول على أصدقاء في هذه المدرسة الغريبة، المليئة بالأولاد الغُرباء... بالمرضى، والمنقورين، والمجدورين، والّذين أكلَ الطّيرُ من رؤوسهم... أصرخُ فيه: «أيّتها السّحليّة الشّقراء ماذا أصابَكِ...؟! تحرّكي قبل أنْ أدوسَكِ بأقدامي». ثُمّ أروح أتلو عليه بيان التّحذير: «إذا لم تُغادري هذه الدّكّة العَفِنة، فسأدوسكِ بأقدامي، وأمسحُ يدَيّ بدمائِكِ... يقولون إنّ دماء السّحالي إذا دُهِنَتْ به اليَدان فإنّهما تصمدان أمام عصيّ الأساتذة، ولا يشعر صاحبهما بألم الخيزرانات الّتي تهوي عليهما...». وهو بعدَ كلّ ذلك؟ صامتٌ كأنّه صخرةٌ صَمّاء لم تسمعْ شيئًا. وأنا؟ قرّرتُ بعدَ أيّامٍ أنْ أُزحزِحَ هذه

الصّخرة من مكانها. تقدّمتُ نحوه: «لن أقول أكثر من كلمتَين: كُنْ صديقي». ولكنّه كان في وادٍ آخر. لم أُمْهِله هذه المرّة، بل تقدّمتُ نحوه، وقفزتُ في الهواء ووجّهتُ إلى بطنِه ضربةً قويّةً من رجلي، فتدحرجتِ الصّخرة تتلوّى دون أنْ يصدر لها أيّ صوتٍ، ودون أنْ يُدافِعَ عن نفسِه، أغاظني ذلك أكثر، فوجّهتُ له ضربةً أخرى إلى بطنه فنزفَ أنفُه دمًا، وندّتْ منه هذه المرّة آهةٌ مكتومة، ثُمّ أردتُ أنْ أوجّه له ضربةً ثالثةً إلى أنفِه النّازف، قبل أنْ يتوسّل إليّ مادًّا يده: «لا تفعل...». «كُنْ صديقي». «سأكون، لكنْ لا تركلْني من جديدٍ». مددتُ يدي نحوه، التقطَ الذّراع الممدودة إليه، وأنهضتُه على قدمَيه، عرجَ عرجةً واحدة، وانحنى شادًّا على بطنِه من الألم، اقتربْتُ منه، ورفعتُ ظهره، ونظرتُ إلى أنفِه النّازف، وهمستُ: «دَعْنِي أرَ». رفعَ رأسَه ببطء على تهدُّلِ خصلات شَعره، فيما رحتُ أمسحُ الدّم من أنفِه بكمّ قميصي الأزرق، وأنا أعتذر إليه: «لم أكنْ أقصدُ ذلك، كلّ ما أردتُه أنْ تكونَ صديقي!!».

إنّها سواقي الأيّام، تدور في غفلةٍ منّا نحن اللاّهين. لم نشعرْ بتلك السّاقية الحزينة كيفَ دارتْ. أمّا سمير فتركَ المدرسة بعدَ أنْ أنهينا الإعداديّة، دونَ أنْ أعرفَ كيف. هكذا فجأة، ودون أنْ يُخبرني. ودون أنْ أراه ولو مرّة واحدةً بعد ذلك اليوم الّذي ابتدأنا به العُطلة الصّيفيّة من عام ١٩٨٩م. وذهبتْ كلّ أسئلتي في أنْ أعرفَ مصيره سُدًى. قالوا لي: إنّه ذهبَ إلى رام الله ليعملَ في البِناء. وقالوا إنّ عمّه قد أخذه معه إلى الكويت ليعمل معه. وقالوا إنّه دخل أحراشَ يَعبد في يومٍ ماطرٍ ولم يخرجْ منها... قالوا فيه كثيرًا، ولكنّني لم أصدّقْ شيئًا مِمّا قالوا، كنتُ أعتقدُ بسبب ميثاق الصّداقة الّذي يربطُنا أنّه لن يختفي دون أنْ يقول، وبِما أنّه خانَ هذا الميثاق فقد اعتبرتُه ميّتًا بالنّسبة لي!!

وأمّا حمدي فإنّه طَوال سنتَين من صُحبتنا الّتي لم يتحدّث فيها أكثر من عشر جُمل، نطقَ أخيرًا بجملةٍ قاتلة: «لقد انتهى بنا الأمر هنا. نحنُ لا نجدُ طعامًا. أبي سيذهبُ إلى خالِه في غزّة، إنّه يعملُ صيّادًا كبيرًا، وسيعمل معه». وذهبَ دون أنْ يسمع رأيي في غيابه، ولذلك اعتبرتُه ميّتًا هو الآخَر بالنّسبة لي، ولقد مات بالفِعل، فقد ابتلعه البحر هو وأبوه في واحدةٍ من رحلات الهجرةِ المَشؤومة.

وبقيَ لي (عمّار). وطَوال سنواتنا المُتبقّيات في المدرسة، في أواخر عام ١٩٩٠م غاب هو الآخَر فجأة. ولم يقلْ أحدٌ عنه شيئًا. لم يكنْ له أبٌ يذهبُ به إلى مدينةٍ ملعونةٍ أخرى ليعمل فيها كما فعل سمير، ولا أمٌّ يُمكن أنْ أسألَها عنه.... ولِذَا ظلّ أمرُ موتِه مُعلّقًا عندي، كان مُمعِنًا في الغياب، الغياب الّذي هو الوجه الآخَر للموت، ولا أدري إنْ كنتُ سأراه في يومٍ ما في زمانٍ ما، أم لا؟!

(٤)

رَيّان

ها هي سنواتي في المدرسة تسير نحو خطّ النّهاية، تكاد تنتهي بلا أصدقاء، الرّفاق الثّلاثة ذابوا كما يذوب الرّمل في ماء شاطئٍ مهجور. أصبحوا جزءًا من الماضي. لا أريدُ أنْ أعرفَ ما حلّ بهم، ولا أنْ أعرفَ عنهم شيئًا. لقد ذُقتُ من مرارة الفراق ما يكفي، ولستُ مُستعدًّا للمزيد.

كُنّا في البيت أربعة؛ ثلاثة إخوة، وأخت. شقيقايَ غيّبَتْهم السّجون، حُكِمَ على كلّ واحدٍ منهما بعشرين عامًا، وأختي تزوّجتْ وذهبتْ مع زوجها إلى غَزّة. غَزّة الّتي تنامُ على صفيحٍ ساخنٍ. لم يكنْ فيها هي الأخرى غيرُ الموت. كان الموتُ جزءًا من حياتنا اليوميّة، جزءًا من طعامنا وشرابنا ولِباسِنا. كان أحدَ أفرادِ أُسَرِنا. كان يُمكن أنْ تقول إنّ هذه الأسرة مكوّنةٌ من أربعةِ أفرادٍ؛ ثلاثة إخوة رابعهم موتُهم، أو خمسةٌ سادسهم موتُهم، أو سبعةٌ ثامنهم موتُهم، ولم نكنْ نعرفُ للموتِ جنسًا، هل كان أخًا أم أُختًا، ذكرًا أم أنثى؟! لم نكنْ نعرف، ولكنّه كان أحدَنا. ما من ليلةٍ لم يبتْ فيها معنا في بيوتنا، كان من الممكن أنْ يغيبَ أحدُ أفراد الأسرة لسببٍ أو لآخَر خارج البيت، أمّا الموتُ فلا! وكان يعرفُ هو درجةَ العلاقة الموصولة به فلا يُفارِقنا من ليلٍ أو نهار في صيفٍ أو شِتاء!

حينَ بدأ العام الدّراسيّ الأخير يُطِلُّ بوجهه كنتُ وحيدًا. الأصدقاء مثلُ الحبّ لا يأتون إلاّ مرّة واحدة، من أينَ لي أنْ أجدَ في هذا العَماء الكثيف واحِدًا منهم؟! صارتْ عندي رغبةٌ في أنْ أتركَ المدرسة،

أنْ أتـركَ كلّ شيءٍ. لكـنْ أتركُـه لأيّ شيءٍ؟! ربّـما لأثـأر. ولكـنْ أيّ ثـأرٍ يُمكـن أنْ يطفِـئ نائـرة هـذا الألم الّـذي لا يُمكـن تَصـوُّره أو تصويـره؟!

في الوحـدة لا بُـدّ مـن أنْ تجِدَ عـزاءً. الأصدقـاء خيـوطُ رمـلٍ، أو سُيُولُ مـاء، مـا إنْ تظـنّ أنّـكَ أمسكـتَ بالخَيْـط أو السَّيْل حتّـى تخونَـكَ فُـرُوجُ الأصابـع، ولكنّـي في النّهايـة وجـدتُ صديقًـا لم يكـنْ خيطًـا ولا سَـيْلاً. ولـو أردتُ الدّقّـةُ لقلـتُ: وجـدني هـذا الصّديـقُ ولم أجِـدْه.

كان ذلـك مسـاءَ يـومٍ مـن أيّـام الرّبيـع، خرجـتُ إلى الأحـراشِ أريـدُ أنْ أقتـلَ الوحـدة الّتـي تتناهشـني أنيابُهـا. كنـتُ أمـشي بقدمَـين حزينتَـين بـين الأشـجار العاليـة، وكانـت تتثنّـى تحتهـا بعـضُ الغُصُـون، والأرضُ طريّـة، والهـواء رِئـة، والصّبـاحُ نـدى، والشّـمسُ دافِئـة تتسـلّل مـن خلـل الأوراق بخجـل، جلسـتُ عـلى صخـرةٍ أنظـر مـن بـين الشّـقوق الّتي تُتيحهـا فراغـات الأشـجار، وسـهوتُ للحظـة، ثُـمّ كأنّ نعاسًـا غشّـى عـلى عينَـيّ فأطبقتُهـا، لم أكـدْ أُتِـمّ إطباقَهـا حتّـى شـعرتُ بـأنّ شـيئًا مـا ليّنًـا ينسـلّ عـلى ذراعِـي، ففتحـتُ عينَـيّ فجـأة، وهالنـي المنظـر، كانـتْ هنـاك أفعـى سـوداء طويلـة قـد زحفـتْ عـلى ذراعـي وذيلُهـا لا يـزال ينسـحبُ عـلى بطنـي مُتراقِصًـا، فَـزَزْتُ مـن رَقـدتِي، ونفضـتُ يـدي لأتخلّـص منهـا، لكنّهـا كانـتْ قـد أتمّـت التفافَهـا عـلى ذراعـي، رُحـتُ أصرخُ وأنفـضُ يـدي بقـوّة، وبالـكاد تحـرّرتُ منهـا، لكـنّ رأسَـها الّـذي صـار يتلـوّى في الفـراغ انفتَـح عـن شُـعبتَين تنضحـان بالسّـمّ، كانـتْ تنظـر في عينَـيّ مُباشرةً، تُحدِّقُ فِيّ، العيـونُ القاتِلـة؛ كان فيهـا عـالَمٌ مـن الرُّعـبِ لم أُجرّبـه مـن قبـل، رحـتُ أقفـز وأصرخُ... ثُـمّ فجـأةً نبـتَ ظِـلٌّ مـن خلـفِ الشّجرةِ الّتي ورائـي، كان ظِـلاً مُريعًـا، قلـتُ في نفسي: وَحـش، إنّ هـذه الأفعـى لا تريـدُ أنْ تكتفـي بلدغـي وقتـلي حتّـى استدعتْ هـذا الوحـشَ المُرعـب، تجمّـد الـدّم في عروقـي، صـوتٌ يتمـزّق لـه سـكونُ المكـان، وتنخلـعُ لـه عـروقُ القلـب...

غير أنّ صوتَ هذا الوحش الّذي نقبَ فؤادي هو الّذي اضطُرّ هذه الأفعى إلى أنْ تتركَ يدي، ووقعتُ بين خوفَين أخفّهما تنحلّ له الرُّكَب، ثُمّ رأيتُ هذا الوحش أو الّذي ظننتُه وحشًا، ينقضُّ على هذه الأفعى ويُمزّقها بأنيابِه... لم أعدْ أحتمل، أردتُ أنْ أهرب، لكنّ ساقَيّ خانتاني، ثُمّ انتصرتْ إرادة البقاء على سُلطة الخوف، فأطلقتُ ساقَيّ للرّيح، كنتُ أركضُ بأقصَى ما أستطيعُ... لكنّ الوحشَ الّذي ازْدَرَدَ الأفعى للتّوّ أمام ناظِرَيّ كان يركضُ خلفي وهو يَهِرّ... كان هَرِيرهُ يختلطُ بأنفاسي، ضاعفتُ من سرعتي لأُفلِتَ منه... غير أنّه لا يُمكنُ ولو كنتُ العَدّاءَ الأوّل أنْ أكون أسرَعَ منه... لقد سبقني... كان... لا أدري كيفَ أصفُ ما كان... سبقني بمسافةٍ كافيةٍ قبل أنْ يتوقّف أمامي، ويُقعي... ثُمّ يهزّ رأسَه، ويفترّ عن فَكٍّ تقطر على جانبَيه دماءُ ضحيّته الأخيرة، و... ينبح... صوتُه... كيفَ لي أنْ أقول إنّه يريدُ أنْ يُلقِي عليّ التّحيّة؟ مُحال. إنّه وحش. هربتُ منه باحِثًا عن فراغٍ أنجو به منه... لكنّه كان أسرعَ منّي، ومن جديدٍ سبقني بمسافةٍ وأَقْعَى... ثُمّ راحَ... راحَ يبتسم... يا إلهي؟! هل يبتسمُ هذا الوحشُ حَقًّا... حاولتُ للمرّة الثّالثة الهرب، ولكنّني هذه المرّة لمْ أكنْ جادًّا تمامًا... لقد ركضتُ لبضعةِ أمتار وتراخيتُ، ثُمّ تَبِعَني، وفَعَلَ ما فَعَلَ في المرّتَين السّابِقتَين... هذه المرّة كنتُ قد استعدتُ بعضَ الوعي... بعضَ الطّمأنينة... وفرصةً للتّفكير فيما أرى... توقّفتُ حذِرًا... وهَزّ هو ذنبه.. وهذه المرّة نظرَ في عينَيّ بودّ.. كيفَ يُمكن أنْ أَصِفَ ما أرى دون أنْ أُبالِغ... سيلٌ مِنَ الوُدّ في هاتَين العينَين اللاّمعتَين الغارقتَين في بحرٍ من السّواد، دلّى لِسانَه ولعق لُعابَه الّذي سال بعدَ لُهاثٍ، ثُمّ اقتربَ منّي ببطء، خاطبتُه كأنّه إنسان: «ماذا تريدُ؟». كان يطأ الثّرى مترفّقًا، ويهزّ ذنَبه، ويُقلّص المسافة الّتي بيني وبينَه، أردتُ أنْ أهربَ، فتحفّز،

فألغيتُ فكرة الهرب واستسلمتُ، وخاطبتُه من جديد: «ما أنت؟». شَمّ الأرض بأنفِه، ورفعَ رأسَه وأشاحَ بوجهه، ورَمَقَني بطرفِ عينِه اليُمنى... يا إلهي!! جميلة... جميلة جِدًّا... هكذا بدَتْ لي... كأنّها عينُ إنسانٍ... وسمعتُه يقول: «أنا رَيّان». هتفتُ: «رَيّان؟! رَيّان مَنْ؟». دار إلى الجهة الأخرى، وأنزلَ عنقهَ إلى الأرض، وتشمّمها قبل أنْ يرفع تلك العنق السّوداء المَشوبة باللّون الأبيض حلقتَين حلقتَين، كانَ الزّغب المخمليّ المتدرّج بين السّواد والبَياض يبعثُ الرّاحة في قلبي، وذلك الخَطْم الأسود الّذي تنتشر حوله بُقعةٌ من الشَّعر الرّماديّ، نظر بعينَيه الغاطِستَين في السّواد، المَشوبتَين بلون العسل، وقال: «ألا تعرفني...؟! أنا صديقُك؟!». نفضتُ رأسي، وفركتُ عينَيّ، وأطلقتُ هواءً ساخِنًا من رِئتَيّ... لا بُدّ أنّني أهذي، لا بُدّ أنّ حاجتي إلى الأصدِقاء جعلتْني أتخيّل أشياءَ لا وجودَ لها... اقتربَ منّي، خفقَ قلبي، فكرةُ الهرب في هذه المسافة الّتي تقلّصتْ تمامًا بيننا ستكون فكرةً حمقاء، كان لا يزال هناك ضبابٌ من خوفٍ أخيرٍ ينتشر في رِئتَيّ... صارَ مُحاذِيًا لي... تمسّحَ بي، فانقشعَ ذلك الضّباب، تمسّح بي أكثر فشعرتُ بالدِّفء والمودّة، سمعتُه يقول: «كُنْ صديقي». هويتُ على الأرض واحتضَنْتُه؛ لقد صِرنا صديقَين في لحظةٍ فارقة!

«رَيّانُ يا رَيّان... جادَتْ بِكَ الدُّنيا على فَقْدِ الصّحابِ وسُودِ أهوال الزّمانْ... ها نَحْنُ ذَا... بَشَرَان مِنْ وَجَعٍ حَمِيْمِيّ يُقطِّر وُدَّنا ويَزِيدُ حالِيَةَ الحَنانْ... بَشَرانِ أو كَلْبانْ... لا فَرْقَ ما دُمْنا صَدِيْقَيْنِ الْتَقَيْنا في ضُحًى كالأُرْجُوانِ... ورَوْضَةٍ كالطَّيْلَسانْ... مِنْ بَعْدِ خَوْفٍ قَطَّعَ الأَعْصَابَ وَارْتَبَطَ اللِّسانْ... رَيّانُ يا رَيّانْ». وجلسْنا نتحادثُ ساعةً، ثُمّ عُدنا إلى عرابة... دخل معي الطّرقات، كانتْ أُذناه الرّقيقتان المُثلّثتان تقفان على جانِبَي رأسِه كأنّه يسمعُ أصواتًا بعيدة، يحكّ جسده

بي مرّة، ويتبعني أخرى، حتّى دخلتُ من الباب... قفزتْ عينا أمّي أمام وجنتَيها أوّل ما رأتْنا، ثُمّ ضيّقتْهما، وقالتْ في لهجةٍ أقربُ إلى النَّهر: «ما هذا؟». أجبتُها ببلاهةٍ كأنّ الأمر عاديٌّ: «ريّان، صديقي الجديد». ظنّتْ أنّني جُنِنتُ. اردفتُ: «محتاجٌ أنا إلى الأصدقاء». «وتُصادق كلبًا؟!». «خيرٌ من الّذين تركوني في منتصف الطّريق». «اخرجْ من هنا أنتَ وكلبُك». هزّ الكلب حينَ رآها تتقدّم إلينا غاضِبةً وهي تلوّح بالمِقشّة، تراجعتُ مع الكلب إلى الخلف، وأفلتْنا من رميتها الدّقيقة بصعوبة. عُدْنا إلى الأحراش، قال الكلب في الطّريق: «لا مزيدَ من الوحدة». «ألستَ غاضِبًا من أمّي؟». «إنّها أمك». بقينا في كنفِ شجرةِ بلّوطٍ حتّى هبطَ اللّيل، شدّني من طرفِ كمّي بأسنانه: «هيّا. لا نستطيعُ أنْ ننامَ هنا». عُدْنا إلى البيت، بدا وجه أمّي الّتي كانتْ تنتظرني على البوّابة أرقّ مِن وجهها الّذي غادرْناها به. قالتْ لي بتأنيبٍ وألم: «أينَ كنت؟». «مع ريّان في الأحراش». «ادخلْ. واترك الكلب». «لن أدخل من دونه». «لديّ ثلاثةٌ في الدّاخل». «فلْيكن الرّابع». لانتْ هذه المرّة، وابتعدتْ عن البوّابة الّتي كانتْ تسدّها بجسدها ويدها الممدودة على أعلى ظَرفتِها، وقالت: «لن أعتني بابنٍ جديد. يكفيني ما عندي!». «لا تقلقي... أنا سأعتني به».

صار الكلب يأكل معي ويشرب، وينام في سريري، تعلّمتُ منه لغة الكلاب، وعلّمتُه الكثير من لغة البشر. واخترعنا معًا لغةً خاصّةً بنا!!

(٥)

هل سمعتُم كلبًا يُغنّي؟

شيئًا فشيئًا أَلِفتْ أمّي الكلب. لم يعدْ نابـاه الكبيران اللّذان ينبثقان من طرفَي شِدقَيه مُخيفَين كأوّل ما شاهدتهما. وعيناه المائلتان إلى اللّون العسليّ الغارِقتان في الدُّجنّة لم تعودا مُخيفتَين. ورضيتْ أمّي بعد أقلّ من عشرة أيّام أنْ يُصبِحَ أحدَنا. وكان يجلسُ على مائدة الطّعام معنا، ولكنّه كان يتمتّع بصحنه الخاصّ فيما نحنُ نأكل جميعًا من صحنٍ واحد.

تدرّب (ريّان) على أنْ يُنادِي على أبي إذا كان خارجَ البيت من أجل أنْ يعودَ لطعام الغَداء أو من أجل أمّي. وأنْ يجلبَ من دُكّان (أبو محمود) كُلّ شيءٍ. أكتبُ لأمّي أو يكتبُ لها أحدُ إخوتي ما تريد، تُعلّقه في عنقِ الكلب، وتمسح عليها قائلةً: «لا تتأخّرْ يا رَيّان». وينطلقُ الكلبُ إلى الدُّكّان جارًّا خلفَه وعاءً من الصّفيح أو البلاستيك، يضعُ (أبو محمود) أغراضَنا، يُرتّبها في الوعاء، إنّها ثقيلة، ولكنّه كلبٌ قويّ، يربطُ فاتورة الدّينْ المُتراكمة في أحد الأكياس، ويُنبّه الكلب: «قُلْ لهم يا ريّان ألاّ يتأخّروا في سداد ما عليهم. لقد اقتربْنا من نهاية الشّهر». ويهرّ الكلب كأنّه يريدُ أنْ يقول له: «لِمَ تُلحّ في السّداد؟! إنّ أبي يعرفُ ما له وما عليه!».

ثُمّ أَلِفه أهل الحيّ، فصاروا يُحيّونه إذا صادفوه في إحدى الزّواريب. كان يُساعِدهم بما يستطيع، ومرّة أنقذَ الحاجّ (توفيق) من موتٍ مُحقّق، الحاجّ (توفيق) وحيد، ماتت زوجته من زمنٍ بعيدٍ، في حرب الأيّام السّتّة في قصفٍ عشوائيّ على البلدة، ولم يتزوّج بعدَها،

أولادُه ذهبـوا مذاهـبَ شَـتّى، اثنـان منهـما استُشـهِدا، الأوسـط في عبـوة ناسـفة، والأصغـر برصـاصِ قَنّـاص، وأمّـا الأكـبر فنجـا بالرّحيـل إلى السّعوديّة، وأمّـا البنتـان فتزوّجتـا وغادرتـا إلى الأردنّ، استقرّتْ إحداهمـا في جبـل الجوفـة في عـمّان، والثّانيـة في الزّرقـاء. ولم يكـنْ يـزوره مِمّـن تبقّـى لـه مـن أولاده أحـدٌ إلاّ في الأعيـاد، كلّ عـامٍ أو عامَـين مـرّة. وكان يجلسُ على مقعـدةٍ خشـبيّة طَـوال النّهـار، يُدخّـن، ويعيشُ على المعونـات. في هـذا المسـاء شـعَر بوعكـةٍ، دخـل إلى غرفتِـه، واسـتلقَى عـلى السّريـر، طافـتْ في خَيالـه ذكرياتـه البعيـدة أيّـام كان ولـدًا يركـضُ في الحـارات، انحـدرتْ دموعُـه عـلى خَدَّيـه وغفـا، في منتصـف اللّيـل قـام محمومًـا، مسـحَ العـرقَ عـن جبينـه، مـضى إلى الخابيـة يجرّ خُطُواتِـه وراءه، بالـكاد اسـتطاع أنْ يرفـع الكـوز إلى فمـه ليشرب، دار ليجلسَ أمـام بيتِـه عـلى المِقعـدة كعادتـه، ولكنّ جسـده كان مُتعبًـا، تراجَـع إلى الدّاخـل، وجلسَ عـلى فِراشِـه الّـذي اهـترأ، منـذُ عشريـن عامًـا لم يُغـيّرْه. وراحَ يُدخّـن، لكـنّ قُـواه خـارتْ مـن جديـدٍ، وسـقط، وسـقطتْ مـن يـده السّـيجارة، مشـت النّـار الهُوينـى في الفِـراش، كان هـو في غيبوبـةٍ أو شـبه غيبوبـة، رأى النّـار تكـبر مـن طـرفِ فِراشِـه، كان يريـدُ أنْ يفعـل شـيئًا لكنّـه كان عـلى الحافّـة، بـل كان قـد بـدأ سـقوطه في ذلـك الـوادي العميـق، أسـهل شيءٍ أنْ يستسـلم، تـركَ نفسـه تسـقط، لا بُدّ أنّ النّهايـات الّتـي تـأتي سريعـةً عـلى هـذا النّحـو دون مُقدّمـات هـي نهايـاتٌ مُريحـة. في البعيـد... شَـمّ رَيّـان الرّائحـة. دارتْ فتحتـا أنفِـه باتّجـاه المصـدر، وانطلـقَ يعـدو. دفـعَ البـاب المفتـوح، ونبـح، لم يسـتيقظ الحـاجّ (توفيـق)، نبـحَ بصـوتٍ أعـلى لعلّـه يصحـو، لكنّـه لم يكـنْ ليسمع شـيئًا، هُـرِعَ الكلـبُ إليـه، وأطبـقَ بِفَكّيـه عـلى ثوبِـه وجـرّه، تمـزّق الثّـوب، كانـت النّـار قـد أتـت عـلى كثـيرٍ مـن موجـودات الغرفـة؛ الفِـراش، والخِزانـة الصّـغيرة، والثّيـاب، وعلـتْ أدخنـةٌ خانِقـة.. أطبـقَ هـذه المـرّة بفكّـه عـلى ذراع الحـاجّ، وراحَ يسـحبُه بقـوّةٍ أكـبر حتّـى اسـتطاع جَـرّه خـارج الغرفـة وسـطَ تصاعـد

النّيران والدُّخان.. في الخارج نبحَ نُباحًا متواصِلاً، استيقظَ الجيران مفزوعين، وعرفوا أنّه رَيّان، حدّث أحدُهم نفسَه: «لا يُمكن أنْ ينبح في هذا الوقت إلاّ إذا كان هناك أمرٌ ما». أزاحت النّار بألسنتها المُتصاعدة من بيت الحاجّ (توفيق) ما تبقّى في الصّدور من شكّ... هُرِعوا عليه، وحملوه إلى المستوصف، فيما راح آخرون يسكبون الماء على النّار... لم ينجُ تمامًا، لكنّه لم يكنْ له أنْ يعيشَ ما تبقّى له من عمرٍ مقدور لولا أنّ رَيّان أنقذه في تلك اللّحَظات!

كان أهل الحيّ يعرفون بالكلب أنّني موجود، لا وجود له أو لي إلاّ معًا. صحبني ريّان في سنتي الأخيرة إلى المدرسة، كان اسمُه وسُمعتُه قد سبقاه إليها، ولِذا لم يستطع المدير أنْ يعترض؛ الأولاد مُوافِقون على وجوده، ومُستعِدّون أنْ يتحدَّوه من أجل ذلك فماذا يفعل؟! لا شيء؛ يُذعِن للأمر الواقع. كان يربضُ في السّاحة حتّى أخرجَ إليه. وفي الفرصة كان يُمكن أنْ نُجريَ أنا وصَفّي بأكمله سِباقًا معه. ولم يكنْ يُسابِقنا، فنحنُ على سرعتنا لم نكن أكثرَ من فتيانٍ يركضون إلى لا جهة، وهو؟ كان يُسابِق الرّيح... وكان يُمكن أنْ نجلس نحن مجموعة على غير اتّفاقٍ في الرأي أو انسِجام في الشّعور حلقةً، ويبدأ استعراضَه، يلتقطُ طبقًا طائِرًا على ارتفاع مترين قبل أنْ يسقطَ على الأرض. أو نرمي عصًا إلى أبعدِ مدًى فيسبقُها، ثُمّ يفتحُ لها فكَّيه اللّذين يُشبِهان مِبردَين، ويلتقطها قبل أنْ تمسّ الأرض، ويعودَ بها إلينا... كان يُغنّي!! هل سمعتُم كلبًا يُغنّي؟ كان يُغنّي معنا نشيدًا نضاليًّا مُقاوِمًا، كيفَ يكون لحنُ نشيدٍ كهذا؟! ربّما على النّحو الآتي: «ندخل ساحة حربٍ في التَوْ... نقفزُ أعلى من طائرةٍ في الجَوّ... ننتصرُ على المحتلّ المُقتَوْ... هَوْ هَوْ... سنشدُّ على الجرح الدّامي الدَّوْ... وسنُشعلها نارًا تتضرّم في النّبْتِ الحَوّ... نتطلّع للنّصر ولا نلتفتُ بوجهٍ مُلْتَوّ... عَوْ عَوْ عَوْ».

كُنّا في الأحراش. كان يهرول أمامي مرّة كأنّه يُؤمّن لي الدّربَ الخشخاشة، ويتراجَع ليتشمّمَ الأرضَ خلفي كأنّه يحميني. وكُنّا نجلسُ نستمتعُ بأشعّة الشّمس الدّافئة في الآصال الخريفيّة، يُطْلِقُ عواءً كعواءِ ذئب؛ أووووو... هذا صوتُ نداءٍ لي إذا كُنّا بعيدَين، وكانت الطّريق آمنة... هكذا تفاهَمْنا... عَوْ... عَوْ بصوتٍ خفيفٍ؛ تعالَ إذا كان قريبًا. عَو عَوْ عَوْ.. بصوتٍ أعلى قليلاً ثُمّ صَمْت.. ثُمّ عووو طويلة تعني: انتبه هناكَ مَنْ يُشاركنا المكان وهو موجودٌ معنا، وإنْ لم تكنْ تراه. عووووو طويلة ذات إيقاعٍ متوسّط لا تبرحْ مكانك، سأتدبّر الأمر. عو عو عو عو عو خمسَ مرّاتٍ بصوتٍ عالٍ جارح، اهربْ باتّجاهي فإنّ خطرًا داهِمًا يُحيطُ بك... وهكذا... نشأت اللّغة بيننا. أنتَ كلبٌ ذكيّ! يا رَيّان أنتَ كلبٌ ذكيّ.

ثُمّ كان للعيون ولبقيّة جوارحه لغةٌ أخرى. إذا نظرَ في عينَي مباشرةً ولوى رقبته إلى اليمين فمعنى ذلك: اتبعْني. وإذا نَظَرَ فِيّ ولم يحرّكْ رأسَه، ولم ينبح، فمعني ذلك أنّني أراك. وإذا أضاف إليها أنْ فتَح فكّه ورفع لِسانه حتّى مَسّ أرنبةَ أنفه فمعنى ذلك افعلْ ما تريد، لا أحدَ يراك سوى الله، ولن أدعَ أحدًا يقترب.

إنّه مساءٌ خريفيٌّ آخَر، جلسَ إلى جانبي. أرسلتُ نَظَري في الأفق، كان يبدو مُقسّمًا بينَ سيقان الأشجار العالية، سرحتُ بذهني. تذكّرتُ (عمّار)، شعرتُ بحنينٍ جارفٍ إليه، أينَ يُمكن أنْ يكون قد ذهب؟! إنّه الأقربُ إلى قلبي، تركني دون وداع. كان هناك عُقابٌ يخفقُ بجناحَيه ببطءٍ في المدى المنظور، سوادُهما ذكّرني بحاجِبَي عمّار الغليظَين، أطلقتُ تنهيدةً طويلة، وصعدتْ من أعماقي موجةٌ من الشّعور بالشّوق طاغية، حتّى إنّها كتمتْ أنفاسي، ورفعتْ درجة الحرارة في عينَيّ، كادتْ دمعةٌ أنْ تفلتَ منها لولا أنّني أشحتُ بوجهي

لأتّقيها. كان ريّان يجلسُ هادِئًا، انحنيتُ بجذعي، ووضعتُ رأسي إلى عنقه، وسألتُه: «هل تعرفُ (عمّار)؟». هَزّ رأسَه. «هل تتذكّره؟». هَزّ رأسه. «هل تستطيع أنْ تعرفَ أينَ غاب؟». هَزّ رأسَه، تضايقتُ من هَزّات رأسِه المُتتابِعة. «هل يُمكن أنْ تأتيني بخبرٍ عنه؟!». هزّ رأسَه للمرّة الرّابعة. صرختُ: «أحمق. لا تملك إلاّ أنْ تهزّ رأسَك». هَرّ هريرًا حزينًا، ووقفَ على قدمَيه، وتركني. ابتعدَ مسافةً قليلةً، وخفضَ بصره، وأنزل خَطْمه يتشمّم الأرض، وهرّ: «لا صديقَ لكَ سِواي!».

(٦)

لن ترى ما لمْ تنظرْ

«لـن يطـول عمـر هـؤلاء الغُـزاة... سـينتهون كـما انتهـى الّذيـن قبلَهـم... بأيدينـا؛ فالغُـزاة لا يخرجـون مـن تلقـاء أنفسـهم. هـل تعـرفُ معنـى ذلـك؟». كان هـذا صوتَـه. إنّـه الصّـوت الأوّل الّـذي وجـدتُ فيـه الـدّفء بعـدَ سـنتَين مـن الـبرد والصّقيـع. وسـنتَين مـن الحُـزن والغِيـاب. كان طُـوالاً، شـديدَ الأَسْر، بسـمتُه صافِيـة، أسـنانُه لُؤلـؤ، ووجهُـه أبيـضُ كأنّـه القُطـن، ولحيتُـه سـوداء داكنـة. هـل في أهـل (عرابـة) كلّـه مـن يملـك مثلهـا؟! إنّنـي أُحبّهـا وأُحبّـه. لا أعـرفُ كيـفَ ينبـتُ النّـاس في وجهـك فجـأة. كيـفَ يُصبِحـون بـلا مُقدّمـات جـزءًا مـن حياتـك، جـزءًا حقيقيًّـا عميقًـا.

كان نصـفُ جيلي أيتامًـا. لم يفقـدوا بيوتهـم وآباءهـم فحسـب، بـل فقـدوا أنفسـهم. يعيشـون عـلى البطاطـا والمِلـح. وعـلى مـا تُخرِجـه الأرض إنْ هـي فَعَلـتْ. محظـوظٌ مَـن كان يجـدُ في بيتِـه آخـر النّهـار خُبـزًا ولـو رغيفًـا واحِـدًا. كان شـبح الجـوع أشـدّ المخلوقـات الّتـي عرفوهـا رُعبًـا. اضطَرَّهـم ذلـك للعمـل في (الكيبوتسـات)، وفي المسـتوطَنات البعيـدة. تـأتي حافلـةٌ تُقلّهـم مـن الشّـارع الرّئيـسيّ في البلـدة، وتذهـبُ بهـم في الأرض اليتيمـة هـي الأخـرى، تتهـادَى بـين أشـجار البلّـوط بعـدَ أنْ تـتركَ الشّـوارع المُحفّـرة، وتسـير عشرة كيلـو مـترات عـلى الأقـلّ قبـل أنْ تدخـل إلى بيـوتٍ لا تنتمـي لنـا، ومدينـةٍ مسـحورةٍ لا تُشـبه أزقّتنـا. كان العمـلُ الّـذي يدفـعُ شـبح الجـوع قليـلاً عنهـم أُمنيّـةً، لا يحصـل عليـه كلّ مَـنْ أرادَه. كان علينـا أنْ نحمـل تصاريـح العمـل البائسـة هـذه مـن الحاكـم العسـكريّ. حـينَ تقدّمْتُ

لهذا التّصريح شفَع لي الكلب. نظر الشّرطيّ إليّ بازدِراء، وهمسَ لنفسِه وهو يُدخل الاسم على الكمبيوتر الّذي أمامه: «مُشرّد يُصادِق كلبًا... وسَجِلُّه نظيف، لا خوف». «كم عمرك؟». «خمسطَعش». «خمسطعش؟ صغير». «لا، مش صغير». «ماذا تريدُ أنْ تعمل؟». «أيّ شيء». «في البناء؟». «أيّ شيء». «لماذا؟». «لسدّ الجوع». همسَ ثانيةً وهو يُراجِع المعلومات عنّي: «لا خوف». وأعطاني التّصريح.

«عبد السّلام» كان هذا اسمَه، هدوء وجهه الظّاهريّ، مع لحيته السّوداء الكثّة، الضّاربة إلى شقرةٍ مَشوبة بُحمرة، المُنسابَة كشتلةِ سوسنات، وابتِسامَته الّتي لا تكادُ تُفارِق شفتَيه، ونظرته الودودة، وتماسُك جَسدِه كأنّه موطنُ أمان... كلّ ذلك جعله جديرًا بهذا الاسم. لكنّهم كانوا يُنادُونه وهو صغير «شلومو»، ولم يكنْ يعرفُ اسمًا آخرَ له.

شَدّ اللّحاف فبانَ رأسي الّذي كنتُ قد دفنتُه تحته، لسعتْني برودة الجوّ، تململتُ في السّرير، أردتُ أنْ أرفع اللّحاف فأعيده إلى مكانه وأدفنَ رأسي تحته من جديد، لكنّه شَدّ عليّه مرّة أخرى ومنعني من أن أفعل. نظرتُ في الظّلام فرأيتُ عينَيه تتوهّجان كأنّهما لُؤلؤتان وشَحَنْهما النّار، هَزّ رأسه يمينًا، لم أفهم ما يريد، كان نِداء الفجر يتعالَى من مسجد (أبو جوهر) شفيفًا كأنّه قادمٌ من رَبضَات الجِنان. حاولتُ محاولةً أخيرة لكي أشدّ اللّحاف على رأسي وأنعم بالدّفء والنّوم، ولكنّه هذه المرّة هرّ كأنّه يُعاتبني، فنهضتُ متثاقِلاً، توضّأتُ، ولبستُ بعضَ الثّياب الثّقيلة، وخرجتُ من قنطرة البيت، وتبعني.

كانت الطّرقات نائمةً هي الأخرى. لم ألحظْ أيّ حركةٍ باستِثناء شيخٍ طاعنٍ في السّن خرجَ من البوّابة الحديديّة، وأغلقَها خلفَه ببطء

فجـرحَ صريرُهـا سـكونَ اللّيـل. لم يلتفـتْ إلى خطـواتي. ومـضى مثلـما مضيـت.

كان «عبـد السّـلام» يجلـسُ في المحـراب، بعـدَ أنْ صـلّى ركعتَـي الفجـر، بـدا في ظِـلال القنديـل المُعلّـق فـوق المحـراب أنّـه مـن عـالَمٍ آخَـر. صلّيـتُ الرّكعتَـين، وحانـتْ منّـي التِفاتـةٌ مـن شَـقّ البـاب، فرأيـتُ الكلـب على الضّـوء الخافـت قـد أقعـى ساكِنًا سكون هـذا الظّـلام، وكانـتْ عيناه تُبَصْبِصـان في الأرضِ كأنّـه في صـلاة.

قـامَ الشّـيخُ فقُمنـا، حـينَ انتظمْنـا في الصّـفّ لم نكـنْ نُكمـلُ أكثـرَ مـن نِصفـه، أكثرُنـا مـن العجائـز الّذيـن جرّوا أجسـادَهم إلى هـذا المـكان الصّامـت بحجارتـه القديمـة جرًّا، كأنّـه ينتمـي إلى لا زمـان وإلى لا مـكان.

بـدأ الشّـيخُ بالفاتحـة، فلـمّا أنهاهـا شـعرتُ أنّ كلّ حـرفٍ مـن حروفهـا قـد انسـكبَ في جسـدي، المـدّ الأخـير في الكلمـة الأخـيرة (ولا الضّالّـين) جعـل روحـي تمتـدّ، تصعـدُ إلى الأعـلى، وتحلّـق في سـماواتٍ بعيـدة، غمرتْنـي موجـةٌ مـن السّـكينة لم أعهدْهـا مـن قبـلُ. صمـتَ الشّـيخ بعـدَ الفاتحـة، فصمـتَ كلّ شيء، كأنّ المـكان هبـطَ أو اسـتقرّ، يسـتعدّ لمرحلـةِ تحليـقٍ جديـدة، ثُـمّ بـدأ الشّـيخ فتـلا: «فاصـبِرْ عـلى مـا يقولـون» فشـعرتُ أنّنـي تعلّمـتُ درسًـا إلهيًّـا في الصّـبر، ثُـمّ أتبَعهـا: «وسَـبِّحْ بحمـدِ ربّـك» فشـعرتُ أنّ كلّ ذرّةٍ مـن هـذا الهـواء النّقـيّ، وكلّ حجـرٍ مـن حجـارة المسـجد تُسـبّح. وأنـا؟ سَـبّحتُ كـما سـبّحت الحجـارة. فلـمّا فـرغَ الشّـيخُ وفرغْنـا مـن الصّـلاة، وسـلّمْنا عـن يمـينٍ وشِـمال، بقيـتُ في مـكاني أتملّى حضـرةَ الجَـمال، وأغـوصُ في طُيُوبِـه، واسـتمرّ ذلـك حتّـى فـرغ المسـجد مـن المُصلّـين، وخـرجَ كلّ مَـنْ فيـه، فلـم أشـعر إلاّ بيـدِ الشّـيخ تهـزّني مـن كتفـي برفـق: «هـذا الّـذي في الباحـة كلبُـك». انتبهـتُ مـن شرودي، ونظـرتُ إلى

حيثُ (رَيّان)، وهتفتُ كمن أفاق من غفلةٍ: «نعم». «إنّه ينتظرك». «ها أنذا، سنخرج». «وأنت؟». لم أفهمْ ما يرمي من وراء السّؤال، فأرسلتُ إليه نظرةً بلهاء، فرأيتُ هذه السّوسنات تُضيءُ على ما تبقّى من نور، ولم أنبسْ بحرف، عاودَ السّؤال: «وأنت؟». هززتُ رأسي كمن يريدُ للحجارة الّتي وقفتْ في طريق الكلام أنْ تسقط، وقلتُ بحروفٍ مُتأرجحة: «ما أنا؟». ردّ وهو يبتسم فتَبِين لآلئه: «جديد؟ أليسَ كذلك؟ لم أركَ من قبل؟». أجبت: «صحيح، غير أنّني....» وتجمّدتِ الحروف على لِساني، فشجّعني جلوسه على الأرض بجانبي: «أنتَ...». أكملتُ: «أنا محمود». «أهلاً يا محمود. أنتَ من هنا؟». «نعم». «لِمَ لَمْ أركَ من قبلُ؟». «كنتُ آتي مع أبي في رمضان... لا أدري كم كان عمري... ولا أدري إنْ كنتُ قد سمعتُ صوتَك من قبلُ... أعني هذه التّلاوة الرّائعة الّتي عبرتْني في الصّلاة». ابتسم، وأردف: «فلْتَأْتِنا نُواسِك... إنّه صباحُ الجمعة، ما رأيُكَ أنْ تُفطِر في بيتي؟». لم أدرِ ما أقول، لكنّني هتفتُ:» وأنتَ؟ غريبٌ كذلك؟ أنا لم أسمَعْ مثل هذا الصّوت في هذا المسجد من قبل!». ابتسم: «لن تسمعَ ما لمْ تأتِنا». «ولم أرك؟». «لن ترى ما لمْ تنظرْ». خجلتُ، ونهضَ على قدمَيه، ومدّ يده نحوي: «هَيّا»، وجذبني من كفّي بقوّة وبحنوّ، فتركتُ له يدي، ونهضتُ معه.

كان الصّباح قد بدأ يتنفّس حينَ عبرْنا الباحة، ومضى (ريّان) إلى جانبنا. «أهو صديقُك؟». «نعم... رَيّان... اسمُه رَيّان». «كيفَ عثرتَ عليه؟». «في الحقيقة هو الّذي عثر عليّ». ضَحِك. أردفتُ: «في الأحراش، بين شجر اللّوز والصّنوبر برزَ فجأةً على غير مِيعاد». هَرّ الكلب، وهَزّ ذنبه، ورقصَ بأقدامه، وقلتُ: «إنّه يرحّب بكَ سيّدي الشّيخ». ضحك الشّيخ بصوتٍ أعلى، فجلجلتْ ضَحِكتُه في الفضاء: «هَيّا بنا، سنُعِدّ فطورًا لنا ولصديقنا رَيّان». فَرِحَ الكلب.

عبرْنـا السّـاحة إلى بيـتِ الإمـام، إنّـه مُلحَـقٌ في المسـجد، قديـمٌ، ربّـما مـن بقايـا العهـد المملوكـيّ. دخلْنـا إلى غرفـة الضّيـوف، الغرفـة الّتـي عـلى اليمـين. حـينَ دلفْنـا مـن البـاب الخشـبيّ العتيـق، هبطْنـا درجـةً صغـيرةً قبـل أنْ نجـدَ أنفسَـنا فيهـا، لـو لم أنتبـهْ إليهـا لسـقطتُ أو عرجـتُ... لفـتَ انتِباهـي صـورةُ قُبّـة الصّخـرة عـلى الجـدار منقوشـةً عـلى قطعـةٍ كبـيرةٍ مـن القِـماش المُخمـليّ، وقـد عَلّـقَ عـلى طرفَيهـا مـن الأعـلى بُندقيّتَـين، خفـق قلبـي لمنظرهمـا، لاحـظَ هـو ذلـك، فهتـف: «واحـدةٌ كانـتْ لأبي، والأخـرى اشـتراها هـو لي مـن أجـل أنْ أُصحِّـحَ خطَـأه». «تُصحِّـح خطَـأه؟». تجاهـل تسـاؤلي الأخـير، وأكمـل: «إنّهـما قديمتـان، قـال لي أبي إنّ البندقيّـة الّتـي اشـتراها لي تعـودُ للشّـيخ عزّ الدّيـن القَسّـام، أمّـا بندقيّتـه هـو فيؤكّـد عـلى أنّـه أخذهـا مـن أبنـاء فرحـان السّـعديّ بعـدَ استشـهاده». «ومَـنْ يكـونُ أبـوك؟». «أبي...» لكنّـه لم يُكْمِـلْ، وهتـفَ: «سـأُجيبُكَ بعـدَ أنْ نـأكل». وغـاب في البـاب الّـذي يُفـضي إلى داخـل البيـت، وسـمعتُه يهتـف وهـو يمـضي: «أنـا وحـدي، عليـكَ أنْ تنتظـرَ قليـلاً حتّـى أُجهّـز لـكَ الفَطـور... هـل تحبّ الشّـاي بالنّعناع». لم يسـمع منّـي الجـواب، إذ إنّـه أردف: «هنـاك، في الحديقـة الصّغـيرة الّتـي عـن يسـار المدخـل، جنينـة صغـيرة، اقطـفْ منهـا بعـضَ النّعنـع مـن أجـل الشّـاي.

سـبقني الكلـب إلى الجنينـة، وكأنّـه فهـم مـا قالـه الشّـيخ، وأراد أنْ يدلّنـي عليهـا. راحَ يتشـمّم عـددًا مـن الشّـتلات، وتوقّـف عنـد واحـدة، ورفـع رأسَـه إليَّ كأنّـه يقـول: «هـذه أفضلهـنّ». قطفتُهـا وعُـدت للغرفـة. وضعـتُ الشّـتلة عـلى طربيـزةٍ صغـيرةٍ تسـتقرّ في وسـط الغرفـة، وسـمعتُ صوتَـه مـن الدّاخـل: «هـل غسـلتَها؟».

أدرتُ نظـري في جـدران الغرفـة، قديمـة، حجارتُها المستطيلة تَشي بأنّهـا كانـتْ لـذي عِـزّ، قارنـتُ بينَهـا وبـينَ بيتنـا الّـذي يسـقفه الصّفيـح،

وتعشّش في جدرانه العفونة، فأدركتُ الفرق. في الجدار الّذي عن يساري، كانتْ هناك نقوشٌ قديمة، وصحونٌ مُجوّفة، وكتابات أو هكذا خُيّل إليّ... همستُ في أعماقي: «هل هذه الجُدران تنتمي إلى المسجد؟». كنتُ أجدُ بعضَ الشّبه، لكنّ المسجد حُدّث في فترةٍ لاحقةٍ على ما يبدو، فيما ظلّ هذا البيتُ على عهده الأوّل. على الأرضِ سِجّادٌ قديم، ماذا يُسمّونه؟ سجّادٌ عجميّ؟ ربّما. لم يُفلِح الزّمن في أنْ يذهب بألوانه الزّاهية، قاوم كثيرًا، لكنّه ربّما استسلمَ قليلاً. حتّى هذه الأريكة الّتي أغوصُ فيها، لم أجلسْ على أريكةٍ ناعمةٍ طريّةٍ من قبلُ، كان لونُها يميلُ إلى اللّون العُنّابي، قفزَ الكلب الّذي كان مُقعِيًا فجلسَ إلى جانبي، فغاصتْ أكثر... دخَل الشّيخ وأنا لا أزال أحاول أنْ أفهمَ المكان. كان يحمل صحفةً كبيرةً، توزّعتْ عليها أطباق الفَطور، الزّيتُ والزّعتر، والجُبنة، والفجل، واللّبن الرّائب، والسُّمّاق، والشّاي، والخبز... من أينَ أتى بالخُبز؟ هل تهبطُ عليه هذه البركات من السّماء.. طلبَ منّي أنْ أُزيح الطّربيزة عن وسط الغرفة: «سنجلسُ على الأرض». وضع الصّحفة في الوسط، ثُمّ رفع غطاء إبريق الشّاي، وتناول ضُمّة النّعنع: «لم تغسلْها؟ لا بأس، ربّما ستُطِعم هكذا أفضل». غطّسَها مرتَين أو ثلاثًا في إبريق الشّاي الّذي تصاعدَ قُتارُه، ففاحت الرّائحة اللّذيذة... شعرتُ بجوعٍ شديدٍ، سَكَب لي كأسًا، فملأتِ الرّائحة المكان. مَدّ رغيفًا من الخبز البلديّ: «هَيّا... بسم الله».

لم أتركْ بعدَها صلاةَ فجرٍ واحدةً في المسجد، وصرتُ رفيقَ الشّيخ زمنًا ليسَ باليسير، وكان الشّيخ مزيجًا من الغرابة، أو هكذا بدا لي؛ واضِحًا في خَفاء، قريبًا على بُعد، يَعني بلا قول. وكان يختفي أيّامًا دون أنْ أعرفَ لماذا وأين! وسألتُه مرّةً: «أنتَ وحيد؟». فردّ وهو يُضيّق عينَيه: «لي أصدقاء كثيرون، لكنّكَ لم تلتقِ أيًّا منهم». «أصدِقاء؟

أنـتَ محظـوظٌ إذًا». «وسـتكونُ محظوظًـا حـينَ تلتقيهـم». «هنـا». «لا. هنـا لا ألتقـي إلاّ شـخصًا واحـدًا. ذلـك الشّـخص الّـذي يجـب أنْ ينتقـل إلى المرحلـة التّاليـة». «المرحلـة التّاليـة؟!». «لا تسـتعجلْ». «وأبـوك؟». «مـا شـأنُ أبي؟». «قلـتَ لي إنّـكَ سـتُحدّثني قِصّتَـه». «كُـنْ صبـورًا». «وهـذه البندقيّـة بنقديّتـه حقّـا؟!». «وتلـك البندقيّـة بنُدقيّتـي حقًّـا». وأشـارَ إليهـا. «ومتـى سـتقول لي الحكايـة؟». «يبـدو أنّـكَ كثـيرُ الأسـئلة».

كان الشّـيخ مليئًـا بـالأسرار، كان جـرّةَ حكايـا لم يسـمحْ للكثيريـن بـأنْ يكشـفوا عنهـا الغِطـاء. لكنّـه لقـدرٍ مـا، كنـتُ أحـدَ هـؤلاء القليـل الّذيـن فتَـحَ لهـم قلبَـه.

(٧)

عاموس

وُلِدَ أبي عام ١٩٣٢م، وسَمّاه جدّي أوّل ما سمع صرخته: «سعد». كان يريده سعدًا بعدَ نحسٍ أحاطَ بجدّتي فبقيَتْ عشر سنين دون أنْ تُنجِب. فلمّا سقطَ أبي من رَحِم اليأس أضاءَ البيت المُظلِم، وكان وحيدَهما، وأثيرَهما، وجميلَهما، وكان لهما الدُّنيا كلّها.

ساقَه الدّلال إلى النّفور، ثُمّ ساقه النّفور إلى التّمرّد على ما كان يطلبُه أبي منه، ثُمّ ساقَه هذا إلى «هشومير هتسعير». المُنظّمة الّتي كانت تعني (الحارس الشّابّ). وكأيّ فتًى مراهقٍ يريدُ أنْ يجرّب بنفسِه، قال له صديقُه: «سمعتَ عن هذا (الكيبوتس) الّذي يضمّ أحرار فلسطين... هناك تنشأ على غير هذا التّخلّف الّذي يعيشُه أهلُنا، وعلى الحياة المُرفَّهة الّتي تطردُ شبح الجوع». إنّه الجوع، وحلم تحقيق الذّات، وتجربة كلّ جديد إذًا.

حينَ قَدِمَ أبي على (الكيبوتس) عام ١٩٤٥م، جفل منه اليهود، قال لهم كي يجعل بحيرة القلق الثّائرة في أعماقهم تهدأ: «إنّني أؤمن بالفكرة الّتي من أجلها قامتْ هذه المُنظَّمة». سأله (مائير يعاري) وهو يرى حماسته: «هل تعرفُ ما تعني هذه الفكرة؟». «الصّهيونيّة والاشتراكيّة ومحبّة الشّعوب». هَزّ رأسَه وتركه للقطيع. لكنّهم لم يطمئنّوا إليه إلاّ بعدَ أنْ عاشَ بينهم كأيّ واحدٍ فيهم.

ثارَ جدّي لِما حدث، وطلبَ منه أنْ يُقلِع عن هذه الفِكرة المجنونة، ووسّط أقاربه من أجل أنْ يتخلّى عن هذا التّهوّر ويعود إلى

أهلـه، ثُـمّ هـدّده بـأنْ يـأتي بقـوّة تنتزعـه مـن بـين هـؤلاء الأعـداء وتُعيـده إلى الصّـواب... لكـنّ ذلـك كلّـه لم يُجدِ مـع أبي نفعًـا. واستسـلم جـدّي بعـدَ عامَين مـن المحـاولات اليائسـة، وأصابَـه حُزنٌ وغَـمّ، ولكـنّ الحزنَ والغَـمّ لم يُعيـدا لـه ابنَـه الّـذي كان يـرى أنّـه سُرِقَ منـه!

قـال لجـدّي ذات مـرّة في مجادلاتهـما الطّويلـة بعـدَ أنْ خـرجَ بـه مـن (الكيبوتـس): «إنّـكَ تعيشُ في منـزلٍ مُتهالِـك، وأعمامـي يعيشـون في الخيـام، هـل تريـدُ منّـي أنْ أعيـشَ الحيـاة الكئيبـة الّتـي تعيشـونها؟». «ومـاذا في ذلـك؟ نعيشُ معًـا عـلى الحلـوة والمُـرّة، وأقاربُـك خـيرٌ لـك مـن أعدائـك». «إنّهـم ليسـوا أعـداءً، إنّهـم مُتنـوّرون». «وجُوعُـكَ مـع أبنـاء عمومتـك خـيرٌ لـكَ مـن الشّـبع مـع اللّصـوص». «إنّهـم ليسـوا لصوصًـا. أنـتَ وأعمامـي اللّصـوص الحقيقيّـون؛ تريـدون أنْ تسرقـوا منّـي الحيـاة الّتـي أشـتهي». «وبيتُـك حتّـى لـو كان خيمـةً أدفـأ لـكَ مـن بيوتهـم الّتـي يسـكنُها الصّقيـع». «لا صقيـعَ إلاّ في نمـطِ حياتكـم، هـل تسـمّونها حيـاة؟!». وانهـار جـدّي. وعـادَ وهـو يجرّ خيبتـه، ودموعـه تـكادُ تفرّ مـن جفونـه. وأظلمـتِ الدُّنيـا في وجهـه مـن جديـد، وقـال لجـدّتي وهـو غـارقٌ في القهـر والحُـزن: «انسَـي أنّنـا أنجبْنـا ابنًـا!». وكانـتْ جـدّتي تبكـي كلّ ليلـةٍ عليـه، ولم تنسَـه أو تتوقّـف عـن البُـكاء حتّـى ماتـتْ!

عَمِـلَ أبي في (الكيبوتـس) في قيـادة الجـرّار، وكان يتلقّـى اللّـوم في كلّ مـرّة، لم يكـنْ عمـره أكثـر مـن أربعـة عشر عامًـا: «ليـسَ بهـذه الطّريقـة، إنّـكَ تُفسِـدُ التّربـة.. ثُـمّ... هـل تسـتطيع أنْ تغـيّر الزّيـت للماكينـة؟ أرى الزّيـت يُـشرشِر مـن المحـرّك، لا بُـدّ أنّـكَ لم تُحكِـم إغلاقـه... أوووه أيّهـا العـربيّ الغريـبُ القـادم مـن هنـاك... أنـتَ لا تتقـن شـيئًا... هَيّـا تحـوّل عـن الجـرّار، وجِـدْ لـكَ عمـلاً آخـر».

ثُـمّ تنقّـل أبي بعدَهـا إلى ماكينـة الحصـاد، فلـمّا انقـضى الموسـم، عمـل في تربيـة النّحـل، وأتقـنَ ذلـك، فكانـوا يُنادُونَـه: «عسـل». ثُـمّ زرعَ أبي الباميـة في مزارع (الكيبوتـس)، وكانـت النّسـاء اليهوديّات وقليلٌ مـن العربيّـات يَقُمْـنَ بالتِقاطـه، ومـن بينهـنّ جميعًـا تعـرّف أبي إلى (تسـيفيا). وكانـتْ حُبّـه الأوّل والأخـير. وعلّمتْـه العبريّـة، ولم تتعلّـم منـه العربيّـة باسـتثناء جُمَـلٍ قلائـل.

كان (الكيبوتـس) جنّـةً انتُزِعـت مـن الجحيـم الّـذي تعيشُـه الأراضي العربيّـة المُتناثـرة حولهـا. كان هـذا دافِعًـا لأبي كـي يغـادرَ أهلـه دون أنْ يشـعر بـذرّة أسـفٍ واحـدة. بحـثَ مثـل شُـبّان القريـة عـن حيـاةٍ أخرى، ولَمَـع أمـام ناظِرَيـه بريـق الحيـاة المُنعّمـة، فـتركَ الفلاّحـين البُسـطاء المُتديّنـين دينًـا فِطريًّـا في عـالَمٍ مكشـوف، وانتقـلَ إلى العـالَم الغامـض الخفـيّ الّـذي منّـاه بـه خَيالُـه، قـال لِجَدّي بلهجـةٍ مُتحدِّيـة: «سـأذهب ولـن أعـود، سـأتركُ لكـم هـذا الجـوع والفقـر والضّيـاع، اشـبعوا منـه عـلى راحتكـم، أمّـا أنـا فعـليّ أنْ أجـدَ حيـاةً غـير هـذه». واسـتقلّ أبي شـاحنةً ترجـعُ للاحـتلال الإنكليـزيّ، وتوجّهـتْ بـه إلى (كيبوتـس يكـوم)، واسـتقلّها معـه سـبعةٌ مـن أبنـاء القريـة، وهنـاك غـيّر اسـمه مـن (سـعد) إلى (عامـوس).

وزار أبي قريتنـا مـرّة وحيـدة، كان ذلـك في عيـد الأضحـى مـن عـام ١٩٤٨م، كان يحمـل الهدايـا معـه مـن (الكيبوتـس)، ولم يـرضَ جـدّي أنْ يسـتقبله، وركلَ هدايـاه بعُـكّازه، وصرخَ في وجهـه: «لا نُريـدُ هدايـاك، عُـدْ مـن حيـثُ أتيـت، لقـد نسـيتُ أنّ لي ابنًـا» أمّـا جـدّتي فكانـتْ تجهـشُ بالبُـكاء، وكمحاولـة أخـيرةٍ قالـتْ لـه: «لمـاذا تعمـل في (الكيبوتـس)؟! اعمـلْ في أراضي القريـة، ثُـمّ ربّـما تُصبـحُ مديـرًا لمزرعـةٍ هنـا». فـردّ: «إنّ مزارعكـم تعـاني الجفـاف، وإنّ مزروعاتكـم ميّتـة، أمّـا في الكيبتـوس...». ولم يتركْـه جـدّي ليُكمِـل، فـصرخ في وجهـه: «إنّهـم يسرقـون ماءَنـا يـا

كلب، ويقتلون شجرنا يا عاقّ.. ألم أقلْ لكَ إنّني لا أريدُ أنْ أراك..».
وهجم عليه بعُكّازه مُرتعِشًا، وهربَ أبي، ولم ترَ جدّتي وجهه بعدَ هذه الحادثة حتّى فارقت الحياة.

لم تكنْ حياة (الكيبوتس) ورديّة كما كان يتخيّل أبي، فقد عُهِدَتْ إليه مرّةً وظيفة استخراج المسامير المُعوجّة من أخشاب البِناء، وتقويمها بدقّها بالحجارة، لكي تُصبح صالحةً للبِناء ثانيةً، وكان يفعل ذلك تحتَ لهيب الشّمس الحارقة. وعُهِدَ إليه أنْ يبني في مرّة أخرى زريبةً من أجل البهائم، وكان يُنظّفها من الرّوث كلّ يوم.

ولم يكنْ يأكل في سنواته الأولى في (الكيبوتس) غير العصيدة، وكانتْ طعامَه في كلّ وجبة، وذات مرّة في أحدِ أعياد اليهود، أكلَ سمكةً مُملّحة، فلم يستطعْ أنْ يمضغَ منها لقمةً ثانيةً لرائحتها النّتنة.
وكان الإنجليز يقومون بمداهمة (الكيبوتسات) بحثًا عن العرب، قائلين لليهود: «ليسَ من مصلحتكم أنْ يعملوا هنا. العرب غدّارون لا يعرفون الوفاء، ويقطعون اليد الّتي تمتدّ إليهم». وكان أبي يهربُ من (الكيبوتس) إلى تلّة قريبةٍ، ويبقى عليها في البرد والظّلام، ولا يعود إلاّ إذا تأكّد من أنّهم رحلوا.

كان أبي يعرفُ جولدا مائير، وتخيّلَ أنّه صديقُها، كانتْ تدور بنفسها على (الكيبوتسات)، وتجتمع بالعُمّال، قائلةً لهم: إنّها كانتْ واحدةً منهم، وأنّها عملتْ في بداية حياتها في البرد والحرّ وفي الصّيف والشّتاء في مثل هذه (الكيبوتسات)، وإنّ إسرائيل لن تقوم إلاّ على مثل هذه السّواعد القويّة، وكان أبي أشدّ النّاس حماسةً لخطابِها هذا، فكان يُقاطِعها أكثر من مرّة، ويشرع بالتّصفيق الحارّ لها، ولمّا جلستْ معهم على مائدة الطّعام قال لها: «إنّني إذا تزوّجتُ ورُزِقتُ بابنةٍ جميلةٍ مثلكِ

فسأُسمّيها جولدا مائير». وكانتْ تضحك وتقول: «مَنْ يدري؟! ربّما تكون امرأةً حديديّةً في المُستقبَل، وتحكم إسرائيل». وتستمرّ في الضّحك وهي تُرجِعُ رأسَها إلى الخلف.

لقد كان (الكيبوتس) يحاول أنْ يزرعَ فيهم أنّ اليهوديّ ليسَ عدوًّا، وأنّه يُمكن أنْ يكون صديقًا، وأنّ مشروعه الحبّ والسّلام، وأنّه لا يُريدُ للحربِ أنْ تقوم. ولهذا كان يُقسِمُ معهم حينَ يأخذونه في رحلةٍ إلى بُحيرة طبريّة قَسَمَ الطّليعيّ القويّ والشُّجاع، يصرخون بملءِ حناجرهم: «إسرائيل بلدُ الحرّيّة... بلدُ المساواة... ونحنُ أبناؤها أبناء الدّيمقراطيّة». ولمّا قامت الدّولة بعدَ الموافقة على قرار التّقسيم في عام ١٩٤٨م أنشدَ معهم النّشيد الوطنيّ (هتيكفاه) أمام العَلَم الّذي كان يخفقُ في الأعالي وهم مَشدُودو الصّدور، وأيديهم خلفَ ظهورهم.

كان أبي يكسبُ في اليوم ليرةً أو ليرتَين، وكان يُمنّي نفسه بادّخار هذا المال من أجل أنْ يتزوّج (تسيفيا)؛ أمّي. لكنّه اكتشفَ أنّ أقرانه من العُمّال اليهود كانوا يكسبون أضعافَ هذه الأجور، ولم يكنْ يملك هو أوّ أيّ عربيٍّ أنْ يُجاهر بالأمر، وكان يرى أنّ هذا المال الّذي يتقاضاه سوفَ يُقرّبه من حبيبته، وسيجمعهما تحت سقفٍ واحدٍ ذاتَ يوم.

وفيما كانَ أبي وأمثالُه من العرب يعملون في تنظيف الزّرائب، وتغيير زيت المكائن، وفي البِذار والحِراثة، كان بعضُ اليهودِ يعملون في القِطاف وفي زراعة الزّهور، وفي إعداد الطّعام، ولم يكونوا يتعرّضون لتقلّبات الجوّ مثل العرب.

كانت الفتيات اليهوديّات العاملات في (الكيبوتس) يرتدين سراويل قصيرة زرقاء اللّون، وكُنّ إذا تعبْنَ من قطف الثّمار، يرتحْنَ في

ظلّ الأشجار، فيتمدّدْن بأجسادهنّ البَضّة البيضاء، وسيقانهنّ المكشوفة على الأرض، فيثير ذلك الغرائز كلّها، وكانتْ (تسيفيا) تتميّز عنهنّ بشَعْرِها الأشقر. وحينَ فاتَحها أبي برغبته، وأنّه يُفكّر فيها منذُ ثلاث سنوات، وأنّه آنَ لهما أنْ يختما هذه الرّحلة بالزّواج، أدارتْ وجهها إلى الجهة الأخرى قائلةً: «أنا لا أُفكّر في الزّواج الآن». ومع أنّ العبارة ثقبتْ فؤادَ أبي، وأسدلتْ غمامةً من الحُزنِ على وجهه، إلاّ أنّ حبيبتَه تركتْ له الباب موارِبًا... ثُمّ إنّ محاولاته المُستمرّة خلال بضعة أشهر بعد تلك الحادثة في التّقرّب إليها قد أفلحتْ في النّهاية، وتزوّجا على طريقةٍ ليستْ باليهوديّة ولا الإسلاميّة، بل على طريقة (الكيبوتس) الاشتراكيّة، وأصبَحا زوجَين سعيدَين. وبارَكهما مسؤول (الكيبوتس) يومئذٍ.

(٨)

شلومو

حينَ ذهبَ أبي بزوجه (تسيفيا) إلى حيفا في إحدى المرّات الّتي يُسمَح للعاملين فيها بالتّسوّق والسّياحة أيّام العُطَل، دَخلا محلّ ملابس، فاشترى أبي لأمّي فستانًا جميلاً وأنيقًا، واشترى لنفسِه قميصًا، ولّما عادا إلى (الكيبوتس)، أمرهما المسؤول بأنْ يضمّا ما اشتريا إلى الجمعيّة؛ فلا ملكيّة خاصّة لأهل (الكيبوتس)، فكان يرى بعدَ ذلك قميصه على جسدِ عاملٍ قادمٍ من نيويورك، وكانتْ ترى فُستانها ترتديه شابّة سمراء قادمة من الحبشة.

وأثمر زواج أبي وأمّي عن قدومي عام ١٩٦٢م، كانت المُنظّمة في أوجها، ورفعني زملاؤه إلى الأعلى وأنا لا أزال أبكي ملفوفًا بالعلم الأزرق، وغنّوا نشيد الرّجل القوي الشّجاع ابتِهاجًا بقدومي. ورقص العرب واليهود يومَها وشربوا وغنّوا في أمسيةٍ استمرّتْ حتّى الفجر.

كان أبي يحلم، لكنّه لم يكنْ يدري ما يحدث. في عشر سنواتٍ لاحقة حدثتْ أمورٌ لم يحتملْها أبي، ليسَ لأنّ نداءَ جدّي وجدّتي استفاق في أعماقه، بل لأنّه أدرك أنّ الأحلام الّتي رعاها في أعالي روحه لم تكنْ إلاّ فخّارة من خزفٍ انكسرتْ بضربةٍ من عصا يحملها رجلٌ واقعيّ كان يقود المنظّمة ويعرفُ ما يريد.

طلبَ أبي من (مائير يعاري) أنْ يُخصّص له أرضًا يسمح له بإقامة كيبوتس عليها، فردّ عليه بجملةٍ واحدة: «أراضي الوطن مُخصّصة لليهود فقط». وخطّتْ هذه الجملةُ أوّل شَعْرٍ في زُجاجة الحلم الّتي كانت تستحوذ على وجدان أبي، لكنّه لم يكنْ يعرفُ اليأس،

فاتّصل بزعيم المنظّمة الأكبر (شاريت)، وطلبَ مقابلته، وحينَ التقيا في كوخٍ على طرف أحد (الكيبوتسات)، سأل (شاريتُ) أبي: «ماذا تريد؟». «إقامة كيبوتس لنا نحن العرب». «ولماذا؟». «لكي نُساهِمَ في بِناء الدّولة». «أيّ دولة؟». «إسرائيل». «إسرائيل لا يَبنيها إلاّ أبناؤها. ولا يعرفُ ذلك إلاّ المُخلِصون». وخرجَ أبي بطعنةٍ جديدةٍ، وكان شَرْخُ الزّجاجة قد اتّسع، لكنّ أبي أراد أنْ يرفع الأمر إلى أعلى مستوى، فاتّصل بـ (كاديش) وزير العمل، وحُدّدت له المُقابلة، وسأله الوزير أوّل ما رآه: «سِحنةٌ عربيّة». «ولكنّ اسمي عاموس». «ولكنّه كان سعد». «العِبرة بالنّتيجة». «النّتيجة أنّ أرضَ اليهود مُحرّمةٌ على الأغيار». «ولكنّني أطلبُ أنْ يُقام (الكيبوتس) على جزءٍ من أراضي قريتي». «لا تكنْ أحمق، على أراضي قريتك المُصادرة، سوفَ نُقيم أربع كيبوتسات يهوديّة، وسوفَ نرفعُ السّلاح في وجه مَنْ يحاول أنْ يقفَ في وجهنا». وانكسرتِ الزّجاجة تمامًا. لقد تخيّل أبي أنّ جدّي هو الّذي سيقفُ في وجوههم، وأنّ هذا الغريب الّذي جاء من بلادٍ بعيدةٍ هو الّذي سيرفع في وجهه السّلاح، وسيُطلق عليه الرّصاص، وسيسيل دمه على التّراب، وقبل أنْ تصعدَ روحُه في حشرجاتها الأخيرة إلى السّماء سوفَ يُلقِي نظرةَ وداعٍ أخيرةٍ على ابنه الّذي جاء مع هذه القُوّة المُسلّحة، نظرة تمتزج فيها الحسرةُ بالعتاب بالحبّ، ولكنّ الحُبّ هو الّذي سينتصر في النّهاية، وسيُشكّل دمُه المُراق على التّراب سؤالاً ذبيحًا: «لِماذا يكون ابني هو الرّصاصةَ في بندقيّة قاتلي؟!».

وعاد أبي إلى (الكيبوتس) كومةً من التّعب والوجع. وبدأتْ خيالات الماضي تُراوده، لم يشعر بأنّه مقطوعٌ من شجرةٍ في هذا المُحيط الغريب أكثر من هذه المرّة. حتّى (تسيفيا) تغيّرت، لم تعدْ تُعيره أيّ اهتِمام، وكانت تُعامله كأنّه أجيرٌ أقلّ منزلةً منها، وكانتْ تفتخر بأنّها

يهوديّـة، وأنّهـا قبلـتْ بعـربيّ هـربَ مـن عنـدِ أهلـه، وتلعـن القلـب الّـذي اضطرّهـا إلى أنْ توافـق عـلى ذلـك الطّلـب الجريء، وتعتـذر لنفسِـها قائلـة: «لقـد كان لحوحًـا بشـكلٍ مُزعـج، ولـو أنّـه اكتفـى بالمرّة الأولى لمـا كُنّـا زوجَـين».

وصـار أبي يخلـو بنفسِـه كثيرًا، وأدركَ بالتّجربـة وحدهـا، أدركَ أنّ هـذا التّعايـش الّـذي ينـادون بـه ليـسَ إلاّ وهمًـا، وأنّ المسـاواة لا يُؤمـن بهـا إلاّ السُّـذّج، وأنّ شـعور اليهـوديّ بالتّفـوّق كان شـعورًا يجتـاح أرواح سُـكّان (الكيبوتسـات) جميعًـا، وأنّ العـرب في منزلـةٍ دونيّـة، وأنّهـم لا يسـتحقّون إلاّ السّـحق، ولم يكـنْ ليتخيّـل أنّ هـذا يحـدثُ مـع الفكـرة الّتـي آمـن بهـا، ولكنّهـا آمـنَ بهـا يـوم لم يكـنْ لـه إلاّ نـزوةٌ تُهيّجـه، وحلـمٌ يُؤرجِحـه، وطمـوحٌ يتـوقُ إليـه، وحيـاةٌ يسـعى أنْ تُبـدّل حياتـه الصّعبـة السّـابقة.

ثُـمّ بـدأ كلّ شيءٍ ينهـار، هكـذا كأنّ المصائـب لا تنـزل إلاّ سَـحًّا. هربـتْ أمّـي مـع عشـيقٍ لهـا إلى أمريـكا عـام ١٩٦٦م، وكتبـتْ لأبي رسـالة تقـول فيهـا: «لقـد كنـتَ لطيفًـا معـي، ولقـد رأيـتُ في عينَيـكَ بريـقَ الحُـبّ، ولكنّـكَ لم تكـنْ حلمـي، ولا أنـتَ وطنـي. وقـد اخـترتُ آخـرَ أذهـبُ معـه إلى بلـدٍ أكثـر أمانًـا، وأتـركُ لـكَ ابننـا شـلومو، لا أريـدُ منـه حـينَ أمـوت إلاّ أنْ يعـرفَ شـيئًا واحِـدًا: إنّـه لا توجـد أمٌّ في الكـون لا تُحـبّ ابنَهـا، ولكـنّ الحيـاة ليسـت هـي الّتي تـدور في خيالِنـا، إنّهـا شيءٌ آخر تمامًـا، وإذا كُنّـا نتقاسَـم حُبّـه معًـا، فإنّنـي أتـركُ لـه عـلى الأقـلّ نِصـفَ الحـبّ الّـذي هـو مـن جهتـك ليعيـشَ بـه... هـل سيُؤمن بـما آمنّـا بـه، إسرائيـل المحبّـة والسّـلام، أم أنّهـا بـلادٌ ستقتُلُه مـن جهتَـين، مـن جهـةِ الواقـع، ومـن جهـةِ أُمّـه، أُمّـه اليهوديّـة الّتـي تخلّـتْ عنـه في لحظـةِ قـرارٍ صعـب... فلْيكـنْ، إنّـما هـي خياراتُنـا، وسـتكون لـه يومًـا خياراتُـه، ولا أحـدَ يعلـم الغيـب ليعـرف صـوابَ خياراتـه... آآآآه... وإذا عـرفَ بمـوتي هنـاك في بـلاد الفُـرَص،

بعيدًا عن بلادِ الأحلام والوجع هذه فلا أدري إنْ كان سيستخسر أنْ يضعَ فوقَ قبري باقةً من الزّهور السّوداء أم لا». ولم يجد أبي البُكاء المرير حلاًّ بعد أنْ قرأ رِسالةَ أمّي، فاكتفى بالصّمتِ والشّرود.

صدّق أبي رحيلَ أمّي بعدَ ثلاثة أيّام من قراءته لرسالتها، فكان يصرخُ في اللّيل، ويُكسّر كلّ شيء، وكنتُ لا أزال طفلاً، لا أتذكّر من تلك الأيّام إلاّ هيئته وهو يصرخ، ويرمي كلّ شيء في كلّ اتّجاه. ثُمّ اعتكفَ في البيت أيّامًا طويلة لا يذهبُ إلى العمل، ولم نكنْ نأكل أنا وهو إلاّ الفُتات، حتّى طرقَ بابَ بيتنا أحدُهم في صبيحةِ أحد الأيّام، وقال لأبي: «نصفُ المنزلِ لي»، نظر أبي إليه بعينَيه الزّائغتَين، كان الّذي اقتحمَ وحدتَنا يهوديٌّ من ذوي الجدائل الطّويلة، وكان أبي يريدُ أنْ يصفع الباب في وجهه، لولا أنّ الغريب وضع قدمه اليُمنى عند الباب، ودفعه ودفعَ أبي من ورائه، وأشهر عليه مُسدّسه: «الدّولة تمنحني نِصفَ بيتِك، فاختر لنفسَك غرفةً تجلسُ بها أنتَ...» ونظر حولَه فلمْ يجدْ سواي أقبعُ مذعورًا، فأكمل: «أنتَ وابنُكَ المسكين هذا». وطافَ الغريبُ في البيت، وحدّد: «أريدُ غرفةَ المعيشة لي وحدي، لا أريدُ أنْ يُشاركني فيها أحدٌ، وتلك الغرفة لأنّها بشُبّاكين، أمّا أنتَ فيُمكن أنْ تختار الغرفة الّتي في أوّل مدخل البيت حيثُ تتراكم الأحذية». وأذعنَ أبي للأمر الواقع، وكان هذا الغريب يسكر في اللّيل، ويرقصُ رقصاتٍ غريبة، ويدخّن بشراهة، وينام من دون ثياب... وكان يقول لأبي: «يومًا ما سأطردك من هذا البيت بالقانون، إنّ (الكيبوتس) ينتمي للأمّة اليهوديّة، ولا شِبْرَ فيه للعرب الأنذال». وبعدَ عامَين، شعرَ أبي أنّ الرّحلة قد اقتربتْ من نهايتها، وأنّ كلّ ترميمٍ لأحلامه ليسَ إلاّ ضربًا من العبث، وبدوتُ في نظره بائِسًا من دون أمّ، ولم يبقَ له من الدُّنيا سِواي. واحتار فيما يفعل؛ لم يجرؤ أنْ يذهبَ

إلى قبر جدّي ليبكي عنده، ولا إلى بيت أمّه حيثُ جدّتي العجوز، بل قرّر أنْ يهربَ من (الكيبوتس) ومن هذا العالَم المكسور إلى قريةٍ ما، إلى أرضٍ ما، إلى وطنٍ جديد، إلى ترابٍ لا يعرف العنصريّة، ومدنٍ لا تُوزّع الوهم، واستيقظَ فيه الحنين إلى ماضيه، بقيّة من بقايا عروبته وقوميّته استيقظتْ، شَقّتْ طريقَها ببطءٍ من الأعماق، وأحدثَتْ هِزّةً عنيفةً في جوارحه، فانتفضتْ، واختار أنْ يسكن (عرّابة)، لأنّ أرضَها زراعيّة قريبةُ الشّبه من أراضي (الكيبوتس)، ولأنّها قريبةٌ من قريته لكي يظلّ يشمّ هواءَها. ومنعه شعورُه بالذّنب من أنْ يزور جدّتي في أخريات حياتها، ولم تدرِ بتحوّلات ابنِها، فماتتْ بحسرتها، ماتتْ على ذلك التّرقّب الّذي لم ينتهِ، انتظارِه كلّ مساءٍ لعلّ القدر يُفاجِئها برؤيته، وتخيُّله داخِلاً من بوّابة البيت الكبيرة، فتحتضنه ولو لمرّة أخيرةٍ قبل أنْ تودّع هذا العالَمَ المُوحِش.

وانقلبَ وجه أبي، صار يكره كلّ ما يمتّ إلى (الكيبوتس)، ولم يجدْ سبيلاً ليدفنَ ماضيه، ويعبّر عن ندمه في أنّه عاشَه، إلاّ بأنْ يغرسَ فِيّ كلّ ما أراده جدّي أنْ يغرسه فيه: «هذه الأرضُ لن تكون إلاّ لنا، ولن نستردّها إلاّ بالسّلاح، وكلّ تعايشٍ مع الصّهاينة هو مَدُّ رقبةِ الضّحيّة إلى الجزّار».

كان يقول لي: «لقد تعذّبتُ يا بُنَيّ طويلاً بسبب الهُويّة، لم أكنْ أعرفُ من أنا؟ إنّ الهُويّة الّتي تمنّيتُ أنْ تتشكّل من خلال أحلامي في البداية ظلّتْ غائِمةً قلقةً حتّى عُدتُ إلى التّراب، ترابنا». وكان وهو يُعلّمني كيفيّة استعمال المُسدّسات والبنادق وحشوها وتنظيفها: «لن يعترفَ بحقّك أحدٌ ما لم تُشهِر في وجهه هذا». وكان يُردِف: «مَنْ لم يسمعْ صوتَ الرّصاصة لن يُعطيكَ ما تريد». وفي تدريباتنا: «لن تكون البُندقية أطول من أحدٍ غير الضّعيف». وفي أُخريات حياته عَهِدَ إليّ

بِمَـنْ يُعلّمنـي تصنيـع المُتفجّـرات: «إنّهـا أفضـل مـن البندقيّـة، الرّصاصـة قـد تطيـش، هـذه لـن تطيـشَ إلاّ برؤوسـهم». كان لـدى أبي مـشروع، مـشروعٌ مغايـرٌ تمامًـا لذلـك الّـذي انخـرطَ فيـه وهـو مُراهِـق، وكان يجمـعُ حـولَ مشروعـه القنابـل المتحرّكـة، وأطفـأ ببعـضِ العمليّـات البسـيطة بعضًـا مـن نـيران ندمـه، وسـقى بهـا توبتـه، وورّثنـي ذلـك، وخـلال حياتنـا المشـتركة بعـدَ هروبنـا المُشـتَرك مـن (الكيبوتـس) لم تتّصـلْ بـه أمّـي مـرّة واحـدة، ولم تبعـث لـه ولـو رسـالةً يتيمـة، ولم يفعـل مـن جانِبـه هـو الآخَـر شـيئًا، وإنْ كنـتُ أرى الشّرود في وجهـه كلّـما جـاءَ ذِكرُهـا عَرَضًـا، ومـات بسـلامٍ وبهـدوء، وبعينَـين حالِمَـين عـام ١٩٨٦م، دون أنْ يشـبعَ مـن الدُّنيـا أو تشـبع منـه، غـيرَ أنّـه عـاشَ أطـولَ مـن عمـره القصـير، لأنّ تجاربـه المتفـرّدة وسّـعتْ ذلـك العمـر وعمّقتْـه.

وتنهّـد الشّـيخ عبـد السّـلام بعـدَ أنْ أفـرغ كلّ مـا في جُعبتـه، ونظـرَ إليّ، وقـال: «والآن... هـل أنـتَ جاهـزٌ للذّهـاب إلى أحـراشِ يعبـد؟». فأجبتُـه بحماسـةٍ: «أنـا جاهـز». «والكلـبُ؟». «جاهـزٌ هـو الآخَـر». ومضينـا.

(٩)

لا يَصمِتُ إلا المَوتى

حدثَ أمرٌ جللٌ في ساحة المدرسة، كان ذلك في الفرصة يوم الأربعاء ٩-١٢-١٩٨٧م، هاجَ عددٌ من الطّلاّب الأكبر منّا سِنّا، واعتلى أحدُهم برميلاً في وسط السّاحة وبدأ الهتاف:

اِحْنا بْنُرْفُضْ لاستِعْبادْ

يا حُرّيةْ يا استِشْهادْ

ودخلت الكلمتان (الحرّية، الاستشهاد) قاموسي بعد هذا الهتاف. وتردّدَ صدى الهُتاف في جنبات المدرسة، وتجمّع الطُّلاّب كلّهم حتّى غصّتْ بهم السّاحة، وكانوا كُتلةً من القنابل المُتحشّدة تُنذِر بالانفِجار. ولم يقبل الطّلبة بعدَ الفرصة الدّخول إلى الصّفوف، وتعالتِ الهتافات من جديد:

يا (بِيرِيزِ) اسْمَعِ اسْمَعْ

ما بِنْخافُ ولا بْنِرْكَعْ

وخرجنا إلى الشّوارع، ولم تغصّ الشّوارع بأحدٍ كما غصّتْ بنا يومئذٍ، أنا الّذي لا أزال في الصّفّ السّادس، خرجتُ معهم، ولم تهدأ حنجرتي مثلهم، وكُنّا نرفع قبضاتنا في الهَواء ونُلوّح بها، ولمّا عُدْنا إلى بيوتنا، قالتْ لنا أمّهاتنا: «معلش... مشان عيون فلسطين». وتحدّرت الدّمعات من تحت الجفون، كان الخبر قد انتشر في أرجاء فلسطينَ كلّها، وأشعل النّيران في كلّ مكان: «لقد قام سائق شاحنةٍ صهيونيّ مُتوحّشٍ بدهس مجموعة من العمّال الفلسطينيّين على حاجز

(إريز) في قطاع غزة فقتلَ أربعةً وجرحَ آخرين، وجميعهم كانوا من جباليا في القِطاع».

وفي المساء، تجمّعْنا من جديدٍ بأعدادٍ كبيرةٍ، وخرجْنا، وفي الشّوارع في كلّ فلسطين، في المخيّمات والمُدن والقُرى، كان هناكَ سيلٌ من الثّوّار يهتف:

شَعْبِي صَمَّمْ عَ الصُمُوْدْ

والحُرِّيِّةْ بَدْهَا تْعُوْدْ

طُخُّ وْصَوِّبْ عَ اليَهُوْدْ

عَ المُسْتَوْطِنْ عَ الجُنُوْدْ

وكان هذا الهُتاف إعلانَ حرب بالنّسبة لنا وللصّهاينة، فخرجتْ مُدرّعاتهم، ودبّاباتهم، وجيبّاتهم العسكريّة، وجنودهم المُدجّجون بالسّلاح لإنهاء انتِفاضتنا، ولكنّ صدورنا العارية استطاعت الصّمود أمام القُوّة الضّاربة، وكان هذا إيذانًا بانتِصار الوردة على السّكّين.

لم يكنْ لي رفيقٌ يومَها غيرُ الحجارة، كُنّا نلقي الحجارة على الجيبات العسكريّة ذات النّوافذ الشّبكيّة، تدور الجيب كأنّها قِطّة مذعورة في فناء السّاحة المليئة بالحجارة المُتساقطة، والإطارات المُشتعِلة، وزجاجات المولوتوف، وتهربُ لا تلوي على شيءٍ. بدأ الجنود بإطلاق النّار في الهواء من أجل إخافتنا، ردّ أحدُنا بأنْ وقفَ أمام الجيب الّذي بدأ إطلاق النّار وكشفَ عن صدره، وهتف: «إذا كنت رجل اضربْ هين». وأطلقَ الجنديّ النّار بالفِعل، ولكنّ الثّائر نجا، ولا أدري كيفَ، وتحسّسَ هو صدره، ورفع يده أمام عينَيه فلم يرَ الدّم، وهُرِعنا إليه

فأزحْناه من طريق الجيبّ، ولففْناه بالعَلم الفلسطيني، وواصلْنا رَمْي الحجارة، فلمّا هبطَ اللّيل عُدْنا من الشّوارع إلى البيوت.

ثُمّ كان الغَد فكانت القُوّة الضّاربة، كُنّا موجًا هادِرًا، وسيلاً طاغِيًا، لم يبقَ أحدٌ من الصّغار والكِبار إلاّ كان وقودًا لهذه المواجهات الّتي يبدو أنّها ستستمرّ زمنًا طويلاً، وكُنّا نخترع الهُتاف في اللّحظة، أو نُغنّي، أو نصدَح:

يا أَحْفَادِ النَّازِيّيْنْ

مَا انْسِيْنَاهَا دِيْرْ يَاسِيْنْ

مِـنْ رَامَ اللهْ لَجِنِيْنْ

جَرَائِمْكُو مْسَجَّلِيْنْ

فيُمطرنا الاحتِلال بقنابل الغاز المُسيلة للدّموع، كان الفضاء الرّحب يتحوّل إلى سُحبٍ صفراء وسوداء، ويختنقُ كثيرٌ منّا بحبّ فلسطين، ويقع، ويسحبه مُلثّمون في الجِوار. فإذا استنشقَ شيئًا من هواء الحرّيّة عاد إلى ما كان عليه.

كُنّا نُعيد القنبلة وهي تنفثُ دخانها الأصفر في الأجواء وتدور كأنّها تحاول الهرب دون فائدة، نمسكِها دون أنْ نكترث لحرارتها، أو لارتِجاجها كدجاجةٍ ذبيحةٍ بين أيدينا، فنقذفها نحو مَنْ أطلَقها فيُولّي هارِبًا منها، هو المُدجّج بالسّلاح اللابس واقيًا من الرّصاص وقناعًا من الغاز.

وكان المشهدُ لا يخلو من كوميديا سوداء، مرّةً رمى أحدُنا قنبلة الغاز مُعيدًا إيّاها إلى الّذي أطلقها، فلمّا رآها الجندي المتّكِئ

بذراعه على سِلاحه، أعطاها ظهره، وبدا لنا من هنا كأنّه يعرجُ لثقل الأسلحة الّتي يحملها والدّروع الّتي يلبسها، وسقطت القنبلة في قفاه، فاشتعل كأنّ زيتًا قد صُبّ فوقَها، وراح يركض بقفًا محُترِقة، وسأل أحدُنا وهو غارقٌ في الضّحك: هل قفاه من قَشّ؟!». وكُنّا إذا طال سِجالُنا مع الجنود، نأتي بسطلِ دهانٍ حديديّ فننصبه في المنتصف، ويجلس فوقَه واحدٌ يغنّي، يضع رِجلاً فوقَ رِجل، أو يأكل شيئًا، غير مكترثٍ بالرّصاص والشّهب المتساقطة حوله، وفي اللّيل، كُنّا نضيءُ الإطارات في وسط الشّارع أو السّاحة، ونُشكّل حولَها حلقة، وندبكُ ونغنّي، ونتمايل طربًا ولوعة، ونصدح بالأغاني الوطنيّة كأنّنا في عرس.

كان قد أجدى إبليسَ إمهالُه لو أجدى المحتلَّ رصاصُه، كُنّا نعكس اتّجاه القُوّة، فنعيد ما يقذفوننا به إليهم مهما كان، حينئذٍ بدأ إطلاق الرّصاص المطّاطي، اخترق الرّصاص الأجساد، وأحدثَ ثقوبًا فيها لم يردمْها الزّمن، ثُمّ اقتلعَ العيون، كم سالتْ عيونٌ على وجوهنا من أجل عيونِ فلسطين، كان أحدُنا تسيلُ عينُه على خدّه، فلا يأبه، ينظر بعينٍ واحدةٍ إلى الأرض، يلتقطُ حجرًا، ويُصوّبه بعينٍ واحدةٍ كذلك، ويقذف به عدوّه. نحن الورود الّتي لا تستسلم، القبضة الّتي لا تتراخى، الشّمس الّتي لا تغيب، ونحن قَدَر الله الّذي لا يُرَدّ!

ثُمّ لّما رأى قائد الجيش الصّهيونيّ أنّ الرّصاصات الّتي يُطلِقها جنودُه في الهواء لا تُجدِي في تفريقنا، أمر بإطلاق الرّصاص على الأرجل، وأُصيبَ كثيرٌ منّا، ونزفتْ أقدامنا، وكان واضِحًا أنّه لا يريد لهذه الأقدام أنْ تقف لتواصل مسيرة الكِفاح، ثُمّ كانتْ هناك رصاصاتٌ تطيشُ فتصيب الرّؤس، فيسقطُ الشّهداء، ولّما سقطَ أوّل شهيدٍ في جنين، فجّر لونُ الدّمّ بركانًا فينا، وكان منظر الدّم باعِثًا على تجدّد الثّورة، فصمّم بعضُنا على أنْ يحاول اختِطاف الجنود وأسرهم أو

قتلهم، ولم ننجح، لكنّ الفِكرة الّتي طرحها شبابٌ أكبرُ منّا وقعتْ في قلبي قبل أنْ تقع في عقلي.

كان نهر الدّم يسيل، وكنتُ أراه بوضوح، وأشمّ رائحته بصفاء، ولا يُثيرُ الدَّمَ مِثلُ الدّم، وما كان يُسكِتُ البندقيّة غيرُ البندقيّة، ولذا نبتَتْ في رؤوسِ آلافِ من المُنتفِضين الّذين رأوا أنفسهم يتساقطون تساقط الثّمر آلافُ الأفكار المُقاومة، وكان العَزم كلّما اشتدّت المحنةُ اشتدّ.

وماذا يبقَى من الانتفاضة غير الدّم؟! وماذا من ذكرياتها غيرُ الموت؟! كُنّا نموت بالجملة ومجّانًا... وماذا يبقى من عِظامنا؟ لم يبقَ لنا منها الكثير، لقد هُشّمتْ بالهراوات وسُحِقت حتّى تفتّتْ داخل جلودنا، وكُسِرتْ بأعقاب البنادق، وبأبشع طرقِ التّقييد والاعتِقال، كان كثيرون يعودون من السّجون أو يخرجون من البيوت حاملين أياديهم المكسورة على أعناقهم، ويرمون الحجارة باليد الأخرى، لم يكنْ تكسير العِظام ليوقفنا، ولا ألفُ اعتِقال، ولا ألفُ تهدِئة... قالوا لنا عليكم أنْ تقبلوا بِقَدَركم، عندهم طائرات الأباتشي والـ (إف ١٦)، وليسَ لديكم شيء. كانوا يردّدون: ناوروا أيّها العُقلاء، السّياسة فَنّ المُمكن. لعنة الله عليكم وعلى السّياسة؛ مَنْ يقبلُ بعجزٍ كهذا؟! مَنْ يرضَى أنْ يموت على هذا النّحو؟! نحنُ أبناء الثّورة، نحن وقودُها، سنُحطّم هذه الذّبابات الّتي يُسمّونها دبّابات، وسندمّر هذه العصافير الّتي يسمّونها طائرات، وسنحتضن هذا الموت الذّي يسمّونه القذائف، وسنسحق كلّ من يقف حائلاً بيننا وبين الغد، وكُنّا رومانسيّين إلى أقصى حدّ في ثورتنا... سندمّر نعم، ولكنّنا سنبني، سندمّر الظّلم وسنبني الحرّيّة، ولن تصادرَ حرّيّتَنا قوّةٌ مهما كانتْ جبّارة!

كانوا يُطلِقون النّار في كلّ اتّجاه، الأوغاد يفعلون ذلك كما لو كُنّا حشراتٍ أمامهم، كلابٌ ضالّة، و... ها هي رصاصةٌ تخترقُ صدره، يفوح الدّم، تبرعم الوردة، ويعبق الشّذا، وتُزغرد الأمّ، ونصنع له في الفجر عرسًا يليقُ به.

إنّ وطني هو ثورة، مَنْ قال لكم إنّه غيرُ هذا؟! لم يكنْ لديّ - وأنا طفلٌ - ألعاب، لستُ بِدَعًا من الأطفال الآخرين، كلّنا كُنّا على هذا النّحو تقريبًا، لكنّنا لم نكنْ محرومين منها تمامًا، كُنّا نلعبُ بالحجارة، نُتقِنُ رَمْيها أمام كُتلِ الإسمنت والصّفيح والرّشّاشات، وكُنّا نلعب بالمولوتوف، لقد كُنّا نُصيبُ الهدفَ ونحن نطوّح به في دورةٍ متوازنةٍ تدور لها الأرضُ بنفسِها، وحينَ كُنّا نلقي القذيفة كانت الأرض تُساعِدنا، تُخفّف من جاذبيّتها، وتسمح لتلك القذيفة ألاّ تُبطِّئ سرعتها لتصيبَ هدفها بقوّة، إنّها أرضُنا وهي تعرفُنا، ولذلك تقفُ إلى جانبنا، أمّا الغرباء فكانتْ كلّ ذرةٍ من هذه الطّاهرة تلفظهم، كانوا يُصوّبون الرّصاص نحونا فيُخطِئوننا، نتحسّسُ صدورَنا ولا دم، نصيح بالجنديّ: «أيّها اللّعين في المرّة القادمة حينَ تُصوّب بندقيّتك لا تَبُلْ في ثيابك حتّى لا تُخطِئ هدفك». لم يكنْ لرصاصه أنْ يستقرّ في صدورنا إلاّ إذا سمحتْ له بلادُنا ذلك، إلاّ إذا رضي التّراب عن هذا، كان التّراب يريدُ أنْ نسقطَ فوقَه ليضمّنا، لِيُطفِئَ عطَشَه، ولينتعشَ الجفافُ الّذي فيه، كُنّا شوقَه، وكان غايَتَنا، في هذه الحالة فحسب كانتْ رصاصةُ الجنديّ المذعور تقع في العنق أو الصّدر!

منذُ أكثر من ثلاثة شهورٍ، ونحنُ لا نهدأ، والرّصاص لا يهدأ، اعتُقِلَ المِئات في جنين، كانَ واحِدُهم يُلوّح لنا وهو يصعد في قفص الجيبّات العسكريّة: «سلّمو لي على إمّي... مش مطوّل وراجع». أحدهم رمى لي وردة: «إنّها حبيبتي، هل يُمكنك أنْ تقول لها إنّني أحبّها!».

جنون، الحجارة شهبٌ مُتساقطة، رَكْضٌ في كلّ اتّجاه، الطّوب المُتكسّر في الشّوارع، الزّيت، السّيول، الأوساخ، بقايا أمس، الأنوف المُتشمِّمة، الثّياب المُمزّقة، العصيّ، القضبان الحديديّة، و... كانت الإطارات المُشتعلة تُضيءَ ليل جنين، السّواتر التّرابيّة تقفُ كالحارس في وجه التّوغّل، تختلطُ رائحة الرّصاص برائحة الدّم، رائحة الكاوتشوك المُحترق برائحة شتلات الياسمين الّتي تُطلّ من خلف أسوار البيوت بأعناقها وهي تُحيّينا في الطّريق، الدُّخان الكثيفُ بالنّسيم... جنون... ولكنّه جنون الحبّ للتّراب، الجنون الّذي يجعل للحياة معنى!

نحن الّذين نجعل لهذا الدّم قيمة، لقد باعوه بثمنٍ بخس، فإنْ هانَ عليهم فلم يهنْ علينا، حدث ذلك فيما بعد، جُنديّ في أوائل العشرين من عمره، في السّادسة والرّبع صباحًا من يوم الأحد، وصل إلى مفرق (رحوبوت ريشون) شرق (تلّ أبيب)، قَدِمَ من (ريشون) بحذائه العسكريّ سيرًا على الأقدام، لم يكنْ يحمل إلاّ بندقيّتَه الـ (١٦م) وحِقدَه الأسود، توجّه عبر البيّارات إلى (مفرق الورود) حيثُ يتجمّع العُمّال القادمون من غزّة، وأوقف سيّارة وطلبَ من سائِقها التّرجّل، وأنْ يُبقِيَ مُحرّكها شَغّالاً، ثُمّ توجه إلى مكان تجمّع العُمّال حيثُ تجمّع أكثر من مئة عاملٍ، صَفّهم في ثلاثة طوابير، وطلبَ منهم هويّاتهم، لم يكنْ ينظر في الهويّات إلاّ ليتأكّد أنّهم عرب، ثُمّ أمرهم بأنْ يجثوا على رُكَبِهم، وراح يُطلِق النّار عليهم، كان يصرخ: «الموتُ للعرب... الموتُ للعرب...». وانتشرت الجثث، ومُزّقت الأشلاء، وغَطّى الدّم الجدران وواجهات الحافلات، وفرّغ القاتل أربعة مخازن رشّاشة، وكان يُصوّب على الرّؤوس والصدّور وهو يهيج: «لا نريدُكم على أرضنا... الموتُ لكم». ثُمّ لمّا فرغتْ مخازنه، عادَ إلى السّيّارة الّتي أنزل صاحبها وطلبَ منه أنْ يبقي مُحرّكها شَغّالاً، وركبها، وتوجّه

بها إلى صديقته، ليقضيَ معها وقته بعد أنْ شعر بأنّه محتاجٌ للحبّ إثْر هذا المجهود الكبير!!

يقتلون، يسرقون، يُقسّمون البِلاد إلى كانتونات وكيبوتسات، يرفعون الجُدران، يَلِصُّون القمح، ويبعثون الجراد، وينعقون كالغربان، وتنضحُ كلماتُهم بالحقد والموت، وتريدون منّا بعدَ ذلك أنْ نصمت، لا يصمتُ إلاّ الموتى أيّها الموتى.

جعلتْني هذه الحادثة أفكّر في أنْ أحصل على تصريح عمل، إنّه تصريح عملٍ من النّوع الّذي أخطّط له منذُ زمن.

لم نتوقّف، كان القتل مُمَنهجًا، وكانتْ كلّ طعنةٍ تغوص عميقًا، وتبقى في الذّاكرة، لا ينتقم إلاّ مَنْ كان ذا ذاكرة، أمّا أولئك الّذين ينسَون فسيقبلون بأيّ شيءٍ، لم يكنْ لائِقًا بالثّائرين أنْ يقبلوا بأيّ شيء.

إنّها الحرب إذًا، هكذا كان عليّ أنْ أفهم ذلك وأنا لا أزال فتًى غَضّ الإهاب، لم يكنْ هناك بعدَ تلك الحوادث الّتي مرّ عليها أكثر من أربع سنين، ما يُزيل من عقولنا - نحن الّذين عشنا تلك التجربة - هذه القناعة، إنّها الحرب، وإنّه الدّم بالدّم، وفلسطين لن تعودَ بغير هذا ألبتّة.

كلّ شيءٍ ينزف، جسدُه، التّابوت الّذي حُمِلَ فيه، كوفيّته، والدّحنون الّذي شكّل إكليلاً على رأسه، وعيون هؤلاء الّذين يحملونه على الأكتاف، الثّياب المُلطّخة، الأرجل الّتي تخوضُ في الطّين والدّم، الجروح الّتي لا تندمل، وقلوب الأمّهات المُنفطرة، والحبيبات الموعودات بالشّفاعة، و... وكلّ شيء.

لم يعدْ يعرفني في البيت أحدٌ، أمّي تنظر في عينَيّ طويلاً، تبحثُ فيهما عن إجابةٍ لسؤال ظلّ يحوم في قلبها: «ما الّذي غيّركَ يا بُنيّ؟».

إنّها الحربُ يا أمّي، إنّه الثّأر، لقد رأيتُ من الموت ما يكفي. تُحرِّك الطّبق الّذي أمامي، تقول: «لماذا لا تأكل؟». أستفيق من شرودي، أردّ: «لستُ جائِعًا». «لستَ جائِعًا؟! أنتَ لم تأكلْ منذُ ثلاثة أيّام!!». أهزّ رأسي، ترجوني، لا يُفلِح الرّجاء، تستعين بالكلب، تناديه: «ريّان». يأتي مُبصبِصًا، ذيلُه يبدو رايةً خلفه، وعيناه الغاطِستان في العسل يلمع سوادُهما، يقترب من أمّي، تقول: «قل له أنْ يأكل». يتمسّح الكلبُ بي، ينبح، تقول عيناه: «لن نستطيع أنْ نُتمّ مَهمّتَنا دون طَعام، هَيّا يا صديقي». أظلّ جامدًا كصخرة. تقول أمّي: «قُلْ له إنْ لم نأكلْ فلن أخرجَ معك». أرفعُ يدي: «لا تقلْ شيئًا يا رَيّان». آكلُ لقمتَين، وأقوم، يتبعني الكلب: «أنا معك».

أُرتّبُ حقيبتي، أدوسُ على الجرح، لن أجتازه دون أنْ أدوسه، كانتْ هذه قاعدتي في المضيّ قُدُمًا. أتأكّد من أنّ كلّ شيءٍ في مكانه، الأدوات، المقابس، الصّواعق، والموادّ، والنّابض، و... أمنّي نفسي بالنّوم لساعةٍ قبل أنْ أخرج في هذا اللّيل البهيم، أغفو قليلاً، عظامي متكسّرة، جسدي مُنهَك، أرى النّجوم، أرى الأشجار الزّرقاء، والصخرة الّتي التقاني عندها ريّان، أرى الأفعى، ذات الأفعى، تكادُ تلتهمني، أقوم من النّوم مُرتعِبًا، ألهثُ، صدري يتردّد، أنظر حولي بفزع، أرى عينَيْ (ريّان) تقولان: « اهدأْ، لا تخفْ، أنا معك». أشعر ببرودة الجوّ، الغِطاء الأزرق جليدٌ، السرير الأزرق جليدٌ، الجُدران الزّرقاء جليدٌ، والأحلام جليدٌ كذلك... أشدّ بعضَ الثّياب على جسدي المقرور، أضع الحقيبة على ظهري، وأخرج، يتبعني رَيّان، يتصاعدُ الضّباب الخارج من أفواهنا أزرق، أنفخُ بين يدَيّ هواءَ رِئتَيّ لعلّني أدفأ، أمضي على هُدى النّجوم الزّرقاء، أسمع ريّان من ورائي يقول : «لا تخفْ أنا معك».

(١٠)

أينَ سمعتُ هذا الصّوت؟

بعيدًا عن الأعين، حيثُ لا يرانا إلاّ الله، كان هذا لقائي المُختلِف بالشّيخ عبد السّلام في الأحراش، كان يقول: «من هنا خَرجَتِ الثّورة عام ١٩٣٥م، وهنا أسّس القَسّام طليعتَه، نحنُ على طريقه».

إنّها غابةٌ مُتشابِكة، غطسْنا بين جذوع اللّزّاب والصّنوبر والسّنديان، الجذوع العالية، في قمم هذه الأشجار لم يكنْ ينفذُ منها شيء، ولا حتّى ضوء النّجوم السّماويّة، إنّها المكان المُناسِب للتّدرّب على تصنيع المتفجّرات.

نقضي اللّيل في التّجريب، نخلطُ المواد المُتفجّرة، كُنّا نستخدم ملح البارود في البداية، ثُمّ خلطْنا معه سوائل قابلة للاشتِعال، ثُمّ موادّ ضاغِطة، نمدّ السّلك المُتفجّر إلى مسافةٍ كافية، نُشعله، ونركضُ مُبتعدين، ثُمّ في غضون خمس ثوانٍ... بُممممم... تنفجر الكُتلة المضغوطة مُحدثةً لهبًا يتصاعد إلى أعلى، يمسّ الأغصان القريبة، وتسقطُ محترقة، تتوهّج النّار في اللّيل، تُضَوِّئ المكان، يبدو كلّ شيءٍ على ضوء اللّهب أصفر، نرى كثيرًا من الزّواحف على هدي تلك النّار تهرب، وأنا أنظر إلى (رَيّان)، إنّه يُراقِبنا، يُقعي مُتحفّزًا على مبعدة، وأعرفُ من نظرةِ عينَيه، ومن هدوئِه الحذر أنّنا بأمان، وأنّه لا أحدَ من النّاس المُتطفّلين أو الطّوّافين في الأحراش قد رآنا أو أحسّ بوجودنا، مُشكلتنا مع اللّهب، كلّما زِدْنا كمّيّة السّوائل المضغوطة والموادّ القابلة للانفجار

يتصاعد اللّهب إلى الأعلى، ولكنّ كثافة الأشجار وتشابُكها، وحنوّها علينا كأنّها قُبّة من بناءٍ عالٍ يُغطّينا... كلّ ذلك كان يُبقينا بعيدًا عن أنْ نُرَى.

بعد شهرَين من التّجريب مع الشّيخ وحدي، في برد اللّيل وعتمته، بدأتُ أرى آخرين يدخلون دائرتنا المُغلَقة، يقول الشّيخ: «إنّهم إخوتنا في النّضال»، توالى عشرةٌ منهم على الأقلّ، كلّهم مُلثّمون، لم يُتَحْ لي أنْ أرى وجه واحدٍ منهم أبدًا، ووحدي كنتُ مكشوفَ الوجه، لم يكنْ بإمكاني أنْ أعرفَ أنّ هؤلاء الملثّمين كانوا معنا أيّام الانتِفاضة أم لا؟ وحتّى أسماءَهم لم تكنْ حقيقيّة. وزّع الشّيخ مع الوقتِ مهامّ محدودةً علينا: استكشاف نِقاط الحواجز الأمنيّة، عددُ الجنود، تسليحُهم، وأوقات مناوباتهم، والوردّيات، وعدد الجيبّات العسكريّة الّتي تتردّد على المكان، وما إذا كانتْ هناك (بوسطة) تمرّ من المكان، لقد كان يُخطّط لأمرَين: الخطفُ والتّفجير... كانَ يُجهّز العبوة، ويرسم الخُطّة، ويُعيّن المُنفّذ، ويُطلِقه إلى الهدف قُبيل الفجر، ويمضي إلى مسجد (أبو جوهر) إمّا على حمار أو على درّاجةٍ هوائيّة، ويُصلّي في النّاس، أمّا نحن فنُتِمّ بعضَ المهامّ الّتي أوكلها لنا، وننظّف الآثار الّتي خلّفناها في ورشة التّدريب والتّجريب. ووحدي من بينِ المُتبقّين جميعهم كنتُ أسمعُ صوتَ الشّيخ يعبر هذه المسافات البعيدة في هذه السّهول الفسيحة عبر هذه الغابة المُمتدّة في سكون هذا اللّيل الصّافي وهو يتلو: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللهَّ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِير * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا اللهَّ...» أو هكذا كان يُخيّل إليّ. ولكنّه كان صوتَ اليقين، وبرد الطّمأنينة في ليلٍ كلّ ما فيه حولَنا يبعثُ على الرّهبة.

كان المُناضِلون الّذين ينضمّون إلى قافلتنا يظهرون فجأة، وبوجوهٍ مُلثّمة، لم يكنْ مسموحًا لي في البداية أنْ أرى وجوههم، عشرةٌ

على الأقلّ استمرّ الغموض يُحيطُ بوجوههم قبل أنْ يُعلِنَ الشّيخ عن كشفِ وجهِ أحدهم، كان ذلك يعني أنّه صار جاهِزًا للعمليّة، لم يُكشَف وجهٌ دون أنْ تُسنَد إليه مهمّة.

كان هذا في ليلٍ صقيعيّ، تمنّيتُ أنْ تنفجر العبوات الّتي نُصنّعها وتُحدث حريقًا حتّى أشعر ببعض الدّفء العزيز، هذه المرّة لم تنفجر العبوة، البرد والمطر والصّقيع جمّد كلّ شيءٍ فيها، تقدّم أحدُهم، اقتربَ منّي، سألني: «كيفَ حالُكَ يا محمود؟». نظرتُ في وجهه، لم يكنْ يبدو من لِثامه غيرُ عينَيه، لم يكنْ من السّهل أنْ أراهما في وسط هذا الظّلام الكثيف، وضع يده على كتفيّ بحنوّ: «هل أنتَ بخير؟». عبرتْني موجاتُ عينَيه الوَدُودتَين، وصوتُه الدّافِئ، كيفَ عرفني؟ سألتُه: «تعرفني؟». «النّضال رَحِمٌ بيننا». لم يكنْ صوتُه غريبًا عليّ، تدخّل الشّيخ: «لا وقتَ للمُجاملات هنا، علينا أنْ نطوّر المادّة المُتفجّرة الجديدة، حتّى ولو أفسدها علينا هذا الطّقس البارد». وانهمكنا في العمل، لكنّ نبرةَ صوتِه لم تُفارِقني، كنتُ أحدّث نفسي: «أينَ سمعتُ هذا الصّوت؟ يبدو مألوفًا جِدًّا لديّ، راجعتُ الأصوات الّتي عبرتْ أذني في آخر عشر سنواتٍ، لكنّني لم أهتدِ إليه. هل كان أحدَ المُلثّمين الّذين كانوا يرفعون أصواتهم بالهُتافات أيّام الانتِفاضة...؟! لكنّ كثرة الّذين هتفوا فيها عَمّى عليّ، وتداخلتِ الأصوات في رأسي وحامتْ في فضائِه حتّى صدّعتْني وكادتْ تُفجّر دماغي، هززتُ رأسي هزّات سريعةٍ متابعةٍ فأسقطتُ الضّجيج الّذي فيه، وأخذتُ نفسًا عميقًا قبل أنْ أستعيدَ صفاء عينَيه في هذا الدُخان، أين رأيتُ هاتين العينَين، إنّني رأيتُهما من قبلُ بلا شَكّ... ومرّ شريطٌ طويلٌ أمام ذاكرتي تراقصتْ فيه مِئات العيون لعلّني أحظي بعينَيه من بينهما، ولكنّني فشلتُ من جديد، وشعرتُ بالضّيق لذلك، وهمستُ: لماذا عليّ أنْ أعرفَ عينَيه

أو صوتَـه؟! إنّـه واحـدٌ مـن هـذا النّهـر المُمتـدّ مـن المُناضِلـين المجهولـين، فلْيكـنْ، إنّـه ليـسَ بِدْعًـا... واسـترحتُ لفكـرةِ نسـيان الأمـر، وانشـغلتُ بإتمـام مـا طلبـه الشّـيخ منّـي.

حـينَ عُـدتُ إلى البيـت، قفـزتْ عينـاه أمـام وجهـي، فملأتـا علـيّ فضـاء الغرفـة، لم أسـتطع النّـوم، ناديـتُ علـى رَيّـان، جـاءني مسرعًـا، سـألتُه: «هـل تعرفـه؟ هـل رأيـتَ عينَيـه مـن قبـل؟». أشـاح بوجهـه جهـةَ اليسـار، وهـرّ هريـرًا خافِتًـا، عرفـتُ أنّ هـذه تعنـي: (لا)، لكنّنـي أمطرتُـه بوابـلٍ مـن أسئلتي وهواجسي بعدَهـا: «وصوتَـه؟ لا بُـدّ أنّـكَ يـا رَيّـان تُميـزّ الأصـوات بشـكلٍ جيّـد، ألمْ تسـمعْه مـن قبـل؟! إنّـه قـالَ هـل أنـتَ بخـيرٍ بطريقـةٍ كأنّنـي قلتُهـا لنفسـي! هـل رأيـتَ قامتـه؟ يُمكنـكَ أنْ تكـون تعرّفـتَ إليـه مـن جسـده النّحيـل الصّلـد؟ لا...لا... ولكـنْ لمـاذا علـيّ أنْ أسـأل نفسـي عـن هـذا الوجـه المُلثّـم بـين مِئـات الوجـوه المُلثّمـة الّتـي عايشـتُها؟ هـه يـا رَيّـان لمـاذا؟ يـا رَيّـان... يـا كلـب لِمَ لا تجيـب؟ هـل أكلـتِ القطّـة لسـانَك؟ هيّـا قلْ شيئًـا أيّهـا الكلـب...» لكـنّ ريّـان دار حـول نفسـه مرّتَـين وأقعـى، وأشـاح بوجهـه جهـة اليسـار مـرّة أخـرى، وكأنّـه يقـول لي: «أوووه، لقـد تعبـتُ مـن أسـئلتك الّتـي لا إجابـة لهـا عنـدكَ فكيـفَ تكـونُ لهـا إجابـةٌ عنـدي؟!». وطـردتُ الكلـب: «اخـرجْ مـن هنـا... هَيّـا اغـربْ عنّـي». وحاولـتُ أنْ أنـام، ولكـنّ عينَيـه وصوتَـه الدّافِـئ عَذّبـاني بقيّـة اللّيـل.

(١١)

الشّقّة رقم (١١)

قال لي الشّيخ: «كثرةُ الأسئلة اختِلاف، ومُحاولة البحث عن إجابةٍ لها انكِشاف». فخجلتُ، خفضتُ طرفي برهةً ثُمّ رفعتُه: «لكنّني يا شيخ أُعاني منها، إنّها تنداح كالطّوفان في أعماقي، تُحلّق كطيورٍ سوداء في عقلي». «السّؤال خبيئة، لا تكشفْ نفسَك». «متى دوري في العمليّات؟». «عُدتَ إلى الأسئلة». صمتّ، تبعتُه، كان يمشي إلى الأحراش، كُنّا نركبُ حمارَين، ويتبعنا ريّان، نظرتُ إليه أمامي، كانَ يلبسُ قلنسوةً، تتدبّب في الأعلى، وتَقْلُصُ عن اللّحية في الأطراف... لا يُشبِه الفَلاّحين الّذين أعرهم، تركْنا الدُّور، صرنا مكشوفَين للخَلق، هَمَزَ حِماره، أسرع، دخل الأحراش، كان دخولُه يُشبه دخول الأبطال الخارقين إلى غاباتٍ ساحرة، سقطَ ضوء القمر على كتفه، شَطَرَ الظّلُّ كاهلَه، بانتْ من عارِضَيه سوسناتُ لِحيته، تشهّبَ على الضّوء الآنِس أطرافُها، إنّه ليس بشرًا، حدّثتُ نفسي، ثُمّ ابتسمتُ: «كيفَ لا يكون؟». مضى، جَرحَ تَهادِيه طيفَ الذّكرى، تشابكت جذوع الشّجر، غَطَشَ اللّيل، يا شيخُ: «أخافُ غَطْشَةَ اللّيل في وَحشةِ الطّريق». «آنِسْ قلبكَ يا فتى». «»ليس فيه إلا الوحشة يا شيخ». «ذلك أنّ الله ليسَ فيه». «وكيفَ يكون؟!». «مَن كان معه كان معه». «إنّ صوتَك يمنحني الطّمأنينة». «لم يكنْ صوتي لي، كان له». «ما أجملَ ما تقول!». ومضينا، ثُمّ صرنا في قلب الظّلمة، وأذرع الشّجر، وكُنّا كأنّا – وقبّتها من فوقنا – في القاع، فانطلقَ صوتُ الشّيخ حينَ أدركَ أنّه لا غريب يسمعنا: «الّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهم». فذرفتْ دموعي، ونظرتُ إلى عينَي الكلب

فإذا هما تلمعان كأنّ ماءً يترقرقُ فيهما: «هل يبكي الكلب؟!».
ونزلتُ من على حماري، وأبقيتُ رَسَنه في يدي، وأقبلتُ على الكلبِ فحضنتُه فنشج، ثُمّ سكن، ورَحّبتْ بنا الأرض، وبسط السَّحَرُ رِداءَه، ثُمّ دَنا الشّيخ منّي فسألني: «هل يبكي؟!». فهززتُ رأسي: «نعم».

ثُمّ ربطْنا الحِمارَين، واتّخذ (رَيّان) موقِعَه، جلسَ الشّيخ تحتَ شجرةِ بلّوطٍ مُعمَّرة، جمعَ بينَ كَفَّيْه، وأنزلَ رأسَه، فبان تدبيب القُلنسوة، وصمتَ صمتًا طويلاً حتّى ظننتُ أنّه في صَلاة، ولّما طالَ صمتُه سألتُه: «والآن؟». فظلّ صامِتًا على هيئته دون أنْ يُغيّر من جلسته شيئًا، ثُمّ نظرتُ إلى الكلب فإذا هو باسِطٌ ذراعَيه، وإذا هو قد خفضَ رأسه فبان تدبيبُ أُذنَيه، وإذا هو صامتٌ كالشّيخ على هيئته، وإذا هو في صلاةٍ هو الآخَر، فتأدّبْتُ في حضرتهما، ثُمّ طال الصّمت، وضِقتُ ذرعًا به، فتقدّمتُ خطوةً نحو الشيخ، وسألتُه: «والآن يا شيخ؟». فلمْ يُحرّكْ ساكِنًا، ثُمّ جثوتُ على رُكبَتَيّ أمامه، وسألتُه من جديد: «هل نبدأ؟». فرفع رأسه هذه المرّة ونظر في عينَيّ، كانت عيناه بحرًا ساجِيًا، وحُلُمًا مسافرًا، وشاطِئًا رَهْوًا، وهمس: «تخفّفْ مِنك». ولم أفهم، غير أنّني شعرتُ في الكلمة بلسعة العِتاب، ثُمّ تنهّد طويلاً، قبل أنْ يقول: «سيأتون، لا تستعجلْ. هل أخذتَ منه نصيبَك؟» ورفع كَفّه إلى السّماء، ففهمتُ شيئًا وغابتْ عنّي أشياء، غير أنّني داريتُ ما لم أفهمه بالسّؤال: «أينَ أضع المقابس؟».

ولم أكدْ أضعُها حيثُ أمرني حتّى قفزَ بخفّةٍ في وجهي مُلثَّمان، قد برزا من تحتِ حفرةٍ عميقةٍ يختبِئان فيها، كانا يحملان على كتفَيهما بنُدقيّتَين، ويتحزّمان بجنّاد من الرّصاصات، ويتمنطقان بعددٍ من القنابل، لم أرَ من وجهَيهما غيرَ عينيهما المُبتسِمَتين، ولم يقولا

حرفًا واحِدًا، جلَسا عن يمين الشّيخ ويساره، ثُمّ رأيتُ الكلبَ قد اختفى، فنظرتُ إلى الشّيخ خائِفًا فهدّأ من رَوْعي بيده: «إنّه يعرفُ ما يفعل». ثُمّ ما عَتَّم أنْ عادَ يتقدّم ثلاثةً من المُلثّمين، فاتّخذوا مواقعهم من الحلقة، وصِرنا نصفَ دائرة، كنتُ أواجه الشّيخ وهناك اثنان عن يمينه وثلاثةٌ عن يساره، وبقيتْ بعضُ الفراغات في الدّائرة، قال الشّيخ: «لدينا معلوماتٌ جيّدة عن بعضِ الحواجز، جهّزتُ خُطّة، وسينفّذها اثنانِ من الحاضرين». لم يقلْ أحدٌ شيئًا باستثنائي: «هل أنا منهما؟» وأشرتُ بإصبعي إلى صدري، غير أنّ الشّيخ أدار وجهه إلى الجهة الأخرى، ثُمّ مرّتْ لحَظَاتُ صمتٍ طويلة، لم يكنْ لأحدٍ أنْ يقول شيئًا في حضرة الشّيخ ما لم يقلْ، فلمّا مرّ وقتٌ لا أعلمه سرحتُ بخيالي إلى الصّوت الدّافِئ الّذي لم أدرِ أينَ سمعتُه، وتمنّيتُ من المُلثّمين الخمسة أنْ يتحدّث أحدُهم ولو بكلمةٍ واحدةٍ حتّى أعرفَ مِن الصّوت إنْ كان موجودًا أم لا، لكنّهم كانوا خُرْسًا كأنّما خُلِقوا بغير ألسنة، وحاولتُ أنْ أسترقَ النّظر إلى عيونهم فأعرفَ صاحبَ العينَين الودودتَين منهم، ذلك الّذي منعني النّوم، فلم أرَ تلك العيون في عتمة اللّيل، ولم أتبيَّنْها تمامًا، وإنْ ظلّ الشّكّ يعدو في صدري... ثُمّ انشقّت الأرضُ عن ثلاثةِ مُلثّمين آخرين، لم أدرِ من أينَ جاؤوا، ولا أدري إنْ كان الشّيخ بإشارةٍ منه قد أمرهم بالظّهور، ثُمّ أكملوا ما نقص من فراغ الدّائرة، ولم يبقَ فيها من فراغٍ إلاّ لذلك الّذي سيجلِسُ عن يميني، والآخر الّذي سيجلسُ عن يساري، وفكّرتُ: بأيّة طريقةٍ سيظهران؟ ولم أكدْ أُتمّ السّؤال في ذهني حتّى سقطَ اثنان من السّماء، فجلسَا في الفراغَين، ونظرتُ إلى أعلى فعرفتُ أنّهما باتا ليلتهما على جذوع الأشجار في الأعالي، واكتملتِ الحلقة، ونظرتُ إلى قلبي فإذا هو يخفقُ، وإليهم فإذا هم خافِضون أبصارهم ينظرون في الأرض، وإلى الشّيخ، فإذا هو مثلهم، غير أنّه في لحظةٍ فارقة رَفَعَ رأسه، فأشرقَ

وجهُه علينا، ثُمّ مَدّ الصّوتَ فتلا السِّحر الحلال: «إنّهم فِتية آمنوا...».
وسكنَ ما اضطرب، وجُمِعَ ما انسكب!

ثُمّ أمر الشّيخ أنْ نبدأ العمل، فأخذَ كُلّ بحسب الخطّة موقع تنفيذه، وفردْنا الخرائط على الأرض، وأضأنا بالشّموع البُقعة المُغلَقة، وغُصتُ في تخيّل الطّريق والأزقّة والسّهول الّتي يجب أنْ أقطعها من أجل أنْ أصل إلى النّقطة المُحدّدة، وفي غمرة تخيّلي هذا شعرتُ بيدٍ حانِيةٍ تهبطُ على كتفي: «كيفَ أنتَ يا محمود؟». ولمعتْ عيناي، وخفقَ قلبي، إنّه ذات الصّوت، وهمستُ: «أنتَ هو؟!. «نعم». «فمن أنتَ؟». «عليكَ أنْ تتذكّر». وغُصتُ في عينَيه، وهمستُ ثانيةً: «عيناك... عيناك!». «ما شأنُهما؟». «ليستا غريبتَين عليّ». «صدقت». «فمن تكون؟». «حاولْ». «لن أعرفَ دون أنْ أرى وجهك». «لا أستطيعُ أنْ أُزيل اللّثام». «ولو قليلاً؟». «ولو قليلاً». «فكيفَ لي أنْ أعرف؟!». «الطّريق». «تجمعُ كلّ أحدٍ، فما المُميّز في ذلك؟». «بل لا تجمعُ غيرَنا». «أيّة طريق». «طريقُ المطر». ورجعتُ بالذّاكرة إلى كلّ ما يُمكن أنْ أرى فيه مشهدَ مطرٍ مرّ في خيالي يومًا، ثُمّ همستُ: «قرّبْ لي الأمر قليلاً». «إنّني جائع». فقلتُ: «لقد سمعتُ هذه العبارة من أكثر من نصفِ أولاد الحارة ومن أولاد المدرسة كلّهم، فأنّى لي أنْ أعرف؟». لقد قلتَ لي يومَها: «فلْتُطعِمكَ أُمُّك». «آه... آه... قلتُ هذه العبارة... أعني كنتُ أقولها لكثيرين، لقد زِدْتَني حيرة». «أنا أعرف أنّكَ لن تتذكّرني بسهولة لأنّ فقد الأصدقاء موت، أنا ثالثُ ثلاثة، أحدُنا ابتلعه البحر في غزّة، والثّاني ابتعلتْه الأرضُ في مدن الملح، والثّالث أنا...». «أنتَ الّذي علّقتُ موتَك، لأنّكَ لم تُبدِ سببًا للغياب؟». «لا أدري إنْ كنتَ فعلتَ!». لمعتْ عيناي، خفَق قلبي، نظرتُ إلى جفنه، طلبتُ منه أنْ يُغمِضه، أغمضَ جفنَه كما طلبتُ،

رأيتُ ما كنتُ أنتظره؛ شامةً بقدْر حبّة العدس على جفنه الأيمن، شهقتُ، هززتُه من كتفَيه وأنا أمعن النّظر فيه: «أنتَ هو؟». ابتسمتْ عيناه: «مَنْ؟». «ذو الحاجبَين الكثيفَين؟» صرختُ بصوتٍ عالٍ، تنحنحَ الشّيخ، همسَ: «نعم». وصرختُ: «أنتَ عمّار؟!». «هو، هو، بلحمه وشحمه». ثُمّ هوى إليّ وهويتُ إليه، فاحتضنْتُه بأشواقِ عمرٍ كامل، ثُمّ أمسكتُ كتفَيه بذراعَيّ، وأبعدتُه بهما، وسألتُه بعتاب: «كيفَ طاوعكَ قلبُكَ أنْ تتركني؟». «لقد خطفَ الشّيخُ قلبي». فَلِمَ لم تقلْ لي لأتبعكما». «طلبتُ من الشّيخ ذلك، فقال لم يحنْ وقتُ أخيك». ثُمّ تعانقْنا من جديدٍ، فسمعنا الشّيخ يهتف: «هَيّا إلى العمل، لا وقتَ للمُجامَلات».

مرّ جزءٌ من اللّيل، أو نِصفُه على الأقلّ، أتممْنا المهمّة الّتي جِئنا لأجلها، كشفَ الشّيخ وجه أحدِ العشرة المُلثّمين، كان ذلك يعني أنّه صار جاهِزًا لتنفيذ المهمّة، حدّد له الزّمان والمكان، وكان التنفيذُ يقتضي أنْ يكون بالعبوات النّاسفة. أنْ ينكشفَ وجهُك يعني أنْ تُواجه الموت أو تكون على موعدٍ معه، أن ينكشفَ وجهُك يعني أنْ تفتحَ البوّابة له، وتقبلَ به ضيفًا عزيزًا.

مرّ أكثر اللّيل، قام الشّيخ فصلّى ركعتَين في سُجُوِّ الظّلام، قرأ في الأولى: «قُلْ مَنْ يُنجّيكم». وقرأ في الثّانية: «وبشّر الصّابرين». ثُمّ لّما فرغنا عُدْنا إلى حلقتنا، هتف الشّيخ: «المكان المفتوح سيكون مفتوحًا على الاحتِمالات كلّها... ثُمّ الطّريق إلى هنا قد تكون طويلة، وغير آمنة، ويصعبُ الوصول إليها، ويسهل انكِشاف مرتادها، فما رأْيُكم؟». قال أحدهم: «نغيّر المكان». «سنغيّره، ولكنْ إلى أين؟ لن نظلّ في مكانٍ مفتوحٍ، شعاعُ ضوءٍ واحدٌ منفلتٌ قد يكشفنا». هتفَ ذو الصّوت الدّافِئ الجالس عن يميني: «أعرفُ مكانًا جيّدًا». نظر

إليه الشّيخ يطلبُ منه أنْ يُكمِل. هتف: «شقّة منسيّة ومُهمَلة تقع في عمارة على شارع عاديّ، وهي شقّة تُطلّ على حاكورةٍ خلفيّة، بحيثُ لا تكون على الشّارع، وبينها وبينَ العمارة الأخرى هذه الحاكورة المُسيّجة بالأشجار العالية، وبالتّالي يُمكنُ اعتبارها مخفيّة، وإذا قُمْنا بتعمية النّوافذ، فإنّها ستُصبح شقّة أشباح، ولها مدخل منفصل، لأنّها الوحيدة الّتي لها درجٌ من الحديقة، وصاحب العمارة لا يهمّه شيءٌ باستثناء المال». هَزّ الشّيخ رأسَه: «يبدو أنّها مُناسِبة. عليّ أنْ أزورها أوّلاً لأتأكّد من أنّها صالحة، ثُمّ سأقرّر».

خرجْنا فُرادَى، أمّن (ريّان) الطّريق، مسحها في الاتّجاهات كلّها بأنفه، وأرهفَ لها سمعه، ثُمّ نظرَ إليّ من موقعه وفتحَ فَكّه ورفعَ لِسانَه حتّى مَسّ أرنبَة أنفِه، كان يقول: «لا أحدَ يراكم، يُمكنكم الانصِراف، فليس هناك ما يريب».

بعدَ أسبوعٍ التقينا في الأحراش من جديد، اكتملت الحلقة، قال الشّيخ: «لقد توصّلْنا إلى تطوير مادّة مُتفجّرة أقوى من كلّ ما صنعناه من قبلُ، وسنسمّيها...». وسكتَ ونظر في وجوهنا كأنّه يريدُ لأحدٍ منّا أنْ يُطلِقَ عليها اسمًا، فقال ذو الصّوت الدّافِئ: «أمّ العبد... نُسمّيها أمّ العبد». وضحكْنا وضحك الشّيخ، ثُمّ أردف: «سنسمّيها كذلك، أمّ العبد... ولكن». وصمت، وتحفّزْنا لِما سيقول، فأردف: «هذه آخر مرّة سنجتمع فيها هنا، زرتُ الشّقّة الّتي اقترِحت في المرّة السّابقة فوجدتُها آمنة، ومن المرّة القادمة سنبدأ عملنا فيها، ولكنْ لا بُدّ من تسميتها، هل من اقتراح؟». انسابَ صوتُه الدّافِئ من جديد، ذلك الّذي لا يزال جائِعًا إلى كلّ شيء: «الشّقّة رقم (١١)». وارتسمت ابتِسامةٌ غامضة على شفتَي الشّيخ، وسأله: «ولِمَ أعطيتَها رقمًا لا اسمًا؟ ثُمّ لماذا الرّقم (١١) بالذّات؟». أجاب بهدوء: «الرّقم

(١١) اختِصار، ولا مجال للثرثرة في عملنا». هَزّ الشّيخ رأسه مُعجبًا، وهمس: «والرّقم؟». «نحن المُلثّمون العشرة، ومحمود هو الحادي عشر». فهزّ رأسَه من جديدٍ إعجابًا، ولكنّني سألتُه: «والشّيخ؟ لِمَ لمْ تعُدّه؟». فردّ ذو الصّوت الدّافِئ: «الشّيخ هو الرّجل صفر». وضحك الشّيخ، وأعجبه كلّ ما قال، وأَقَرّ ذلك. وهكذا... بدأنا حياةً جديدةً مع الشّقّة رقم (١١).

(١٢)

عَرّابي يا بطّيخ...

كان لا يجتمع في الشّقة غير اثنين منّا، وإنْ كان الأمر يحتاج إلى جهدٍ أكبر فثلاثة، وكان محظورًا علينا أنْ نتكلّم مع أحدٍ خارج دائرتنا المُغلَقة، ولم يكنْ يُسمَح لنا أنْ ننظر من النّافذة، إلاّ أنّه لا يُمكن أنْ نخرجَ من الباب الأماميّ الّذي يُفضي إلى الشّارع، بل كان علينا أنْ نخرج من الباب الخلفيّ المُؤدّي إلى الحديقة الخلفيّة، ولم يكنْ يُسمَح بالخروج من الباب إلاّ بعدَ وَضْعِ القُبّعة المُموّهة أو أمثالُها، ولا يخرج غير فردٍ واحدٍ، وعلى الثّاني أنْ ينتظر عشر دقائق على الأقلّ قبل أنْ يتبعه، وعلى (ريّان) - القابع عند ناصية الشّارع والمُتظاهر بأنّه كلبٌ مُشرّد - أنْ يفتحَ فمه ويلعقَ أرنبة أنفه حتّى نمضي، ولم يكنْ يُسمَح لنا أنْ نُكلّمَ أحدًا في الطّريق ولو بِرَدّ السّلام. وكان علينا أنْ نمشي في الشّارع بهدوء وثِقة، ويُحظَر التّلفّت إلى الخلف، أو النّظر هنا أو هناك. وكُنّا نتعارَف بالأرقام، ولم يكنِ الشّيخ قد أعطاني رقمًا بعد، غير أنّه سُمِحَ لي أنْ أعرفَ أنّ (عمّار) يحمل الرّقم (٧)، وكان عليّ أنْ أناديه به أثناء الإعداد للعمليّات.

كان الشّيخ يجعل كلمةً للسّرّ لمعرفة الشّخص: «سلْ تُعطَ». وإذا كان عليه أنْ يعرفَ الرّقم، يقول له: «إنّ إخوتي الخمسة أو السّتّة... حسب الرّقم الّذي يجب أنْ يعرفه السّامع... ناموا في بيتِ عمّهم أمسِ».

طلبَ الرّقم (٥) من الشّيخ أنْ يأذنَ له بزِيارة بيت الله الحرام، كان ذلك في صيف عام ١٩٩١م: «اشتاقتْ روحي إلى رسول الله في

المدينة. إلى خُطُواته حول البيت في مكّة». ردّ الشّيخ: «إذًا سنؤجّل انكِشاف وجهك، ربّما هي فرصةٌ لتعرف على أيّ وجهٍ ستلقاه، وبأيّ خِطابٍ ستُحدّثه». وذهب الرّقم (٥) إلى العُمرة، ونَقَصنا واحِدًا هنا زادَنا هناك.

عُدْتُ إلى المدارس، كان لي هنا غيرُ الوجه الّذي اعتدتُ أنْ أظهرَ به وسط الأحراش في البداية، ثُمّ في الشّقّة رقم (١١) فيما بعدُ. لم يعدْ عمّار معي، لم يكنْ قادرًا على أنْ يكون بهذا الوجه الغامض الّذي يبدو بلا وجه، ظلّ مع الشّيخ يلتقيه سِرًّا ويأخذ منه الخُطط سِرًّا، وكان طيفُه يحوم حولي، وظلّ مقعده إلى جانبي خالِيًا، وكنتُ أشعر بروحه إلى جواري، ولِذا لم أشعر بمرور الزّمن في آخر سنتَين لي في هذه المدرسة.

لم يكنْ تصريح العمل الّذي حصلتُ عليه يُخوّلني العمل في البناء يوميًّا، ولم أكنْ قد استخرجتُه من أجل العمل وحده، كنتُ أستخدمه أيّام العُطل، والمساءات الّتي تأتي بعدَ أيّام الدّراسة، ولقد كسبتُ مالاً، اشتريتُ به عددًا من المُسدّسات، وكدتُ ذات مرّة أشتري (آر بي جي)، كان المال يشتري كلّ شيءٍ في المستوطنات، وكان بعضُهم مستعدًّا أنْ يبيع نفسَه مقابِله.

المعلومات الّتي جَمَعَتْها الخليّة عنه استغرقَ جمعُها أكثر من ستّة اشهر، جزءٌ منها كُلّفتُ أنا بها، انتظرتُه على مبعدةٍ من السوبر ماركت، راقبتُ حركته أثناء الدّخول والخروج، جاءتْ معه امرأةٌ مرّة، لم أقدر أنْ أفعل شيئًا، أُجّلت العمليّة هذه المرّة، ثُمّ رأيتُه معها مرّة ثانية، فأُجّلتْ من جديد، قال لي الشّيخ: «لا تأجيل هذه المرّة». كان يمرّ بالسّوبر ماركت عصر كلّ جمعةٍ ليتزوّد لعائلته بالطّعام،

وكنتُ أقفُ بين مجموعةٍ من المارّين يومئذٍ، ظهر ببِزّته العسكريّة، أسمرَ البشرة، حليقًا، يضع طاقيّته العسكريّة في فراغ رُتبته على كتفه. ضابِطٌ في حراسة سجن (مَجِدّو)، وهو المسؤول عن التّحقيق مع عددٍ من المُقاوِمين وتعذيبهم، ركنَ سيّارته على الخطّ العامّ، تسلّلتُ إليها، وبقيتُ رابِضًا في الكرسيّ الخلفيّ، فتح الصّندوق، ألقى أغراضَه، وركبَ في المقعد الأماميّ، وتوجّه من الطّريق العامّ باتّجاه مستوطنة (ريحان)، في الطّريق إليها حدّثتُ نفسي: «أَسْرُهُ خيرٌ من قَتلِه، ماذا سنفعل بجثّة ميّتة؟! أمّا لو صار بحوزتنا فإنّ ذلك يعني أنّنا سنكون قادرين على أنْ نُفاوض عليه، ونبادله بعددٍ كبيرٍ من الأسرى»، ولَذَّ لي الخاطر، لكنّ صوتَ الشّيخ عبرَ المسافات كلّها وطرق سَمْعي: «أيّ تغيير في الخُطّة يعني أنّنا كشفْنا لهم جُزءًا من خليّتنا. وخطأٌ واحدٌ صغيرٌ قد يؤدّي إلى نهايتنا». طردتُ الصّوت الّذي لا يموت، تناسيتُهُ للحظات، فكّرتُ في المكاسب الّتي يُمكن الحصول عليها من خلال أَسْرِه، لكنّ صوتَ الشّيخ طرقَ سمْعي من جديد: «نحنُ لا نُفكّر بعدَ عمليّة الإعداد إلاّ بالتّنفيذ. هناك في الميدان دعْ عقلكَ يعمل على إنجاح الخُطّة لا على تغييرها مهما كانت الظّروف مهيّأةً لأفضلَ مِمّا خُطِّط له، قد يكون هذا الأفضل فَخًّا، وقد يصعبُ علينا أنْ نجرّ أرجلنا خارجه». حينَ صمتتْ كلمات الشّيخ، كانت السّيّارة قد قطعتْ مسافةً كافيةً لتكون قد خرجتْ من الدُّور والأحياء، استرقتُ النّظر من النّافذة اليسرى فوجدتُ أنّنا في خلاءٍ من كلّ شيءٍ، حينَها، نهضتُ، وأسندتُ جذعي على الكرسيّ، وصوّبتُ المُسدّس على رأسِه، وصرختُ: «توقّفْ... توقّفْ». صدمَتْه المُفاجأة، نظرَ إلى الخلفَ فرأى فوهة المُسدّس مُصوّبةً نحوه كقدر، فارتسمتْ آياتُ الرُّعبِ على وجهه، قادتْه الصّدمة أنْ ترتخي يدُه على المِقود، فتفقد السّيّارةُ توازُنَها، مالتْ بنا السّيّارة يمنةً ويسرة،

وكادتْ أنْ تنقلبَ، توقّفتْ في النّهاية. أمرتُه بالنّزول، أرادَ أنْ يجثو على رُكبتَيه، لكنّني طلبتُ منه أنْ يظلّ واقِفًا، رافِعًا يَدَيه إلى الأعلى، أطلقتُ الرّصاصة الأولى على صَدْرِه فترنّح، هتفتُ: «هذه من أجل الّذين عذَّبْتَهم». ثُمّ أطلقتُ رصاصةً ثانيةً على رأسه، فسقط: «هذه من أجل الّذين قتلتَهم أنتَ وجيشُ احتِلالك». ثُمّ أخذتُ مسدّسه، وأشعلتُ النّار في سيّارته، ومضيت.

مرّ عامان على العمليّة، ولم يكتشفْ جيشُ الاحتِلال مُنفّذَها، وقُيّدتْ ضِدّ مجهول، وعدتُ في اليوم الثّاني من تنفيذها إلى العمل. وبدأتْ مع المستوطنات قِصّة أخرى، قلتُ للشّيخ: «ألم يكنْ بالإمكان أسرُه؟!»، فردّ بلهجةٍ حازمة: «لم يكنْ ممكنًا غيرُ قتله». «لكنْ...». «فكّرْ فيما بعدُ، واتركْ هذه العمليّة وراءَك، نحنُ لا نُعدّد مآثرنا ولا نُديم الوقوفَ عندها».

تولّيتُ في صيف عام ١٩٩١م توصيل الرّسائل إلى المُنفّذين، لم يكن الشّيخ يطلبُ منّا الاجتِماع في الشّقّة رقم (١١) أكثر من مرّة في الأسبوع، كان يخشى أنْ تكون عينٌ غير عين الله ترانا، وإذْ ذاك فإنّ بناء الخلايا كلّه سينهار.

«عَرّابي يا بطّيخ...» كنتُ أصيحُ وأنا أقفُ خلفَ عربة بطّيخ في السّوق، كانت العربةُ ذات خشبٍ كثيرِ الحُفَر، ولم تكنِ العَجلتان اللّتان تتّكئ عليهما العربة منفوختَين جيّدًا، وكنتُ أضع خلفَ إحداهما حجرًا كبيرًا لئلا تهوي، وكانت العربة مطليّة باللّون الأخضر الفاتح، وعلى مقدّمتها رُسِمَ علَم فلسطين، ولم تكن العربةَ الوحيدةَ في السّوق، إذْ كانتْ هناكَ عَشَرات العربات، وبعضُهنّ أفضلُ حالاً من العربة الّتي أقودُها، ولم تكنْ لي بالطّبع، كانتْ للمُقاومة، وكانتْ

هنـاك عربـاتٌ كبـيرةٌ تقودهـا بِغـالٌ قويّـة تجرّهـا عـلى أربـع عجـلات، وتذهـبُ لتـدور بهـا بـين البيـوت، وفيـما كان البائـع وهـو غالبًـا مـا يكـون مـن الفتيـان الّذيـن لم يتجـاوزوا سـنّ الرّابعـة عـشرة يجلـسُ في مقدّمتهـا مُطوّحًـا برجلَيـه في الفـراغ، فإنّـه كان يلسـع البغـل بسـوطه، مـادًّا صوتَـه وهـو ينـادي عـلى البطّيـخ. وهنـا في هـذه السّـوق المليئـة بالأوسـاخ كنـتُ أنـادي: «عـرّابي يـا بطيّـخ». ويـأتي المُشـترون، أبيعهـم، وأنـا أنتظـر المُنفّـذ، كان الشّـيخ قـد وضـع الخُطّـة، سـيعرفُ المُنفّـذ عربـة البطّيـخ المقصـودة مـن خـلال وجـود ثـلاث حبّـات تفّـاح مختلفـات الحجـم إلى جانـب كومـة البطّيـخ، فـإذا رآهـنّ، عليـه أنْ يقـول لي: «ومـا الحيـاة؟». فـأردّ: «سَـلْ تُعـطَ». كانـت الجملـة الأخـيرة هـي كلمـةَ السّـرّ، إنّهـا تـأذن أنْ نمـضي إلى الخُطـوة الثّانيـة، وحينهـا أسـأله لأتأكّـد مـن أنّـه صاحـبُ الرّقـم الصّحيـح: «كـم تريـدُ؟». فيقـول: «إنّ إخـوتي التّسـعة نامـوا أمـسِ عنـد عمّهـم». فأعـرفُ أنّـه صاحـب الرّقـم (٩)، وأنّـه الشّـخص المطلـوب، فأتنـاول البطّيخـة المُحـدّدة، وأتظاهـر أنّنـي أزنهـا، وأعطيهـا لـه بعـدَ ذلـك قائِـلاً: «خُـذْ هـذه البطّيخـة، إنّهـا أحـلى بطّيخـة في عَرّابـة». وكان يأخذهـا، ويمـضي بهـا، فـإذا وصـلَ إلى مـكانٍ بعيـدٍ عـن الأعـينِ شَـقّها، واسـتخرجَ مـن داخلهـا الرّسـالة الّتـي تحـوي المعلومـات الّتـي تتضمّـنُ مـكان العمليـة وزمـان تنفيذهـا، وبعـض التّفاصيـل الأخـرى.

نفَّذْنـا أنـا والأرقـام أكثـر مـن عشريـن عمليّـة بـين عامَـي ١٩٩٠م و١٩٩٢م، وخـلال هاتـين السّنتين، عرفـتُ أسـماء ثلاثـة أرقـامٍ فقـط، كان الرّقـم (٥) هـو صالـح. أتذكّـر أنّي رأيتُـه مـرّةً في مسـجد أبـو جوهـر، لم يكـنْ في مدرسـتي، وأذكـر أنّـه جـاء مثـلي مـرّةً أخـرى متأخّـرًا إلى الصّـلاة، فصلّيـتُ معـه، وكان نحيـلاً مثـل بقيّتنـا، ولكنّـه كان ذكيًّـا جِـدًّا، وفيـما بعـدُ سـتُلهمني تفاصيـلُ حياتـه، وصمتُـه، وطُـولُ تفكّـره،

وانزواؤه، وعيناه اللّتان تريان ما لا نرى. لقد كان أحدَ الّذين لا ترى وجههم إلاّ مرّة أو مرّتَين، ولكنّهم يعيشون في ذاكرتكَ إلى الأبد.

ثُمّ إنّه جاء اليوم الّذي وَكَل فيه الشّيخ إلى الرّقم (٧)، صديق العمر أنْ يعلّمني كيفيّة صناعة مادّة (أمّ العبد) على الأصول، وسمح لنا أنْ يكون ذلك في الشّقّة رقم (١١)، ولعلّ مكانة الرّقم (٧) عند الشّيخ هي الّتي جعلتْه يوافق على أنْ تتمّ في تلك الشّقّة، بيدَ أنّ الشّيخ سيكتشف فيما بعد أنّ هذا القرار كان أصعب قرار اتّخذه في مسيرته كلّها، لأنّ ما انبنى عليه كان أوّل خيطٍ قادَ الاحتِلال إلى معرفة العقل المُدبّر وراء كثيرٍ من العمليّات الّتي قُيّدتْ ضدّ مجهول!

قال لي عمّار، قبلَ أنْ نبدأ بتصنيع المادّة: «ارفع السّبّابة... نحنُ موحّدون... من أجل هذا الواحد الّذي في الأعالي، الّذي يرانا في كلّ حين، نفعل كلّ هذا... نحن لا نضربُ بقوّتنا بل بقوّة الله، سهمُنا طائشٌ وسَهم الحقّ صائب». وردّدتُ خلفَه كلّ كلمةٍ قالَها، وبدا الصّديق الّذي اقتسمتُ معه مقعد الدّراسة الأولى أستاذًا، وبدوتُ أنا تلميذًا بينَ يدَيه.

كانتْ ستائر النّوافذ مغلقةً حينَ شرعْنا بتفكيك بعضِ النّوابِض، وإذابة بعض المواد، وسَكْبِ بعض السّوائل، وفي وسطِ هذا النّهار لم تستطع الشّمس التّسلّل من النّافذة المُغطّاة بإحكام، وكُنّا نُضيء المكان بلمبة الكهرباء.

واستغرقَ العملُ منّا أكثر من ثلاثِ ساعاتٍ، كُنّا قد شارفْنا على النّهاية، حينَ رفعَ عمّار - أعني الرّقم (٧) - رأسه كمن يتذكّر، وهتف: «عليّ أنْ أخرجَ الآن، لن أتأخّر أكثر من ساعةٍ، سأعود، لا

تبرحِ المكان، ولا تتحرّكْ منه، ولا تنظرْ من النّافذة، ولا تعبثْ بالمادّة، وانتظرني حتّى أعود». فخفضتُ رأسي: «سأنتظرك». وخرج من الباب الخلفيّ بهدوء، بعدَ أنْ مسحَ له (ريّان) المكان.

لا أدري ما الّذي جعلني أشعر بالاختِناق أوّل ما خرج؟ هل شعرتُ بأنّني سجين، أو هي الوحدة القاتلة؟ أم الفراغ الّذي ثقبَ القلب بذهابه؟ درتُ حول المادّة الخداج المركونة على صفيحٍ أبيض، وحدّثتُ نفسي بأنْ أفعل لها شيئًا، لكنّني تراجعتُ بسرعة: «لستُ مجنونًا». تذبذبتْ روحي، تناثرَ القلقُ أجنحةَ فَراشٍ، شعرتُ بالاختناق من جديد، هذه المرّة أشدّ من قبلُ، قلتُ: «سأُزيح سِتار النّافذة، وسأفتُحها قليلاً من أجلِ قليلٍ من الهواء». لم أفكّر بالعواقب، قلتُ: «لن يرانا أحد، دقيقة أو دقيقتَين وسأعيدُ الأمور كما كانت». وتوجّهتُ للنّافذة، ومن دون تفكير، وبيدٍ مطمئنّة، أزحتُ السّتارة، وتراجعتُ خطوتَين إلى الوراء مُندهِشًا، وارتسمَ وجهٌ ما على النّافذة، أسودُ ثقيل، وأردتُ أنّ أستردّ خُطوتَيّ لأعيدَ السّتارة، لكنّني لم أفعل، ذلك أنّ أشعّة الشّمس سقطت على (أمّ العبد)، وأنا سقطتُ جثّة تحترق!!

(١٣)

وَيَبْقَى العِطْرُ بَعْدَ اليَاسَمِيْنِ

كان ذلك الانفِجار بدايةَ النّهاية بالنّسبة للخليّة. بعضُ النّهايات تأتي سريعةً وغير مُتوقّعة، شيءٌ ما لم يكنْ يخطرُ على البال، ليس الشّيطان هو الشّاطر كما يقولون، ولكنّه الفضول الّذي قتل القِطّة، والنّزول من جبل أحدٍ لاستِعجال الغنيمة، وقلّة الصّبر على الجرح البسيط لينفتق الجسدُ كلّه عن جرحٍ لا يُمكن إيقاف نزيفه، والاستِهانة ببعض الأمور الصّغيرة الّتي تنبني عليها الأمور الجِسام، إنّه أثر الفَراشة، وإنّ النّار من مُستصغَر الشّرر.

في زمن اللاّوعي في المُستشفى رأيتُ الرّقم (٥) وأنا على السّرير يطوفُ بالبيت، كان يطوفُ ووجهه إلى الحجر الأسود، في إحدى دورات طَوافه، رأيتُه يخرجُ عن الدّائرة، ويُحلّقُ مثلَ حمامةٍ بيضاء إلى السّماء، لم يكن مشهد حمام الحرم هذا غريبًا، لقد رأيتُه في مئات الصّور، إلاّ أنّ الغريب أنّ هذه الحمامة لم تَطُفْ في مسارٍ دائريّ حول الكعبة، إنّما صعدتْ عموديًّا إلى أعلى، وتابعتُها أنا بنظري، وظلّتْ تصعدُ إلى أنْ أصبحتْ نقطةً، ثُمّ اختفتْ، وبقيتُ محدّقًا في الأعالي متعجبًّا من غيابها، وآلمني عنقي لطول ما أبقيتُها مشدودةً نحو السّماء، وفجأةً... سقطت الحمامة وهي تتخبّط بدمائها على أرض الحرم الرّخاميّة!!

لعنةُ الله على المُستشفيات؛ إنّها سجنٌ من نوعٍ آخَر، وبدلاً من أنْ تُشعِرني بالتّعافي، شعرتُ أنّه كلّما طال مكوثي فيها زادَ مرضي... ذابَتْ ظِلالُ مَنْ كنتُ أراهم في غرفتي من أقاربي، ابتلعتْهم دوّامات

الرّيح، وكهوف الفراغ. وبدؤوا يخفتون كذلك من ذاكرتي، ظِلال أمّه بقيتْ، وبعض شريطٍ يمرّ خاطِفًا الضّوء قادِمًا من الأحراش، وذو الرّقم (٧)، ذلك أنّه لم يسقط معهم في الآبار المُعتمة.

ظلّتْ أمّي تزورني، صرتُ آكلُ بعدَ تقطير الجلوكوز في دمي لفترةٍ طويلة. لم يعد معها الطّعام إلى البيت بارِدًا، إنّني آكلُ كلّ ما تُعِدُّه لي. زالتِ اللّفافات البيضاء والأجبرة، وصرتُ قادِرًا بعدَ ثمانية أشهرٍ أنْ أجلسَ على حافّة السّرير وأُدلّي قدمَيّ، إحداهما كانتْ تطمس النّور القادم من النّافذة الّتي أُعطيها ظهري وهي تمسّ الأرض، والأخرى كانتْ تسمح لهذا النّور أنْ يتسلّل عابِرًا نحو الجِدار كأنّه يبحثُ عن فضاءٍ كي يسبحَ فيه.

بعدَ عشرة أشهرٍ خرجتُ من المستشفَى، لكنّني لم أكنْ ذلك الّذي دخَلتُ إليه بالضّرورة، نحنُ نتغيّرُ بينَ لحظتَين في زمنٍ فارق. لقد عُدتُ من الموت، خرجتُ غيري، كان لي وجهٌ ثائرٌ جعّدَتْه الحروق، أو قُلْ نمّشتْه، وزادتْ قمحَه سُمرةً، كأنّما لَبِستُ جلدًا مختلفًا، مليئًا بندوب النّضال، ومُعتّقًا بالحكايات الّتي يُمكن أنْ تُروَى لعشرين جيلاً قادِمًا... وحينَ خَطوتُ أولى خُطُواتي خارِجًا من غرفتي كان العَرَجُ في إحدى رجليَّ لا يخفَى على ذي نَظَر، أمّا كَتِفي فقد مالتْ جهة اليمين قليلاً، وأمّا عيناي فغارَتا قليلاً في بئر الشّحوب كأنّهما تُريدان لِسِرٍّ ما أنْ يخفَى، وأمّا قلبي فقد جرتْ فيه دِماءٌ جديدةٌ مثلَ نهرٍ تتلقّاه صخرةٌ فيثور مُعتلِيًا قَدَرَه الّذي لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يُوقِفَه. كنتُ من ذلك النّوع من الفِتيان الّذين يصنعون الأقدار!

عدتُ مع عرجتي الّتي بدأتُ أتعافَى منها إلى رِفاقي، وإلى الشّقّة رقم (١١) المليئة بالأسرار. لم تطأها قدمُ إنسيٍّ ولو مرّة واحدةً

منذُ أنْ نُظّفتْ عقب ذلك الانفِجار، وأُغلقتْ لدواعٍ أمنيّة، لكنّها بقيتْ في قبضة الرّفاق، لن تفتحَ لهم قلبَها قبل أنْ أفتحَ لها أنا قلبي!

قال لي رفيقُ الدّرب ذو الرّقم (٧): «ليسَ على الأعرجِ حرجٌ». غضبتُ، ثُرت صارخًا: «لستُ أعرج، وهذه القفزة الّتي بين قدمِي اليُسرَى والفراغ الّذي خلّفه ذلك الانفِجار ستكون قفزةً إلى الموت، الموتِ المُشتَهى، وسينتهي هذا كلّه». أرادَ (عمّار) أنْ يعتذر، أنْ يقول: «أنتَ الّذي تكبرُني حُلُمًا، لقد كنتُ جائعًا على الدّوام، وكنتُ أشتهي منذُ أكثر من عشر سنواتٍ تلك اللّقمة الّتي كانتْ في يدك، أنا أحبّك. لا تقلْ إنّني أُملي عليكَ أوامري كأستاذٍ، نحن رفيقان، الدّرب الّتي مشيناها معًا هي ذاتها الّتي ستعبر بنا إلى الضّفّة الأخرى حيثُ الشّهادة». لكنّني وضعتُ يدي على فمه، وشَدَدْتُ على أسناني وأنا أُحدّق في عينَيه بتحدٍّ: «لا تقلْ شيئًا».

حيَن رفَعتُ يدي عن فمه، تراجع رفيقي إلى الوراء، وأشاحَ بطرفه عنّي، ثُمّ رفعه إليّ بحبّ: «كنتُ أريدُ لكَ أنْ ترتاح من هذه الدّرب الطّويلة». رددتُ عليه: «ومتى كان على المُقاتِلين أنْ يرتاحوا؟! لن أرتاح إلاّ هناك». وأشرتُ إلى سقف الغرفة، الّتي ما زالَ يحتفظُ ببعضِ ما تناثر من لحمي في ظهيرة ذلك اليوم المشهود.

جلَسْنا على طَرَفِ السّرير الوحيد المركوز في زاوية الغرفة، قال لي: «كان خَطَئِي». «لا تقلْ ذلك». «كانت المادّة الّتي سنصنع منها الحِزام النّاسف تجربةً جديدةً، لم نكنْ نعرفُ بعدُ تأثيرها». قلتُ محاوِلاً التّخفيف عنه: «إنّها لم تفعلْ شيئًا، جُلّ ما قامتْ به أنّها رَمَتْني إلى هذا السّقف، وأطارتْ بعضَ النّوافذ والأبواب، أنا أريدُ مادّة تطير لها سقوفٌ ورؤوس». «لقد طوّرْنا موادّ جديدة». ابتسمتُ: «هل

هـي قـادرةٌ عـلى...» أكمـل عنّـي: «قـادرةٌ عـلى كلّ شيءٍ». صمَتْنـا صمتًـا طويـلاً، كان خيالُنـا يسبح في ألـفِ عمليّـة قادمـة، عيُونـنـا تنظـر إلى ألـفِ وجـه، وتـرى ألـفَ رأسٍ تطيـر... قطَعـتُ هـذا التّأمّـل الطّويـل، وهمسـتُ بصـوتٍ فيـه رنّـة الحنـين، وبَحّـةُ الشّـوق: «لم أكـنْ قـد هبطـتُ الغـار، ولا سـمعتُ الوحـي، ولا خبَطْتُ في الأسـواق، ولا نمّقـتُ الأشـعار، ولكـنّ دمـاء شـعبي الّتـي سـطّرتْ تاريـخ الانتِصـارات في زمـن الهزائـم، كانـتْ هِـيَ الحـبرَ الّـذي صيغـتْ منـه الحكايـات الّتـي لا يُمكـن أنْ تُصـدّق، وأنـا... مـن هـذه الدّمـاء الّتـي لا يبهـت لونُهـا بمـرور الأيّـام، ولا تخبـو رائحتهـا بانقِضـاء الأزمـان، سـأروي لهـم هـذه الحكايـة».

تحادثْنـا طويـلاً، وبكيْنـا ونحـنّ نتذكّـر الأيّـام الّتـي قضيناهـا في الأحـراش، لا أدري لمـاذا شـعرتُ أنّ مـا مـضى لـن يعـود، وأنّ أيّامنـا في الأحـراش سـتعدو ذكـرى، وأنّ خزانـة الأسرار الّتـي تُسـمّى الشّـقّة رقـم (١١) ستنكشـف، وستُغلَق إلى الأبـد، وأنّـه سيسـكنها قُطعـانٌ مـن الصّهاينـة يلعقـون كلّ شيء، ويبولـون في كلّ زاويـة. كنتُ أشـعر أنّ هـذه اللّحظـات الّتـي أقضيهـا برفقـة الرّقـم (٧) في هـذه الشّـقّة هـي اللّحظـات الأخـيرة، شيءٌ مـا في صـدري همـسَ في رئتَـيّ: «مـا مـضى لـن يعـود، بعـضُ الجَـمال تذهـبُ بـه الأيّـام، وبعـضُ الحنـين هـو خطيئـة القلـب، كلّ شيءٍ يتغـيّر، فلِـمَ يكـون الوقـوف عـلى أطـلال المـاضي ذابِحًـا إلى هـذا الحَـدّ؟! كلّ شيءٍ صـار غريبًـا لـك وغريبًـا عنـك، الأمكنـة غـير الأمكنـة، والهـواء غـيرُ الهـواء، والوجـوه غـير الوجـوه، والكلـمات تبدّلـت؟ صـارتْ رخـوة، بـاردة، لم تعـدْ تمتلـك ذلـك الحـماس الفتـيّ، ولا تلـك الدّهشـة الطّفوليّـة ولا وهـج الحـبّ العفـويّ، صـارتْ ثقيلـة تخطـو بأقـدام مـن حديـدٍ تغـوصُ في طـين مـن وجـع... لِمَ البُـكاء عـلى المـاضي؟ دَعْ كلّ شيءٍ يمـرّ».

كُشِفَ وجهُ عمّار؛ وجه الرّقم (٧). قال له الشّيخ: «أنتما في عِداد الشّهداء، أمّا هو فَرَهِينُ أفكاره؛ ستقتله بلا شكّ، عقلُه مثل مِغزل، وأمّا أنتَ فرهين العمليّة القادمة، لن ينتظر الاحتِلال كثيرًا حتّى تكون في قبضته، لم يكنْ خطأ أيٍّ منكما، بل كان خطئي، إنّ الاستِماع إلى نداء القلب ليورث المصائب أحيانًا».

لم يذهب ذو الرّقم (٧) هذه المرّة إلى عربة البطّيخ كما ذهبَ سابِقوه، تلقّى العمليّة بشكلٍ مباشرٍ من الشّيخ، اجتمع به في أعالي الشّجرة في البُقعة المُبارَكة، من حيثُ سقطَ عَليّ في تلك اللّيلة النّائمة في غور الزّمن فجلسَ إلى جانبي، لم يمكثا هناك أكثر من دقيقتَين، قرّر له كلّ شيءٍ، وهبطا إلى وادي القدر.

اجتمع بي ليلة التّنفيذ، كانتْ لديه أوامر بألاّ يراني، غير أنّه تجاوز الخُطّة، أراد مشاهدة وجهي قبلَ أنْ يُغيّبه الموت، قلتُ له: «ألمْ يجد الشّيخ سِواك لتنفيذ هذه العمليّة؟». كانت الدّرب الموصلة إليها دربًا ذات اتّجاه واحد؛ تذهب ولا تعود، مَنْ يعودُ حينَ يجتازُ ذلك الخَيط؟! نعم، كان عَمّار ذاهِبًا إلى غيابٍ ليسَ منه أوبة، إنّها من ذلك النّوع من العمليّات الّذي يذهبُ صاحبُها أوّلاً إلى الموت، فيطلبُ منه أنْ يرافقه، ثُمّ يمضيان معًا إلى حيثُ اللّاعودة!

بكيتُ يومَها، كان واضِحًا حضور الموت معنا، هل تعرفون كيفَ يُمكن أنْ تُودّع شهيدًا، أنْ تودّع حبيبًا لن يعود، أنْ يغوص هذا الجسد الّذي يملأ عليكَ كيانكَ في التّراب، أنْ يُصبح وجوده ذكرى، أنْ ينتهي كما ينتهي أيّ حلم.

بدا يومَها كلّ شيءٍ تافِهًا أمام الموت، بدتْ أحلامُنا، أيّامنا، سنواتنا في الأحراش، وفي الشّوارع، في الأزقّة، وتلك المدرّعات

والمجنزرات والدّبّابات الإسرائيليّة بدا كلّ ذلك تافِهًا أمام حضور الموت الطّاغي... تقلّص كلّ ما كان عظيمًا ليصبح صغيرًا... سقطَ كلّ عالٍ، وذَوَى كلّ يانع... لا أدري ما الّذي تبقّى من عمّار لي؟ أنا أقول لكم، تبقّتْ جملتُه الّتي لا تموت: «إنّني جائع». وبقيتْ جملتي الّتي لم أندم في حياتي على شيءٍ مثلما ندمتُ عليها: «فلْتُطْعِمكَ أُمّك». لم يكنْ له أمّ، لم يكنْ له مَنْ يُطعمه... وبكيتُ... لكنّني كنتُ يومَها طِفلاً، طفلاً صغيرًا جِدًّا، لم أكنْ قد تجاوزتُ السّابعة، فلماذا أعذّب نفسي بهذا اللّوم؟!

لم ينسَ أنْ يردّد معي نداءه الأخير: «ارفع السّبّابة... نحنُ مُوحِّدون... مِن أجل هذا الواحد الّذي في الأعالي، الّذي يرانا في كلّ حين، نفعل كلّ هذا... نحن لا نضربُ بقوّتنا بل بقوّة الله، سهمُنا طائشٌ وسَهم الحقّ صائب». فهل هرّ الكلبُ يومَها؟! كلاّ لم يفعلْ!

طار جسده، حِزامٌ ناسفٌ حوّله في لَحَظاتٍ إلى نُتَفٍ صغيرةٍ من اللّحم، لم تُمهلها أفواه الطّير أنْ تهبطَ على الأرض، فالتقطَتْها بمناقيرها وهي سابحةٌ في الفضاء بخفّة الضّوء، حلّقتْ بها إلى أعالي السّماء بحبور، كانَ هناك عددٌ من الطّيور لا يُحصَى، ذلك الّذي أكل من لحمه، بدا هذا النّورانيّ الّذي قال لي في ذلك الصّباح البعيد البارد: أنا جائع، أطعمْني، أنّه أشبعَ اليوم هذه الطّيورَ كلّها!

أردْنا أنْ ندفنه، أنْ نجدَ له قبرًا يليق، ولكنْ كيف؟ لقد تحوّل إلى نتفٍ، وحتّى هذه النّتف لا يُمكن جمْعُها لو أردْنا، تولّتْها أفواه الطّيور الخُضْر، ماذا نفعل إذًا؟! لا شيء، إنّه يُعيدُ سيرةَ أبيه، لم يكنْ له قبرٌ هو الآخَر، ربّما هذا صحيحٌ، علينا أنْ نكون أكثر دِقّة، لم يكنْ له ولا لأبيه قبرٌ في الأرض، ولكنّه - بالتّأكيد - كان لهما موضعٌ في السّماء،

وبالضّرورة لهما أصدقاء هناك في الأعالي يزورونهم، ويُحدّثونهم، ويتسامرون معهم، وربّما يخطر في بال عمّار ذي الرّقم (٧) أنْ يُحدّثهم عنّي ذات مرّة، ربّما!!

سرتُ إلى الأحراش، في المكان الّذي هبطَ إليّ فيه من السّماء، من أعلى تلك الشّجرة وجلسَ عن يميني، حاولتُ أنْ أبحثَ عن عينيَه كما طلبتُ منه أوّل ما التقيتُه أنْ يبحثَ عنَ عينَي أبيه، لكنّني لم أجدْهما، كان قد اختفى تمامًا، لأوّل مرّة أُصدّق مقولته، ولأوّل مرّة أعرفُ أنّ الشّهداء يختفون من الأرض، لأنّ موطنهم السّماء. أخذتُ قبضةً من تراب الموضع الّذي جلسْنا فيه، قرّبتُه من أنفي، وشممْتُه طويلاً، وانفجرتُ بالبُكاء.

ذهبتُ في اليوم التّالي إلى المكان الّذي اقتلعوا فيه (ياسمين) و(فلسطين)، كان المكان قد زُرعت فيه أشجار زيتونٍ جديدة، جيلٌ آخَر أكمل المسيرة، نحن لا نموت، أسندتُ جذعي إلى الموضع الّذي كانت فيه فلسطين، إنّها زيتونتي، نظرتُ إلى حيثُ زيتونة عمّار (ياسمين)، كانتْ تبدو نَضِرةً مُورِقة، ويفوحُ منها شذًى عجيب، أردتُ أنْ أقول لها شيئًا لكنّني لم أقدر، أردتُ أنْ أحدّثها عن عمّار ولكنّ الدموع الّتي سالتْ من عينَيّ منعتْني، بدت ياسمين من خلال عينَيّ غائمة، امتدَّ جذعٌ رطيبٌ منها إلى دموعي فمسحها: «لا تبكِ... لا تبكِ». أطلقتُ زفرةً حرّى طويلة، وشعرتُ ببعضِ الرّاحة، لا يُمكن للموتى أنْ يُحدّثوا الأحياء، حينَ ألتحقُ بركبهم ذات يومٍ ربّما أكون قادرًا على أنْ أقول لهم فيسمعون، نظرتُ نظرةَ وداعٍ أخيرةً إلى (ياسمين)، رأيتُ فيها وجه عمّار في كلّ مراحله، احتضنتُ جذعها، وارتجّ جسدي وأنا أنشج:

يمــوتُ الياسَمِينُ إِذَا تَوَلَّـى

وَيَبْقَى العِطْرُ بَعْدَ اليَاسَمِين

(١٤)

سَقَطَ فِي الظَّلام!

أصبحتْ أيّام الشّقّة رقم (١١) ذكرى، لم أعدْ إليها، ليسَ لأنّني تمرّدتُ على الخليّة وعلى الشّيخ، بل لأنّني لم أكنْ قادرًا على احتمال رؤية طيف عمّار فيها، إنّها المكان الّذي وقّعتُ فيه على موته، ولم أتّخذ خطوةً واحدةً من أجل أنْ أُقنعه بالعدول عن تنفيذ العمليّة... في الحقيقة لم يكنْ ذلك مُمكِنًا، كان من المُستحيل رفض القِيام بالمَهمّة، بل كان التّغيير في بندٍ منها يعني فشلَها أو موتَنا من دون تحقيق الهدف، كان على كلّ شيءٍ أنْ يسير كما كان مُخطّطًا له، وكلّ دروبنا في تلك الأيّام كانت تسير بنا إلى حيثُ اللاّعودة.

كنتُ أركضُ في سهل عرّابة، خرجتُ فجر هذا اليوم، وهِمْتُ على وجهي، سبقتُ الشّمس، هربتُ باتّجاه الشّمال، شربتُ ماء الشّفق، السّهول كلّها تنبسطُ أمامي، كأنّه كَفٌّ تريدُ أنْ تنقلني إلى عالَمٍ غير هذا العالَم البائس الّذي أعيشُه في أعماقي. كنتُ أركضُ، كان (ريّان) يركضُ خلفي، كانتْ ذراعاي تتحرّكان كمروحة طائرةٍ نفّاثة، أعدو بشكلٍ جنونيّ، لا أريدُ أنْ أتوقّف، كان الكلبُ ينبحُ بأسًى خلفي كأنّه يسألني: «ماذا تفعل؟». لا شيء يا ريّان لا شيء، أنا أركضُ فحسب، كلّ ما تراكم على صدري من الهموم عليه أنْ يسقط في هذا الرّكض الجنونيّ، قدمَاي لم تعودا تمسّان الأرض، كأنّهما رُكّبتا من ريح، لا أريدُ أنْ أتوقّف حتّى أقطع إلى آخر نقطةٍ على سطح الأرض، حتّى ولو وصلتُ إلى هناك، لا أريدُ أنّ أتوقّف... كان صوتُ لهاث الكلب خلفي يدفعني إلى أنْ ألتفتَ إليه وأشتمه: «هَيّا أيّها الكلبُ العجوز، يبدو أنّكَ لم تعدْ قادرًا على الجري نفسِه الّذي جريتَ به خلفي يومَ برزْتَ

لي من أحراش يعبد... أيها العجوز هَيّا...». لكنّني لم ألتفتْ لأنّني لم أكنْ أرغبُ في أنْ أُبطِّئ سُرعتي، كان عليّ أنْ أظلّ في هذا الجنون حتّى تقلّ كتلة جسدي، وتذوب جوارحي مع الرّيح شيئًا فشيئًا، ويطيش وزني، وتُخلّصني الأرضُ من جاذبيّتها الثّقيلة، و... وأتسامَى... أصعدُ إلى الأعلى، أتحوّل إلى حمامةٍ فأشفّ أو إلى فراشةٍ فأتحرّر. عوى الكلبُ عواءً أخيرًا... كان عواء استِغاثة، لكنّني لم أُعِرْه أيّ اهتِمام، سقطَ خلفي من الإعياء، وظللتُ أعدو إلى الجنون والمجهول!!

لا أدري إنْ كان (يعقوب) من الأرقام الّتي كانتْ في خليّة (يعبد) أم لا، من المُرجّح أنّه كذلك، ولا أدري إنْ كان يعني انكشاف وجهه لي أنّه في عداد الموتى المُحتَملين، أم أنّه لم يكنْ ضمن دائرة الشّيخ الّتي يُمكن أنْ نسمّيها دائرة الموت. لكنّه في الحقيقة أحد الّذين لم يكنْ لهم أيّ وجودٍ فِعليّ في حياتي أيّام المدرسة، لم أكنْ أعرفُ عنه شيئًا باستثناء اسمه، ولم ينطبعْ في ذهني عنه شيءٌ باستثناء عينَيه اللّتين تبدوان مُتّسعتَين ومُندهشتَين على الدّوام، وجبهته العريضة الّتي كانتْ تغريني بالخربشة عليها أيّام الطّفولة.

كان من الخطير أنْ أُفاتحه بموضوع الدّائرة المُغلَقة في أحراش الشّيخ، ولا أنْ أسأله إنْ كان يحمل رقمًا، وأعتقدُ أنّه كان يحذر منّي ما كنتُ أحذره منه، ولِهذا التقينا في وسطِ منطقةٍ مُعتِمةٍ من المسافة الغامضة بيننا، تلك المسافة الّتي نستطيع أنْ ننفذ منها إلى شيءٍ من النّور. «مَنْ أنت؟!». «لستُ أكثر من رقم». «لكنّنا رقمٌ يُعطي للوجود معنى!».

انهمكتُ أثناء الفترة الرّماديّة بعدَ استشهاد عمّار في القراءة، دفنتُ نفسي في الكتب، كنتُ أقرأ لأنسى، ومع كلّ سطرٍ كان يخرجُ

وجهه لي، ويبتسم وأبكي، وتتّسع ابتِسامته وتسّاقطُ الدّموع الحارّة من عينَيّ، ثُمّ عزمتُ أنْ أثأر له. وعلى عادة حضور الشّيخ الطّاغي طرقتْ سمعي كلماتُه: «نحنُ لا نقاتِل لنثأر، الثّار ردّة فِعل، نحنُ الفِعل، نُقاتِل ليوم الخلاص، يوم التّحرير، وهو قادمٌ لا محالة، أمّا قِتال الثّأر فهو حيلة الضّعفاء والجُبناء». فلْيقلِ الشّيخ ما يحلو له، فأنا لم أعدْ في خليّته، لقد عزلتُ نفسي عنه منذُ فترةٍ، ولتهاجِمْني كلماتُه كما يُريد، فليس له عليّ سُلطة! ولكنْ أيّ سلطةٍ أطغى من هذه السّلطة الّتي يُمارِسُها عليّ؟! أيّ سُلطةٍ أشدّ وقعًا من سُلطة الكلمات؟! كانتْ كلماتُه حاضرةً في كلّ حين!

ولأتخلّصَ من هذه الكلمات غُصتُ في الكتب أكثر، وفكّرتُ بعدَ حينٍ أنْ أكتب، وها أنذا أكتُب، أكتبُ كلّ شيءٍ، أقولُ ما عِشْتُ، كانت الكتابةُ تمرينًا على النّسيان، ووسيلةً للتّعافي، الّذي قال لكمْ إنّ الكلمات تقتُل لم يقلْ لكمْ إنّها تُحيي كذلك، وإنّ فيها شِفاءً ينزل على القلوب بردًا وسلامًا.

وفكّرتُ أنْ أُجدِّدَ تصريح العمل الّذي أحمله، وقلتُ ربّما يُنسيني شيئًا من وجع الذّكرى، وقال لي الضّابط العسكريّ وهو ينظر في ملفّي ثُمّ يرفع عينَيه باتّجاهي، ويسأل مُتشكِّكًا: «ماذا تعمل؟». «على عربة بطّيخ في السّوق». «عملٌ جيّد لفتًى لم يبلغ السّابعة عشرة بعدُ، لماذا تريدُ أنْ تعمل في البِناء؟». «إنّه يَدُرّ مالاً أكثر». قال لي: «عُدْ بعدَ ثلاثة أيّام». ولمّا عُدتُ وجدتُ التّصريح في انتِظاري.

توجّهتُ إلى المُستوطنات مع مِئات المُهجّرين في بلادهم، والمنفيّين في أوطانهم لنعمل أُجراء عندَ سارِقي أرضِنا! لا بأس،

أنا أعمل لكي أُعيدَ شيئًا من حقوقي، هذه المرّة لن أقتلَ ضابِطًا عاديًّا كما فعلتُ قبلَ سنتَين، هذه المرّة سأقتل ضابِطًا كبيرًا، أو قائِد جيش الاحتِلال في منطقة جنين، رأسٌ برأس، مع أنّ الرّؤوس ليستْ كُلّها سواء. أو ربّما يبتسمُ لي القدر فأقتل درزينةً كاملة.

أصعدُ الباص، أتخيّل سقفَه وهو يطير وأنا أطير معه كما طرتُ أنا مع (أمّ العبد)، لكنّ الرّاكبين فيه هم من أبناء جلدتي، ومن البائسين الّذين يحلمون بلقمةٍ تُسكِتُ أفواه أبنائهم الجائعين، إنّه الجوع الّذي صنَع كلّ هذه المآسي، وارتسم على هذه الوجوه صفحةً من قهرٍ وحُزنٍ، الجوع؛ نعم الجوع؛ هل يُمكن أنْ تقولوا لي أينَ يسكنُ الجوع؟!

كانَ عليّ أنْ أختار باصًا يصعده عددٌ كبيرٌ من جنود الاحتِلال، هكذا فكّرتُ في سيل أفكاري الّتي لا تنتهي عن العمليّة القادمة، ولأنّني لم أعدْ من خليّة الشّيخ، لم يكنْ معي أحدٌ يجمع لي المعلومات، ويُراقب الأمكنة، ويعرف التّوقيت الّذي يتحرّك فيه الباص، وعدد الّذين يصعدونه، وهل يكونون في إجازة أم دوام... وغيرها من عشرات المعلومات الأخرى، لم يكنْ من أحدٍ من ذوي الأرقام ليُساعِدني في جَمْعِها، كان عليّ أنْ أقوم بذلك بنفسي. لكنّ الأمر لا يجري بهذه السّهولة، فأدخلتُ معي (يعقوب) في هذه العمليّة، وبدأنا نُخطّط لها معًا.

عرفْنا كمًّا من المعلومات جعلنا نقطعُ نِصفَ الطّريق إلى الغاية. عرفْنا السّاعة الّتي ينتظر بها الباص العسكريّ الجنود، وعرفنا العدد التّقريبيّ للّذين سيصعدون إليه، استغرقَ ذلك منّا ثلاثة أشهر، لكنّ المعلومات ظلّتْ ناقِصة، وكأيّ خُطّةٍ تنفذُ إليها

الأقدار من زاويةٍ ما كي لا تتحقّق تمامًا، نفذتِ الأقدار إلى هذه الخُطّة من خلال الاستِعجال!

قلتُ ليعقوب: «لم أعدْ أصبر أكثر، العُبوة النّاسِفة (أمّ العبد) ستكون جاهزةً خلال أربعة أيّام على أبعدِ تقدير، تقتضي الخُطّة، أنْ تأتي إلى محطّة الحافِلات الّتي يستقلّ منها الجنود الباص الخاصّ بهم، ستكون لديكَ حقيبةٌ فيها لباس الجنود الإسرائيليّين، ستدخل الحمّامات الموجودة بالقرب من المحطّة، وستلبس اللّباس العسكريّ، تخلّصْ من الحقيبة في أوّل حاوية، واصعدْ إلى الباص مُتنكرًّا بذلك اللّباس، وستكون أمّ العبد تلفّ وسطك، وحينَ يُصبح الباص على الطّريق العامّ، اسحب النّابض من أجل بُمْ كبيرة يطير بها كلّ شيءٍ». وافترقْنا على ذلك الأساس.

جهّزتُ له كلّ شيءٍ، كان عمره يومئذٍ لا يتجاوز الثّامنة عشرة، وكنتُ أصغرَ منه، التقيتُه فجر تنفيذ العمليّة، كان وجهه مُمتقِعًا، شددتُ على يده: «لا تقلق، سيكون الله معنا». لم تُخفّفْ جملتي من قلقه، عرفتُ أنّ العملية لن يُكتَب لها النّجاح، لكنّني قدّرتُ أنّ أربعةَ أشهر من المراقبة والمتابعة صعبٌ أنْ تضيع في لحظةِ قلقٍ تعبر وجهه بعدَ أنِ اقتربتْ ساعةُ الصّفر.

شجّعتُه مرّة أخرى: «تخلّص من الحقيبة ولباس العُمّال الّذي تلبسه في أوّل حاوية، وتقدّمْ بهذا اللّباس العسكريّ الّذي يُخفي الحِزام النّاسف، ولا تسحب النّابض إلاّ في خلاءٍ من النّاس والدُّور». ومضى برِجلَين كان القلقُ ينخرهما من أسفلهما.

دخل الحمّامات، رأى وجه جنديّ على الباب، ارتجفتْ أوصالُه، نظرَ الجُنديّ إلى هذا العربيّ الّذي يلبسُ لِباس العُمّال

نظـرةً عاديّـة، لقـد نَظَـر اليـوم هـذه النّظـرة ذاتها لعـشراتِ آخريـنَ يُشـبهونه، لكـنّ (يعقـوب) شـعر أنّ هـذه النّظـرات خاصّـة بـه، وأنّها تخـترقُ قلبَـه فيرتعـش، وتُنقّـب عـن عقلـه فتقـرأ مـا فِيـه.

ظـلّ يمـشي إلى آخـر صَـفّ الحمّامـات، لم يجـرؤ أنْ يطـرقَ أيّ بـابٍ، أرادَ لكـنّ يـده لم تسـتطعْ، رأى بـاب الحـمّام الأخـير مُشرَعًـا فدخلـه لاهِثًـا كأنّـه كان يركـضُ مـن أوّل الصّـفّ حتّـى وصـل إلى هنـا، أغلقـه عليـه وهـو بالـكاد قـادرٌ عـلى التِقـاطِ أنفاسِـه. وضـع الحقيبـة عـلى الأرض، وفتَحهـا، وبـدأ يخلـعُ ثيابـه، بـانَ جسـدُه الفتـيّ، وعضلاتـه الضّعيفـة، أبقـى عـلى الشّـيّال، كان الحِزام تحتـه، لم يقـدرْ أنْ ينظـر إليـه، عـلى عجـلٍ، تنـاول الثّيـاب العسـكريّة وبارتِعاشـةٍ جعلتْـه يلهـثُ غـير مـرّة لَبِسَـه، ودَسّ اللّبـاسَ المـدنيّ في الحقيبـة، رفـعَ جِذعـه وهـو يُصـدر زفـيرًا طويـلاً كأنّـه كان في سِـباق. وأرادَ أنْ يخـرج.

خطـا خطـوةً واحـدةً إلى خـارج الحَـمّام، لكنّـه سرعـان مـا اسـتعادَها إلى الداخـل، وأغلـقَ البـاب ليختفـي خلفـه، وركـنَ جذعـه إلى الجـدار، ولهـث مـن جديـد، وسـاروتْه أفـكارٌ سـوداء: «مـاذا لـو كان هـذا الجنـديّ الّـذي قابلَـه حـينَ دخـل إلى هنـا لا يـزال عـلى البـوّابـة؟ مـاذا لـو أنّـه حفـظَ وجهـه؟ سيعرفُـه بالتّأكيـد، فقـد دخـل بلبـاسٍ مـدنيّ وهـو الآن سـيخرج بلبـاسٍ عسـكريّ؟! إنّ هـؤلاء الملاعـين مُدرّبـون عـلى قـراءة الوجـوه؟ مـن الأفضـل أنْ أؤجّـل الأمـر سـاعةً أو سـاعتَين حتّـى يذهـبَ هـذا الجُنـديّ عـن البـوّابـة». واسـتجاب لخاطـره الأخـير، فنـزع الملابـس العسـكريّة، ولبـس لباسَـه الطّبيعـيّ ثانيـةً عـلى عجـل. أرسـلَ نظـرةً مـن شـقّ الحـمّام إلى حيـثُ الجنـديّ، فـرآه لا يـزال واقِفًـا هنـاك، فاطمـأنّ إلى أنّـه فعـل الصّـواب، وأنّ الأمـر يقتـضي بعـضَ التّأجيـل.

كان يُدير رأسَه إلى الجهة الأخرى، الجهة البعيدة عن الجنديّ الإسرائيليّ حيثُ يقف، حانتْ منه التِفاتةٌ إليه، فرآه يُحدّق فيه بقوّة، صارت ارتِعاشته هذه المرّة واضحة، لم يقوَ على السّير خطوةً أخرى إلى الأمام، وتسمّر في مكانه، فكّر في وسيلةٍ ليُداري بها خوفَه هذا، فتراجَع خُطوةً إلى الوراء لينظر في المرآة الطّويلة الّتي تنتصبُ على الجدار، فعل، نظَر إلى نفسه، وجهه أصفر، وجفناه ينطبقان وينفتحان، ركَزَ كفّيه على طرف المغسلة ليستجلبَ شيئًا من الهدوء، هدأ قليلاً، نفثَ هواءً حارًّا مُكتنِزًا في رئتَيه أكثر من مرّة ليتخلّص من انحباس النَّفَس مع الارتِعاش، سمع صوتًا يقول له: «تخلّصْ من كلّ هذا». لم يدرِ من أيّ شيءٍ يتخلّص، سيطر عليه القلقُ من جديدٍ، مضى.

حينَ صار على البوّابة، أوقفه الجنديّ الإسرائيلي، فأصابه الهلع، ولولا تلك الابتِسامة الصّفراء الّتي ارتسمتْ على شفتَيه لاعترفَ بكلّ شيءٍ، قال الجنديّ بالعبريّة: «في أيّة مُستوطنةٍ تعمل؟». تظاهر بأنّه لا يفهم العبريّة، لكنّ عينَيه الزّائغتَين دلّتا على أنّ في الأمر شيئًا، هَزّ الجنديّ رأسَه، وزوى شفتَيه، وسأله هذه المرّة بالعربيّة: «في أيّة مُستوطنة تعمل أيّها الغبيّ؟». ردّ بكلمةٍ واحدة وهو يفحص الأرضَ بنظراته: «حينانيت»، هَزّ الجنديّ رأسه وأشار له كي يتابَع طريقَه، ومضى (يعقوب) وقد انزاح عن صدره جبلٌ من الهَمّ والقلق، لكنّه لم يكدْ يخطو بضع خطوات حتّى صاحَ الجُنديّ به من جديد: «هيه.. أنتَ؟! ما هذه الحقيبةُ الّتي تحملها... عليّ أنْ أُفتّشها». قال ذلك وهو يقتربُ منه، لم يُدِرْ (يعقوب) إليه جِذعه، سقطت الحقيبةُ من يده، وأطلقَ ساقَيه للرّيح، كان يسمع مع الرّيح أصواتَ جنودٍ كثيرةٍ مُتداخلة، وخبطَ

أقـدامٍ عسـكريّة عـلى الأرض، وأنـاس تصيـح وتجـري في كلّ اتّجـاه، وأصـواتَ مزاليـج حديـدٍ، و... فجـأةً سـقطَ في الظّـلام.

(١٥)

ماذا حدثَ مع يعقوب؟!

التّراجُع كُفْر، على هذا المبدأ بنيتُ حياتي في الطّريق المَهولة الّتي مشيتُها إلى فلسطين، فلسطين ليست بعيدة ولكنّها مع ذلك ليست قريبة. شيءٌ ما عليكَ أنْ تهبَه لها حتّى تنظرَ في عينَيك. لا أدري كيفَ يكون وجهُ حبيبتي حينَ أضربُ لها موعدًا، أو أُعطيها وعدًا بيوم خلاصها ثُمّ يكون لي أنْ أتعذّر بالأشواك في الطّريق، أو بالأفاعي المُتربّصة في الدّرب، أو بالغربان المُحلّقة في الأجواء. امضِ ولا تلتفت، وإذا عزمْتَ فلا تُفكّر بالرّجوع، لم يكنْ لديّ غير عنادي أتّكِئ عليه من أجل أنْ أرى وجه حبيبتي يبتسم في نهاية المطاف!

لم أعرفْ ما حدثَ مع (يعقوب)، لا أدري إنْ كان قد أتمّ العمليّة أم أنّه حدث معه شيءٌ آخر لم يكنْ في الحُسْبان، لم أسمعْ أنّ سقفَ باصٍ قد طار، أو أنّ حِزامًا ناسِفًا قد انفجر في خَلاءٍ من الأرض، أو أنّ قنبلةً قد أخذتْ من لحم الجرذان معها ما أخذتْ. ولم أَدْرِ حِيال صمتِ الأحداث هذا ما أفعل؟!

فكّرتُ أنْ أذهبَ إلى المحطّة الّتي كان من المُفتَرض أنْ ينفّذ فيها (يعقوب) عمليّته، توجّهتُ إلى هناك، الأرضُ ما زالتْ مُبلّلةً بمطر اللّيلة الفائتة، كانت الحافلات تطوفُ في المكان بشكلٍ اعتِياديّ، الهدوء مُسيطرٌ على المكان باستِثناء أصوات أصحاب الحافِلات وهم يُعلِنون عن قُربِ انِطلاقها لينتظم المُرتِحلون في مقاعدهم... مشيتُ بينَ الحافِلات، لم يكنْ هناك شيءٌ مُريب، نظرتُ في الوجوه، كانتْ شمعيّة، عاديّة، يرتسمُ على ملامحها اللاّمبالاة، الجنود الّذين يحملون

الرّشّاشات على أكتافهم يظهرون هنا وهناك، يتجمّع بعضهم وهم يشربون أكوابًا من القهوة ويتضاحكون ويُقهقهون بشكلٍ رتيب... لم يكنْ في المحطّة شيءٌ يُثير الرّيبة... هل هو الهدوء الّذي يسبق العاصفة؟! ماذا حدثَ مع يعقوب؟! ما الّذي جرى له؟! هل سحبَ النّابض أم أنّه لم يفعل؟! هل خانَ الأمانة وأصابه الخوف والجُبن فتراجع في اللّحظة الأخيرة؟! أمّ أنّه نفّذ العمليّة كما خُطّط لها تمامًا ولكنّ الصّهاينة يتستّرون على نتائجها؟! ألفُ سؤال وسؤال دارَ في ذِهني عمّ حدث لكنّني لم أجدْ إجابةً واحدة.. فركتُ يَدَيّ أستجلبُ بعضَ الدّفء قبل أنْ تتكسّرا لشدّة البرد، نظرتُ حولي مُضيّقًا عَينَيّ، أطلقتُ زفيرًا طويلاً، فخرجتْ سحابةُ ضبابٍ كثيفةٍ من فمي في هذا الصّقيع... حَطّ غرابٌ على برميلٍ في السّاحة، صعدَ عاملٌ فلسطينيّ حافلة، هبطَ جنديّ آخر، رشقتْ عجلةٌ دُفقةَ ماء، زعق ضابطُ الحركة، رمى أجدبُ كوب الورق الّذي شرب فيه على زاويةٍ قذرة، غفا سائقٌ على مِقود حافلته، ووزّع صبيّ كؤوس الشّاي على المُشترين، ونادَى بائعٌ على كتبٍ قديمةٍ يحملها في صندوقٍ خشبيّ على ظَهره ترطّبَ بعضُها بعدَ أنْ مَسّته بعضُ قطرات المطر، وصاح ولدٌ لم يتجاوز العاشرة بصوتٍ رفيع: «سمسم يا كعك!». كان كلّ شيءٍ يسير بشكلٍ اعتِياديّ في المحطّة؛ أينَ أنتَ يا يعقوب؟!

فكّرتُ أنْ أذهبَ إلى بيته في (بير الباشا) لأعرفَ ما حدثَ معه؟ لكنّني خفتُ أنْ يكونَ قد انكشف، وأنّ فخًّا أمنيًّا سيكون بانتظاري هناك، عدلتُ عن الفكرة سريعًا. ماذا لو تسلّلتُ خفيةً إلى حارته؟ ستنجلي كثيرٌ من الأمور، وستسقطُ الأسئلة المُعلَّقة. لكنْ ماذا لو لم أجدْ إلاّ فوهات الرّشّاشات مصوّبةً نحوي تأمرني بالاستِسلام، لا... فكّرتُ بوسيلةٍ أخرى؛ يُمكن أنْ أتنكّر وأذهب،

ماذا في ذلك؟ كلاّ، كلابهم ستشمّ رائحتي، ولن تكون لديّ فرصةٌ للهرب. أَرْجَحتْني الهواجس وبعثرتْني في الاتّجاهات كلّها، لكنّني قرّرتُ في النّهاية أنْ أعودَ إلى البيت.

عُدتُ كومةً من قلق، رأى الكلب ذلك في عينَيّ فتمسّح بي: «لا تفكّر إلاّ فيما هو آتٍ». ارتميتُ على السّرير، وأطلقتُ نظرةً طويلةً ساهمةً إلى السّقف، لا أدري لماذا تخيّلتُ أنّني أطيرُ في لحظةٍ إليه، استعادتْ خيالاتي أيّامَ الشّقّة رقم (١١)، ففزَزْتُ من السّرير، وأطلقتُ صرخةً من أعماقي، هُرِعَ الكلب على صوتي، قفز في حضني، شعرتُ ببعضِ الأمان.

صوتُ أمّي من الخارج تنادي عليّ: «الأكل جاهز». بقيتُ في غرفتي أفكّر في المآلات الّتي يُمكن أنْ تحدث فيما إذا أُلقِي القبضُ على (يعقوب) واعترف. ساورني القلق أكثر هذه المرّة، تعالى صوتُ أمّي في الخارج: «الأكل سيبرد». لم أخرجْ من غرفتي لثلاثةِ أيّام.

في اليوم الرّابع نبح الكلب (عَوْ عَوْ عَوْ عَوْ عَوْ) خمسَ مرّاتٍ بصوتٍ عالٍ جارح، دقّ قلبي بسرعة، مشى الهلع في عروقي، سال جُرح الخوف... كان عليّ أنْ أهربَ باتّجاهه حسب لغتنا المُشتركة، خلعتُ بابَ غرفتي، غَمَرَتْ أشعّة الشّمسِ القادمة من بين الغُيوم عينَيّ المُظلِمَتين، تدفّق فيهما النّور فجأةً فشعرتُ أنّني أعمى، لكنّني فركتُ عينَيّ لأرى شيئًا، كانت هذه اللّحظات ما بين دفقة الضّوء المُفاجِئة وعماي ثُمّ استعادة رؤيتي هي أطول زمنٍ مرّ عليّ، ومع ذلك ركضتُ في السّاحة باتّجاه البوّابة أملاً في النّجاة وركضَ الكلبُ معي، غير أنّني واجهتُ جدارًا بشريًا يقف عند المدخل، صدرٌ كأنّه سهل فسيح، وذراعان كأنّهما برميلان، لفّ هذا الجنديّ ذراعَيه

الغليظتَين حولي وصرخ بالعبريّة: «عليكَ أنْ تأتي معنا». هجم عليه الكلبُ فعضّه في عضده عَضّةً قويّة بفكٍّ كأنّه مبردٌ، فغاصَتْ أنيابُه في لحمه عميقًا، فأفلتني وهو يصيح ويشتم، ثُمّ هجَمَ عليّ أربعةٌ، فدافعهم الكلب، وهو ينبح نُباحًا مُرعبًا وقد اسودّ ما حول فَكّه، وتوقّدتْ عيناه، واحمرّتْ لِثَتُه، واندلق لِسانُه، وسالَ من شِدقَيه زبدٌ أبيض، وتحفّز لكي يأخذ بين فكّيه كلّ من يقتربُ منّي. صاحَ بي أحد الجنود: «قلْ له أنْ يبتعد الآن قبلَ أنْ أجعل عشر رصاصاتٍ تستقرّ في بطنه». كان كلّ شبرٍ في السّاحة وعلى الأسوار وفي الشّارع والحارة يغصّ بالجنود المُدجّجين بالسّلاح، إنّهم أكثر من ثلاثين جنديًّا جاؤوا لاعتِقالي... دارتْ عيناي في المكان بسرعةٍ، رأيتُ ثغرةً ممكنة، نُقطة ضعفٍ في الحلقة المُحكَمة، ركضتُ إليها لأتسلّق من خلالها السّور وأقفز إلى الشّارع، فعلتُ ذلك في أقلّ من ثلاث ثوانٍ، ولكنّني حينَ صرتُ في الشّارع من الخارج، تحلّق حولي سبعة جنود، أحدهم لفّ ذراعيّ بقوّة خلفي وقيّدهما سريعًا، وآخر عصبَ عينَيّ، وثالثٌ دفعني بقوّة باتّجاه باب جيبٍ عسكريّ، رماني فيه مثلما يرمي كيسًا خفيفًا، من خلفي كان صوتُ أمّي: «اتركوه يا سَفَلَة... لماذا تعتقلونه؟ لم يفعلْ شيئًا... أعيدوا لي ابني». وضاعَ صوتُها مع زعيق سّيارة الجيب العسكريّة الّتي انطلقتْ إلى المجهول.

سادَ صمتٌ طويلٌ، لم أسمعْ شيئًا، كنتُ مُلقًى على أرضيّة رطبةٍ سمحتْ للصّقيع أنْ ينخر عِظامي. أدرتُ وجهي في المكان، كنتُ أعمى، العصابة الّتي تُغطّي عينَيّ لا أستطيع إزاحتها فما زِلتُ مُقيّد اليدَين إلى الخلف أشعرتُ بألمٍ شديدٍ في الرّسغَين، حاولتُ أنْ أحرّك يدَيّ فازداد القيدُ ضيقًا فحزّ اللّحم، وشعرتُ به يُعانِدُ العظم يريدُ أنْ يكسره، أطلقتُ صرخةَ ألمٍ لكنّها ضاعتْ في سكون المكان

الرّهيب. حاولتُ أنْ أعرفَ إنْ كانت الغرفة مُضاءة أم لا، فتحتُ عينَيّ المعصوبتَين أستجلبُ شيئًا من النّور، قدّرتُ أنّ الغرفة مُظلِمة أو أنّه اللّيل، ناديت: «هل هناكَ أحد؟». لم يُجِبْني غيرُ الفراغ. ناديتُ ثانية: «هل هناك أحدٌ؟». صمتَ الفراغ من جديد، لكنّني سمعتُ أصواتَ أقدام بعيدةٍ، كانتْ تقترب، يبدو أنّها تقتربُ من بوّابة الزّنزانة، لكنْ ما إنْ شعرتُ أنّها قريبةٌ جِدًّا حتّى تناهَى إلى سمعي أنّها تبتعدُ بطريقةٍ رتيبة، بعدَ لحَظَاتَ سكنَ الصّوتُ تمامًا.

وقفتُ على قدَمَيّ، فعلتُ ذلك بصعوبة، لقد حشروني في زنزانة الجيب العسكريّة على هيئة الجنين، كوّروني طَوال الطّريق حتّى وجدتُ صعوبةً في النّهوض، رغم ذلك وقفتُ على قدَمَيّ، نفضتُهما، ورحتُ أستكشفُ الزّنزانة، مشيتُ وأنا أرفع ساقي وأتحسس بها الفراغ، حتّى أعرفَ المدى الّذي أمامي، وجدتُ الفراغ يتبعُه فراغٌ، يبدو أنّ الزّنزانة كبيرة، مشيتُ عشر خطواتٍ فلم تنتهِ، عشر خطوات، ثلاثين خطوة، مِئة.. ما هذا؟! هل وضعوني في قاعةٍ فسيحة، رحتُ أركضُ لكنّ الفراغ لم ينتهِ!! توقّفتُ بعدَ أنْ ركضتُ مسافةً غير معقولٍ أنّ تكونَ مسافةً لبناء مربّع، ما الّذي يجري؟! أينَ أنا؟! هل هذه زنزانة أم ملعب أم ماذا؟ خطر ببالي أنْ أركض بالاتّجاه الّذي عن يميني، فعلتُ، ركضتُ في البداية بحذر؛ خفتُ أنْ يرتطمَ رأسي بجِدارٍ فأقع على الأرض، لكنْ لم يكنْ ثَمّة جدار، كانتْ هناك مساحاتٌ فارغةٌ تبدو بلا نهاية!! هذا غير معقول، غيرُ معقول أبدًا، حاولتُ أنْ أقفز إلى الأعلى بقدر ما أستطيع لعلّ رأسي يرتطم بسقف، ولكنّ رأسي ظلّ حُرًّا، أين وضعني هؤلاء الملاعين، ليتني أستطيع أنْ أُزيح العصابة عن عينَيّ للحظةٍ لأعرفَ ما الّذي يجري، ولكنّها كانتْ مُحكمةَ الإغلاق، ويدَاي مُحكمة الإيثاق خلفَ ظهري.

تسمّرتُ في مكاني، شيءٌ ما غير مفهومٍ يجري حولي. كتمتُ أنفاسي لعلّي أسمعُ شيئًا، ولكنّ المكان كان مُصمَتًا، لا شيءَ فيه غير الفراغ، لا صوت، لا جدران، لا أبواب، لا نوافذ... لحظة؛ كيفَ قرّرتُ أنّه بدون أبوابٍ أو نوافذ؟! هكذا خُيّل إليّ. قد يكونون يُشاهدونني بالكاميرات ويغيّرون الجدران المُتحرّكة بحسب حركتي حتّى تبدو أنّها فارغةٌ بالكامل. كتمتُ نَفَسي مرّة ثانية أحاول أنْ أسمعَ حفيفَ هواءٍ يمرّ من شقوقٍ ما هنا أو هناك، ولكنّ حفيف الهواء هذا لم يكنْ موجودًا، ارتفعَ الدّم إلى رأسي؛ إنّهم يتلاعبون بي إذًا. لكنْ ما وجه هذا التّلاعب؟! كيفَ يكون الفراغ المُطلَق صورةً من صور التّعذيب في سجنٍ ما أو مركز تحقيق. لقد خُدِعتُ بطريقةٍ أو بأخرى، فكّرتُ هل خطواتي الّتي أمشيها في اتّجاه ما أسرقُها في الاتّجاه الآخر فأكون كمن لم يبرحْ مكانه؟! ربّما... لكنْ لأجرّبْ من جديد... ماذا لو أنّني زحفتُ على بطني أو ظهري، هل سأصل إلى نتيجة؟! لكنّ الأرضَ رطبةٌ في مكانٍ وجافّة في أخرى، هل خرجتُ من زنزانةٍ إلى أخرى... تشوّشتُ تمامًا. سيطرَ عليّ الرُّعب من فقدان سيطرتي على غموض المكان، لم يكنْ أمامي إلا أنْ أصرخ، صرختُ: «أيّها الملاعين ماذا تفعلون بي؟!». قدّرتُ أنّهم ينتظرون هذا السّؤال الّذي يرشح بقلّة الصّبر وبكثيرٍ من الخوف، بدّلْتُه: «أيّها الجبناء واجهوني إذا كنتُم تستطيعون؟» لكنّني كنتُ أتحدّى الفراغ والمجهول، صمتُّ للحظات وقد صعدَ الدّم في عروقي وألهبَ رأسي، رحتُ أصرخ وأركضُ في كلّ اتّجاه ويدايَ المُقيّدتان خلفَ ظهري يزداد ألمها بسبب حركتي، فجأةً في لحظةٍ ما شعرتُ أنّ المكان انشقّ عن حفرةٍ سقطتُ فيها سُقوط حجرٍ ثقيل في بِئرٍ عميقةٍ جدًّا.

(١٦)

إنّ الحياةَ في زنزانةٍ يجلبُ الأفكارَ المُرعِبة!!

فُكّتِ العصابة عن عينَيّ، رَكلةٌ قويّة من البُسطار كانتْ كفيلةً بإيقاظي، أضواء كشّافات ساطِعة سُلِّطتْ على وجهي مُباشرة، آلمتْني شِدّة الضّوء، أغلقتُ عينَيّ أتحاشى السُّطوع القاتل، لكنّ ركلةً أخرى قويّة من البُسطار نفسِه كانتْ كفيلةً بأنْ أفتحَ عينَيّ ثانية: «قُمْ يا كلب». حملوني من الأرض وشَبَحُوني على الطّاولة. تأمّلتُ فيما كان اثنان مُنهمِكان في تقييد أطرافي الأربعة.

أدرتُ رأسِي في المكان. غرفةٌ مُربّعة، لا يزيدُ طولُها عن أربعة أمتار، هل هذه الغرفة الّتي رُميتُ فيها أوّل ما جِئتُ إلى هنا؟! مَنْ يدري. الكشّافات في السّقف الأسود خفتتْ إضاءَتها. البوّابة الحديديّة ذات النّافذة الصّغيرة كانتْ تسمحُ برؤية جدران عاديّة خلفَها، وكان هناك جنديّ من ذوي الجُثّة الضّخمة يتصلّب عندها وقد غطّى وجهه بلِثامٍ أسود لا تبرز منه غير عينَيه الذِّئبيّتَين؛ نقطتان زرقاوان في بحرٍ أسود. كانوا قد أتمّوا رَبْطَ يدَيّ ورِجلَيّ إلى قوائِم الطّاولة الصّغيرة الّتي مُدِّدْتُ فوقَها على ظهري. سادَ الصّمت. مرّ الوقت.

صَرّ باب الزّنزانة الثّقيل، تقدّم رجلٌ بلباسٍ مَدَنيّ، ذرع أرض الزّنزانة بخطواتٍ محسوبةٍ وجلسَ خلفَ طاولته، راحَ ينظر في الأوراق الّتي بينَ يدَيه، كان جنديّان آخران يقفان في الزّاويتَين البعيدتَين عن البّوّابة. صرخ الرّجل ذو اللّباس المدنيّ - الّذي يبدو أنّه المُحقّق - بهما: «لماذا تُقيّدونه على هذه الهيئة؟ ما الّذي فعله حتّى يُوثَق بهذه الطّريقة؟! أيّها اللّعين تعالَ..». وأشارَ إلى أحدهما: «فُكّ قيودَه، وهاتِ

كرسيًّا ليجلسَ عليه». فكّوا قيودي كلّها بالفِعل، وجاؤوا بكرسيّ كان ملقًى كغريبٍ في الزّاوية، وقفتُ، وحرّكتُ يدَيّ ورِجلَيّ، كنتُ أحاول أنْ أجعل الدّم يجري فيهما بعدَ طُول تَيَبُّس، سمعتُ المُحقّق يقول: «اجلسْ. أتكلّم باسم جيش إسرائيل، نحن نعتذر عمّا جرى لك، يبدو أنّ من اعتقلك وحدةٌ خاصّة لم تقرأ حقوقَ المواطنين الشّرفاء». كدتُ أنفجرُ ضاحِكًا، غير أنّ الرّيبة سيطرتْ عليّ من كلماته الّتي بدتْ دافِئة، خاطبتُ نفسي ساخرًا: «جيشُ احتِلالٍ يعتذر، ويتحدّث عن حقوق المواطنين... لا بُدّ أنّني أحلم!!».

نظر المُحقّق في وجهي مباشرة، لم يكنْ يفصلُ بيننا أكثر من مترَين: «ماذا تشرب؟». لم أدرِ هل أضحك أم أبكي، بقيتُ صامِتًا. رفعَ نظّارته عن عينَيه، وفَرَكَهما، وابتسم: «لماذا لا تتكلّم؟ ماذا تشرب؟». قلتُ وأنا أحاول أنْ أبدو طبيعيًّا: «لا شيء». ازدادت ابتِسامتُه اتّساعًا: «لا تخفْ، سينتهي هذا الكابوس، وستخرج من هنا، هل أطلبُ لكَ شايًا بالزّعتر؟». هززتُ رأسي مُوافِقًا.

جاءني الشّاي ساخِنًا يتراقصُ بُخاره، أمسكتُ زُجاج الكأس فشعرتُ ببعضِ الدّفءِ يتسربّ إلى يدَيّ، رفعتُه إلى شفتَيّ ورشفتُ منه رشفةً قصيرة، ثُمّ طويلة، فانساحَ دافِئًا في صقيع المريء، ضحك المُحقّق: «البرد؛ أليسَ كذلك؟!» أمر أحدَ الجنود: «لماذا لا تُشغّلون التّدفِئة... هَيّا.. لدينا عملٌ جيّدٌ هنا».

«أنتَ مُتّهمٌ بقتل ضابط إسرائيليّ». «أيّ ضابط؟». «لا تتغابَ». «لم أقتلْ أحدًا». «تسلّلتَ إلى سيّارته، وأطلقتَ عليه النّار بعد أنْ سار في الطّريق سبعة كيلومترات». «أيّة سيّارة وأيّة طريقٍ؟!». «هناكَ من اعترفَ عليك». وقعتْ عليّ الجُملة الأخيرة كالصّاعقة.

أردتُ أنْ أسأله: «مـن الّـذي اعـترف؟». رجفـتْ جفـوني، واضطربـتْ ساقاي فرحـتُ أحرّكهـا يمنـةً ويسرة، بلعـتُ ريقـي الجـافّ... لاحـظَ ذلـك وهـو ينظـر إليّ مباشرة ويُراقـبُ تصرّفـاتي: «اعـترفَ عليـكَ أقـربُ النّـاس إليـك». «أنـا لم أقتـلْ أحـدًا». «الإنـكار لا يُفيـد». قلـتُ بسـخرية: «مـا الّـذي يُفيـدُ برأيـك؟!». «الاعـتِراف». «أنـتَ تكـذب». «لقـد اعـترفَ عليـك...» وأرادَ أنْ ينطـقَ الاسـم ولكنّـه توقّـف.. هـل هـو يعقـوب؟! لكـنّ يعقـوب لا يعـرفُ شـيئًا عـن عمليّـة قتلي لهـذا الضّابـط، حاولـتُ أنْ أتذكّـر مَـنْ كان يعـرفُ بالعمليّـة يومئـذٍ، لا أحـد، باسـتثناء عـمّار، ربّـما قلـتُ لـه في الشّـقة رقـم (١١) شـيئًا مـن هـذا القبيـل، ولكـنّ عـمّار لم يعـدْ موجـودًا عـلى الأرض، غادِرهـا إلى السّـماء منـذُ فـترةٍ... أيقظنـي مـن خيـالاتي صوتُـه: «هـل أطلـبُ لـكَ شـايًا بالزّعـتر ثانيـة؟». تململـتُ في مقعـدي، حاولـتُ التّظاهـر بالهـدوء ورباطـة الجـأش وقلـتُ لـه: «نعـم، دعهـم يُضيفـوا إليـه ملعقـةَ سُـكّر أخرى». ابتسـم وأشـار أنْ يأتـوني بهـا، وأردف: «الاعـتراف أمامـي خـيرٌ مـن الاعـتِراف أمـام سِـواي... هـل...» قاطعتُـه: «أعـترفُ بـشيءٍ لم أفعلْـه، هـل أنـتَ مجنـون؟!». ابتسـم فبانـتْ أسـنانه نيـوبَ ذِئـبٍ أطلـس: «كنـتُ أريـدُ أنْ أقـول لـك: هـل تعـرف أنّ الاعـتِراف أمامـي لـه ميـزةٌ عظيمـة، إنّـه يُمكـن أنْ يُخفّـف الحُكـم الـذّي سيصدر عليك إلى النّصـف». «أيّ اعـتراف، ألم تسـمعْني؟!». «لا تُحـاولْ، لدينـا أشرطـة الفيديـو الّتـي صَـورتْ تسـلُّلَك إلى سـيّارة الضّابـط، هـل تريـدُني أنْ أعرضَهـا عليـك؟!». ارتعشـتْ تُرقُـوتي، همسـتُ في جوارحـي الخائفـة: «هـل يكونـون قـد التِقطـوا هـذه الصّـور بالفِعـل؟! لكـنْ لمـاذا اعتقلـوني الآن؟! لقـد مـرّ عـلى قتـلي لهـذا الضّابـط قُرابـة العامَـين، فلِـمَ لم يستجوبوني وقتَهـا؟ لا بُـدّ أنّـه يحـاول انتِـزاع الاعـتِراف منّـي». هـدّأتُ اضطـرابي برشـفةٍ مـن كأس الشّـاي الّتـي وصلـتْ للتّـو، وهتفـتُ: «لم أقتـلْ أحـدًا». ردّ بعصبيّـة: «والشّـيخ؟». «مَـن الشّـيخ». «لقـد قـال كلّ شيءٍ».

«أيّ شيخٍ؟! من هذا الّذي قال كلّ شيء، هناك ألفُ شيخٍ وشيخٍ، هل ستُلصِق بالشّيوخ أيّة تهمة، أنتَ تريدُني أنْ أعترف، وأنا لم أقتلْ أحدًا». تظاهرَ بالهدوء وأرجعَ ظهره إلى الكرسيّ، ولعبَ بالقلم بين أصابعه، وقال بلهجة الصّديق: «أنا أريدُ مساعدتك». صرختُ: «لا أريدُ أنْ يُساعِدني أحد». «أين كنتَ تعمل؟». «أنا في الثّانويّة، في الفصل الأخير». «أعرفُ، لكنْ في أيّ مستوطنةٍ كنتَ تعمل؟». «في مستوطنة ريحان». «الضّابط الّذي قُتِل كان يعمل في هذه المستوطنة أيضًا». «هناك عشرات الضّبّاط الّذين يعملون في المستوطنات، وهناك عشرات العاملين الفلسطينيّين فيها، فلماذا لا تُلصِق التّهمة بهم جميعًا؟!». «لأنّني أعرفُ أنّكَ أنتَ الّذي قُمتَ بهذه الجريمة». «لم أقمْ بأيّة جريمةٍ، أنا طالبٌ في الثّانويّة أستعدّ لإنهائها من أجل أنْ أنتقل إلى الدّراسة الجامعيّة، لا أريدُ منكَ أنْ تُعطّل وقتي أكثر من ذلك، أعيدوني من حيثُ أتيتم بي، عليّ أنْ أعمل هذه الأيّام من أجل عائلتي». «يبدو أنّكَ عنيدٌ، ولا تريدُ مصلحتك، وليسَ لديكَ أدنى فكرةٍ عمّا سيحدث، سأسألك للمرّة الأخيرة: هل تعترف بقتلك للضّابط (رامون) الّذي كان يعمل في سجن مِجدّو؟!». دخل سؤالُه إلى قلبي خنجرًا ذا نصلٍ مسموم، لم أكنْ أعرفُ اسمَه، وإنْ كنتُ أعرفُ أنّه يعمل في سجن مِجدّو. وصمتُّ للحظات قبل أنْ أرشفُ رشفةً أخيرةً من كأس الشّاي مُتظاهرًا باللاّمبالاة: «أبدًا، لم أقتلْ أيّ أحدٍ في حياتي».

أغلقَ المُحقّق الأوراق الّتي بينَ يدَيه بعدَ أنْ وقّعها، وقف على قدَميه وهو يهزّ رأسَه بأسف، وخرجَ دون أنْ يقول شيئًا.

تبعه الجنديّان والبغل المُلثّم، أغلقوا خلفهم بابَ الزّنزانة الثّقيل وبقيتُ في الغرفة وحدي، شعرتُ بأنّ همًّا ثقيلاً قد انزاحَ عن

صدري، لم يظفروا بشيءٍ، لكنّني جلستُ على الكرسيّ أحاول أنْ أستعيدَ شريطَ حياتي في آخر سنتَين، لقد بدا أنّ حذري السّابق ليسَ كافِيًا، كان عليّ أنْ أحذر كلّ شيءٍ، وقفزتْ إلى ذهني صورةُ يعقوب وأنا أشدّ على يَدَيه قُبيل تنفيذ العمليّة: هل يكونُ هو من وشى بي؟! كيف؟! إنّه لا يعرفُ عن قتلي لهذا الضّابط شيئًا، ولم أخبره عنه ولو بكلمةٍ واحدةٍ، إضافةً إلى أنّ العمليّة قُيّدتْ منذُ زمنٍ ضِدّ مجهول، فلماذا نبشوها الآن؟! ثُمّ لماذا لم يسألني عن يعقوب...؟! وتوقّف سيلُ أفكاري قليلاً قبل أنْ أُتابعه: ولكنْ لماذا عليه أنْ يسألني عن يعقوب؟ إنّني لم أسمع أنّه أُلقِي عليه القبض، ولم أسمعْ كذلك بأنّ عمليّته قد تمّت، ما الّذي يجري إذًا؟! وظلّتْ أسئلتي تدور في فضاء عقلي حتى ارتميتُ على الأرض لكي أرتاح.

مرّ أسبوع بعدَ يوم التّحقيق ذلك، لم أُستدعَ إلى تحقيقٍ آخر، ولم يسألني أحدٌ شيئًا، ولم تُوجّه إليّ أيّة تهمةٍ؟! وكانوا يقدّمون لي طعامًا جيّدًا، وفي أوقاتٍ مُنتَظَمة، وتوقّعتُ أنّه في الأسبوع التّالي سيحدثُ ما يغيّر رتابة الأيّام الّتي تجري، غير أنّني بقيتُ شهرًا كامِلاً آكُل وأشربُ وأنام في الزّنزانة ذاتها، أقرأ القرآن، أطلبُ أوراقًا وأقلامًا فيُلبّون رغبتي، وكُتُبًا فيأتونني بأكثرها، وتخيّلتُ أنّني أُخِذتُ من بيتي من أجل أنْ أرتاح من دوّامة العالَم الخارجيّ وأتفرّغ للقراءة والكتابة هذه الفترة كلّها... ثُمّ... ذَبذَبني بندولُ الوقت، إنّ الحياة في زنزانة يجلبُ الأفكارَ المُرعِبة!!

(١٧)

هل يَنفعُ الاستِسلام؟!

«اخلعْ كلّ ما تلبس». «لن أخلع شيئًا». لكمةٌ من البغل رمتْني أرضًا. تخلّصتُ من الدّوار الّذي أحدثَتْه اللّكمة، وبقيتُ لحظاتٍ أستعيدُ توازني. «قُمْ». وقفتُ على رِجليّ. «هَيّا». حدَّقْتُ فيه ببلاهة: «ماذا؟». «اخلعْ كلّ ما تلبس». «أيّها الشّيطان». «اخلعْ...» ورفَع قبضَته، فسارعتُ إلى نَضّ ملابسي، بقيتُ بتلك الّتي تُغطّي عورتي، رأى جسدي النّحيل، قرأتُ ما في عينَيه، كانَ مُستعدًّا لسحق الحشرة المُرتعِشة من البرد الّتي تبدو أمامه بلكمة أو رفسةٍ واحدة. شَدّني من يدَي، أخذ القيد الّذي يتدلّى على جانِبَي وسَطه، ورفعني كما يرفَعُ قُبّعة، وعلّقني من يَدَيّ على خُطّافٍ مُثبّتٍ في جدران الزّنزانة، قذفتْني الحياةُ السّابقةُ خلفَ نافذتها بسرعةٍ، ثُمّ يدي الأخرى، وفي لحظات كنتُ أتدلّى من ذراعَيّ كذبيحة، كانتْ ذراعاي مشدودتَين إلى حلقتَين مُثبّتَتَين في جدار الزّنزانة، وجسمي يتدلّى من تحتِهما دون أنْ يمسّ الأرض، حملتِ الذّراعان النّحيلتان جسدي، ومع أنّني كنتُ أملكُ ذراعَين قويّتَين إلاّ أنّهما ناءَتا بِحَمْل الجسد الذّبيح. نَظَرَ إليّ نظرة ذئبٍ يلعقُ أثَرَ الدِّماء، وزفَرَ زفرةَ انتِهاء، وخرج. أردتُ أنْ أصرخ: «أيّها اللّعين... ماذا؟ هل ستتركني مُعلّقًا هكذا؟!». لكنّ صوتَ الباب الّذي انطبَقَ خلفَه وأدَ الصّرخة في مهدِها.

بقيتُ مُعلّقًا إلى الجدار يومَين، انحبَسَ الدَّمُ في رُسْغَيّ، يثقُلُ جسدي حينَ أغفو، فيشدّ على يدَيّ، فيحُزّهما فأفيق من شدّة الألم،

شَقّ العطَشُ حلقي، طوّحتُ رِجليَ في الفراغ أبحثُ عن هروبٍ من الألم فزادتْ حركتي الضّغطَ على الرُّسغَين فضاعفتِ الألمَ، فصرختُ، لَطَمتْ صرختي جدرانَ الزّنزانة، ارتطمتْ سلاسل من حجارة الوجع السّريعة، وعادتْ لتدخل في فمي المفتوح: «يا كلاااااب...؟!». لكنّ الصّرخة ابتلعتْها آبار الظّلام والسّكون.

شَقّ العَطَشُ حلقي، صرتُ أُغمِضُ عَيْنَيّ وأحلم بقطرات الماء تنسكبُ في فمي، أفتحه، أمُدّ لساني، أحاول أنْ أصيد القَطَرات المُنسكِبة، لكنّه لم يكنْ إلاّ الهواء، تراخَتْ يدَاي، تراخى جسدي كلّه، ازرقّ كفّاي في البداية، ثُمّ ازرقّ الذّراعان، ثُمّ ازرقّ كلّ شبرٍ فِيّ، شعرتُ أنّ يدَيّ تنفصلان عن جسدي، تمنّيتُ لو أنّهما تنقطعان، فيسقطُ جسدي من دونهما لأرتاح من هذا الألم الفظيع، لكنّ هذه الأمنية المُرعِبة لم تتحقّق... خارتْ قُواي في اليوم الثّاني بالكامل، لحمُ ذراعَيّ تفسّخ، جلدُ بطني تشقّق، ضوءُ عينَيّ انجرح، علتْ ترقوة، هبطتْ أخرى، تَردّدَ نَفَسٌ واهنٌ في صدري، كان كلّ شيءٍ فِيّ يُغادِرُ الدُّنيا، كيفَ هو شكل الرّوح حينَ تُغادر الجسد، لا بُدّ أنّني أعرفُ الآن، بل أتمنّى... هل يُريحني الموت؟! هل ينفع الاستِسلام في هذا الظّرف؟! تمنّيتُ أنْ أرى أيّ وجهٍ من الوجوه ينطبع في فراغ الزّنزانة، أنْ يأتي أحدُهم فيفعل أيّ شيءٍ، أنْ يهوي بالسّوط على لحَمي، أنْ يشدّ أطرافي إلى أرجل الطّاولة الأربع، أنْ يُمزّق جلدي، أنْ يوقِدَ تحتَ ظهري النّار... أنْ يُنزل جسدي المصلوب فوق الجدار ولْيفعَلْ بعدَها ما يشاء... لكنّ أيًّا من ذلك لم يحدثْ.

كان البرد يحزّ عِظامي العارِية، والجوع يُوهِن ما تبقّى فِيّ من قُوّة. شيئًا فشيئًا بدأتُ أذهبُ إلى العالَمَ الآخر، إنّه وادٍ مليءٌ بالظّلام وبالأفاعي، حاولتُ الهروب منها بالعَدو، لكنّني كنتُ مصلوبًا ولا

أملك القدرة على أنْ أحرّك أيّ عضوٍ من جوارحي... استجلبْتُ صوتَ أمّي، لعلّني أنجو، لكنّه عَزّ، هيئتَها وهي تريدُ أنْ تهوي على رأسي بعصا المكنسة... بدتْ رحيمةً جِدًّا أمام هذا العذاب الّذي أعيشُه... أينَ أنتَ يا ريّان؟ كيفَ تتركني لهؤلاء الوحوش يفعلون بي كلّ هذا.. بدأتُ أهذي... شيئًا فشيئًا وجدتُني أسقطُ في ذلك الوادي، وأتركُ جسدي للأفاعي وللذّئاب تنهشُ منه كما يحلو لها.

لا أدري كم مرّ من الوقتِ بعدَ ذلك. لكنْ لم يكنْ للوقتِ صوت، كان أخرسَ تمامًا، ظلّ كذلك حتّى سمعتُ باب الزّنزانة يَصِرّ، اشتعلتْ في جسدي قُوّة غامِضة، قُوّة التّوق إلى الحياة، الشّعور بأنّ هناك فرصةً للنّجاة تتمثّل في باب الزّنزانة الّذي ينفتحُ للتّو، سيكونُ أملاً بالنّجاة حتّى لو كان من يفتحه هو ذلك البَغل المُرعِب، فتحتُ طرفَ عينَيّ الذّابلتَين أحاول أنْ أرى من خلال النّور الّذي اندلقَ مع انفِتاح الباب، غَطّى الدّاخل بجُثّته الضّخمة الباب بأكمله أوقفَ سيل الضّوء المُتدفّق من هناك لمّا وقفَ في مُنتصَفه، بقدر ما كان مُرعِبًا وظِلّه يسقطُ خلفه، بقدْر ما اجتاحتْني موجةٌ من الفرح غير المفهوم، إنّه بشريّ على الأقلّ، وفي قدومه بعضُ الأمل، رأيتُه - وأنا بالكاد أستطيعُ فتحَ عينَيّ - ينحني، ويلتقطُ فيما يُشبِه دلوًا من الأرض، ويتقدّم نحوي بجُثّته الّتي تسدّ الهواء والضّوء، لم أكنْ أحلم، بالتّأكيد ليسَ هذا حلمًا ولا هلوسات، إنّه بالفِعل يُواصِلُ تقدّمه الصّامت نحوي، ثُمّ فجأةً أرجعَ الدّلو خلفَ جِذعه، وسَكَبَ ما فيه مرّة واحدةً على جسدي العاري... استيقظتْ كلّ خليّةٍ فِيّ، كان الماءُ مُثَلّجًا، شعرتُ بأنّ أطرافي تتجمّد، وأنّني أتحوّل في لحظةٍ إلى زُجاجٍ لا يحتمل وكزةً واحدةً حتّى يخرّ من صليبه على الأرضِ قِطَعًا صغيرةً مُتكسّرة... انفجرتْ من أعماقي صرخةٌ مكتومةٌ كادَتْ

لها أضلاع صدري تخرج بها من جلدي، وانكتم نَفَسِي بعدَها وأنا أفتح فمي على اتِّساعه، ثُمّ محاولةٌ أخرى لإخراج الهواء المنكتم في رِئَتَيّ، فنتجَتْ عنه صرخةٌ أخرى، ورحتُ أرتعشُ على الجِدار كذبابةٍ. تقدّم نحوي وعيناي تتوّسّلان إليه ألاّ يفعل شيئًا، كانَ بريقُ اللّذّة في عينَيه يفضحُ الذّئبَ النّائِمَ فيهما، صار وجهه مقابِلاً لوجهي، مَدّ كفّه الغليظةَ وضَغَطَ على صدري بقوّة كادتْ تكسّر أضلاعي وتنفذُ منها إلى ظهري، ثُمّ في ثوانٍ أخرى فَكَّ قيدَ ذِراعَيّ، وتراجعَ خطوتَين إلى الوراء فسقطتُ على الأرض كومةً من عِظام. ثُمّ أعطاني ظهره، ومشى خطواتٍ أخرى إلى الباب، ومن هناك زَجّ بصينيّة عليها بعضُ الطّعام، وأدار ظهره لي من جديدٍ وخرج.

بقيتُ مشلولاً على الأرضِ أُعاني آلامًا فظيعة، لم أقدرْ على الزّحف، أو أنْ أمدّ يدي إلى الطّعام، برقَ ماء الكأس أمام ناظِرَيّ فرسمَ أمامي أملَ النّجاة، زحفتُ على جانبي مقتربًا من الكأس، مددتُ يدي وهي ترتجفُ، كانتْ تعبر المسافةَ القليلة الفاصِلة بين الأصابع والكأس ببطءٍ وبوجع، قبضتُ على الكأس في النّهاية فأطلقتُ هواءً بارِدًا من أعماقي، قرّبْتُها من فمي، ورشفتُ أوّل رشفة فدبّتْ فِيّ الحياة، لا يشعر بوجع الماء مثلُ المحرومين.

ثلاثة أيّام. طعامٌ. ملابس جديدة. سجّادة صلاة. طاقةٌ في السّقف يُمكن أنْ ترى منها قطعةً زرقاء. شمسٌ غائِمة. نورٌ هارب. أقدامٌ قادمة. أُنْس. قهقهات في الجِوار. انتعشَ الجسد. بعضُ العافية لا يحتاج إلاّ إلى الشّعور بكينونة الذّات. ما أصعبَ الفقدان!

في اليوم الرّابع دخل مُحقِّقٌ آخر. كان يبدو مُدخِّنًا شَرِهًا. «أنكرتَ؟». «لأنّني لم أفعلْ ما تنسبونه إليّ». «وليكنْ. لكنْ هل

إطفاء هذه السيّجارة في صدركَ كافٍ؟!». «ليسَ لديّ ما أقوله». «من الشّيخ؟». «أيُّ شيخٍ؟!». «الشّيخ شلومو». «لا أعرفُ أحدًا بهذا الاسم». قهقه: «أعني عبد السّلام». «اسمٌ غريبٌ أيضًا، حتّى في زملاء الدّراسة لم يمرّ عليّ هذا الاسم». «إنّه مُخرّب كبير». «جَنى على نفسه». «وأنت؟ ألمْ تجنِ على نفسِك؟!». «لم أجنِ على أحد». «بدل أنْ تبيع البطّيخ على عَرَبة، ما رأيُكَ أنْ تتعاونَ معنا؟!». «أتعاونُ معكم؟ كيف؟». «ندفعُ لكَ مقابل أيّامك في السّجن، فقط تعرّفْ على الّذين شارَكوا في عمليّات تخريبيّة ضِدّنا». «أنا لستُ جاسوسًا». «سنُعطيكَ ما تريدُ من المال، وستتغيّر حياتُك». «أتمنّى، ولكنّ المال لا يشتري كلّ شيءٍ». «بل يفعل، وكثيرٌ منكم أيّها المُناضِلون فعلوا ذلك». وشَدّ على كلمة (المناضِلون). وخرج.

سمعتُ صوتَ امرأةٍ تصيح: «لماذا تعتقلونه أيّها السّفلَة؟!». يبدو شبيهًا بصوتِ أمّي، رجفتُ: «هل اعتقلوها؟!». صوتُ جنديّ: «إنّه لا يعترف. أقنعيه أنّ ذلك لمصلحته وسيخرج معك». «ابني حبيبي. هل فعلها؟». «لقد التقطتْه كاميرات الطّريق. الإنكار وقاحة». «اتركوه... أنا مُتأكّدُ من براءة ابني». كان قلبي يخفق بشدّ: «أيعقل أنّهم اعتقلوها، وجاؤوا بها إلى هنا...؟!». ثُمّ سمعتُ صوتَ بكائِها، أهي أمّي بالفِعل؟! كانتْ كلماتها تخرج مبعوجةً من خلال نحيبِها: «اتركوه... حبيبي... لم يفعل شيئًا». وركضتُ إلى الباب، كان الغضبُ يشتعلُ في كلّ خليّة من جسدي، ونويتُ أنْ أهوي على الفولاذ وأصرخ: «تُظهِرون بطولتكم على امرأة» لكنّني في اللّحظة الأخيرة توقّفتُ لاهِثًا: «ماذا لو لم تكنْ أمّي؟!». «لكنّ صوتَها كأنّه هو». «إنّها جنديّة من جنودهم تحاول أنْ تُقلّد نبرتَها». «لكنّها قالتْ لهم يا سفَلَة، هذه الكلمة خاصّة بأمّي حينَ اعتقلوني في ذلك اليوم

المشؤوم». «استنسخوا الكلمة بعدَ أنْ سجّلوها في ليلة الاعتقال». «وإنْ كانتْ أمي. هل ستتخلّى عنها؟!». «ليسَ لديّ الشّجاعة لكي أفعل». «أنتَ جبان. هَيّا دع غضبك ينفجر». «كلاّ». «جبان». «كلاّ». «إنّها أمّك». «إنّه فَخّ!». «إنّها أُمّك». «إنّه فَخّ». «إنّها أُمّك». «إنّه فَخّ». وتراخيتُ عند البوّابة مثلَ كيسٍ طريّ.

دخل مُحقّق ثالث: «كانتْ تستغيثُ بنا لنطلق سراحَك». «مَنْ؟». «أُمّك». «كذّابون». «يُمكنكَ أنْ تقول ما تشاء لكنّ الصّوت لا يكذب». «لم أرها». «ألم يدلّك قلبُكَ عليها حينَ سمعتها؟!». «القلبُ يخدع». استشاطَ غضبًا: «بل أنتَ المُخادِع». «لا أدري لماذا تُصرّون على ما لم يحدث؟!». «لأنّه حدث». «في عقولكم فقط. أمّا على أرضِ الواقع فما أسهلَ أنْ تنكشفَ الكذبة!». «بالضّبط، وهذا ما سينكشف». «لن تُخيفني». «لم ترَ ما يبعثُ الخوفَ بعد». «افعلوا ما يحلو لكم». وخرج.

لا أدري عدد الأيّام الّتي مرّتْ عليّ هنا. كانتْ سواقِي دون ماء، وسُحُبًا دون مطر، وشمسًا دون ضِياء. العمر يمرّ. لم آخذ الثّانويّة. بدتْ أيّام الدّراسة حلمًا غائرًا، صديقًا يولّي ظهره إلى المجهول. وبدأتْ نفسي تنفصل مبتعدةً عنّي، وبدأتُ أُنكرني.

في النّوم تسلّل رَيّان من تحتَ شقّ الباب. كانتْ عيناه حزينتَين، وكانَ جسمُه مُسطّحًا كأنّه من ورق، وكان يضع ذراعَيه تحت عنقه باستسلام، سألتُه: «رَيّان؟!». لم يقلْ شيئًا. «هل أنتَ هنا؟! كيفَ استطعتَ أنْ تدخل إلى الزّنزانة؟!». فَرَدَ ذراعَيه، وانتفَخ جسمُه المُسطّح، وامتلأ بالهواء والدّم، وبرقتْ عيناه، وتدفّق جسده بالحيَويّة، وقفزَ نحوي واحتضنني، ثُمّ نظرَ إليّ نظرة عتاب وهتف:

«تُغـادِر مـن دوني؟!». وضحكـتُ: «هـل تحـبّ أنّ تدخـل السّـجن؟».
«أحـبّ أنْ أكـونَ معـك». وغُصـتُ في فَـرْو رقبتـه النّاعـم وأنـا أعتنقـه،
قبـل أنْ أستفيق عـلى ركلـةٍ في البطـن: «قُـمْ يـا كلـب».

(١٨)

في المَجهُول

وقفتُ ممتثِلاً. أنْ ينفتح الباب نِعمة. الرّكلةُ في البطن نعمةٌ أخرى. تهيّأتُ لما سيقوله البغل. هَدَر: «احزمْ أغراضك». «إفراج؟!». نترَ ضحكةً صغيرة، ثُمّ اهتزّ عارِضاه، ثُمّ انهالتْ كومة الحجارة فقهقه بصوتٍ عالٍ.

عصبَ عينَيّ ودفعني. صعدتُ البوسطة. وأنا معصوب العينَين مُقيّد اليدَين إلى الخلف. دفعتْني يدٌ من ورائي وهي تُرشدني إلى الدّرجات القليلة قبل أنْ أستقرّ في قلب البوسطة. صوتُ سيّارات أخرى. صفير. زعيق. طوّافات. ومسيرةٌ حافلة. «هيه... هل هناك أحد؟». ردّ عليّ الصّمت. وقفتُ، تحسّستُ قلبَ البوسطة برجلَيّ. كانت المقاعد الحديديّة المُستطيلة فارغة، حاولتُ أنْ أُزيح العصابة عن عينَيّ بحكّها بأي شيءٍ صلدٍ في البوسطة لكنّني لم أتمكّن من ذلك. رحتُ أذرع الخطوات الّتي تسمح بها أرضيّة الزّنزانة المُتحرّكة وأنا أُغنّي. أنا جنرال، رحتُ أتبختر، المكان لي. الوحدة لي. وهذا الفراغ الهائل لي. عطشتُ فجأةً فخطر ببالي:

ونشربُ إنْ وَرَدْنا الماء صَفْوًا

ويشربُ غيرُنا كَدِرًا وَطِيْنا

ابتسمتُ: «لا ماء يُورَد، ولا حتّى طين». صحتُ بصوتٍ عالٍ: «أنا عطشان». فأجابني الفراغ، ثُمّ صحتُ من جديدٍ: «أريدُ ماءً». وهذه المرّة سمعتُ قرعًا على الباب الّذي في مُؤخّرة البوسطة

وصوتَ كوز ماء. اقتربتُ بحذر، وقلتُ بلطف: «اسْقِني أيّها الحارس، لا بُدّ أنّكَ تعرفُ معنى العطش. ألم تعطشْ في حياتك ولو مرّةً احدة؟!». «اقتربْ». اقتربتُ، وضع الكوز على خدّي فشعرتُ ببرودته العذبة، «هَيّا». حرّكتُ شفتَيّ كبعير، تلمّستُ بهما حافّة الكوز، وشربتُ هنيئًا.

مرّتْ ساعة، ثُمّ ثانية، ثُمّ ثالثة، الملاعين أينَ يذهبون بي؟ قدّرتُ أنّنا نتّجه إلى الجنوب. هل يُمكن أنْ يكون سجن (نفحة) الصّحراوي. على أيّة حالٍ إنّها بلادي. لن يكونَ السّجن أثقلَ من الحُبّ.

انتظرتُ ساعةً رابعةً كما قدّرتُ. غزاني الملل. ماذا أفعل بيدَيّ. لماذا قيّدوهما إلى الخلف، كان يُمكن أنْ أرى. أنا لستُ أعمى. أنا أرى. أرى تلك الدّرب الّتي مشيتُ فيها. تطول؟ ربّما. تنبحني فيها عاوِياتُ الطّريق؟ ربّما. لكنّني سأصل إلى غايتي يومًا. إنّني أراه رغم كلّ هذا الظّلام الّذي تسبح فيه عيناي. إنّني أراه قريبًا!

توقّفتِ البوسطة في النّهاية. فُتِحَ الباب الّذي في المُؤخّرة، ثُمّ يدٌ تشدّني من عضدي: «هَيّا». ونزلتُ الدّرجات القليلة. ثُمّ دُفِعتُ إلى الأمام. عبرتُ بوّابات ودهاليز وطُرُقات وأنا معصوب العينَين. ثُمّ توقّفت اليد عن دفعي بعدَ ذلك: «إنّه هو». ردّ صوتٌ آخر أكلَ الحاجز الزّجاجيّ على ما يبدو نِصفه: «الزّنزانة رقم ١١». ضحكتُ: «الرّقم قَدَري».

أُزيلت العصابة عن عينَيّ، وخرجَ ظِلٌّ لم أتبيّنْ وجهه، أغلق الباب خلفه، وغرقتُ في المكان. فركتُ عينَيّ، وبدأتُ رِحلة الاستكشاف.

الجدران المُتقشّرة كانتْ سبّورة، سبّورة تحتفظُ بأرواح الكثيرين الّذين مرّوا من هنا. «كُنْ مع الله ترَ الله معك». خمسةُ خمسات من الخطوط المحفورة. رقم (١١) أكثر من (١١) مرّة. القَدَرُ يلتصق بالإنسان من الولادة. «نحنُ الشّباب لنا الغد». «حنانك يا أمّي». «طوّلت الغيبة». «ملعون أبو السّجن». «الصّمت منجاة». «أنتَ منذُ اليوم». «ما أضيقَ الأوطان!». «السّجن للرّجال». «قيودُك مفاتيح حرّيّتك». «العذاب ليس له ربّ. إنّه كافر». «لا تكذبوا لا يوجد في السّجن لصوص». «هنا عرفتُني». «اجعلْ من السّجن محطّةً». «في السّجن كلّ أحدٍ ولا أحد!». «اللّيل طويل. أطول مِمّا كنتُ أظنّ». «كلّ غدٍ مُنتظَر، وكلّ صبحٍ مَأمول». «يا خوّار العزم ألم تسمعْ نبأ يوسف؟!». قرّبتُ أنفي من عبارةٍ تقول: «خلفَ الجدران حقول الياسمين» شممتُ الرّائحة بالفعل، وتذكّرتُ (عمّار)، ثُمّ... انفجرتُ بالبكاء. هويتُ على الأرض، وأنا أحتضنُ ساقَيّ بذراعَيّ، وأدفنُ بينهما وجهي، فكّرتُ أنْ أضيف إلى كتاب الجدران عبارةً لكنّ جسدي المُرتجّ خانني.

جاء المُحقّق مع طاولته، وضعوها أمامه، بعضُ الطّاولات تخضعُ لسطوة الكلمة. كان ضابطًا في وحدة (نخشون) العسكريّة. هيّأتُ نفسي للأسوأ. دخل معه أربعةٌ من المُلثّمين، بطريقةٍ سريعةٍ واحترافيّة وجدتُ نفسي مُعلّقًا من ذراعَيّ إلى سقف الزّنزانة بسلسلةٍ حديديّة مُركّبةٍ على بَكَرة، ذراعايَ مُنسحِبان بطولهما إلى الأعلى وقدماي تمسّان الأرضَ مَسًّا خفيفًا.

«أنتَ في المجهول». لم أفهمْ ما يعنيه، لكنّه أردف: «لا أحدَ هنا يعرفك. لا أحدَ يعلم أينَ هذا المكان. إنّه خارج الجغرافيا والزّمان.

ولا سلطةَ لأحدٍ عليّ إلاّ الّذي أفكّر فيه. ومن المُمكِن أنْ نختصر كثيرًا من التّوقّعات السّيّئة. لكنّ هذا يعتمد عليك». حَدّق في عينَيّ يريدُ منّي تعقيبًا، ولكنّني بقيتُ صامِتًا. «مشوارنا لن يطول». صمتٌ من جديد. «لماذا قتلتَ الضّابط؟». «سمعتُ هذا السّؤال ألف مرّة، ولكنْ ليستْ لديّ إلاّ إجابةٌ واحدة». «قُلْ». «لم أقتلْ أحدًا». أشارَ بهزّةٍ من رأسِه، شَدّ أحدهم السّلسلة فارتفع جسدي إلى الأعلى وشَدّ ذراعَيّ، وصارتْ أطراف أصابعي تتشمّم الأرض تبحثُ عن مُستقرّ، وشعرتُ بأنّ لحمَ ذراعَيّ قد بدأ يتفسّخ. لم أقلْ شيئًا. شددتُ على أنفاسي وأنا أكادُ أختنق. هَزّة أخرى وارتفعتِ السّلسلة. سمعتُ صوتَ تفسّخ لحم ذراعَيّ واضِحًا. صرختُ. «اعترفْ». هزّة من الرأس. ارتفعت السّلسلة أكثر. تفسّخ لَحمُ صدري. توقّفت السّلسلة. التقطتُ أنفاسي، وأرحتُ جسدي بما أستطيع. «هه... ماذا؟». «لا شيءَ أقوله لك». «لن أخرج دون أنْ تعترف». «لماذا لا تقتلني؟!». «تريدُ أنْ ترتاح. لن أقتلك. سأجعلك تموتُ ببطء». هَزّة من الرأس. ارتفعت السّلسلة. تطوّحتُ في الهواء قليلاً. يمنةً فاهتزّ جانبُ فلسطين الأيمن. يسرةً فاهتزّ جانبها الأيسر، ورقصتْ بها حلاوة الرّوح. صرختُ. شَقّت الصّرخة الجدران. سقطتْ كثيرٌ من العبارات المحفورة فوقَها. سقطتْ: «اللّيل طويل». و» العذاب ليس له ربّ»... وبقيتْ: «»خلفَ الجدران حقول الياسمين». وأردتُ أنْ أبكي لكنّني صرختُ. ثُمّ إشارةٌ من يده وسقطتُ أنا. بابٌ يُغلَق، وعتمةٌ طويلة.

الغياب يظهر فجأةً. أيّ يومٍ هذا الّذي صحوتُ فيه! لكنّني حظيتُ بوجبةٍ دافِئة. قبل أنْ يدفعني سَجّان مُلثَّم في يومٍ لا أدري كيفَ أعدّه أو أصفه إلى جِدار الزّنزانة الّذي تظهر فيه على مستوى

وجهي خمسة خمساتٍ من الخطوط المحفورة، رأيتُها خمسين، عيناي غائِمتان، زئبقٌ يترجرج، وقبضةٌ مُتوحشّة من الخلف تُمسك بِقُمْعِ رأسي وترطمه بالجدار، خمسةُ خمسات هي تلك الارتِطامات الّتي لا ترحم، صرختُ، نزفتُ دمًا، وتراخيتُ، في النّهاية يكونُ السّقوط رحمة.

مشوارٌ طويلٌ في الصّبر. لن أنهار الآن. لقد دفعتُ ثمنَ الوصول إلى هذه المرحلة الكثير، نزفتُ حتّى لم يعد دمٌ ليُنزَف من جديد. لكنّ الطّعام الدّافِئ تقدّم إليّ ليُنقِذني من الموت. أكلتُ. وشعرتُ بفرصةٍ جيّدةٍ للإفلات من النّهايات السّريعة، فرصةٌ لالتِقاط الأنفاس، لِمَ؟! ربّما لجولةٍ جديدةٍ.

قبضةٌ كقبضة الغُول، أكثر وحشيّة دفعتْني - في يوم لم تعدْ لديّ القُدْرة على عَدّه - نحو الخمسات الخمسات، كدتُ أنهار من الدّاخل، ارتخت شفتاي، وتدفّقَ هواءٌ حارّ من فتحتَي أنفي، وغرغرتْ عيناي بدموعٍ سخينة: «المُتوحّشون سيرطمون وجهي بالخمسات الخمسة». وبكيتُ بالفِعل، لكنّ وجهي لم يرتطم، بل غاص. غاصَ في هواء ليّن بارد. ما الّذي يحدث، لِمَ لمْ يحدثْ ارتِجاجٌ في دماغي من الارتِطام. احتجتُ لزمنٍ قصيرٍ طويل لأفهم، أنّ الجدار انفتح... هل قلتُ انفتح؟! نعم، انفتح بيُسر وسهولة، كأنّه بابٌ كهربائيّ، انزاح عن وجهي إلى اليمين، وفجأةْ وجدتُ نفسي في القطب الشّمالي وأنا عارٍ. هواءٌ أزرق. بردٌ ذابح، و... هل هي ثلاّجة؟! نعم ثلاّجة عملاقة، في نصف حجم الزّنزانة، تحيطُ بها الثّلوج من كلّ جهاتها السّتّ، سقفُها يكاد يلاصق شعرات رأسي... وانغلق الجدار ذو الخمسات الخمسة خلفَ ظهري، ووجدتُني

وحيدًا، عارِيًا، في درجة حرارة دون الصّفر. لسَعَ البردُ باطنَ قدمَيّ فقفزتُ، ثُمّ... قفَزَاتٌ من البردِ الّذي لا يرحم، تُشبِه قفزات آرمسترونغ على سطح القمر... البردُ... قاتِلٌ صامت...! أحطتُ ذراعَيّ على جذعي أَقِيه موجات البرد الّتي لفّتني من كلّ ناحية. ارتعشتُ كعجوزٍ في التّسعين، ورقصتْ قدماي النّحيلتان كمالك الحزين... هل هذا معقول؟! هل أنا أحلم؟! لكنّ صوتَ اصطِكاكِ أسناني في نغمةٍ مُفجِعة أوقفني مع الحقيقة وجهًا لوجه.

«سأموت من البرد». بسرعةٍ أيقنتُ أنّ النهاية لا بُدّ قادمة. «سأعترف» هكذا فكّرتُ. «لن أموتَ في هذا الصقيع مَنسيًّا... لن أسمح لهم أنْ يقتلوني بهذه السّهولة... سأعترف وسأنجو». وصمتُّ، وانحدرتْ دمعتان على خدّي لكنّهما تجمّدتا من شدّة الصّقيع. «الاعتراف خِسّة». قال لي الصّوتُ الآخر الّذي خرجَ من مكانٍ ما في روحي. «ولكنّ الإنكار انتِحار». «الموتُ خيرٌ من أنْ تُسلّمهم عُنُقَك». «ولكنّني لم أعدْ أحتمل أكثر». «النّصر صبرُ ساعة». «أنا بشريّ من لحمٍ ودم، ولستُ من حديد». «إرادتكَ هي الحديد». «لن أضحك بهذا على نفسي». «لكنّهم سيضحكون عليك. هل تريدُ لهم أنْ ينتصروا بعدَ هذا المشوار الطّويل في القِتال؟!». «حتّى الأبطال يموتون في النّهاية. يستسلمون». «كلا. لم يكونوا أبطالاً من الأساس. الحقيقيّون لا يقبلون بالهزيمة». «اقبلْ بها مُؤقّتًا. انسِحابٌ مؤقّت من أجل جبهةِ قِتالٍ جديدة». «كلاّ، هي جبهةٌ واحدةٌ، وسيُلاحقكَ العار إلى أنْ تموت». «بعضُ الكلمات يُنجي». «بل بعضُها يقتل». «هل تقف إلى جانبي أم إلى جانبهم؟!». «بل أقفُ لك. أنا أنت». «هل تريدُني أنْ أموت؟!». «وماذا في الموت؟! سترى وجه عمّار». وسكتَ الصّوتان حينَ خطر في صوتِ أحدنا. ثُمّ سقطَ الصّوتان. وغاصَا في وادٍ سحيق.

هـواءٌ سـاخن. ضبـابٌ... كلاّ، بُخـار... حـرارةٌ تبعـثُ شيئًا مـن الـدّفء في هـذا الصّقيـع. كلاّ... أنـا أحلـم. جِلـدي أزرق. الثّلـج أزرق. عينـاي زرقـاوان. دمـي أزرق. أصابعـي زجـاجٌ أزرق. ليـسَ هنـا إلاّ الثّلـجُ والمـوت. ليسَ هنـا إلاّ الله. طَعـامٌ. معقـول؟! نبـتَ مـن الأرض، أم مـن النّافـذة، أم مـن البـاب؟! مَـنْ جـاء بـه؟! الله.

(١٩)

العَصافير

خرجتُ من القُطب المُتجمّد الشّمالِيّ إلى صحراء (نفحة). جُثمانٌ بشريّ عملاق أغلقَ خلفَه الباب. وبقيتُ أنظرُ بعينَين جاحِظتَين؛ لم أعدْ أميّز بين الحقيقة والخَيال. «أنا...» ولم أعرفْ كيفَ أُتِمُّ عبارةً مثل هذه همستُ بها لنفسي: «أنا...»، ثُمّ عرفتُ كيف يُمكن أنْ أُتِمّها: «أنا حيّ... وهذه مُعجِزة».

أخذوني إلى زنزانةٍ جديدة، هل قلتُ: «زنزانة...؟!». كلاّ، إنّه مهجعٌ واسعٌ، واسعٌ جِدًّا، فيه أكثر من خمسين سجينًا، شعرتُ أنّني سقطتُ من السّماء إلى هذا المكان. فسيحٌ كأنّه ملعب، هل هو مستشفى؟! لا أدري. مدرسة. ربّما. وربّما نادٍ رياضيّ، أو هو مكانٌ فحسب، ما أغربَ ما تتنافر الأمكنة! ما أشدّ ما تُبدّل لونَها وجِلدَها!!

كانَ هناك ثلاثةُ صفوفٍ من الأسِرّة النّظيفة المُغطّاة بملاءات بيضاء لامعة. وكان هناك عشرات السّجناء يذرعون الممرّات الواسعة بين هذه الصّفوف، وهم يتكلّمون ويضحكون، وكانوا يلبسون ثِيابًا لم يكنْ أغنى النّاس ليلبسها في الخارج، في عرابة أو جنين أو بير الباشا أو... أحدهم رأيتُه يُخرِج عُلبة سجائر من جيبه، ويلتقط ولاّعة ذهبيّة، ويُشعِلها بفخامة، ويعبّ منها نَفَسًا طويلاً، ثُمّ ينفثُ دُخانه بكبرياء، ويُعيد الولاّعة إلى جيب سترته الكُحليّة، ويُتابِع مسيره وحديثه مع رفيقه!

لمْ يُعِرْني أحدٌ من السّجناء الّذين زادَ عددهم عن الخمسين أيّ انتِباه، كانوا يُواصِلون الحديث والتّبختر في المكان الفسيح كأنّني

غـيرُ موجـود، فكّـرتُ أنْ أكـسر هـذا الحاجـز الوهمـيّ بينـي وبينهـم، فأتحـدّث إلى أحدهـم، لكنّنـي تريّثـتُ، قـد يكـون الاسـتِعجال مِصْيـدة.

أرحـتُ جسـدي عـلى السّريـر الّـذي أوقفنـي عنـده الضّابـط، لكنّنـي مـا كِـدتُ أريـحُ مُؤخّـرتي عليـه حتّـى فَـزَزْتُ واقِفًـا، ورحـتُ أنظرُ إلى موضـع جلوسي، كان مُطنفَسًـا، طريًّـا كأنّـه زُبـدة، لسـتُ معتـادًا عـلى هـذه الطّـراوة، كان يسـتعيدُ هـواءه المضغـوط فينتفـخ مـن جديـدٍ، انفرجـتْ شـفتاي عـن ابتِسـامة، ثُـمّ... انفجـرتُ بالضّحـك بصـوتٍ عـالٍ، تلفّـتُّ حـولي في الوجـوه وأنـا أسـحبُ مـا تبقّـى مـن ضحكتـي إلى داخـلي، فرأيتُهـم يُتابِعـون أعمالَهـم كأنّهـم لم يسـمعوا صوتَهـا المُجلجِـل!!

النّوافـذ العاليـة البعيـدة كانـتْ تُسـقِطُ أشـعّة الشّـمس عـلى المـلاءات فيـزداد بَياضُهـا نُصُوعًـا. والجـدران الذهبيّـة كانـتْ تشـهدُ لفنّانـين رسـموا سُـحُبًا مسـافرة، وورودًا يانِعـة وأشـجارًا باسـقةً، وحقـولاً فسيحةً مَـدّ البصر، شيءٌ مـا يبعـثُ عـلى الرّاحـة والخـوف معًـا في هـذا المكان... حتّـى هـذه اللّحظـة لم يقـتربْ منّـي أحدٌ ليقـول لي ولـو كلمـةً واحـدة... تفرّسـتُ في الوجـوه، إنّهـا تُشـبِهنا، نحـنُ المزروعـين في الأرض، مسـحتُ بنظـراتي أجسـادَهم ثُـمّ أذرعهـم ثُـمّ تلـك الأكـفّ، إنّهـا أكفّنـا المعروقـة، وأذرعنـا ذاتهـا، وأجسـادنا إيّاهـا؛ هـل ينتمـون لنـا في مـكانٍ لا ننتمـي إليـه؟!

جـاء الطّعـام. أعنـي جـاء خـدمُ الطّعـام يحملـون أطباقًـا سـاخنة، ويجـرّون عربـاتٍ مُذهّبـة، ثُـمّ جلـسَ هـؤلاء السّـجناء كلّ عـلى بَرْشِـه الوثـير وتنـاول صينيّـة عليهـا كتـلٌ مـن الأرزّ والدّجـاج، وتنافسـتْ ألـوان الخُضـار، وتنـوّعـت الشّـوربات... وجـاءني مـا جاءَهـم، وتناولـتُ طبقـي وأنـا لا أزال في غمـرةِ الذّهـول. وأكلـتُ عـن جـوع عـامٍ بأكملـه. أكلـتُ

كلّ ما دفعوا به إليّ. حانتْ منّي التِفاتةٌ إلى الآخرين، فرأيتُهم يرمون ما تبقّى من الطّعام في سلّة نفاياتٍ عملاقةٍ في وسطِ المهجع، كدتُ أجري إليهم أسألهم بالله ألاّ يرتكبوا جريمةً كهذه، لاحظَ أحدُهم نظرةَ الذّهول في عينَيّ لِما يجري، فقال مُوجّهًا كلامه إلى الآخرين الّذين يُشارِكونه هذه الجريمة النّكراء: «ما أقلّ ما صاروا يبعثون من اللّحم والدّجاج!! لقد كانوا يُقدّمون لنا أكثر من ذلك... كان الخيرُ كثيرًا، فلماذا قَلّ اليوم؟ هل لهذا الغريب علاقةٌ بالأمر؟!». ثُمّ زَمّ شفتَيه عن غيرِ رضًى... ذُبتُ في نفسي من الخجل والخوف... لم أرَ في حياتي هدرًا للنّعمة على هذا النّحو!

مرّ اليوم. نمت كأنّني أنام في فندقٍ فخم، صحوتُ على وجهٍ يجلسُ قبالتي: «إنّه الفجر؛ هل صلّيت؟». أشار إلى مكانِ الصّلاة. تجمّع أكثر من ثلاثة أرباع النّيام في تلك الزّاوية، توجّهتُ إليه، كان هناك محرابٌ من خشب، خلتُه لفخامته من الأبنوس، وسجّاد يخفِسُ تحتَ قدمَيّ المُصلّي كأنّه سِجّادٌ عَجَميّ. لبس الإمام جُبّة شقراء مُقصّبةً بخيوطٍ مُذهّبة، وعِمامةً خضراء لاثَها بطريقةٍ احترافيّة فوقَ رأسِه، كان لا يزال ماء الوضوء يقطر من لحيته، ثُمّ اصطففْنا خلفَه، و... سَحرني صوتُه العذبُ الشّجيّ، قرأ من السّماء: «تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا...» وهِمتُ في سُبُحات الزّمان مع صوتِه الّذي نقلنِي إلى فجر يعبد.

أنهينا الصّلاة، ولبس أكثر السّجناء بدلات الرّياضة، وقال أحدهم: «هذه لك؟». فدفعتُ يدَه بعيدًا: «ليس لي إلاّ ما معي». فردّ: «ألا تريدُ أنْ تشاركنا الرّكض الصّباحيّ ثُمّ لعبة كرة القدم؟!».

«هـل هنـاك ملعـبٌ هنـا؟». «نعـم، ملعـب أوليمبـيّ، تراتـان، ومرمـى مُحترفـين... وسـيفتحون تلـك البوّابـة مـن أجـل أنْ نذهـب». صفعتْني المُفاجـأة، نفضـتُ رأسي، كيـفَ يكـونُ شـكل الحقيقـة حـين أعتقـدُ أنّهـا حلـم؟! لا توجـد إجابـة مـا لمْ أقـلْ شيئًا. مَـدّ يـده، صافحني بحـرارة، وهتـف برقّـة: «أنـا سُـليمان». لم أبادلْـه التّحيّـة، بقيـتْ يـدي مُرتخيـةٍ يرشـحُ مـن بيـنِ أصابِعهـا مـاء الدّهشـة، حبسـتُ هـواءً رماديًّـا في صـدري لأنفثـه عـلى شـكل سـؤال وجـوديّ: «أيـن نحـن؟». ابتسـم سـليمان عـن أسنانٍ بيضـاء لامعـة: «في السّـجن. ألم تدخـلْ سِـجنًا في حياتـك؟!». لم أعـرفْ كيـفَ يكـون الـرّدّ عـلى سـؤال قاتـلٍ كهـذا. داهمتْني دفقـةٌ حـارّة صعـدتْ إلى عينَـيّ تسـتمطرها الدّمـوع، وفي الوقـتِ نفسِـه صعـدتْ دفقـةٌ أخـرى بـاردة إلى شـفتَيّ تسـتجلبها القَهقهـة. كيـفَ يبكـي الإنسـان ويضحـك معًـا؟! غـير أنّنـي لفظـتُ الدَّفقتَـين، وهـززتُ رأسي ولم أقـلْ شـيئًا.

في المسـاء، اقـتربَ مّنـي سـليمان، كان معـه شـخصٌ آخَـر، حنـى بـينَ يدَيـه رأسَـه، وهتـفَ عـلى مسـمعٍ منّـا نحـن الاثنَـين: «إنّـه محمـود يـا مـولاي... وهـذا سـامح، إنّـه أمـيرُ هـذا المـكان». مَـدّ يـد، فممـدتُ يـدي: «تشرّفنـا بـك... أهـلاً بـكَ بيننـا... لقـد أصبحـتَ منـذُ أمـسِ واحِـدًا منّـا...». مـن صوتِـه العـذب عرفـتُ أنّـه صاحـب العمامـة الخـضراء الّـذي أَمَّنـا لصـلاة الفجـر اليـوم. رأى الفتـور والقلـق في عينَـيّ، فربّـت عـلى كتفـي، وهَـزّ جذعـه اللّـين مثـل راقصـة، ومازَحَنـي: «ينقصنـا الحُـور العِـينُ هنـا فقـط... لكـنْ مَـنْ يـدري، قـد نحصـلُ عليهـنّ قريبًـا». لم أسـتظرفْ مزحتـه السّـخيفة، تصنّـعَ الجِـدّ، ووجّـه كلامـه لسـليمان: «قُـم بخدمـة أخينـا محمـود... سرعـان مـا سـيندمج معنـا إذا عرفـتَ كيـفَ تلبّـي رغباتـه». وغمـزه بنظـرةٍ ذاتِ معنـى. وتركنَـا وذهـب.

سألني سليمان: «ماذا ينقصك؟!». «لا شيء». وكأنّ إجابتي كانتْ تعني: «كُلّ شيء». نادَى على بعضِ الأعوان، ثُمّ في غضونِ ساعةٍ جاءني بلباسٍ جديدٍ، وببدلة رياضة، وبغطاءٍ ناعمٍ إضافيّ: «كي تشعر بالنّعمة». وبساعةِ يدٍ: «كي تعرف الوقت». وببعض الكتب في الفقه: «كي تعرف الله». وبجاكيتةٍ ذات ماركةٍ فاخرة: «كي تنجو من البرد». وبحذاءٍ طبّي: «كي تحافظ على قدمَيك». و... وقلتُ له وهو يُقدّم لي كلّ هذا: «ما أنت؟!». فردّ ببلاهةٍ واستغراب: «أنا سليمان... هل تريدُ شيئًا آخر؟!».

مرّ الأسبوع الأوّل وأنا أزداد مع الرّفاهية توجّسًا. جلسْنا ذاتَ ليلةٍ مُخمليّة في حلقةٍ دائريّة. شدا الأمير، ثُمّ شدا معه الآخرون: «ريمٌ على القاع بينَ البانِ والعَلَمِ» ثُمّ قامتْ فرقةٌ منهم فرقصتْ رَقَصَ القَلُوصِ براكبٍ مُستعجِلِ. ثُمّ جلستْ. فقام مُطرِب القوم فغنّى على إيقاعِ الأكفّ العارية: «يا زريف الطّول ميّل تَقولّك...» وقاموا معه ومالوا، وردّدوا خلفه: «يا زريف الطّول...» وأنا في اللّحن والحلم أسبحُ معًا. ثُمّ حجل على نصفِ ساقٍ مُغنّ أشجى من أخيه، فغنّى: «نحنُ مُذْ كُنّا على عهدِ الهوى... تُضرَب الأمثالُ للنّاسِ بنا». فغنّوا معه بوجوهٍ غلبَها الدّمعُ على الصّبر فنشجتْ... ثُمّ صمتوا، فجاءهم فتيانٌ سبعةٌ بالطّعام، فداروا به عليهم كأنّهم لؤلؤٌ مكنون، يبسطون الصّحائف، ويسقون الأكواب... ثُمّ هدَأتْ راقصةُ اللّيل، وخمدتْ ثائرة الأكفّ، وامتلأتْ جائعة البطون... فتحلّقوا حلقةً أخرى أكبر من سابقتها لم يتخلّفْ عنها أحدٌ، فقال الأمير: «ليسَ فينا إلاّ منّا». فعلتْ أصواتٌ وغمغمات، فأردف وهو يُقرفِصُ بثوبه الأبيض وعِمّته الخضراء: «ولا سِرّ» فهدر سيلُ تردادهم من خلفه: «ولا سِرّ». «فأنا أبدأ بنفسي: «إنّني قتلتُ عِلجًا

مـن علوجهـم ثـأرًا لحرمـات المُسـلمين». فشـقّتْ «الله أكـبر» جـدران المهجـع حتّـى خلـتُ أنّ السّـقف سـيهوي عـلى رؤوسـنا، ثُـمّ التفـتَ إلى يمينـه، وهَـزّ رأسَـه إيذانًـا بحلقـة الاعـتِراف: «خطفـتُ ابـن الحـرام..». «تحيّنـتُ اللّحظـة المناسبة، تجمّـع المهندسـون ليستلموا العمـل، فدهسـتُهم بالجرّافـة...». ودارتْ كـؤوس الاعـتراف، وانـداحَ مـا فيهـا قَطِرانًـا أسـود، يقـيءُ فيـه كلّ واحـدٍ مـا في جوفـه ثُـمّ يسـكبه في بُحـيرةٍ عَفِنـة... ودار الـكأس: «قتلـتُ صهيونيّـة حُبلَى، بقـرتُ بطنَهـا كـما فعلـوا بنسـائنا في ديـر ياسـين». العصافـير تطـير. إنّهـا تقـول دونَ حِسـاب. لا يُمكـن أنْ تبـوح إلاّ للغربـان. لكـنْ كيـفَ حَطّـوا جميعًـا عـلى شـجرةٍ واحـدةٍ، واجتمعـوا في حديقـةٍ مهجـورةٍ واحـدة؟! ولم يتوقّفـوا عـن البـوح: «أنـا فجّـرتُ شـارع ابـن يهـودا...». «أنـا صنعـتُ القنابـل اليدويّـة الّتـي صادتْهـم واحِـدًا واحـدًا». «كانـوا يتسـاقطون تحـتَ رحمـة رصاصِـي المُنهمِـر». «أنـا قنّـاص، سـبعُ رصاصـاتٍ، قتلـتُ بـكلّ رصاصـةٍ واحِـدًا، لم أُضيّـع واحـدة». «حوّلـتُ كريّـات شـمونة إلى جحيـم».... ودار الـكأس حتّـى وصـل إليّ، فناولنـي إيّـاه الّـذي عـن يسـاري وهتـف: «هَيّـا... قُـلْ». لم أسـمح لشـفةٍ واحـدةٍ مـن شـفتَيّ أنْ تغـادر إطباقهَـا، وسـكبتُ كأسـهم فارغًـا في البحـيرة النّتنـة. فحملقـتْ فِيّ العيـون، وتوقّـف هديـرُ الاعترافـات، فسـادَ الصّمـتُ المُخيـف، ولم يجـرؤ في البدايـة أحـدٌ عـلى أنْ يعـترض حتّـى قـال الأمـير: «أيّهـا الحبيـب، لا تخَـفْ، نحـنُ معـك، ولـك». وشـددتُ عـلى شـفتَيّ المُطبقتَـين حتّـى لا تخوننـي إحداهمـا، وبـدأ وجـه الأمـير يتغـيّر، ورحلـتْ سـحائب الـبرود منـه، وحلّـتْ محلّـه غيـومٌ سـوداء مُكفهِـرّة: «عليـكَ أنْ تقـول». وتجـرّأ أحدُهـم عـن يمينـه فـأردف: «العقوبـة أيّهـا الأمـير». فشـدّ عـلى ذراعـه مُسـكِتًا إيّـاه: «إنّـه غِـرّ». ثُـمّ وجّـه كلامـه إليّ: «إنّهـا فرصتـك...»، ثُـمّ مُحذِّرًا: «قبـلَ أنْ تنـدم». وفتحـتِ الجملـة الأخـيرة

للأفواه أبواب الكلام، ورفرفت الأيدي الغاضبة، وتطاير الشّرر من العيون المُجَمَّرة: «عليّ أنْ أخلعَ رقبته». «يجبَ أنْ ينال عقابه». «هل هو في مرتبةٍ أعلى منّا حتّى يظلّ صامِتًا؟!». «هل يخجل مِمّ فعل؟!». «كلاّ». «هيّا يا ابن السّاقطة». «لماذا نبوح بأسرارنا ويُبقي هو على سِرّه؟!». «المُعاملة بالمثل». «اقتلوه». «الفظوا هذا الجسد الغريب الّذي انزرع بيننا». «الكلب لا يستحقّ أنْ يحظَى بشرف الصّحبة». «القول يُريح؛ قُلْ وأرِح نفسَكَ أيّها الدّودة». «لا أسرارَ إلاّ على الأغيار». «عَلِّقوه في السّقف». «اقطعوا له خصيتَيه».

(٢٠)

اعتِراف

جاءني سليمان: «أنا رسولُ الجماعة إليك». «ليسَ لديّ ما أقوله». «سينبذونك، وستعيشُ في الجحيم». «أحسنُ من نعيمكم الكاذب هذا». «دَعْنا نناقش الأمر برويّة». «هل جننت؟ أيّة رويّة؟!». «إنّهم يريدون اعتِرافًا منك. الاعتراف لن يخرج عن دائرتنا». «وتقولها بهذه البجاحة؟! لا بُدّ أنّكَ فقدتَ عقلَك». زفر. «مهمّتي تنتهي هنا، أنتَ حرّ». وتركني.

في المساء. بعثَ الأمير إليّ آخر: «لستُ مثلَ سليمان، أنا حافظ. لا تعرفني؟!». «لا أعرفك؟!». «هَيّا لا تكنْ جحودًا. أنا كنتُ في صفّك. الذّي كنتُ أقذفُ بالمُغيطة قمعةَ الأستاذ، ألا تتذكّرني؟». تذكّرتُه بالفِعل. «ماذا تريد؟!». «أنا في صفّك. دَعْكَ من كلّ ما سمعت». «ثُمّ؟!». «ألا يُمكن أنْ تبوح لي أنا على الأقلّ». «ولماذا تريدُني أنْ أفعل ذلك؟!». «حتّى لا يقتلونني؟!». «مَنْ هم؟!». «الأمير وأعوانه». ثُمّ أطلقَ زفرةً طويلةً شعرتُ بحرّ أنفاسِها في وجهي: «أنا في ورطة». «لستُ طرفًا فيها». «ولكنّكَ صرتَ الآن. سيعلقّونني هناك مثل شاةٍ ذبيحة». «تدبّرْ أمركَ بنفسِك». «قُلْ لي ولو كلمةً واحدة أُنقِذ بها نفسي». وشعرتُ برجائِه الصّادق، وانفرجتْ شفتي العليا، ورجفتِ السُّفلى وهي تتخيّل فظاعة ما يُمكن أنْ أفعل، وملكتُ أمري في النّهاية، فأدرتُ رأسي إلى الجهة الأخرى، وأنا أعضُّ على شفتَيّ. وسمعتُ صوتَه كأنّه قادمٌ من الغيب: «أنقذْني أرجوك.... أرجوووووك».

في الصّباح، رأيتُه مُعلّقًا من قدمَيه على أسطوانةٍ عاليةٍ في السّقف، ورأسُه إلى الأسفل وقد تجمّد الدّم على شَعراتِه المُتدلّيات. ولم أملكْ نفسي من هول ما رأيتُ فصرختُ بأعلى صوتي: «أيّها القَتَلَة... أيّها السّفّاحون...». وركضتُ مثل المجنون إلى الأمير... فتلقّاني أحدهم بصدره العريض قبل أنْ أصلَ إليه، فلكمتُه بقوّة فتهاوى من طريقي، ووثبتُ على رأسِ الأمير، وأنشبتُ فكّي في عنقه، فتجمهر الأولياء عليّ، لم أدرِ من أينَ تأتيني اللّكمات، أو الرّفسات، أو الصّفعات، وكان صوتُ أحدهم يتسلّل من بينها: «كيفَ تجرؤ أيّها الجُرَذ؟!». ورأيتُ سقف المهجع العالي يدور، والأرض تميد، والرّفسات لا تتوقّف، وكان بئر الغيبوبة يفغر فاه ليلتهمني في النّهاية. ورحتُ أهوي في جوفه دون أنْ أرى لهذا الهُوِيّ نهاية.

استيقظتُ في زنزانةٍ صغيرةٍ. قال المُحقّق: «لقد مكثتَ في المستشفَى ثلاثة أيّام قبل أنْ تتماثَل للشّفاء. سأكون صادقًا تمامًا معك. إنّها فرصتي الأخيرة مثلما هي فرصتك». ورفعتُ نظري إليه وأنا أغلي، وتحوّلتْ عيناي إلى جمرتَين، وتخيّلتُ نفسي أثبُ فوقَه وأُعمِل أنيابي في عنقه كما فعلتُ بالأمير لولا أنّني رأيتُ الجلاوزة الّذين يحرسونه مُتحفّزين لأيّة حركة. وسأل: «هل تعترف؟!». وصمتّ. وفكّرتُ في الاعتِراف فِعلاً. وهتف: «إنّه سؤالٌ أخير». فرددتُ: «نعم». وبرقتْ عيناه، واشتعلتا بالفرح، وتحفّز: «ماذا؟!». فأجبتُ: «سأعترف». ولفّه السّرور كما تلفّ الغيمة شجرةً يابسة، وتخيّل أنّه الضّابط الوحيد الّذي استطاع - بعد كلّ هذا العناء الطّويل - أنْ ينتزع منّي اعتِرافًا فرقصتْ جوارحُه، ونظرَ في عينَيّ مُشجّعًا، فهتفتُ: «سأجعلكَ تفوز بهذه الغنيمة، ستظفر بهذا الاعتِراف بلا شكّ، لم أقلْه في الحقيقةِ لأحدٍ من قبلك...» وارتعشتْ أصابعه

حبورًا وهو يتحفّز ليسطّر كلماتي: «نعم، أعترفُ أنّه لا توجد دولةٌ فاشيّة، ولا عنصريّة، ولا دولةَ قمعٍ مثل دولتكم الغاصِبة... أعترفُ أنّكم ستُهزمون عاجِلاً أم آجِلاً، وأنّ جيلي إذا لم يقدرْ أنْ ينتزعكم من أرضنا ويُعيدكم مُشرّدين في منافي أوروبّا، فسيأتي جيلٌ بعدي ليكون له ذلك، فإنْ لم يحقّق ما يصبو إليه، فسيأتي جيلٌ ثالثٌ... وستأتي آلاف الأجيال المُؤمِنة بحقّها، ولن يهنأ لها بالٌ حتّى تقضي على آخر مُحتلٍّ منكم، وآخر جنديّ قذر من جنودكم، وآخر مستوطنٍ نذل من قُطعانكم». وغلَبتْه عاصفة الغضب على الهدوء الّذي كان يتصنّعه، وراحَ يحرّك يدَيه وقدَميه بعصبيّة، والتقطَ آخر ما يُمكنُ أنْ يفعله: «ما هذا الهُراء؟!». «مسكينٌ أنت؛ لن أعترف ولو قطّعتَ جسدي ألفَ قِطعةٍ ووزّعتَها على ألفِ ناحيةٍ في فلسطين». «سأكتبُ ذلك». «ماذا ستكتب؟». «أنّك لا تعترف بقتلك للضّابط رامون». «اكتبْ ذلك». أغلقَ الملفّ بهدوء، ومشى به إلى بوّابة الزّنزانة، واختفى.

محَكَمة...!! صوتٌ شَقّ فضاء الغرفة العالية الّتي يجتمع فيها القُضاة... كانتْ أمّي هناك. فليذهبِ الجحيمُ إلى الجحيم. ها هي أخيرًا بعد كلّ شيءٍ، تلك النّظرة الّتي في عينَيها؛ إنّها تكفي من أجل أنْ أقاوم ألفَ عامٍ قادمة.

لوّحتْ لي بيدَيها فرفّ سِربٌ من الحمامات البيضاء في روحي، وطار فطار معه كلّ وجعٍ وألم، وحلّ محلّه الفرح والأمل، كانتْ تقول كلامًا لا أسمعه، لا بُدّ أنّها تقول: «محمود...»، شفتاها قالتا ذلك. هل تعرفون كيفَ يملك الإنسانُ الدُّنيا حينَ تبتسمُ له أُمّه؟! هل تعرفون معنى أنْ ترى وجه أمّك بعدَ هذا الغياب الفظيع فتنسى ما فات بكلّ ما فيه؟! ها هي تقوم من مكانها، تقفُ في وجهها مُجنّدة إسرائيليّة تحاول أنْ تمنعها، غير أنّها تهتفُ بصوتٍ عالٍ،

هذه المرّة سمعتُها بوضوح: «بطل يا محمود... بطل يُمّه». وشعرتُ أنّني بطلٌ حقيقيّ، وهانَ كلّ صعبٍ في نظري، وشعرتُ أنّني أرفلُ في جنّةٍ من الطّمأنينة، وخفقَ طيرُ القلبِ فرعشتْ شفتاي، وسلبَ الحنين كبريائي فدمعتْ عيناي، كم أشتاقُ إلى حضنك أيّتها الغالية، كم أشتاقُ إلى صوتِك أيّتها الطّيّبة، بل كم أشتاق إلى المكنسة الّتي ترفعينها في وجهي أيّام الشّقاوة، وضحكتُ وأنا أتخيّلها تركضُ خلفي في الفناء: «أينَ ريّان؟!».

كانتْ وحدات حَرَس السّجون تنتشر في القاعة حول القفص الّذي أدخلوني مُقيّدًا إليه، كان معهم كلبٌ رماديّ لوهلةٍ ظننتُه (ريّان)، هَرّ مثله، ورمقني بعينٍ ودودة، وأرادَ أنْ يقتربَ منّي فيتمسّح بي كأنّه صديقٌ قديم، فجذبه الشّرطيّ إليه مُستغربًا من تصرّفه، ورأيتُه يلعقُ بلسانه أرنبةَ أنفه، ولم أصدّق، هل علّمه ريّان هذه اللّغة، إنّه يقول: «لا أحدَ في القاعة سِواك، ولا يراكَ إلاّ الله، أكنتَ تعدّ هؤلاء العساكر وهؤلاء القضاة وهذه المحكمة هُراءً؟! أهذا ما تريدُ أنْ تقوله لي؟!».

قال القاضي: «أنتَ مُتّهم بقتل الضّابط رامون، مُذنِب؟». أجبتُه ببرود: «لا». «ومُتّهم بعمليّات تخريب ضِدّ مصالح إسرائيليّة، وتجنيد مُخرّبين للقيام بعمليّات ضِدّ الجيش الإسرائيليّ، مُذنِب؟!». تابعتُ وأنا أهزّ كتفَيّ بلا مُبالاة: «لا». وأرادَ أنْ يرفع الجلسة. كنتُ أعرفُ أنّني لن أستطيع أنْ أحظى بفرصة القول أمام أهلي وهذه الجموع مرّة أخرى. «أيّها القاضي». رفَعَ عينَيه عن الملفّ الّذي أمامه، فتابعتُ: «لولا أنّ ألفَ خائنٍ بيننا ما كنتَ لتَحكُمَ عليّ». «عليكَ أنْ تحترم المحكمة». «أنا لا أحترمها». طرقَ على الطّاولة وأخفى نبرة الغضب في كلماته: «تُرفَع الجلسة». «لا توجَد جلسةٌ أخرى. أنا لا

أعترفُ بكَ ولا بدولتكَ ولا بوجودك ولا بأنّكَ مُخوّل بأنْ تحكم عليّ، هل رأيتَ ذئبًا سرقَ شاةً ثُمّ قام في السّوق يُنادِي بإقرار العدالة؟! لن يهمنّي ما ستُقرّره. أُقسِمَ أمام المحكمة غير المُوقّرة هذه أنّكَ لو حكمتَ عليّ بمليون سنةٍ فلنْ يغيّر ذلك من الواقع شيئًا، عليكَ أنْ تعرفَ هذا! هل تفهمني؟ لن يغيّر حُكمكَ من الحقيقة القادمة قيدَ أنملة؛ سترحلون يعني سترحلون، وسُتطَردون يعني ستُطرَدون، هذا ليسَ وعظًا، ولا خُطبة، ولا تهديدًا، إنّها أسمى من ذلك بكثيرٍ، إنّها حقيقة، قد لا تراها أنتَ والخونة الّذين جاؤوا بك ولكنّني أراها، أراها بعينَيّ ماثلةً أمامي كأنّها الشّمس، المسألةُ مسألةُ وقتٍ». «رُفِعَت الجلسة». زغردتْ أمّي... فلمّا زغردتَ لم يبقَ قطرةُ دمٍ في شراييني إلاّ ابتهجتْ... «بطل يُمّة... بطل يا محمود».

محكمة. شَقّ الصّوت في الشّهر الّذي تلاه فضاء القاعة. صمَت الجمع، كان هناك ترقّبٌ وقلق، ووجهُ أمّي بدا عليه التّحفّز، هتف القاضي: «أربع سنواتٍ غير قابلةٍ للتّمييز، وتُحتَسب المدّة من أوّل التّوقيف». وطرقَ مِطرقة عَدلِه: «رُفِعَت الجلسة». لم تنتظر أمّي، اخترقت الصّفوف، وأزاحت الجنود عن طريقها، ومضتْ إليّ، حتّى صار وجهها على الشّبَك، راحتْ تقبّله، ثُمّ مدّتْ أصابعها من خلال الفتحات الصّغيرة، فلمستُها بأصابعي فسالَ كلّ أذًى، وقالتْ: «ولا يهمّك». فذابَ كلّ ألم. ونظرتْ في عينَيّ مباشرةً فنمتْ شجرةٌ ثابتةٌ من اليقين فِيّ... ولكنّ دمعتَين سالَتا على خدَّيْها أفقداني بعضَ الصّبر، فهتفتُ: «لا تقلقي يا أمّي... سأخرجُ من السّجن... قريبًا سأعودُ إلى البيت...». وامتدّتْ إليّ أيادٍ كثيرةٌ تدفعني إلى الوراء. ووجدتُ نفسي في البوسطة تذهبُ بي إلى سجون عدالة الّذين سرقوا منّا كلّ شيء!!

السّجنُ هو السّجن، الفرقُ في الّذين يقطنونه، هنا ربّما ستتّخذ أيّامي مجرًى جديدًا. تدور الأيّام، عجلةٌ لا يُوقفِها شيءٌ، رفاق المحنة شموع الظّلام، الكتبُ رفاق. الأقلام أصدقاء، والأوراق أخِلاّء. وأنا شغوفٌ. شغوفٌ بما أريد على نحوٍ استثنائيّ. أعرفُ أنّ كلّ شيءٍ سينتهي، لكنّني لن أنتظر النّهاية، سأذهب إليها.

استلقيتُ على (البرش) في أوّل ليلةٍ بعدَ نُطقِ الحُكمِ عليّ بأربع سنواتٍ، كيفَ يُمكن أنْ تكون أربعَةَ حقول من الورد هذه المرارات المُتلاحقة. المِخدّة من شوك. الفِراش من صوفٍ خَشِن، والغِطاء من وجع، لن يُشوّشَ ذلك تفكيري. أبصرتُ رغم العمى. قاتلتُ رغم العَدَم، وأعرفُ دربي رغم هذه السّهام النّاشِبات في الفؤاد.

نظرتُ حولي في وجوم، لستُ وحيدًا. يتشارك معي في هذه الزّنزانة سبعةٌ آخرون، لم ينبسوا بحرفٍ منذُ عصر اليوم، يبدون مُسالِمين، يُشبهوننا، لكنْ ليسَ كلّ مَنْ يُشبهك يكونك، ولا كلّ مَنْ نطق بحروفك يصونُك.

سرحتُ في سقف المهجع، بعيدًا، إلى حقل مرجِ ابن عامر. الحقل الّذي شَهِدَ كثيرًا من قبلاتي، شَهِد تلك الخطوات في فضاء الحرّيّة، إنّه النّقيض لهذا الانحباس القسريّ، فضاؤه الواسع عقلي، هواؤه العليل نَفَسي، ونخيلُه الباسِقُ يقيني، وخُضرتُه اليانِعةُ ابتِهاجي بالحياة رغم ما فيها. أنا حرّ. مَنْ يستطيع أنْ يُصادر حرّيّتي؟ لا أحد. أعرفُ ذلك تمامًا، وهذا الصّوت الحارّ الدّفّاق التّوّاق إلى ما أريد لن يسكتَ أبدًا!

(٢١)

أَصدقُ العِشقِ أَخفاه

«هل في السّجن مكتبة؟ «صباح الخير أوّلا». «هل يسمحون بوجودها؟». «تحلم». «وذلك؟» وأشرتُ إلى أحدهم يحمل بين يديه كتابًا. فردّ: «تهريب».

أنْ تعرف يعني أنْ تشقى. هنا عليكَ أنْ تقرأ الوجوه قبل أنْ تَفُوه. تفرّستُ فيها كمن يُطالعُ صورًا عتيقة؛ ذكرياتٍ لا يمكن نسيانُها، ودروبًا ليس بالإمكان تجاوزها. دفعوني برفقٍ إلى الخارج: «هَيّا». قال أحدهم وهو يمزح: «ستألفُنا سريعًا». همستُ دون أنْ يسمعني: «سآلفُ كلّ شيءٍ، حتّى بيوت النّمل. إنّكَ لا تعرفني!». ومشيتُ مع التّيار. تسعى الأقدام إلى غايةٍ لا تعرفها. الخطوات لا تأكل الطّريق؛ الخطوات تأكل أعمارَنا. وسمحتُ لخطواتي أنْ تنهب الأرض.

جاراني أحدُهم، قال وهو يحاول اللّحاق بي: «ما قضيّتك؟». «ليسَ بهذه الطّريقة يتعارفُ أهل المِحنة». «من أيّ البلاد أنت؟». «من عرّابة». «أنا من هناك». «أنا من هنا». «على الخريطة كلّنا غُرباء». «ليس لي إلاّ دمي». «ودمي وزّعوه». «ابتُلينا بحبّ أوطاننا». «حُبّ الأوطان سبيلٌ إلى عشماوي». «الموتُ جميل». «أصدقُ العشق أخفاه». ومضى سيلُ الكلام، وسرعان ما جرفَ الجدران بيننا.

رحتُ أذرع السّاحة في اليوم الثّاني، منذُ السّابعة وأنا أمشي في السّاحة، كلّ شيءٍ يحاول أنْ يصعدَ وهمًا أمام الوجه، عيوني تحاول

التّلصّص على كلّ بوصةٍ، أعرفُ كيفَ أتجنّب العمى. عليّ أنْ أقيس المسافات، الزّوايا، الوَتَر، الكاميرات، تلك القريبة والبعيدة على حَدّ سَواء، من المُمكِن أنّهم لا يفهمون في الهندسة، المسافات بين الأبراج لا تبدو مُتماثلة، هل السّجن أعوج؟ ربّما. الضّوء يسير بخطوط مستقيمة، المشكلة ليستْ في الضّوء، بل في كيفيّة إسقاطه. كلاب الحراسة لم تهرّ، لم أسمعْ منذُ أمس أيّ نُباح. من المفيد معرفة فيما إذا كانت الكلاب لديها لغةُ عيونٍ قويّة تُماثل حاسّة الشّمّ. أكادُ أشعر بوجودها، بهريرها في دمي، أيّ نوعٍ من الكلاب ذلك الّذي أستطيع أنْ أتفاهم معه مُناقِضًا غريزته الّتي تنهش لحومنا؟! إنّه كلبٌ ينبتُ فجأة، في أحراشٍ غامضة، مثلما نبتَ (ريّان) ذات يوم!

أتخيّل هيكليّة المكان، أحاول أنْ أكون دقيقًا، لا بُدّ من رسم الزّوايا، والارتفاعات، والمسافات بين الجدران والفراغ، وبين الجدران ورأس الأسلاك الشّائكة، وبين كلّ كاميرا وأخرى... لم تكنْ عندي مشكلة في تخيّل المكان بأبعاده كافّة، كانتْ عندي مشكلة في أنّ الصّورة الّتي تلتقطها عينَاي بدقّة لا بُدّ من رَسْمِها على الورق، لا بُدّ من مُخطّطات بحيثُ يُوقِف الرّسم الزوايا في أماكنها الصّحيحة، هل تتحرّك الجدران؟ هل تميل الزّوايا؟ هل تُسقط الكاميرا رأسَها؟ نعم، يحدث ذلك. كلّ شيءٍ يتحرّك في هذا الكون ما دام حَيًّا، لا كمون إلاّ في الموت.

«الطّعام». «تميمةُ الحياة». «نصفُنا مرّ بتجربة الإضراب عنه هنا». «معنى ذلك أنّ شبح الموت كان يتراءى لكم». «لقد صار صديقًا». مَدّ يده، شعرتُ بتيّار دافِئٍ حنونٍ يتسرّب من كفّه إلى عروقي، قال بصوتٍ رخيم: «أنا ضِياء، رصاصةٌ في العنق مرّت دون

أنْ تأخـذ معهـا الحيـاة» وأشـار إلى موضـع مُرُوقهـا، كان واضِحًـا أنّهـا أخـذتْ مـن لحـم عنقـه مـا أخـذتْ. ابتسـم، وأردف: «نحـنُ هنـا نتعـارف بعـدد الرّصاصـات الّتـي أصبْنـا بهـا الصّهاينـة، أو تلـك الّتـي أصابتْنـا»، وأشـار إلى عـددٍ مـن الذّاهبين: «مـا مـن أحـدٍ مـن هـؤلاء... أتراهـم... إلاّ ومسّـتْه رصاصـة، أو شـظيّة، أو مزّقـتْ وتـرًا مـن أوتـار جسـمه، أو عضـوًا منـه...» صمـتَ، تنهّـد: «كانـتْ هـذه الرّصاصـات الّتـي اسـتقرّ بعضُهـا في أجسـادنا دليـلَ إدانتنـا عنـد عدوّنـا». هـززتُ رأسـي: «الرّصـاص يُضـيء العتمـة».

علـى حـذرٍ بـدأتُ أقـتربُ مـن النّـاس، أتبسّـط في الحديث معهـم ولكنْ بمقـدار، ليسَ لـشيءٍ، إلاّ لأنّ عقـلي لم يكـنْ يـراني إلاّ وراء هـذه الجـدران، كنـتُ مُتأكّـدًا مـن أنّ بقائـي هنـا لـن يسـتمرّ السّـنوات الأربـع الّتـي حَكَـم بهـا علـيّ القـاضي اللّعـين. لـديّ أمـورٌ كثـيرةٌ يجـب أنْ أُنجِزهـا في الخـارج.

كنـتُ أمـشي في السّـاحة وحيـدًا. عـرفَ السّـجناء الّذيـن معـي أنّنـي أحـبّ ذلـك، فتجنّبـوني مـا اسـتطاعوا، وفيـما عـدا (ضيـاء) واثنَـين آخَرَيـن فلـم يكـنْ أحـدٌ ليسـمح لنفسِـه بفتـح بـاب الحديـث معـي. مـا زلـتُ أمـشي. اليـوم منـذُ السّـابعة لم أكـفّ عـن المـشي، كانـتْ حركـةُ الطّيـور المُحلّقـة في عقـلي تُؤرجحنـي، تضعنـي علـى حافّـة القلـق، لا أنـا أقـع فيخمـد ذلـك التّحليـق المجنـون، ولا هـي تمـوت فأرتـاح، كنـتُ أحـاول الموازنـة بينهـا وبـين الجنـون، الجنـون الّـذي يرفـع الحجـاب عـن كثـيرٍ مـن الخفايـا. السّـجن أبـو الخفايـا كلّهـا. كلّ ظاهـرٍ بـادٍ خـادع، صـورةٌ عـن الحقيقـة، ليسـت الحقيقـة، إدامـة النّظـر تفتـح النّافـذة علـى المشـهد، وطـول التّفكـير يفتـح البـاب، وأنـا لا أسـتعجل الحقائـق، فلتـأتِ في الوقـت الّـذي تشـتهيه، إنّهـا لا تـأتي إلاّ في الوقـتِ المُناسِـب.

«الكُتُب تهريب؟». سألتُ ضياء. «نعم» ردّ. «أريدُ أنْ أخوض تجربة التّهريب». «ليستْ صعبة، خمسون شيكلاً كافية من أجل أنْ يأتيك الضُّبّاط بما تريدُ من الكتب». «حتّى لو كان الكتاب عن زوال إسرائيل». وضحكت، وضحك هو الآخر: «حتّى لو كان». وابتلعتُ ضحكتي لأسأله: «هل تؤمن بهذه النّبوءات؟!». تردّد قبل أنْ يقول: «كلاّ». «وبِمَ تُؤمن؟!». «أؤمن بما استقرّ في أعناقِنا». «الرّصاصات!». وضحكنا، أصبحْنا أكثر قربًا.

«يريدُ أنْ يراك». «مَنْ؟!». «قال إنّه يعرفك». «أنا لا أعرفُ أحدًا». «ولكنّه يعرفُك». «مَنْ يكون؟!». «إنّه يسكنُ الغرفة (١١)». وقعتُ في داخلي، انهارَ جزءٌ منّي في ثيابي، رفعتُ ما انهارَ بسرعةٍ قبل أنْ يلحظَ ذلك عليّ، وتظاهرتُ باللاّمبالاة: «أنا لا أذهبُ إلى أحدٍ، إذا كان يريدُ أنْ يراني، فلْيأتِ هو». ضحك ضحكةً خفيفة: «أعرف، لكنّ اللّقاء لا يتمّ بأصحاب الغرف الأخرى إلاّ في الفَورة». «لستُ مستعدًّا اليوم لأرى أحدًا». «غدًا؟». «غدًا».

هُرِعتُ إلى برشي، تناسيتُ الطّعام الّذي اجتمعوا حوله، ورُحتُ أفكّر في الّذين عرفتُهم خارجَ السّجن، ليسوا كثيرين، عمّار حملتْه غيمةٌ إلى الله، وأصدقاء المدرسة تحوّلوا إلى طيوفٍ غيّبهم الموت أو الرّحيل أو هموم الدُّنيا، ويعقوب انقطَع خبرُه منذُ يوم عمليّة المحطّة، أمّا الّذين كُنّا نلتقي بهم في أحراشِ يعبد مع الشّيخ فلم يكنْ يظهر من وجوههم غيرُ عيونِهم، لم يكنْ لهم غيرُ أرقامهم، كيفَ يكون الرّقمُ روحًا، كيفَ يُمكن أنْ يبحثَ عنكَ في زَحمة الأرقام الّتي لا تنتهي. وريّان هو الصّديق الوحيد الّذي يُمكن أنْ أعرفه في هذه التّيّارات المُتلاطَمة، فليكنْ، إنّ غدًا لناظره قريب. وحاولتُ أن أنام،

ولكنّ شريطَ الأرقامِ ذات الوجوه المُلثّمة ظلّ يمرّ من أمامي كأنّه السّواد في عتمة النّور، كان مُقلِقًا لي على نحوٍ جنونيّ، لقد كان الشّيخ يعرفُ ما يريد!

مشيتُ مع (ضياء) إلى مصيري، التفتُّ إليه، مسحتُ صفحة وجهه بعينَيّ، أريدُ أنْ أقرأ فيه شيئًا، فَخًّا جديدًا مُحتَمَلاً، أنا أشكّ حتّى في وَقْع خُطُواتي على الطّريق، كيفَ أثقُ بعبارةٍ تطير؟!

في الطّريق إليه توقّفتُ فجأةً، ماذا لو كانت الطّريقُ مصيدة؛ نصفُ المسافة فيها كافيةٌ للتّراجع إلى نُقطة الأمان، فلأرجِعْ، مَنْ يعرفني في هذا الخوف؟! أنا مجرّد بائع بطّيخ في عَرابة! كيفَ يطلبُ مجهولٌ لقاءَ بائع؟! نكصتْ خُطُواتي. تسمّرتْ في مكانها، في الموضع الّذي يُمكن أنْ تتراجع فيها قبل أنْ تنزلقَ إلى الهاوية، في الموضع الّذي يُمكن أنْ تُصلِحَ فيها ما أفسدْتَ عن وهم أو احتِمال! مَنْ يعرفني هنا؟! السّؤال الّذي يُنكِر الأزمنة والأمكنة والشّخوص. وتجمّدتُ في مكاني كأنّني شجرةٌ عقيمة سَفَتْها ريحٌ باردة. ورأى ضياء ذلك الشّعورَ في وجهي، شعورَ القطا الّتي نُبّهتْ ليلاً فطارتْ، ولو تُرِكتْ لنامتْ، حاول أنْ يقول شيئًا، أنْ يدفعَ عربةَ الحصان الحارن إلى الأمام، ولكنّني أطبقتُ فجأةً بيدي اليُمنى على فمه بقوّة كأنّني أهربُ من خطأٍ فادح، وحذّرْتُه: «أنا قادرٌ على أنْ أقتلك هنا إذا اكتشفتُ أنّ في الأمر خُدعة، أنتَ لا تعرفني، ولا تعرف أنّني أقامر بكلّ شيءٍ إذا شعرتُ بأنّ نابًا مسمومًا يتربّص بي». بدا الذُّعْر في عينَيه، وراح يُغمغِم. تابعتُ: «أعرفُ العصافير جيّدًا فلا تحاول أنْ تتذاكَى معي». بلعَ الهواء المحبوس في رِئتَيه حينَ رفعتُ كفّي عنه، وراح يلهث، ثُمّ حنى جِذعه إلى الأمام ووضع باطنَ كَفَّيه

على رُكبتَيه: «أنا...» وصمتَ، خرجتِ الـ (أنا...) رماديّة من فمه، شفقًا هارِبًا من ذبالة النّهار، وتابع لُهاثه، حذّرتُه وشجّعتُه: «قُلْ...». «أنا لستُ إلاّ رَسولاً». «لقد حاول هذا الرّسول من قبلُ معي فلم ينجحْ، لن تكون أفضلَ منه». أرادَ للدّواليب المُتحجِّرة أنْ تدور، أنْ تسير ولو شبرًا، فهتف: «قال إنّه رقم». انهارَ جزءٌ جديدٌ من كياني، للأرقام هذه السّطوة كلّها، لا يعرفُ الأرقام غيرُنا، نحن الّذين كُنّا هناك. ثُمّ... قدّرتُ أنّ نصف المسافة المُتبقّي لن يفعل أكثر من نصف المسافة الذّاهب، فمضيتُ معه.

في الطّريق كانتْ عدستا عينَيّ تلتقطان كلّ ركنٍ في السّجن، النّوافذ المُحيطة بالسّاحة الّتي نذرعها باتّجاه المجهول، كانتْ هناك وجوهٌ كثيرةٌ تنطبعُ في تلك النّوافذ تسترقُ النّظر إليّ، خلتُها سِهامًا تخترقُ جسدي، لأوّل مرّةٍ أشعر بأنّني مكشوفٌ إلى هذه الدّرجة. الملاءات المُتدلّية، الحبال الصّوتيّة، الثّياب المنشورة على الأشباك، الغمغمات المُتناثرة رذاذًا مُلتهبًا يدخل في أذني. إنّني أمضي إلى قدري، خطَر ببالي في المسافة القصيرة المنهوبة ألف مرّة أنْ أعود، أنْ أتركَ الذّهاب إلى هذا الرّجل الّذي استتر خلفَ رقم، لكنّ الرّقم تَشكّلَ على هيئة وجه (ريّان)، لقد فتَح فكّيه، ورفع لِسانه حتّى مَسّ أرنبة أنفِه، حينَها فقط اطمأننتُ إلى عبارته الّتي سَمِعَها قلبي: «لا أحدَ يرانا غيرُ الله». ومضيت.

(٢٢)

ما أكثر الكَذَبة، وما أقلّ الصّادقين!

كان يُعطيني ظَهره، أشارَ بيده لضياء أنْ يُغادر، تلفتُّ حولي، لم يكنْ هناكَ أحدٌ سِوانا. قال وهو لا يزال يُعطيني ظهره، وصوتُه ينوب عن وجهه: «أنا...». ولم يُكمل على عادة الـ (أنا) الّتي تبتدِئ دون خبر. بقيتُ صامِتًا، الكلمة رصاصةٌ تقتلكَ أو تقتل خصمك، فلأخبِّئ رصاصاتي كما يليقُ بمقاتلٍ مُحترف.

رفع ذَقْنه كزعيمٍ يُريدُ أنْ يُصدِرَ أمرًا، ثُمّ لفّ جذعه، فصار أمامي وجهًا لوجه. تفحّصتُ الوجه الأشهب الّذي أمامي، وجسدَه النّحيل، وحاجبَيه اللّذين يُشبِهان جناحَي طائر السّنونو، وعينَيه السّوداوَين الواسعتَين الغائرتَين في محجريهما، وجبهته العريضة، وشَعره الخفيف الّذي يعتمر رأسه كقبّعة صَيف، وشفتَيه المُتلئتَين، وأنفَه العالي... وكان وجهه يغيمُ أمامي ويصفو، يبدو ويخفى، كأنّه يريدُني أنْ أعرفه وأنْ أجهله في الوقتِ ذاته، ثُمّ غامَ تمامًا كأنّني لم أرَ هذا الوجه في حياتي ولو مرّة واحدة، ومع شعوري بأنّني مشيتُ إلى مأزقي برجلَيّ إلاّ أنّ شعورًا ما بالطّمأنينة غمرني، وبين الشّعورَين، وجدتُني أقفُ هدفًا سهلاً أمام قنّاص، وأنا مُجرّدٌ من أيّ سِلاح، تساءلتُ وأنا أُضيّق عينَيّ وأهزّ رأسي هزّتَين خفيفتَين: «أعرفك؟!». فردّ وشفتاه المتلِئتَان تنفرجان عن أسنانٍ بيضاء: «أنا أعرفك». ومشى خُطوتَين إلى برشٍ، وأشار إليّ: «اجلسْ... احتفظتُ لكَ بالذّكريات كلّها. الأصدقاء الحقيقيّون يفعلون ذلك». وتناوَل إبريق شايٍ، وسكبَ كأسًا ساخنة ومدّها نحوي وأنا لا أزال واقِفًا،

وهتف: «اجلسْ يا محمود... اجلسْ لدينا الكثير لنقوله». وجلستُ على الطّرف، كمن يُريدُ أنْ يتركَ فرصةً للهرب إذا حانتْ، وأنا لا أزال أتفحّصه بعينَيّ مُتسائِلاً في نفسي: «كيفَ يكون قلبُ الّذين يدّعون أنّهم يعرفونني، هل أنا هدفٌ سهلٌ إلى هذا الحدّ؟!».

وضعَ كأسَي الشّاي على طاولة صغيرة، وعقدَ بينَ كفَّيه أمام صدره، ونظَر إليّ من فوقِهما: «نحنُ لسنا إلاّ أرقامًا يا محمود، لكنّ أرقامَنا أثقلُ من أسمائنا». ولم أدرِ بِمَ أردّ عليه، فتابع: «أنا وأنت كُنّا في المجموعة رقم (١١) مع الشّيخ...». وضحك وهو يُردِف: «تخيّلْ». وضيّقتُ عيني اليُسرَى، ونظرتُ بنصف إغماضتها إليه: «هل كُنتَ...». ولم أقوَ على إكمال العبارة، لكنّه ساعدَني، فأكملها: «أنا كنتُ أحدَ أعضاء خليّتك مع الشّيخ عبد السّلام». سقطَ حجرٌ من الجدار، نُقِبَ فيه نقبٌ بمقدار كلمتَين: الخليّة والشّيخ. سألتُه مُستطلِعًا: «هل كنتَ معي في المدرسة؟». «لا». «والشّيخ؟». «ماذا بشأنه؟». «ماذا حلّ به؟!». «ما زال على العهد، تخرّج في مدرسته النّضاليّة أفواجٌ كثيرة، لقد جنّد الشّيخ عشرَ مجموعاتٍ قبلَنا، أنا وأنتَ من جنود الخليّة الحادية عشرة». «الرّقم». «١١؟». «نعم». «أرقامُنا أقدارُنا». «هي كذلك». «وأنتَ أينَ وقعت؟ أعني ما كان رقمُ قدرك». «عليكَ أنْ تعرف». وقلتُ مُستطلِعًا: «لستَ الرّقم (٧)؟!». فأخذ شهيقًا طويلاً، وحنى رأسه على صدره، وكادَ يبكي: «لقد سبقَنا إلى الشّهادة». وسقطَ الجدار بعبارته الأخيرة دفعةً واحدة، وهمستُ في نفسي: «إنّه أحدُنا إذًا». وتابعَ معي هو اللّعبة: «أنا الّذي جئتُ مُتأخّرًا إلى مسجد (أبو جوهر) وصلّينا معًا». ونهضتْ صورتُه البعيدة في ذلك اليوم أمامي، وشهقتُ مُخاطِبًا نفسي: «كيفَ نسيتُه؟! لقد رأيتُ وجهه من قبلُ إذًا؟ هل تغيّر إلى هذا الحدّ؟

هل يُشكّل النّضال الوجوه؟ ربّما. لم يبقَ مِمّا أعرفه منه غيرُ جسده النّحيل الصّلد». وسألتُه: «أنتَ الّذي طلبْتَ من الشّيخ أنْ تذهب لزيارة بيت الله الحرام؟». فردّ وهو يبتسم: «أنا هو». وهتفتُ بفرحٍ كمن حلّ أحجيةً بعدَ طول صبر: «أنتَ الرّقم (٥)؟». وهتفَ هو فَرِحًا مثلي: «أنا الرّقم (٥)». «أنتَ صالح؟!». «بشحمه ولحمه». وضحكت: «لا لحم ولا شحم». وقمتُ فعانقتُه عِناقًا طويلاً، ثُمّ في غمرة عناقي له تذكّرتُ أنّني حلمتُ به وأنا في المستشفى، فتراختْ يداي، وتراجعتُ لأنظر في وجهه ودمعةٌ تترقرق في عينَيّ: «ولكنّني رأيْتَك...». وفتحَ عينَيه وانفرجَتْ شفتاه، وسألني بهدوء: «ماذا رأيتني؟!». «رأيتُكَ في الحلم حمامةً وأنتَ تتخبّط بدمائكَ على أرض الحرم الرّخاميّة». «حمامةٌ ودمٌ وحرم؟! إنّها البُشرَى إذًا، سألحق بركبِ الشّهداء». وعانقتُه من جديدٍ، ورحتُ أنشجُ على كتفَيه.

«لدينا الكثير من العمل». «أنا جاهز». «سنتابع التّخطيط للعمليّات كما لو كُنّا في الخارج». «أنا معك». «أتعرف؟!». «ماذا؟!». «لا فرقَ بينَ ما هو هنا وما هو هناك إلاّ هذه الجدران، ولن تكونَ عائِقًا. تخيّلْ أنّها غير موجودة». أجبتُه: «لماذا أتخيّل، لماذا لا يكون ذلك حقيقة؟!». «ماذا تعني؟». «لا تقلْ لي إنّكَ لم تُفكّرْ بالهرب». «كلّ يومٍ، كلّ ساعةٍ، كلّ لحظة».

اتّسعت الدّائرة المُغلقَة يومًا بعدَ يوم، ولكنّنا كُنّا حَذِرين تمامًا، بدأتْ بضياء، ثُمّ بصالح، ثُمّ كان صالح هو الّذي يُمسك طرفَ الدّائرة، يُوسّعها أو يُضيّقها لمعرفته بالنّاس هنا. العصافير لا تبني أعشاشَها إلاّ في عقول الخائفين، كُنّا نعرفُ كيفَ نسحقها بأقدامنا قبل أنْ تفقس، بل قبل أنْ تُصوصِي!

قال لي صالح: «هل أكملتَ الثّانويّة؟». «لا». «الفرصة هنا مُواتية. المُناضِل المُثقّف أقوى ألفَ مرّة من المُناضِل العاديّ. إنّهم يهزموننا ثقافيًّا قبل أنْ يهزمونا عسكريًّا. لنستخدم السّلاح الّذي يستخدمونه لهزيمتهم». «هل في السّجن مكتبة؟!». «نعم». فتحتُ عينَيّ مُندهِشًا، ردّ: «أعني المكتبة الّتي أسّسْناها نحن هنا بالكتب المُهرّبة».

«هات الورقة». «هاكَ القلم». «الّذي في العقل لا يُمكن أنْ يرسخ إلاّ على الورقة. المعلومة في العقل عشرةٌ على الشّجرة، لكنّها في الورقة عصفورٌ في اليد». «لكنْ حذارِ». «لا تقع الأوراق إلا في أيدي الأولياء». «انظر إلى هؤلاء كلّهم، إنّهم مشاريع عمليّاتٍ مُحتمَلة. إنّهم مشاريع شهداء، كلّ واحدٍ منهم خطوةٌ في الدّرب الطّويلة المُوصِلة إلى التّحرير». «هل تهون الحياة علينا إلى هذا الحدّ؟! هل نهدرها بهذه السّهولة؟!». «الحياة ليستْ هنا؛ إنّها هناك. ثُمّ مَنْ قال إنّها تهون علينا حينَ نُستَشهدَ، إنّ الشّهادة أعظمُ شعورٍ بالحياة وقيمتها، لذلك نذهبُ إلى الموت ونحنُ نُغنّي». «الموتُ في سبيل النّصر حياة». «الحياة الّتي خلفَ بوّابة الفناء خلودٌ، ألا تُدرك معنى ذلك؟!».

أخذتُ الثّانوية في العام الأوّل من مكوثي في السّجن. حصلتُ على معدّل عالٍ. أُسخّر ما أعرفُ من أجل ما هو قادم. أقرأ في اليوم ستّ ساعاتٍ على الأقلّ. أُراجع ما أحفظُ من القرآن الكريم. درّبتُ عينَيّ على أنْ تُصبِحا عدستَين تحتفظان بكلّ ما تريدُ داخل ملفّات سرّية غامضةٍ في عقلي لا يفتحها سِواي. حفظتُ الوجوه وتعابيرها، والحركات وسَكَناتها، وعدد البوّابات، والممرّات، وأنواع الكاميرات والأسلاك الشّائكة، ومقادير المسافات، ومساقط

الزّوايا... ثُمّ درّبتُ أذني على أنْ تسمع ما يسمع الكلب، ودرّبتُ نَفَسي على أنْ أضبطه كغوّاصٍ عليه أنْ يبقَى تحتَ الماء أطول فترةٍ مُمكنةٍ في بحرٍ لُجّي. ودرّبتُ أنفي على أنْ يُفرّق بين الرّوائح، وأنْ يُصنّفها، وأنْ يُرتّب الرّوائح المُتشابِهة بدرجاتها المُتفاوِتة في ملفّاتها الخاصّة. أنا أُدرِّب عقلي بشكلٍ جيّد. هذا العقل جَبّار. هذا العقل مُعجِزة.

«صالح». «الدّرب واضحة». «والغاية أوضح». «فَلِمَ يقفُ هؤلاء في طوابير الذّلّ؟!». «لم يعرفوا قيمة الحياة». «بل لم يعرفوا قيمة الوطن». «الوطن هو الحياة». «إنّهم ينحرونه ويدّعون حُبّه، يذبحونه ويدّعون أبوّته». «إنّهم كاذبون». «ما أكثر الكَذَبة، وما أقلّ الصّادقين!». «لا تقلْ ذلك، إنّما يقلّون بالكذب ولو كانوا زبدَ البحر، ونكثر بالصّدق ولو كُنّا يتيمةَ الدّهر».

«هل تعرف(نائل)؟». «أبو النّور؟». «هو». «ومن لا يعرفه. هل هو هنا معنا في هذا السّجن؟». رأى الشّوق في عينَيّ: «سنلتقيه اللّيلة، إنّه في المهجع السّادس، خِزانة حكايا، لديه تاريخٌ طويل». «أريدُ أنْ أُقبّل قدمَيه». «سنلتقي به في الفَوْرة». ومضى اللّيل وأنا أرى صورته تنطبع في مُخيّلتي، هل يُمكن أنْ تتكثّف صورة النّضال عبرَ السّنين العجاف فتنطبع على هيئة رجل؟ كان أمنيةً هاربة، ها هو السّجن البغيضُ يحقّق لي هذه الأمنية، رجفَت أطرافي لمجرّد أنْ تخيّلتُ كيفَ يكون اللّقاء بجبلٍ من جبال فلسطين مثله. ونِمتُ وأنا أحلم.

تَبِعتُ (صالح)، كنّا نسير في السّاحة كأنّنا نسير في ممرّات سرّيّة، كان علَيّ ألاّ أنظر في الوجوه، عيناي تقفُوان خُطوات صالح،

وحده يعرفُ إلى أينَ نمضي، ركض، فركضتُ خلفَه، أسندَ جسده النّحيل إلى الجدار الغربيّ، راقبَ الكاميرات، لفّتْ عنقَها كأنّها رادار، أشارَ إليّ: «الآن» وركضَ، فتبعتُه بخفّة، دخلْنا دهليزًا نِصفَ مُعتِم، إنّه في الزّنازين الانفراديّة، يُمكن أنْ نراه لخمس دقائق كحدّ أقصى، كانت الدّقائق الخمس تعني أنّ الكلام والأسئلة الّتي ستُقال يجب أنْ تكون محسوبةً بدقّة. «مِن هنا». انعطفَ يسارًا، كانتْ هناكَ نوافذ مُعتمِة في صَفّ الزّنازين الطّويل، أكثر من اثنتي عشرة زنزانة. «عليكَ ألاّ تنظر فيها». أشحتُ بصري، وبالكاد كنتُ أرى قدمَيه اللّتَين تنهبان الأرض. «اقتربْنا». ثُمّ توقّف أمام بوّابة خضراء صدِئة، كانتْ هناك نافذة بشبكٍ لا يسمح بالرّؤية الكاملة في هذه العتمة النّصفيّة، وكانتْ هناك عينان، عينان تختصران تاريخًا مُهِمًّا من تاريخ النّضال الطّويل. «ها هو». سألتُ: «نائل؟». سأل هو: «صالح؟». «نعم، ومعي محمود. حدّثتُك عنه، يريدُ أنْ يراك». «هاتِ عينَيك سأقبّلهما، إنْ فاتني أنْ أُقبّل قدمَيك الطّاهرتَين فلن يفوتني أنْ أقبّل هاتَين العينَين، كانتا عينَي نبيّ، نبيّ ثائر. إنّه أنتَ إذًا، إنّه أنتَ بعدَ كلّ هذا». ابتسمَ ابتِسامةً حزينة، كان الحُزن لَحنَه الّذي غنّاه من أجل فلسطين. إنّه أنت، لا يكذبُ وجهكَ أيّها الثّائر العنيد، كيفَ استطعتَ أنْ تحمل في قلبكَ هذا الوجعَ كُلّه؟! أَرِني أنظرْ إليكَ». ابتسمَ من جديدٍ: «ماذا تريدُ أنْ تعرف؟». «كلّ شيءٍ». «ليسَ لديّ الكثير». «أنتَ؟ بل أنتَ الكثير كلّه. قُلْ، أنا أُصغي إليك بقلبي لا بأذني، بشوقِ فلسطين لا بترفِ طفلٍ مثلي يتهجّى بين يديكَ أبجديّة النّضال». هتف صالح: «محمود، ليس لدينا الوقتَ الكافي للتّغزّل». سمعتُ ضحكة نائل النّبويّة النّادرة، أُراهن أنّه لم يضحك من قبل. هل يكون رأى فِيّ وجهًا قابِلاً لأنْ يضمّه إلى المُنتظِرين في صَفّ النّضال

الطّويل ليقبلهم فيه ويُباركهم؟! «محمودُ يريدُ أنْ يسمعَ منك» قال صالح له وهو يشدّ على يدي ويتلفّت حولَه، ويُردف: «سيكتشفون أنّنا تسلّلْنا إلى هنا». هتف نائل بصوتٍ هادِئٍ رخيم: «حادثة واحدة. يُمكن أنْ أقول حادثةً واحدة». «سنحتاج إلى زياراتٍ كثيرةٍ مثل هذه إذًا». «اسكتْ يا محمود» شدّ هذه المرّة صالح على يدي بقوّة وعلى أسنانه: «الوقت ينفد». «اعتقلوا أبي من أجل أنْ يضغطوا عليّ وعلى أخي عمر. كُنّا نُقاتل في صفوف الثّورة في لبنان، بعدَ عودتنا قُمنا بعمليّات قنْص لجنود الاحتِلال، كان ذلك قبل ما يزيدُ عن عشرين عامًا أواخر السّبعينيّات، تعرّضْنا لتعذيبٍ شديد، اعتقلوا أبي لكي نعترف، قال لهم أبي: خذوني إليهما، لكنّهم لم يسمحوا له إلاّ برؤية عمر، كنتُ أنا بين يدَي الموت من شِدّة التّعذيب، لم يكنْ ليتعرّف على وجهي على أيّة حال، ولا على جسدي، أدخَلوه على عمر، لم يكنْ هو الآخر بأحسن حالاً منّي، كان لا يُفيق من الغيبوبة حتّى يسقط فيها مرّة أخرى، كانوا قد حشروه في زنزانةٍ ضيّقةٍ وضربوه وأطفؤوا السّجائر في جسده، وخلعوا ذراعه من كتفه، وكان جسده أزرق، منعوا عنه الطّعام والشّراب لثلاثة أيّام، حينَ رآه أبي قال للضّابط المُرافق: «هذا عمر؟!!». لم يعرفه تمامًا، وأكمل: «يبدو هو!». وسأل ببرود: «لماذا اعتقلتموه؟ هل قضيّته خطيرة إلى هذا الحَدّ؟!». ردّ عليه الضّابط: «إنّ ابنكَ هذا مُخرّب كبير، وابنك الآخر نائل مجرمٌ أكثر منه». سأله أبي: «وماذا تريدون منهما؟!». ردّ الضّابط: «الأمر سهل، كلّ ما يجب عليهما فِعْلُه هو الاعتراف بعمليّات القتل الّتي قاموا بها، وقِطَع السّلاح الّتي يُخبّئونها، وأمور من هذا القبيل». «بسيطة حضرة الضّابط»؛ قال أبي وركع على قدمَيه عند جسد أخي عمر، ثُمّ أخذ وجهه بين يدَيه، ورفَعه إلى صدره واحتضنه طويلاً، وحبسَ

دموعه من أنْ تفيض، وفَرِحَ الضّابط، وتحفّز، وبالفِعل وقفَ أبي على قدَمَيه، وابتعدَ خُطوةً أخرى إلى الخلف عن عمر، وخاطَبه: «اسمعْ يا عمر إنتا وأخوك نائل، اسمع منّي وأوصلْ هذا لنائل، أقسم بالله لو فتحتو ثمّكو بكلمة واحدة واعترفتو لأتبرا منكو إنتو الاثنين دُنيا وآخرة... رح تموت؟! ما رح تموت إلاّ إذا الله قدّر... اعترافك إنتا وأخوك خِيانة...». والتفتَ بعدَ هذا إلى الضّابط وقال: «والآن، ماذا تريدُ؟ هل هذا يكفي؟». ردّ الضّابط الّذي احتقنَ وجهه من الغضب: «بسيطة سأعذّبهم حتّى الموت». فردّ أبي عليه: «بسيطة من عندي أيضًا. اسمع. اقتلْهم إذا استطعت. عندي أراضي مزروعة بالزّيتون في (كوبر) سأبيعها وأتزوّج ثلاث نساء أخريات وأُنجِب عشرة مثل عمر ونائل. أعلى ما في خيلك اركبو». وخرج أبي بعدَ أنْ بصقَ على الضّابط... وبكيتُ أنا... بكيتُ هذه المرّة بحرقة، لقد رأيتُ نفسي صغيرًا، صغيرًا جدًّا أمام هذا... كيفَ يُمكن أنْ تُروى قصص الأبطال هؤلاء، كيفَ يُمكن للحروف أنْ تكون صادقةً معهم؟ أيّ لغةٍ تستطيع أنْ تُعبّر عن هذا الوجع والكبرياء معًا؟ إنّ كلّ شيءٍ يُقال عمّا يُرى سيكون خائِنًا هو الآخر. وشدّني صالح من يدي: «هَيّا. يكفي هذه المرّة». وهويتُ على الأرض: «قرّبْ قدمَيك إلى باب الزّنزانة يا نائل، قرّبْهما أيّها البطل، لن يمنعني الحديد ولا الفولاذ؛ أريدُ أنْ أقبّل هاتين القدَمين الطّاهرتَين!».

(٢٣)

قَمَرٌ سَقَطَ عَلى السُّوْرِ

قلتُ لصالح: «هل تعرف ما حلّ بيعقوب؟!». «تريدُ أنْ تعرف؟». «بكلّ ما فِيّ من فُضُول». «أُلقِي عليه القبض، وعذّبوه تعذيبًا تنوء به الجبال». «هل اعترف؟!». «كلاّ. نحنُ في التّحقيق صخرةٌ صَمّاء». «وأينَ هو الآن؟!». «في سِجنٍ آخر. على الأغلب في سجن شَطّة». «هل حُكِمَ عليه؟!». «ربّما. لستُ أدري!».

على الورق خطّطْنا هنا للعمليّات، أوّل المُنفّذين (ضياء) من بلدة (برقين)، خروجهُ سيكون بعدَ شهر، القادمون من الخارج حملوا إلينا المعلومات الّتي نريدُها، الحمام الزّاجل ملأ كثيرًا من الفجوات في عقولنا، نحنُ لا نُقدِمُ على عمليّة إلاّ إذا كانت نِسبةُ نجاحِها أكثر من ٩٠٪، والأمر بعدَ ذلك لله.

«أخي نعمان، سيتكفّل بإحدى العمليّات». «هو في سجننا؟!». «نعم». «لم أره». «في المهجع التّاسع. ليسَ سهلاً أنْ نلتقيه إلاّ إذا حدثتْ تَنَقّلات أو إدخالات جديدة. (البوسطة) تحملنا من سجنٍ إلى آخر، من منفى إلى منفى. (البوسطة) وكالة أنباء. نعرفُ من خلالها أخبار العمليّات، وأخبار الرّاحلين، وأخبار القادمين الجُدُد. لدينا عيونٌ كثيرة!».

بدأتُ دراستي الجامعيّة. العِلم سِلاح. سأُقاتل به كما أُقاتل بالبندقيّة، كلاهما يأتي بالنّهار بعدَ ليلٍ طويل. أتشمّم الجدران المُتقشّرة، والحجارة القديمة، وأنظر إلى مواقع الأقدام، الأقدام

الذّاهبة في الفَوْرة كلمات، تتحدّث بألف لغة، كلّها لغاتٌ لا يفهمها العدوّ. إنّ لدينا تاريخًا إنْ لم نجدْ أمينًا عليه، فلا أقلّ من أنْ نرويه. قولي أيّتها الحرّيّة: أما شبعتْ قلوب هؤلاء الأبطال من النّزيف؟!

رأيتُه، نُسخةٌ أخرى منه، يُشبِهه حَدّ التّطابق، قريبُه الّذي يقطن في المهجع التّاسع، حينَ كنتُ ألتقيه، أسأله: «أنتَ أم هو؟». يضحك. من الصّعب أنْ تُميّز بيننا، أنا أحيانًا أقول له: «يا أنا!». أو يقول هو لي: «يا أنا». وأنا أقول: «يا نحن». وضَحِكْنا. قلتُ له كأنّني اكتشفتُ اختِراعًا: «الشّعرات الّتي تحتَ الشّفة السّفلى، هو ما يُميّز أحدكما عن الآخر» نظَر إليه، لم يفهم تمامًا. أردفتُ: «إنّ هناك فراغًا بارِزًا بينها وبين شَعرات الذّقن عندكَ يا صالح، أمّا عند نعمان فهي مُتّصلة». تحسّس صالح الفراغ، وهزّ رأسه مُعجَبًا وضَحِك: «أنتَ تُمعِن النّظر في أدقّ الأشياء». «عليّ أنْ أفعل». «لِمَ؟». «لأجل يوم الخروج». ظلّ صامِتًا، فيما انسلّ نعمان مُغادِرًا المكان قبل أنْ يكتشف وجودَه بيننا أحدٌ من حَرَسِ السّجن.

بدأتُ بسورة الأنفال، لا أدري لِمَ بدأتُ الحِفظَ بها. شيءٌ ما في عقلي قادني إليها أوّلاً. يقول لي صالح: «اقرأْ». أهتفُ بخشوع: «يسألونك». يردّ: سيسألونك أينما سِرت. جاءتْ لي أمّي بمُصحفٍ قَدْر الكفّ، صرتُ أضعه في جيب سترة السّجن الأماميّة، في الفورات، كنتُ أقرأ فيه، وأحفظ، أترنّم بالحروف الهابطات الصّاعدات؛ من السّماء إلى السّماء... عامٌ كاملٌ مرّ وأنا أقرأ عليه القرآن حتّى أتقنتُ حِفظَه، احتفلْنا بأنْ نقلْنا الحروف من السّطور إلى الصّدور، غنَّيْنا:

طَالِعْ لَكْ يَا عَدُوّي طالِعْ

مِنْ كُلْ بِيْتْ وْحارَة وْشَارِعْ

بِسْلاحِـي وْإِيمانِي طَالِـعْ

وْحَرِبْنـا حَرْبِ الشَّوَارِعْ

صـارتْ عيـونِي ميزانًـا؛ حركتـان يمينًـا ويسـارًا مـن أجـل قيـاس الطّـول، ومثلهـا مـن أجـل قيـاس العـرض، ثُـمّ أخـرى مـن الأسـفل إلى الأعلى من أجل قياس الارتِفاع، كانـتْ عيناي تقيسان المسافة لأقـرب سـنتيمتر، تعجّـب صالـح مـن هـذه الدّقّـة، سـألني: «كيـفَ تقـدر عـلى ذلـك؟!». ابتسـمتُ: «إدامـة النّظـر يـا صديقـي». «ولكنّنـا نُديـم النّظـر ولا نعـرف مـا تعـرف». «طـول التّدريـب، والعنـاد، وانقِطـاع الانشِـغال بِسـوى مـا تريـد». «تبالـغ». «تستطيع أنْ تختبرنِي». «ليـس لدينـا أدوات قيـاس». «سُـتبدِي لـكَ الأيّـام، أنّ أدقّ قيـاسٍ هـو مـا مَسَـحَتْه عينـاي».

هَبَـطَ اللّيـلُ، أَوَى السُّـجَناءُ إِلَى الغُـرَفِ المَقْـرورَةْ، هَمَـدَتْ حَـرَكاتْ، سَـكَنَتْ أَصْـواتْ، وَانْتَظَمَـتْ أَنْفـاسٌ مأسُـورَةْ، قَمَـرٌ سَـقَطَ عَـلَى السُّـورِ، وَدَفَّـقَ ضَـوْءًا فِضِّيًـا فَـوْقَ الأَسْـلاكِ الشَّـائِكَةِ الثَّـكْلَى... غَـامَ الغَيْـبُ، وخَفِـي السِّرُّ الأَعْـلَى، لَطُفَـتْ أنفـاسٌ جَـذْلَى... وَهُنـاكَ وَرَاءَ العَتْمَـةِ، فَـوْقَ الـبُرْجِ، أَمَـامَ القَـدَرِ، انْتَبَـهَ الحَـارِسُ، ثَمَّـةَ ظِـلٌّ، كانَ يَـدِبُّ دَبِيـبَ النَّمْـلِ... بِـلا رِجْـلٍ، وَعَلَيْـهِ شَـآبِيْبُ اللهْ... آهِ وَأَوَّاهْ... ظَـنَّ الحـارِسُ أنَّ دَبِيْـبَ النَّمْـلِ هُـرُوبٌ سَـانِحْ، أَنَّ لَطِيْـفَ النَّسَـماتِ أَلِيْـمٌ ذَابِـحْ... جَحَظَـتْ عَيْنَـاهُ مِـنَ الرُّعْـبِ، ومِـزْلاجُ الأَبْـوابِ المُغْلَقَـةِ انْفتَـحَ، وَصَـوْتُ الهَلَـعِ انْجَـرَحَ، وَرَائِحَـةُ الهَـرَبِ اجْتاحَـتْ رِئَتَيْـهِ، فَصَـاحَ: تَوَقَّـفْ... لَمْ يَتَوَقَّـفْ أَحَـدٌ، لَيْـسَ عَـلَى الأَسْـوارِ سِـوَى قَمَـرِ الحُرِّيَّـةِ وَالقَمَـرُ حَزِيْـنْ، لَيْـسَ عَـلَى الأَبْـوابِ سِـوَى أَنْفَـاسِ المَظْلُومِـيْنْ، لَيْـسَ هُنالِـكَ مِـنْ أَحَـدٍ غَـيْرُ الآتِي مِـنْ رَحِـمِ الظُّلُـماتِ العَـاتِي... زَفَـرَ الحَـارِسُ، عَـادَ إِلى الـبُرْجِ، وَلَعَـنَ الحَـظَّ، وَهَتَـفَ: خَيالٌ مَلْعُـونْ... وَأَنـا؟

أَبْلَهُ مَجْنونْ... كَيفَ أَخافُ وَما فِيْهِمْ خائِفْ؟! أأنا مَسْجُونٌ فِي زِنْزانةِ رُعْبِ خَيالاتِي الرَّاعِفْ... وَهُمُ قَدْ طَافَ بِهِمْ طَائِفْ... فَصَحَوا فِي بَرْدِ أَمانٍ، وَسَقَطْتُ أَنَا فِي الجُبِّ الجَائِفْ!!

لا يقفُ أمام الحُلم شيءٌ، ولا قيمةَ للأرواح ما لم تمتْ في سبيلِ فكرةٍ سامية، ولا أسمى من فِكرة الوطن، الوطن الذّبيح، الوطن الّذي مُزِّق على أيدي البائعين. كانتْ (أوسلو) وصمة عارٍ في تاريخنا، وجرحًا من الصّعب أنْ يلتئم. كان (شمعون بيريز) يختار مُفاوضِيه: «عليهم ألاّ يكونوا ممّن تلطّختْ أيديهم بدمائنا أو فكّروا بذلك». لكنّه لم ينظر إلى يدَيه مرّة واحدة، ولا أيدي الصّهاينة القَتَلة الآخرين، تلك الأيدي الّتي ذبحتْنا من الوريد إلى الوريد، الأيدي الّتي لا تزال راعفةً بدمائنا، تقطر كلّما ساروا على دروب قتلِنا، كلّ قطرةٍ من هذه الدّماء الزّكيّة النّازفة من أصابعهم، تهطلُ على الأرض فتُنبِتُ وردَ الدّحنون، أترون إلى هذه السّهول المملوءة بالورود الحمراء، لم تكنْ هذه في الحقيقة إلاّ دماءَنا، نحن فجرُ الحرّيّة.

خرج (يعقوب) من السّجن، قال لي ذلك صالح، إنّه حرّ الآن. حرّيّته تساوي العمليّات الّتي يُخطّط لها، النّكوص عن درب النّضال خيانة. زارنا بعدَ ستّة أشهرٍ من خروجه، لم أصدّقْ أنّني سأراه، وجه المُناضلين الصّادقين لا يُنسَى، ظلّتْ صورةُ وجهه - وأنا أشدّ على يدَيه يومَ تنفيذ العمليّة - مُنطبِعةً في ذاكرتي، كان وجهًا التقتْ فيه المتناقِضات: الخوف والطّمأنينة، القلقُ والسّكينة؛ كأنّ سحابة الخوف كانتْ تنجلي لتحلّ مكانها سحابة الطّمأنينة. أو كأنّ طائر القلق كان يطير من أجل أنْ يحطّ مكانَه طائرُ السّكينة... كان ذلك في يومٍ بعيدٍ مرّ عليه أكثرُ من عامَين... حينَ جاء ضُحى

اليـوم، كان ينتحـل اسـمًا آخـر، ووجهًـا آخـر، حلـقَ شـواربه ولحيتـه، تغيّرَ كلّ شيءٍ في وجهـه إلاّ عينـاه، العينـان همـا همـا، أعـرفُ هـذه النّظـرة المُتحدّيـة، نظـرتُ فيهـما طويـلاً، لم تكـنْ هنـاك مـن نـدوبٍ في الـرّوح، إنْ سـلمت هـذه الـرّوح مـن أجـلِ مواصلـة طريـق النّضـال فـلا قيمـة حينئـذٍ لجـروح الجسـد. قـال إنّـه تعـرّض لمُحاولتَـي اغتِيـال: كنـتُ آوي إلى جبـلٍ يعصمنـي، حـاصروني، وانهمـرت الرّصاصـات مـن فوقـي وعـن يمينـي وشِـمالي، اخترقـتْ إحداهـنّ كتفـي، لكنّنـي لم أعبـأْ، بقيـتُ أركـضُ بـين الأشـجار، ميـزة الاختِبـاء، وإعاقـة سـيّارات الجيـب الّتـي لا تسـتطيع السّـير كثيرًا في أجمـة الأحـراش، كانـوا يُصوّبـون إليّ أكثـر مـن عشريـن رَشّاشًـا، لم يكـنْ مخيفًـا صـوتُ الرّصـاص بقـدر مـا كان مُخِيفًـا أنْ يظفـروا بي ويُعيـدوني إلى السّـجن فأفقـد حرّيّـة التّخطيـط للعمليّـة القادمـة، كنـتُ أركـضُ في سـحابات الرّصـاص كأنّنـي أحلّـق في الغيـم، طروبًـا، أُغنّـي، صـوتُ الرّصـاص في أذنَيّ كان موسـيقى. فجـأةً حـدثَ مـا لم يكـنْ في الحُسـبان، إنّهـا رصاصـةٌ في أسـفل القـدم، نـزفَ كاحـلي، لـو كانـتْ في سـاقي أو في الفخـذ لـكان الأمـر أهـون. بـدأ النّزيـف الكثير يُبطِّـئ مـن سرعتـي، هـذا كان أصعـبَ شيءٍ علـيّ، أنْ أقـع في أيديهـم، تسـلّقتُ أقـربَ شـجرةٍ، كان دمـي النّـازفُ مـن كاحـلي يرسـم عـلى سـاق الشّـجرة خيـطَ وجـودي، تسـمّرتُ في أعـلى الشّـجرة، كتمـتُ أنفـاسي، قطعـتُ بعـضَ الـورق، ولففتُـه عـلى الجـرح لعـلّ نزيفـه يقـلّ، لكـنْ هيهـات... رائحـة الـدّم أشـهى مـا تشـمّه الـكِلاب، نبحـتْ كلابهـم مـن بعيـد، عرفـتُ أنّنـي لا محالـة واقـعٌ في أيديهـم مـا لم أغـيّرْ موضعـي، تنقّلـتُ في الأعـالي مـن شـجرةٍ إلى شـجرة، في زوايـا مُختلِفـة ومُتعاكِسـة حتّـى أُضلّـل الـكلاب، اختلـطَ الأمـر عليهـا، فقـادت الجنـود إلى أكثـر مـن شـجرة، كنـتُ مـن الأعـلى أراهـم وقـد تحـيّروا وتحـيّرتْ معهـم كلابهـم، رفعـوا الرّشاشـات

إلى الأعلى، وراحوا يُطلقون النّار بشكلٍ عشوائيّ، سقطتْ جذوع الأشجار ذبيحة، كان النّزيف مستمرًّا، بدأتُ أشعر بأنّ الأرضَ تميدُ بي، يبدو أنّه سيُغمَى عليّ، من الأفضل أنْ أنتقلَ عبر هذا الشّجر الكثيف إلى مسافةٍ أكثر أمنًا، أخذتُ نَفَسًا عميقًا حتّى أتماثلَ للصّحو، وفعلتُها، ابتعدتُ... فيما كانوا في الأسفل لا يزالون يُطلِقون النّار بين فينةٍ وأخرى، وكلابهم لا تتوقّف عن العواء.

بعدَ ساعةٍ رحلوا. بقيتُ مُعلّقًا في السّماء أنتظر فرصةً من أجل أنْ أهبطَ إلى الأرض، ولكنّني شعرتُ أنّني فقدتُ قدرتي على الإبصار، وفجأةً... سقطتُ... سقطتُ من هناكَ على الأرض. مرّتْ ليلةٌ كاملة وأنا غائبٌ عن الوعي، لم توقظْني غير أشعّة الشّمس الدّافِئة في الصّباح، شعرتُ أنّها تقول لي: «لا تقلقْ، أنتَ بخير، لقد نجوتَ حقًّا!». أردتُ أنْ أمدّ ذراعَيّ من فتحات الشّبك، وآخذ رأسَه بين يَدَيّ، وأقبّله... تعذّر ذلك... كشفَ عن كتفه، كان مكان اختراق الرّصاصة واضِحًا، هتفتُ: «إنّها أشرفُ من النّجوم الكثيرة الّتي يضعها قادةٌ عسكريّون لم يخوضوا حربًا واحدةً في حياتهم، ولم يُطلِقوا رصاصةً حيّة. خَبِّئ هذه الشّهادة يا يعقوب، أسدل على هذا الوسام صبرك». غَطّى كتفه، ونظر في عينَيّ عميقًا، وهتف بصوتٍ خفيضٍ وهو يشدّ على الكلمات: «لم أعترفْ يا محمود، عليكَ أنْ تكون مُتأكّدًا من ذلك». «ليسَ هذا مُهِمًّا الآن. ماذا لديكَ من أخبار؟!». «سنُشكّل خليّة وحدَنا». «والشّيخ». «عنده تحدّياته، دَعْنا نعملْ بطريقتنا». «إنّه الموت». «خيرٌ لا بُدّ منه». «حذارِ يا يعقوب أن تموت بشكلٍ عاديّ، الموتُ الطبيعيّ ليسَ إلاّ علامةَ عجز». ومضى.

إنّها ثلاث سنواتٍ، مرّتْ حلمًا مثلما تمرّ الأحلام قطاةً عطشى. غير أنّني كتبتُ فيها كتابًا، وحفظتُ القرآن، ومضيتُ خطوةً أو اثنتَين في تعليمي الجامعيّ. ورأيتُ ما لم أرَ. نفّذَ فيها (ضِياء) ثلاث عمليّات حينَ خرج، كانت حصيلة العمليّات جيّدة، في النّهاية مزّقتْ دبّابةٌ جسدَه، ووزّعتْ لحمه على مفرزات جنازيرها الحديديّة، وارتقى شهيدًا، وحينَ رحلتْ نبتَتْ حيثُ مفارز الجنازير على التّراب ورودٌ حمراء، من ذلك النّوع الّذي لا يُسقَى إلاّ بدمائنا. وقبل أنْ يرحل نبتَتْ من بينِ أصابعه سنابل خضراء واعدةٌ لغدِ الحرّيّة الآتي.

خرجتُ من السّجن في أواخر عام ١٩٩٤م، كان المُرتزقة الّذين وقّعوا على اتّفاقيّة الذّلّ في (أوسلو) قد ظنّوا أنّ الحريّة تأتي من الطّاولات. ولولا أنّني خرجتُ من أجل أنْ أنفّذ كلّ ما خَطَّطْتُ له في السّجن لَما قبلتُ أنْ يكون خروجي بصفقةٍ مُهينةٍ كهذه، ولكنّ الثّرى الطّاهر الّذي ما زلتُ أسمعُ صوتَه، قال لي هذه المرّة: «إنّني أنتظرُ أنْ أراكَ خلفَ هذه الجدران الغريبة الّتي لا تعرفني ولا تعرفك».

احتضنتُه طويلاً، تسرّبَ سيلُ الحبّ في الذّراعَين المضمومتَين على الجِذع إلى القلب، بكيتُ على الحقيقة، انهمرتْ دموعي، شعرتُ أنّني لن أراه مرّة أخرى: «أخرجُ وتبقَى؟! لو كنتُ أستطيع أنْ أهبكَ بِطاقة خروجي لفعلت». قال وهو يربّت على ظهري وأنا لا أزال أعانقه: «سأخرجُ قريبًا». ابتعدتُ عنه قليلاً، وقلتُ وأثر الدموع ظاهرٌ في عينَيّ: «كيف؟». «سأخرج أَعِدُكَ بذلك». «ولكنّك محكوم بأكثر من مؤبّد». «المؤبد رقمٌ على الورق. أنا لا أُقيم له وزنًا». وبان

في صوتي الأسى: «من العار أنْ أخرج بعد اتّفاقيّة مُخزِية كهذه». فردّ مُحاوِلاً مُواساتي: «الشّعرة من جلد الخنزير بَرَكة». «هل سيطول غيابُنا؟!». «نحن نقاتل هنا كما نُقاتِل هناك. ولكنّني أعدُكَ أنّني سأراكَ قريبًا، وسيكون مثلُ هذا العناق خارجَ هذه الأسوار».



(٢٤)

التّضحياتُ قنديلُ الطّريق

دفعني الجنديّ إلى الأمام: «هيّا. لماذا تتوقّف هنا كالأبله؟!». هتفتُ في نفسي: «أنا أبله، سنعرفُ قريبًا من هو الأبله». لم أُعِرْه أيّ اهتِمام. كنتُ أنظر إلى زوايا الجدران، وارتفاع الأسوار، واستخدمتُ الماسِحَ في عينَيّ، من الأعلى إلى الأسفل وقدّرت أنّ ارتِفاع هذه الأسوار هو ستّة أمتار واثنا عشر سنتيمترًا. أمّا الأسلاك الّتي تعلوها فمترٌ وثلاثة وعشرون سنتيمترًا إلى أسفل الحديدة المعقوفة، وأمّا الجزء المُنحني بزاويةٍ حادّة إلى الخارج فاثنان وثلاثون سنتيمترًا. أمّا عددُ الكاميرات فقد اختلطَ عليّ، لم يكنْ قياسَ مسافةٍ ولذلك لم أظفر برقمٍ دقيقٍ لها، كانتْ هناك تكتُّلاتٌ صغيرة من الحديد يُحتَمل أنّها كاميرات، هذا أمرٌ آخر جعلَ العدد الحقيقيّ مُشوّشًا، غير أنّني قدّرتُ أنْ أسوار السّجن الأربعة تحمل تسعين كاميرا. «هَيّا أيّها الأبله. امضِ ألا تحبّ الحرّيّة. حبيبي امشِ من هنا».

انتقلتُ إلى العمل فور خروجي. الوعد الحقّ حَقّ. النّصر لنا، لا يشكّ في ذلك مُؤمِن. لكنّه لن يأتي دون تضحيات. التّضحياتُ قنديلُ الطّريق. على هذه الطّريق سنسقطُ بالعشرات، بالمِئات، بالآلاف، بالملايين... ولْيكنْ... سننزفُ كثيرًا؟ ولْيكنْ. هل كان هناك ميلادٌ دون دم، وهل كان هناك فجرٌ دون ليل؟!

أنا ويعقوب هذه المرّة. دخلْنا الأزقّة. رَصَدْنا الموقع ساعتَين، ثُمّ خرجْنا منه. عُدْنا إليه بعدَ أنْ رسمْنا خارطةً للمكان، الشّارع الرّئيسيّ، الأزقّة المُتفرِّعة عنه، عدد البيوت، أوقات مرور الدّوريّات،

عددها، شكل الدّوريّات، مُدرّعة أم مُصفّحة أم عاديّة، مكان جلوس الجنود، داخلها، خلفَها... لونُ الدّوريّات، حجمُها، وأشياء لا تخطر على البال... مرّ أسبوعٌ ونحنُ نصعدُ سطح هذا المنزل الأثريّ المهجور الّذي يُشرِف على الشّارع والأزّقة، ونحن نراقبُ كلّ ما يتحرّك حولَنا... كُنّا في تلك اللّحظة نتمدّد على بطوننا، وننصبُ رَشّاشَيْنا من فوقِ سطح هذا البيت، حينَ بدتْ تلوح لنا وليمةٌ شهيّة... لقد نزل ثلاثةٌ من جنود الجيش، ترجّلوا من الدّوريّات، وراحوا يمشون بجانِبِها، كان الثّلاثة في مرمى النّار بالنّسبة لنا، هتفَ يعقوب: «فلنقنِصْهم». فكّرتُ مثله، إنّها أنسبُ لحظة، ثلاثةٌ لو أحسنّا التّصويب فسنظفر على الأقلّ باثنين منهم.. نظرتُ خلفِي وأنا ألهثُ للخاطر الّذي عبر خيالي من رؤيتهم يسقطون كالذّباب، فرأيتُ أنّ البيت الّذي نتمركز فوقَه قد يُساعِدنا على الاختِباء، لكنّه يُساعدهم على أنْ يحاصروه إذا قدّروا الجهة الّتي جاءتْهم منها الرّصاصات، فلا أحدَ يسكنُ هنا، ولا أحدَ يمرّ بالقرب منه...»من الأفضل أنْ يكون المكان الّذي نُطلق منه الرّصاصة يُحيلنا على شارعٍ نندمج فيه مع النّاس بعد أنْ نُخبّئ الرّشّاشَين كأنّ شيئًا لم يكنْ». سألني: «ألا نُطلق عليهم الرّصاص؟». «لا». «والعمل؟». «سنغيّر المكان».

انتقلْنا إلى مكانٍ جديدٍ، سطح بيتٍ من طابِقَين، الأوّل مسكون، والثّاني يبدو من تلك البيوت لأولئك الّذين يعملون خارج جنين. ربضْنا هنا أسبوعًا دون أنْ يشعر بنا أهل الطّابق الأرضيّ. «القنص سيكون ليلاً» قلتُ ليعقوب. «لكنّنا لا نرى جيّدًا في اللّيل». «عليكَ أنْ تدرّب عينَيك لتكونا عينَي قِطٍّ تَريان في الظّلام. هذه فرصتنا». مرّ أسبوعٌ آخر. قلتُ له: «لا بُدّ لهذا الصّبر الطّويل من ثَمرة «. «أنا جاهز». «سنبدأ العمليّة السّاعة الثّانية عشرة منتصف اللّيل».

منذُ السّادسة ونحن نتمركزُ هنا، يُمكنكَ أنْ ترى وجه جنين الجميل وسط هذا الموت، كنتُ أضحكُ غير مرّة. فتاةٌ تمشي بدلالٍ، أو ربّما بدتْ لي كذلك، الحرمان يفعل الأعاجيب، يُريك ما لا ترى. عجوزًا يتّكِئ على عُكّازه وهو يُدخّن (الهيشي)، هل بقي مَنْ يفعل ذلك بعدَ طُغيان الأنواع المصنوعة؟! ثلاثةٌ شُبّان يُغنّون بصوتٍ عالٍ كأنّ الحياة الرّغيدة رغم ملابسهم الرّثّة قد فتحتْ ذِراعَيها لهم... عربةُ خضروات، بألوانها الثّرثارة، وأخرى للتّرمس والذّرة بُقتارِها المُتصاعد، يدفعها صاحِباها وهما ينادِيان على بِضاعتهم بأصواتٍ ممطوطة... نهرٌ من الأطفال الرّاكضين اللاّهين... وسطَ هذا الجَمال المُتنوّع تظهرُ دوريّة الصّهاينة، تسير بشكلٍ لولبيّ وبسرعة، تبدو من خلفِ زُجاجها وجوه شمعيّة بغيضة، وجوه الّذين سرقوا ماءَنا وترابَنا وهواءَنا، وجوه الّذين جاؤوا من وراء البحار والمنافِي ليستوطنوا دِفْأَنا وتاريخَنا وروحَنا... ولكنْ هيهات... بقينا رابِضين في المكان نراقب بحذر، بدأتِ الصّورة تقتم، بدأ الضّياء ينسحب لصالح خيوط اللّيل الّذي راحَ ينسجُ رداءَه ويُلقِيه على كلّ شيءٍ حوله... وبدأتْ حركة المارّة تخِفّ، وانقطع سيلُ العابرين، أو كاد.. ولم تعدْ تَرى بعدَ العاشرة النّاس يمرّون في الشّارع إلاّ قليلاً... ثُمّ ها هي دوريّة تعبر الشّارع، قادمةٌ من أوّله، من بعيدٍ بدتْ تسير على مَهَل، لا أحدَ في الطّريق سِواها، توقّفتْ... ظلّتْ جامدةً مكانَها لبضع دقائق، ترجّل منها جنديٌّ واحدٌ، بدا أنّه كان محشورًا، ويريدُ أنْ يتبوّل، فعلها بدون حياء على طرف الشّارع، عادَ إلى الدوريّة، ولم تتحرّك الدّورية كذلك... لكنّنا بقينا نراقِبها بعيونٍ يقظة. تقدّمت الدّوريّة ببطءٍ مرّة ثانية، ها هي قد صارتْ في مرمى الهدف، هل سيترجّل منها الجنود، الإصابة ستكون أدقّ لو فَعَلَها أحدُهم، ولكنّه

لم يفعل، كانتْ دقّات القلب تُعلِن عن نفسِها بهذا الصّوت القادم من طبول الترقّب العميق. سألني (يعقوب): «هل نُصوّب الآن؟ إنّها أنسبُ لحظةٍ، إنّهم في الزّاوية المناسِبة». «ولكنْ ماذا لو كان زجاج الدّوريّة ضِدّ الرّصاص؟ ستضيع محاولتنا هباءً». «لن نعدم المحاولة. أطلِقْ أنتَ أوّلاً، وسترى ما يحدث». انطلقتْ عشر رصاصاتٍ دُفعةً واحدة، سبحتْ في الهواء، سَهّل الهواء لها المرور كأنّه يقول لنا إنّه معنا، وإنّه سيجعل الأمر أسهل، والجاذبيّة؟ جاذبيّة الأرض الّتي تعرفنا؟ تعاونتْ هي الأخرى معنا فلم تُبطِّئ سرعة الرّصاصات، بل بدتْ أنّها غيّرتْ قانونَ جذبِها، فجعلت الرّصاصات تسبح دون مقاومة، ودون أنْ تحرف مسارَها ولو مليميترًا واحدًا... وها هي بالفعل، تصدم بزجاج الباب الجانبيّ الأيمن، فتكسره ثُمّ تخترقه.. لم يكنْ مُضادًّا للرّصاص إذًا وليس عليه شَبَكٌ حديديّ واقٍ، اخترقتِ الرّصاصة رأس الجنديّ الجالس في المُقدّمة، فصرخ صرخته الأخيرة، وراح دمه يثعب، وراح يتخبّط في الدم المُتدفّق، فيما دبّ الهلع في قلب السّائق، فانحرفَ بالسّيّارة يسارًا ثُمّ يمينًا، ثُمّ توقّف، وسُمِعَتْ من هنا أصوات الذّعر الهاربة من الموت... وترجّل ثلاثة جنودٍ آخرين.. فيما جاءَ دوري؛ إنّهم في مرمى الهدف، أطلقتُ سيلاً من الرّصاص، وصرختُ بيعقوب أفرغ مُشطَك بسرعة، فصار الرّصاص مطرًا منهمِرًا... سقطَ أحدُ الثّلاثة الهاربين فيما ظلّ الأوّل في كرسيّه ويبدو أنّه مات... الاثنان الهارِبان أصابتْ إحدى الرّصاصات ظهره، والرّابع وهو السّائق على ما يبدو أنّها أصابتْ إليتَه... كانتْ أصواتُهم ما تزال تملأ الفضاء من الهلع... أشرتُ إلى يعقوب أنّ هذا كافٍ لهذه اللّحظة، سوف تكون قوّة الإسناد في المنطقة خلال عشر دقائق، يجب أنْ ننسحب خلالَها دون أنْ نتركَ أثرًا.

هبطْنـا السّـطح، أُضيئـتْ نافـذةٌ في الطابـق الأوّل، الضـوء في الظّلام سيكشـفنا، سـارعْنا في الخروج مـن المكان، وفي زقـاق عنـد جِدار بيـتٍ طينـيّ، خبأْنـا الرّشّاشَـين، وانطلـقَ كلّ واحـدٍ منّـا في اتّجـاهٍ مختلـف، هتفـتُ: «نلتقـي في الصّباح عنـد ثنيّـة بـير الباشـا». أذاع العـدوّ بعـدَ سـاعةٍ أنّ اثنَـين مـن جنـوده قُتِـلا عـلى أيـدي المُخرّبـين، وأنّ اثنـين آخرَيـن أُصيبـا بجـراح، وأنّ قُـوّات الجيـش تمسـح المنطقـة بحثًـا عـن القَتَلَـة.

إنّهـا عرّابـة، وطـنُ البطـولات المخبـوءة، والكنـوز المدفونـة، ووطـن النّضـال، صورتـه الّتـي تتفـاوح في أرجـاء فلسـطين كلّهـا، فلسـطين الّتـي تعـرفُ أبناءَهـا، وتلفـظُ الغربـاء والدُّخـلاء، لا يعـرفُ فلسـطين مثلنـا، نحـن الّذيـن نجعـل مهرهـا الرّصـاص الّـذي يُعيـد الحقـوق، ويُركّـع الغُـزاة.

الحيـاة تسـير هنـا عـلى وتـيرةٍ واحـدة، الهـدوء الرّمـاديّ الّـذي يُخفـي وراءه الأسرار. العواصـف المذخـورة في ذرّة تـرابٍ لا تـكادُ تـرى، ليـسَ مـا يبـدو لـك حقيقيًّـا، ألـفُ زوبعـةٍ خلـفَ هـذا الوجـه الّـذي يتّسـم بـه الشّـارع القديـم في عرّابـة، قـاع المدينـة المُعتِـم، أزقّتهـا المَنسيّة، وحواريهـا الصّامتـة مـع أنّ كلّ شـبرٍ فيهـا يضـجّ بألـف حكايـة.

الشّـارع المُتعـرّج الّـذي تنتشر عـلى جانِبَيـه المحـلاّت والأسـواق وعربـات الباعـة والمقاهـي والوجـوه العابـرة، هنـا في مقهـى (أبـو عاكـف) كبـار السّـن يجلسـون وهـم يلعبـون النّـرد، وقرقعـة كـؤوس القهـوة والشّـاي، وصـوتُ الولـد الّـذي يصيـح بالطّلبـات وهـو يحمـل بيـده اليُمنـى المرفوعـة بجانـب رأسـه صينيّـة الكـؤوس المملـوءة بالزَّعـتر السّـاخن أو الشّـاي، ويـده الأُخـرى الّتـي تعمـل كبنـدول في رفـع كأسٍ ووضـع أخـرى، وهـو نفسُـه مـشروع مُقاتِـلٌ مـن طـرازٍ لا تعـرفُ

أنّـه يُمكـن أنْ يـصرع ثلاثـةَ جنـودٍ إلاّ إذا اختبرتَـه في الميـدان. النّـاس، الرّجـال، النّسـاء، الصّغـار، وحتّـى الأطفـال منهـم مناضِلـون مُحتَملـون، ومقاتِلـون غـير مُتوقّعـين... هـذا لا يعنـي أنّ الصّـورة الأخـرى للعمـلاء والباعـة والمُتسـلّقين ليستْ موجـودة، إنّهـا الطّـرف القاتـم مـن الصّـورة الّتـي لا تكتمـل إلاّ بهـا معًـا!

النّـرد، لُعبـة الّذيـن يـرون في الحجـر قـدرًا قادِمًـا. الأيـدي الّتـي تُشـبه الأشرعـة حـول الطّـاولات الواطِئـة المقـدودة مـن أشـجار فلسـطين العتيقـة، للمقاومـة صـورٌ كثـيرة، مَـنْ يـدري عـلى أيّ صـورةٍ يُمكـن أنْ تُباغِـتَ العـدوّ! تتراكـض أحجـار النّـرد عـلى الطّاولـة، يـرى فيهـا عجـوزٌ حياتـه الهاربـة الّتـي تُـولّي وجههـا شَـطر النّهايـات، ويـرى فيهـا صبـيّ المقهـى رؤوسَ جنـودٍ مُتدحرِجـة، ويـرى فيهـا الأب وجـوه أبنائـه الذّاهبـين إلى سـاحات القِتـال!!

إنّـه طفـلُ لم يكـنْ أحـدٌ ليأبـه لـه لـو رآه في الشّـارع، يسـير بثيـابٍ مُمزّقـة، وشـعرٍ مُلبّـد، ومسـحة وجـهٍ أغـبر، وحـذاء مفتـوق اندلـق لِسـانه حـينَ لم يُحكـم الطّفـل عليـه رِباطـه الّـذي تَقطّـع، إنّـه يـرى دوريّـة تظهـر مـن وراء البيـوت، خلفهـا الجنـود الّذيـن يحتضنـون بنادقهـم عـلى صدورهـم ويخبطـون الأرض بخطـواتٍ عسـكريّة، يركـض إلى الحائـط الّـذي يُخفيـه عـن العيـون، يُلصِـق بـه ظهـره، يهبـطُ عـلى الأرض، يلتقـط حجـرًا مـن الأرض الّتـي تعرفـه، الّتـي تحفـظُ وجهـه منـذُ أنْ سـقطَ مـن رَحِـم أمّـه، يصعـد بـه وهـو لا يـزال يُلصِـق ظهـره إلى الحائـط مُحتـكًّا بـه كقـطٍّ يتمطّـى، ثُـمّ يُصـوّب قذيفتـه بـكلّ مـا يملـك سـاعده الغَـضّ مـن قـوّة، ثُـمّ.. يسـيلُ خيـطٌ مـن الـدّم عـلى وجـه الغـازي الغريـب... يتراكـض الجنـود، ويهـربُ هـو، يدخلـون المقهـى، مـن هنـا جاءتْهـم القذيفـة، يضربـون بكعـوب

البنادق بعضَ صدور الجالسين وهم يشتمون العرب، فيما يُحافِظ كِبار السّنّ على هدوئِهم ويُتابِعون رمي أحجار النّرد كأنّ شيئًا لم يحدث!

أوّل ما خرجتُ وجدتُ حِضنَين دافِئين، حضن أمّي، وعناقِ (ريّان)، قالتْ أمّي إنّه لم يكنْ يغادر غرفتكَ طَوال السّنوات الثّلاث الّتي غِبْتَ فيها عنه في السّجن، حاولتُ أنْ أُفهِمه أنّ صاحبكَ لم يعدْ موجودًا، لكنّه ظلّ ينتظرك، كنتُ أقول له: إنّنا لا نستطيع أنْ نعرف ما تريد، فغادِر إلى الأحراش من حيثُ جِئت لتعيشَ حياتَك الأولى، ولكنّه كان يرفضُ أنْ يبرح سريرك... كان يبدو أنّه ينتظرك كلّ صباحٍ وكلّ مساء، وكان يخرجُ في الأوقات ذاتها الّتي كنتَ تخرجُ فيها في أنصاف اللّيالي كأنّكَ معه لم تفارقْه لحظة.

إنّه (رَيّان)، عُدنا إلى لغتنا المُشتركة. صارتْ له مَهمّة جليلة في خِدمة النّضال، كان يُمشّط كلّ منطقةٍ نرصدُها من أجلِ عمليّة قادمة، لا يسمح لي ولا ليعقوب أنْ ندخلها قبل أنْ يتأكّد من خلوّها من الأخطار. ألِفَ يعقوب ذلك. صارَ ينقلُ إليه رسائلي، يعقوب يسكن في بير الباشا، كنتُ أضع بعضَ المُخطّطات الخطيرة في ورقة، أكتبُها بخطّ واضح كأنّ يقيني بعدم انكِشافها أكبر من أيّ يقينٍ، أُخفيها تحتَ الطّوق الجلديّ الّذي يلفّ عنقه، وأقول له: «إنّ يعقوب ينتظرك». أُربّت على فرو عنقه، وينطلق، المسافة الّتي قد تزيدُ عن عشرة كيلومترات يقطعها في أقلّ من نصفِ ساعةٍ، يركضُ كأنّه يُسابِق الزّمن، تصل الرّسالة إلى يعقوب، يُنفّذ ما فيها من أوامر، أو يردّ عليها برسالةٍ أخرى، وينطلقُ عائِدًا إليّ... رَيّان يا رَيّان!

(٢٥)

نحنُ شعبٌ يحبّ الحياة، ولهذا يموتُ من أجلها!

قنبلة. خيرٌ من رصاصة. قنبلة موقوتة، تنوب عن وجودك، وتكون شاهدةً حين تغيب. الشّيخ عبد السّلام بدأ يعلّمنا ذلك قبل أنْ نُغادره منذُ سنواتٍ بعيدة. كان آخر ما تلقّيناه عنه. أعرفُ اليوم أنّ يده في كثيرٍ مِمّا يحدث، أنّ نَفَسَه حاضرٌ فوقَ كتلة اللّهب المُتصاعدة هنا أو هناك، أنّ روحه تقول: إنّني ما زلتُ أقاتِل من موقعي. لقد تحوّل الشّيخ إلى رمز. علّمَ العشرات على مدى ثلاثة أجيال، تطوّرتْ أدواته مع الزّمن، إلى أنْ صارَ التّفجير عن بعد أو بالرّيموت كنترول واقِعًا بعد أنْ كان حلمًا بعيد المنال.

هذه فكرةٌ جديدةٌ، قرأتُ أنّ أحدهم فعلها في عام ١٩٣٢م، حينَ كان الإنكليز يسمحون باحتِشاد اليهود المُهاجِرين على متن السّفن القادمة من منافي الأرضِ شرقِها وغَربِها، ليزرعوا خنجرهم في قلبِ بلادِنا. إنّها فكرة بسيطةٌ لكنّها نافِعة. نفّذْناها قبل ثلاثة أسابيع. اثنان منّا، أحدهم من العاملين في المستوطنات، مشى في الشّارع وهو يُشهِر مُسدّسه في الشّارع ويتظاهر بأنّه يُصوّب الرّصاص، فدبّ الذّعر في الماشين في الشّارع الرّئيسيّ، كان المُسدّس لُعبة، وكان هو يقوم بحركاتٍ تدلّ على أنّه أحمق، دوّتْ صافِرات الإنذار، صُوّبِتْ نحوه رصاصةٌ في الصدّر فسقطَ شهيدًا يسيل دمه من حوله خيطًا قانِيًا، ازداد الذُّعر في الشّارع، ألقتْ وي وي وي ي ي ي ... الّتي تزعق من صفّارات الإنذار مزيدًا من الهلع في الصّدور، دخلتْ أفواجُ المارّين إلى ملجأٍ عامّ كُنّا نعرفُ إحداثيّاته، ووقتَ

الـذّروة الّـذي يكـون فيـه اكتِظـاظُ النّـاس عنـد خروجهـم مـن العمـل في انتظـار الحافـلات.. دخـل حاخـامٌ يلبـسُ القُفطـان الأسـود، ويعتمـر القبّعـة الطّويلـة، وتتـدلّى جدائلـه عـلى كتفَيـه، ثُـمّ لمّـا لم يعـدْ في الملجـأ موطِـئ قـدم... بُـمْ... بُمممممـم... قنبلـة لم ينـجُ منهـا أحـدٌ.

جنّدتُ عشرة شُبّان على أربعة مراحل، بعضُهم من جنين، وبعضُهم جاء من قُرى القُدس ورام الله. صرتُ أقوم بما كان يقوم به الشّيخ عبد السّلام. هذه طبيعة النّضال، توالديّة، تشاركيّة، تختلفُ أساليبُها وجغرافيّتها لكنّها ذات هدفٍ واحد. من المهمّ أنْ تبتعد عن المركز حتّى تبتعد الرّصاصة المُوجّهة إليك، أو على الأقلّ تُعمّي على المصدر. الأطراف في العمليّات السّريعة الخاطفة ناجعة، وتعضد المركز. اضربْ من الجهة غير المُتوقّعة يضطربِ الرّأس. صوّبْ إلى حيثُ لم يرَ. وابتعدْ عمّا توقّع. وكُنْ سريعًا كفهد، صبورًا كضبّ، عنيدًا كجمل!

بُمْ... بُممممم.... بُم.... طارتْ نوافذ الحافلة، انحطم الزّجاج، دخلتِ الشّظايا في أقماع الرّؤوس، سالتْ لحوم الوجه، واشتعلتْ نيرانٌ في جلود المقاعد، وغَطّى دُخانٌ أسودُ على الجُثث المُتفحّمة. من أجل ضحايانا الّذين لم تجفّ دماؤهم يومًا. من أجل ترابنا الّذي سَرَقتْه الكُتل الإسمنتيّة البغيضة لمستوطناتكم. لأجل أطفالنا؛ هل يُمكن أنْ يظفروا بحياةٍ طبيعيّة حينَ يكبرون؟!

حِزامٌ ناسف. في عسقلان هذه المرّة. القنبلة أوّلاً، ثُمّ المِسمار الّذي يسمح للمادّة أنْ تنفجر، الحزام الّذي التفّ بكامله على جذعٍ من حلمٍ، على هذا الفتى الّذي كان يريدُ أنْ يحيا دون أنْ يرى جنود الاحتِلال يلوّثون الهواء الّذي يستنشقه كلّ يومٍ بمداهمةٍ أو باعتقال،

أو بمصادرةٍ، أو بتخويف... ثُمّ طار سقف الباص، وانفتَح السّقف على السّماء، ولم تنفع كلّ خراطيم الماء أنْ توقف النّار المُستعِرة. ما نسينا. قتلاكم شهودُ احتِلالكم، وشهداؤنا شُهودُ استِقلالنا.

لن أتوقّف. العمليّات الكبرى كان عليها أنْ تحدثَ كلّ ثلاثة أشهر أو أربعة. أيّام الشّقة (١١) قد علّمتْني الكثير من أجل هذه اللّحظات الّتي تنظر فيها إلينا عيون الأمّهات الثّاكِلات، ورموش الصّبايا الكحيلات، وجفون الأطفال الأبرياء: مَنْ يُنقذنا من هذا الموت الأسود، ومن هذا السّرطان الّذي لا يشبع؟!

لم أتوقّفْ. لم يكنْ مُمكِنًا أنْ تنجحَ كلّ عمليّة كما نشتهي، هناك بعضُ الثّغرات، وهناكَ بعضُ الخيوط الّتي قد تقودُ إلينا، وحينَها نصبح هدفًا لهم، نُصبح على قائمة المطلوبين الخَطِرين. لا بأس. هكذا تسير الأمور. مَنْ قال إنّني سأستمرّ في هذه المُقاومة دون أنْ ينكشفَ جزءُ من ذلك السّر، الّذين ارتقتْ أرواحهم إلى السّماء ماتت أسرارُنا معهم. أمّا الأحياء، فالخوفُ هو أنْ تُقال كلمة هنا، فتجدَ أذنًا هناك ترصّد، وعينًا عميلةً فيقع المحذور والمحظور. لكنّها حياتُنا، وأسلوب نِضالنا، ولن تثنينا مَخاطِرُه الجَمّة عن مواصلة السّير فيه.

العمليّات الصّغيرة كنتُ أنفّذها دون مُساعدةٍ أحيانًا، إنّني قَنّاص، ومنذُ أيّام المدرسة كنتُ أعرفُ كيفَ أختار مَنْ يموت. ولِذا؛ لم يتوقّف خَطّ الرّصاص منذُ أوّل يومٍ خرجتُ فيه من السّجن قبل سنتَين إلى اليوم. هذا الخطّ يُتقنه الكثيرون مثلي، لم أكنْ وحيدًا فيه، ولا بِدعًا من أهل النّضال، كان هناك المِئات مِمّن احترفوا التّصويب من فوق الأسطح العجوزة أو الجُدران المُتشقِّقة، أو النّوافذ المُعتِمة...

نحنُ شعبٌ لا يُمكن أنْ يقبل بمُحتلّ لولا بعضُ باعته، ولن يرى وجهه القبيح جميلاً ولو زيّنوه بمساحيق التّجميل كلّها. نحنُ شعبٌ يحبّ الحياة، ولهذا يموتُ من أجلها!

ربّما كان يعقوب أقدر منّي على التّصويب، هكذا كنتُ أرى عينَيه الواسِعَتَين تستطيعان أنْ تَرَيا أوسع في منطقة الهدف، ساعِدُه هو الآخر أقوى، لم يكنْ بيننا فارقٌ كبيرٌ في العمر، ولكنّنا لا نعدّ أعمارَنا إلاّ بأيّامنا الّتي مسحْنا فيها على جراح فلسطين النّازفة.

الحافِلات هدفٌ مكشوفٌ أكثر من سيّارات الأجرة، يُمكن في سيّارة الأجرة أنْ تصنع بها ما كانوا يصنعونه بسيّاراتنا قبل أنْ يقوم كيانهم الغاصب على أرضِنا. عملتُ ميكانيكيًّا في محلٍّ تأتيه سيّارات الأجرة الّتي تقلّ الصّهاينة من شعفاط إلى القدس. بقيتُ أعمل لثلاثة أشهر في الكراج، أتقن اللّغة العبريّة، وانتحلتُ اسم (كريم تايه)، مع (ريّان) الّذي لم أُغيّر اسمه، وراقبتُ حركة السّيّارات، واخترتُ في الشّهر الرّابع إحداها، عرفتُ طَوال فترة المراقبة الوقتَ المُناسِب، جاءت السّيارة الهدف لتغيير الزّيت، أظهرتُ الاهتِمام الكامل بها وبصاحبها، وسألتُه عن الخطّ الّذي يعمل عليه، وأنا أعرفهُ بالطّبع ولكنْ من أجل أنْ يستأنس بي، وحينَ غادرَ مسرورًا كنتُ قد زرعتُ القنبلة في أسفل السّيّارة، إنّني أُعيدُ حوادث عقد الثّلاثينيّات والأربعينيّات من هذا القرن، حينَ كان الصّهاينة يزرعون هذه القنابل في سيّاراتنا ويقتلوننا بتفجيرها، أنْ يُرشِدك العدوّ إلى وسيلته الّتي حاربكَ بها لتحاربَه بدورك، فتلك حِكمة.

كان بها أربعةُ صهاينة. إذا أردتم أنْ تحزنوا عليهم فاحزنوا على أطفالنا الّذين يُذبّحون كلّ يومٍ. إذا أردتْم أنْ أَكُفَّ عن هذا فقولوا إذا

كان في أفواهكم بقيّة من لسانٍ لهؤلاء الغاصبين القَتَلة: «عُودوا من حيثُ أتيتم. نحنُ في بلادنا، لم نقتلْ أحدًا، ولم نحتلّ شبرًا من بلادكم، أنتم الّذين زرعتُم كلّ هذا الحقد الأسود، وسرقتُم كلّ شيءٍ». بُمْ... بُمممممم.... وتحوّلوا إلى أشلاء. مَنْ جاء بكم لبلادنا قائِلاً لكم: «ستذهبون إلى أرض الميعاد... إلى الجنّة». ها هي الجنّة الّتي وُعِدتم بها.

إنّها مستوطنة (عيناف)، اخترتُها أنا ويعقوب لأنّها قليلة العدد، بعيدةٌ عن الأعين، لم يُفكّرْ فيها أحدٌ من قبلنا، وكروم العنب المحيطة بها تجعلنا نبتهج كلّما ولّينا وجهنا نحوها، وأكثرُ سُكّانها من أصحاب الجدائل الطّويلة، ولأنّنا قادرون على التّسلّل إليها أسهل من أيّ مستوطنةٍ أخرى.

مسحَ (ريّان) المنطقة، في اللّيلة العاشرة، فتح فَكَّيه، ورفَع لِسانَه حتّى مَسّ أرنبة أنفِه، إنّه يقول لنا: الطّريق مُهيّأة. مررتُ بجانبه في منتصف اللّيل، وأنا ألبس ثيابًا سوداء مُتشقّقة تُشبه تشقّق أوراق الشّجر والكروم، تسلّلتُ من الجهة الغربيّة، فيما تسلّل يعقوب من الجهة الشّماليّة: «نزرع أربعة قنابل في أربع سيّارات نختارُها بحيثُ تكون ضمن أكبر تكتّل لسيّارات أخرى مُصطفّة، أو من تلك السّيّارات الصّافّة بشكلٍ أقرب إلى جدران البيوت». كُنّا نريدُ بذلك أنْ تنفجر بالسّائق وتُلحق الأضرار بالسّيّارات الأخرى المُتجمّعة حولها، أو تُصيب شظاياها - إذا كُنّا محظوظين - نوافذ البيوت النّائمة بمن فيها. كُنّا نفتح السّيّارة بعد أنْ نُعطّل جهاز الإنذار، ننحني بهدوء، ونزرع القنبلة تحتَ مقعد السّائق، زرعنا القنابل الأربعة بسهولة. كانتْ مؤقّتة مع أسلاك تشغيل السّيّارة، بمجرّد أنْ يُدير مَنْ يركبها المفتاح بُمْ... بُمممم كبيرة.

انسحبْنا ببطء وبهدوء تامّ. كان علينا أنْ نلتقي في النّقطة الّتي ينتظرنا فيها (ريّان)، لم نُصدّقْ أنّنا خرجْنا دون أيّة عوائق. لمعتْ عينا (ريّان) وهو يستقبلنا، كان يبدو أنّه أشدّ فرحًا مِنّا بذلك. عُدتُ إلى (عرّابة) معه، وعاد (يعقوب) إلى دير الباشا. نمنا كأحسن ما يكون نومٌ هانِئ.

في الصّباح. قالتْ إذاعة العدوّ: «إنّ عددًا من المُخرّبين اقتحموا مستوطنة (عيناف) في اللّيل، وزرعوا قنابل شديدة الانفِجار في سيّارات المستوطنة، وأنّ ثلاثة قتلى سقطوا فيما أُصيب خمسةٌ آخَرون. وأنّ البحثَ جارٍ عنهم». غير أنّ الصّورة الّتي عَرَضَتْها القناة العبريّة الثّانية المأخوذة من كاميرات المراقبة قد أظهرتْ طرفًا من وجوهنا، ومع أنّ وجوهنا المُموّهة لم تظهر تمامًا، وأنّ اللّيل قد ساعدَنا على شيءٍ من تمويهها، إلاّ أنّ هذا الشّريط المُصوّر صار وسيلةً قويّة للقبض علينا. ولن يطول الوقت حتّى يستطيع خبراء التّحليل أنْ يرسموا صورةً واضِحة لنا، وخلال أيّامٍ قليلةٍ سنكون مكشوفين تمامًا!

إنّ هذا البلد المُقدّس باعَه الجيلُ المُدنّس، السّاسة الّذين فوّضوا أنفسهم أنْ يتحكّموا بمصيره، كلّما جلسوا مع الغاصب على طاولةٍ من طاولات الذّلّ، ووقّعوا على مراسيم الذّبح، جاءهم طفلٌ صغيرٌ من مُخيّمٍ مُهمَّش، وأنزل بِنطالَه، وأظهر عورتَه، وبال على تلك الاتّفاقيّات، ماذا يُمكن أنْ يُساوي السّاسة ذوي الياقات المُشّاة وربطات العنق الزّرقاء والوجوه الشّمعيّة أمام طفلٍ أكل الجُدريّ وجهه، وترك فيه ندوبًا لا تُمحَى، ولكنّه يعرفُ الحقّ والحقيقة أكثر منهم؟! إنّ جيلَ الهزيمة، وجيل البائعين سوفَ يسحقُه هذا الجيل

الّذي لا يُقرّ للغاصب بذرّة رملٍ واحدة. متى يفهم أصحاب القصور أنّ الّذين ماتوا من أجل ما باعوا يلعنونهم في القُبور!

كيفَ يُمكن أنْ تُباعَ بلادي مقابل وهم؟! مقابل وعود فارغة؟! متى كان الذّئب صديقًا؟! متى كانت الغربان خيرًا؟! متى كان الجراد خصبًا؟! متى كانت الفِئران سادةً؟! ومتى كانتْ وعود المحتلّ - أيّا كان هذا المحتلّ - صادقة؟! إنّها جريمةٌ لا تُغتَفر أنْ تُصدّق خزعبلاتٍ مثل الأرض مقابل السّلام، أو الأمن مقابل التوقيع. لقد سرقوا هذه البلاد بقوّة السّلاح، بالطّائرات، بالنّابالم، براجِمات الصّواريخ، وبخيانة القريب قبل البعيد، ولن تعود بغير ما سُرِقتْ به، وأمام لغة السّلاح فلْتخرسْ كلّ الألسنة.

أعلن الجيش الإسرائيليّ أنّ القبض عليّ وعلى (يعقوب) يُساوي أمن الدّولة بأكملها. صِرْنا في عِداد المُطارَدين! أهلاً بكم أيّتها الجرذان البليدة يسرّني أنْ ألعب معكم على طريقتي!!

(٢٦)

السّدّ والضّفدع

قلتُ ليعقوب: «اخترْ طريقتَك في التّخفّي، وجودُ أحدنا مع الآخَر قد يُسهّل على العدوّ الإمساكَ بنا، لن نتخفّى معًا، خطأ واحدٌ أَهْونُ من خطأين. ستمضي في طريقٍ، وسأمضي في أُخرى حتّى نرى ما يأتي به الله».

بدأ يعقوبُ مرحلة المُطاردة تحتَ قنطرةٍ قديمةٍ، ارتِفاعُها سبعة أمتار، وعرضُها أكثر من خمسةِ أمتار، إنّها ليستْ قنطرةً واحدةً، كانتْ هنا قناطرُ عدّة، لكنّها سُوّيتْ بالأرض في حرب النّكبة، وبقيتْ هذه القنطرةُ شاهدةً على زمن الموت، وربّما بُنِيت في العهد المملوكيّ، ولم يبقَ منها إلاّ أجزاء يُمكن أنْ تُخفِي مُطارَدًا مثل يعقوب. لم يكنْ الاحتِلال قد عرفَنا تمامًا.

القنطرةُ مهجورة، وكانتْ هناك قناةٌ تمرّ من قنطرةٍ بعيدةٍ عنها قليلاً، لكنّ قناة الماء جفّ كثيرٌ منها مع الزّمن، رحل الماء وبقيت الرّائحة؛ رائحة العفونة والسّبخات، ساعدَ هذا على أنْ تبتعد الأبنية من المكان، فلم يعدْ أحدٌ يُغامرُ بالبِناء هنا. ثُمّ مع اللّيالي وحكايات الجدّات للأبناء الّذين شَهِدوا الهجرة الأولى امتلأت القنطرة بالأساطير: إنّها مسكونةٌ بالعفاريت... لا يمرّ بها غيرُ الكلاب الضّالّة، ولا تأنس بها غيرُ الحيّات السّامّة، وكلّ ما ينبتُ حولها من نباتٍ قاتِلٌ بمجرّد أنْ تلمسه.. ساعدتْ هذه المَرويّات يعقوب في البداية على أنْ يتّخذها بيتًا له يبتعد عن العيون الّتي تطارده.

المكافآت. الإغراءات. النّفوس المريضة. والوقوع بسبب كلمة. هذا أصعبُ ما يُواجهه المُطارَدون. غير أنّ الاحتِلال - للأمانة - ليس من السّهل أنْ يجدَ عميلاً يدلّه علينا. غير أنّه - على الجانب الآخَر - لم يكنْ هناك أخطر من هؤلاء العُملاء في القبض علينا. فلا طائرات التّجسّس، ولا كلاب الأثر، ولا التّفتيش المُستمرّ للمنازل، ولا التّهديد بالموت، ولا التّلويح باعتِقال الأمّ أو الأب أو أحد الأقارب قد يُشكّل خطرًا علينا مثل خطر العميل الّذي يسقط بإغراء من مالٍ أو جنِس. ولِذا كُنّا نخافهم أكثر مِمّا نخاف العدوّ.

وأنا؟ اختبأتُ في أحراشِ يعبد أنا وريّان. تلك أُولى مقامات التّجلّي. وهنا في هذه الأَجَمات الكثيفات الحبيبات بدأتِ الشّرارة الأولى. كنتُ أحسنَ حَظًّا من يعقوب لوجود ريّان معي.

وفكّرتُ ذات مرّة أنّ تاريخي سيكون قاتِلاً! إنّني بدأتُ هنا، ولا بُدّ أنّ أحدًا من الّذين اعْتُقِلوا من أرقامنا الغامضة في مسيرتنا الطّويلة عبر أكثر من ستّ سنوات قد اعترف، فجعل العدوّ من هذه الأحراش نقطةً لصيدِنا. لَسَعني هذا الخاطر، ولكنّني التفتُّ إلى رَيّان، إنّه لم يكنْ يسمح لي بأنْ أُقيم في المكان أكثرَ من ساعةٍ إلاّ إذا فتحَ فكَّيه، ولعقَ بلسانه أرنبة أنفه. لكنْ إلى متى سيستمرّ هذا الأمان؟! إنّها لحظَاتٌ صعبةٌ بلا شكّ؛ أنْ تعيشَ على القلق من القلق نفسِه. وأنْ تخاف مِمّا يأتي به خوفُ الآخرين، وأنْ تُؤتَى مِن مَأمنك!

أنْ تعيشَ مُطارَدًا يعني أنْ تُصبِحَ إنسانًا آخَر، أنْ تتحوّل إلى شَبَحٍ رَضِي بحياة الجوع، والبرد، والخوف، والموت... والحنين الذّابح... أعظمُ ما يُؤرجِحك - فتشعر بأنّكَ لستَ هنا ولا هنا وأنّك لم تعدْ إنسانًا - هو هذا الحنين؛ الحنين إلى كلّ شيءٍ، حنين اللّمسات

قبـل حنـين الهَمَسـات، إلى لمسـةِ الأمّ في الصّبـاح توقظـك، إلى لمسـة كأس الشّـاي السّـاخنة تُدفِئـك، إلى لمسـةِ فـروة عنـق ريّـان تُطمئِنـك... ثُـمّ إلى تلـك الهَمَسـات... همسـةُ الأمّ في أذنيـك: الله معـك. همسـةُ الحبيبـة في قلبـك: قلبـي معـك. همسـةُ الغايـة في رِئتَيـك: لسـتَ وحيـدًا... ثُـمّ مـاذا يُمكـن أنْ يفعـل الإنسـان لكـي يُطفِـئ جـذوة الحنـين المُتّقـدة هـذه؟! لا شيء. لا شيءَ ألبتّـة!!

قلـتُ ليعقـوب قبـل أنْ يذهـب كلّ واحـدٍ منّـا في طريـق: «الرّتابـة قاتِلـة». نظـرَ إليّ كأنّـه لم يفهـم. أردفـتُ: «سـتعيشُ مـع طـول التّخفّـي رتابـةً في الوقـت، هـذه الرّتابـة سـتدفعُكَ إلى أنْ تَقِـلّ حالـةُ التّرصّـد والتّأهّـب لديـك، إنْ حـدثَ ذلـك فتلـك أوّل الهاويـة، عليـكَ أنْ ترفـع الحذر إلى أعلى وتيرةٍ عندها، ولا تُصدّق الزّمن مهما بدا لكَ آمِنًا. إنّما غرقـتْ مملكـةُ سـبأ لضفـدعٍ صغـيرةٍ نقبـت مكانهـا مـن السّـدّ». ردّ وهـو يشـدّ عـلى يـديّ: «كُـنْ واثِقًـا». شـددتُ أكثـر عـلى تلـك اليـد، وهتفـت: «واحـذرْ قاتِـلاً آخـر غـير الرّتابـة». صَعّـد فِيّ النّظـر مُتسـائِلاً، فقلـت: «الهَذَيـان، أنْ تتخايـل لـكَ الأشـباح، أنْ تتحـرّك الأشـياء أمـام ناظريـك، أنْ تطـير حجـارة، أو تسـقط غيمـة، أو يقـومَ ميّـتٌ مـن قـبره، كلّ هـذا يُمكـن أنْ يُهيِّئـه لـكَ عقلُـك في رحلـة المُطـاردة لطـول عُزلتـه، مـا لم...». وصمـتّ. فنظر في عينَـيّ يسـتحثّني، فأردفْـتُ وأنـا أُشـدّد على الكلـمات: «مـا لم تُعلّـقْ قلبَـك بـالله، ستنهشـه الظّنـون». قضيـتُ تلـك اللّيلـة معـه في القنطرة، تحادثْنـا طويـلاً، كأنّ حرماننـا مـن الحديـث في المستقبل سيطول. رويـتُ لـه مِمّـا حدّثني بـه (صالـح) في السّـجن، قلـتُ لـه يجب أنْ تحسـب عـشر خطـوات إلى الأمـام، مـا يعنـي أنْ تبنـي عـلى كلّ خطـوةٍ مـا يليهـا، إنّ واحِـدًا مِمّـن كان يـأوي مُطـارَدًا مـع عائلتـه طلـبَ منـه المُطـارَد أنْ يذهـبَ إلى الصّيدليّـة فيأتيـه بعلبـة حليـبٍ للرُّضّـع، استغرب صاحـب

الصّيدليّة، سأل الزّبون الّذي يعرفُه بخُبث: «أنتَ عَزَب؛ هل تزوّجتَ من ورائِنا؟!». أخذَ العلبة وخرج. خمّن الصّيدليّ أنّ زبونه هذا يأوي مُطارَدًا، حاكَ الخاطر في صدره، تخيّل ما يُمكن أنْ يحدثَ له لو حقّقَ معه الجيش الإسرائيليّ بتُهمة التّستّر على هارب، لم تكنْ هناك من مُكافأة، ولم يكنْ مُتأكّدًا من أنّ ما فكّر به صحيح، لكنّه قرّر أنْ يُخبِرَ الجيش، حينَ عادَ الزّبون إلى بيته، سأله المُطارَد: ماذا قال لكَ الصّيدليّ؟ «هل تعرفُ أنّ حوارًا دار بيننا؟». «لا بُدّ أنّكَ كلّمْتَه. ربّ كلمةٍ خرجتْ منكَ أو منه فيها القاصِمة». ردّ عليه صاحب البيت: «سألني إنْ كنتُ قد تزوّجتُ بالسّرّ؟!». شهقَ المُطارَد، وقبل أنْ تمضي نصفُ ساعةٍ كانَ قد غادر البيت. جاءتْ قوّات الاحتِلال مساء ذلك اليوم، قال لهم صاحب البيت: «علبة الحليب هذه للقِطّة الّتي أُربّيها في البيت، منذُ أيّام لم تأكلْ، ففكرّتُ أنّ خيرَ ما أُنقِذ به حياتَها الحليب». تنهدّا. الحذر يجب أنْ يكون ثلاثيّ الأبعاد، بل يجب أنْ يكون سُداسيًّا.

صاحبُ شُقّة آخَر اشترى صدر كنافة، يعرفُ الحلوائيّ أنّ هذا الّذي اشترى صدر الكنافة يعيشُ وحده، فلمنْ هذا الصّدر؟! لا بُدّ أنّه يأوي مجموعةً من المُطارَدين الّذين يحتفلون بنجاح عمليّة ما، سوفَ تقع المصائب على رأسِه إنْ لم يُبلّغ، والاحتياط واجب.

خبطَ أحدُ الجنود العشرين الّذين اقتحموا المنزل بابَه. فتحَ له صاحب البيت: «ماذا تريد؟!». راحَ الجُنديّ ينظر من تحت رجليّ صاحب البيت ومن فوق كتفه: «مَنْ تُؤوي في البيت؟ هل هناك مُخرّبون». قفزتْ طفلةٌ صغيرة في وجهه: مَنْ هذا يا خالي؟». صوتُ فرحٍ نسائيّ في الدّاخل. ردّ عليه صاحب البيت: «انقلع من هون يا

كلب». وصفق الباب في وجهه. كان يحتفل بتفوّق ابنةِ أختهِ الكُبرى في الثّانويّة العامّة.

سألتُ (يعقوب) في ذلك اليوم الأخير الّذي اجتمعْنا فيه قبل أنْ نفترقَ إلى أجلٍ غير مُسمًّى: «هل تُعاني رُهابًا من نوعٍ ما؟». استغرب سؤالي: «ماذا تعني؟». «أعني هل تخاف من المُرتفعات مثلاً، أو الأماكن الضّيّقة، أو النّظر من النّوافذ، أو إغلاق السّتائر، أو النّظافة الزّائدة...؟». «لا... لا... لِمَ تسأل ذلك؟». «لأنّ حياتنا في المرحلة القادمة سيكون فيها مُرتفَعات، وسيكون فيها نوافذ مُغلَقة أو مفتوحة... سيكون فيها كلّ شيءٍ». «لا، اطمئنّ ليس لديّ رُهابٌ إلاّ من أنْ يكون صيدُنا سهلاً. ولكنْ لماذا تسأل هذه الأسئلة في ليلتنا الأخيرة؟!». «ستضحك لو أخبرتُك. أو ستجدُ ما سأقصّه عليك غريبًا. أحد المُطارَدين كان عنده رُهاب القطط، ولمّا عرفوا مكان الشّقّة الّتي يُقيم فيها، كسروا باب الشّقّة، وأدخلوا عليه فوجًا من القطط، فسلّم نفسَه على الفور. ثُمّ بدؤوا معه التّحقيق. واغتالوه في الشّقّة بعدَ ساعتَين، وادَّعوا أنّه قاومهم ولم يستسلم!!».

شوَيْنا يومَها ثعلبًا صِدْناه. سألني يعقوب: «أليسَ لحمُه حرامًا؟!». أجبتُه: «أتسأل بعدَ أنْ شويناه، وصار نِصفُه في بطننا». ضحك: «شعرتُ أنّ قدمه ضربتْ جِدار معدتي، وصوتُه يقول لي: لماذا أكلْتَني وأنا في دِينكَ حرام». «نحنُ شافعيّة يا يعقوب، لحمُ الثّعلب عندنا حلالٌ». وضحكتُ مُردِفًا: «ولْيكنْ حرامًا، كيفَ كُنّا سنقضي هذه اللّيلة، نحنُ منذُ يومَين لم نأكلْ شيئًا؟!».

اضطجعنا على ظهرنا، بدتْ قُبّة السّماء الكُحليّة الغامقة كأنّها تحنو علينا، النّجوم اللاّمعة تضحك، والغيوم المُسافرة تقول: مَنْ

يلحقُ بي؟! استعدتُ معه أساليب تخفّي يحيى عيّاش: «إنّه مُلهِم». «هو كذلك». «نتعلّم مِمّن سبقَنا، إنّ عمليّة التّخفّي، والإفلات من الفَخّ المنصوب حتّى في الهواء خبرةٌ مُتراكِمة».

حينَ انتصفَ اللّيل، أو انهدّ ثهلانُه، فرحلتْ نجومه، كأنّه يُشعرنا بأنّ الرّحيل قد آن، راجعتُ معه الوصايا العامّة: «لا تتحدّث مع أكثر من شخصٍ واحدٍ مهما كانت الظّروف، ولا يَكُنِ الحديثُ معه أكثر من دقيقتَين أو ثلاثٍ. لا تستخدم الهاتف الخلويّ إلاّ في الضّرورة، وبعدَ استخدامه غَيِّرِ الشّريحة والبطّاريّة، إذا تعذّر ذلك فتخلّصْ منه بكسره أو بإغراقه في الماء. إذا شككتَ في حركةٍ أو في المكانِ نفسِه فغيّرْه على الفور. صوتُ الأمّ حاولْ أنْ تتخيّله، ربّما لن تتمكّن من سَماعه لسنوات... ثُمّ اجعلْ يقينَك يغلبُ شَكّك، وعزيمتَك تغلبُ راحتك، وأملكَ يغلبُ يأسَك، وصبرك يغلبُ عجزَك. والمُعوَّل عليه طُول النَّفَس، وعلى الله التَّكُلان».

وقفْنا على أرجلنا، نظرتُ في عينَيه، ودمعةٌ حائرة في المُؤَق تحاول الإفلات: «وصيّة أخيرة؛ نحنُ غيرُ موجودين، لقد اختفينا حتّى عن أنفسِنا. لن يكون لنا من أثرٍ إلاّ في العمليّات الّتي سنستمرّ في القِيام بها».

عانقتُه كأنّه غريبٌ، غريبٌ لم ألتِقه يومًا، ومضى.

(٢٧)

البَشَرُ لا أَمَانَ لهم

ماذا في اللّيل غيرُ السّواد، وماذا في الطّريق غيرُ الموت، وماذا في البُعد غيرُ الألم... ثُمّ ماذا في القلبِ بعد هذا كلّه غيرُ الأمل؟! وحدي هنا، لولا (ريّان) لما احتملتُ كلّ هذا، لكنّني إذا صبرتُ هل يصبر هو؟ كم لديه من المشاعر ليبوح بها: إنّني لم أعدْ أحتمل، وإنّني سوفَ أستسلمُ في النّهاية؟

مكثتُ في أحراش يعبد حتّى الآن شهرًا بكامله، لا أرى أحدًا ولا يراني أحدٌ، آكل أنا وريّان من خَشاش الأرض، يُصبح التّخفّي عدُوًّا لك، عدُوًّا لكلّ جارحةٍ فيك، الأعداء كثيرون؛ الجوع، والخوف، والبرد، والظّلام، والتّرقّب، والهذيان، والانتِظار، والأمل نفسُه يُصبِح عدوًّا هو الآخَر، إنّه يجعلك تشكّ في كلّ شيءٍ حتّى في نَبَضات قلبِك، يجعلك تصحو في منتصف اللّيل لأنّه خُيِّلَ إليكَ أنّكَ تسمع حسيسًا في الحُلم، تستيقظ على ضوء النّجوم السّاهِية، هل تدري النّجوم بما يعتمل في الأعماق؟ لماذا هي ساكِنة وبليدة وبارِدة إلى هذا الحدّ؟ لماذا تسخر منّي كأنّ عليّ أنْ أطيع حَدْسَها القاتل في اللاّمُبالاة؟!

إنّ أعداءَك وأنتَ مُطارَدٌ كثيرون، لا يُمكنُ حَصْرُهم، ومع أنّه يُمكن التّغلّب عليهم جميعًا أو التّعايشُ معهم، إلاّ أنّ عَدوًّا واحِدًا يبدو بسيطًا هو أصعب هؤلاء الأعداء وألدّهم؛ إنّه الحنين، والحنين يضيق عن ألفِ وجهٍ، إلاّ أنّه ينحصر في أنْ ترى وجهَ أمّك للحظةٍ

خاطِفة، ولو كانتْ أقلّ من مرور شهابٍ سانِحٍ في ليلةٍ مُدلهمّة... آه؛ هل يُمكنني أنْ أقتل هذا الحنين وأستريح منه إلى الأبد؟!

إنّه صوتُ أقدامٍ خفيفة، تلفتُّ حولي مذعورًا، أيّ أقدام هذه؟ أهو رَيّان؟ كلاّ يُفترَض بريّان أنْ يكون هنا، فأين اختفى؟! أصختُ السّمع، إنّها أقدامُ حيوان؟ هل يكون كلبًا أمْ قِطّة أم ذِئبًا أم أرنبًا أم جُرَذًا أمْ إنسانًا... أم ماذا؟ أين أنتَ يا ريّان؟ أين أنتَ أيّها اللّعين؟ انتصبتْ أذنايَ رادارًا تلتقطُ مصدر الصّوت، إنّه من هذه الجهة، الجهة الشّرقيّة. ركّزتُ السّمع وأنا لا أزال مُمدّدًا على الأرض، خِفتُ إنْ وقفتُ على قدمَيّ أنْ أُنبّه القادم المجهول إلى موضعي فأقع في الفخّ. هل تكون هذه كلاب الأثر أطلقها الصّهاينة من أجل أنْ تقتفي أثري؟! اللّيل دامس، والبصر طامس، ركّزتُ النّظر لأرى، فلم أرَ شيئًا، لعنتُ الظّلام في سِرّي، إنّه حجاب، كم أنا مُحتاجٌ لخيطِ نورٍ يُريني ولو طرفًا من هذا الكائن الّذي يقترب نحوي، غير أنّ القمر كان مُحاقًا في تلك اللّيلة، وحتّى النّجوم الّتي كانتْ تتلألأ في أكثر اللّيالي السّابقة خلتُ أنّها انطفأت، وغارتْ في قُبّة السّماء. لماذا يتضافر الجنون على محاصرتي؟! الصّوت يقترب، والأقدام تمشي الهُوينى كأنّها غيرُ خائفة وتعرفُ ما تريدُ، فجأةً توقّف الصّوت. ماذا؟ هل يتلاعبُ هذا القادم بي؟ أينَ أنتَ يا رَيّان؟! أُصغي إلى المصدر أكثر، إنْ توقّفتِ الأقدام فلا بُدّ أنْ أسمع صوتَ أنفاسِ هذا القادم، غير أنّني لم أسمع سِوى صوتِ أنفاسي، كتمتُها من أجل أنْ أسمعَ نَفَسَه، غير أنّني لم أسمع شيئًا، كدتُ أختنق قبل أنْ أسمع نأمة، أطلقتُ كُتلة الهواء المحبوسة في رِئَتَيّ من أجل أنْ أستعيد رُوحي قبل أنْ أختنق، فتشكلتْ ضبابًا من الهواء السّاخن أمامي، فزادتْ سوادَ اللّيل سوادًا. بسرعةٍ فكّرتُ في أنّ بقائي على هذه الحالة سوف يجعلني صيدًا سَهْلاً،

وقفتُ على أطراف أصابعي، وبِخفَّةٍ تسلّقتُ أوّل شجرةٍ كانتْ قريبةً منّي، وفي غضون ثوانٍ، كنتُ قد صعدتُ إلى أعلاها، ورُحتُ أنظر إلى الأسفل من موقعي العالي، غير أنّ الظّلام لم يُتِحْ لي أنْ أرى حتّى كفّي لو أنّني فردْتُها أمام ناظِرَيّ، بقيتُ مُترقّبًا ما يُمكن أنْ يحدث، غير أنّ الصّوتَ انقطَع، ولم يكنْ بإمكاني أنْ ألحظَ أيّة حركةٍ أخرى، هَبّتْ نسائِمُ خفيفة فحرّكتْ بعضَ الأوراق في جذوع الشّجرة من حولي فاضطربتْ أوصالي، وخفق قلبي، ابتسمتُ لمّا اكتشفتُ أنّني أسمعُ كلّ هذا، كانتْ أذناي في اللّيل البهيم تنوبان عن عينَيّ، لا بُدّ أنْ أُدرّبهما على المزيد حتّى أسمَعَ كلّ ما يتحرّك ولو كان نملة، أرخيتُ رأسي على الجذع الّذي أُقعي عليه، ورُحتُ أحاول أنْ أسمع المزيد، خُيّل إلَيّ أنّ نملاً بالفِعل يتحرّك على الغُصن، وضعتُ إصبعي على موضع الصّوت فأحسستُ بدبيب النّمل عليه، النّمل يسير على أصابعي! هل أنا أحلم أمّ أنّها الحقيقة، لا يُمكن أنْ أثق بمشيها إنْ كان حقيقيًّا أم لا إلاّ إذا فعلتُ شيئًا آخر، فكّرتُ.... أمسكتُ بنملةٍ، وضعتُها على ظفرِ إبهامي وهرستُها بمساعدة إبهامي الآخر، فسمعتُ صوتَ هرْسِها جَلِيًّا، ابتسمتُ أكثر، لا بُدّ أنّ أذني أصبحتْ أكثر حساسيّة للصّوت من أذنَي رَيّان... أينَ أنتَ أيّها الكلب؟!

مرّ زمنُ الطّمأنينة، هَدَأَتْ أنفاسي وانتظمتْ، ثُمّ في لحظةٍ لا يُمكن للمرء دَفْعُها مهما امتلكَ من الحِرص تعبتُ، ارتختْ أعصابي المُرهقَة، ودلّيْتُ يَدَيّ ورِجلَيّ منْ فوقِ الغُصن الغليظ، ونِمتُ كما ينام الفَهْد!!

أيّامي تمرّ في أحراش يعبد مرور القَطا، منذُ ثلاثة أشهر لم أُكلّم أحدًا، لولا رَيّان الكلب، لتحوّل صوتي إلى فحيح أفعى، يفقد المرء

صوتَه مع الزّمن إذا لم يقلْ، كيفَ يُنسَى الصّوت؟ كيفَ يُمكن أنْ يكون التّوقّف عن الكلام أشدّ ألمًا من نَزْع اللّسان من الفم بكُلاّبٍ حديديّ؟!

مع الزّمن صِرتُ أميّز الطّيور من أصواتها، في الشّهر الخامس من التّخفّي، ميّزتُ أكثر من مِئةِ نوعٍ من الطّيور الّتي تسكنُ هذه الأحراش، صِرتُ أعرفُ الأنواع الّتي تُصدر تلك الأصوات في الصّباح من الّتي تُصدِرها في المغيب من النّوع الّذي يُصدِره في اللّيل. صادقتُ البُوم، خِلتُ أنّ صوتي في الصّمت صار نُسخةً من صوتِها، صار عليّ لِزامًا أنْ أتكلّم معها، حَطّتْ واحدةٌ منها على كتفي، أعطيتُ لها اسمًا، اسمُك (الغريبة) منذُ اليوم، سألتُها: «من أينَ أتيتِ؟». قالتْ: «من بيوت البشر». «فلماذا هجرتِها؟!». «البشرُ لا أمانَ لهم». «هل صحيحٌ أنّك تعيشين في البيوت المهدومة؟». «أبكي على مَنْ رَحَل». «فلماذا يعدّون صوتَكِ نذيرَ شُؤم؟». «للبشر حماقاتُهم». «فهل إذا صحتِ ماتَ أحدُهم؟». «لا يملكُ الموتَ إلاّ رَبُّ الموت. ما أكذب البشر يا محمود!».

غيّرتُ موضعي الّذي بدأتُه قبل بضعة أشهر أكثر من عشر مرّات. رافقتْني (الغريبة) في كلّ موضعٍ. صارتْ تأتيني بالأخبار: «أُمّك تسأل عنك». أبعثُ لها برسالةٍ لتُطَمئِنهم عنّي. تعودُ بعدِ ليلةٍ قائلة: «لقد تشاءَم أهلُكَ بي». «لم تُحسِني القول، ولم تُبلّغي السّلام كما ينبغي». «بلى، غير أنّ أخاك قذفني بحجرٍ كدتُ أموت بسببه لولا أنّني طِرتُ بعيدًا عنه قبل أنْ يُصيبني». «دَعْكِ من أهلي. أريدُكِ أنْ تأتيني بأخبار يعقوب». «ولكنْ أينَ يتخفّى هو الآخر؟». «تحتَ القنطرة». عادتْ من ليلتها لتقول لي: «ليسَ تحتَ القنطرة أحدٌ، لقد غيّرَ مكان اختِبائه». «ابحثي عنه».

منذُ ثلاثة أيّام، وهي تأتيني بأخبارٍ غريبة. «مات مُختار القرية». «سقطَ زياد في الحُفرة». «كُسِرتْ يدُ الصّغيرة سلمى». «احترق منزل أبو أكرم». «اقتحم الجيش الحيّ»؟. «دُهِسَ ثلاثة أطفالٍ في كفردان». «لم تُمهل السّيول أمّ سلمان فجرفتْها وسقطَ البيت على مَنْ فيه». صرختُ فيها: «يا نذير الشُّؤمِ أنتِ!». ردّت بزعيقٍ عالٍ: «لا تكنْ مثل بقيّة البشر!».

استمرّ زعيقُها في الأسبوع التّالي، قلتُ لها مُحذِّرًا: «لستِ وحدكِ أيّتها البوم، أستطيع أنْ أتّخذ صديقًا سِواك». هرّ الكلب. انطفأتْ نجمة. انقلبتْ نملةٌ على ظهرها من وطء الحِمْل. قالت البوم: «ليسَ كلّ مَنْ تُصادِقه يفي». أخبرتُها أنْ تُغادِر لأنّني أخافُ من أفكاري. لم تمتثلْ. في اليوم العاشِر اقتعلتُ عينَيها وأكلتُهما!

صادقتُ سِرْبًا من النّمل، ثُمّ لمّا وجدتُها أكثر حِكمةً من الذّئاب، رأيتُ نَقْصِي، وأعلنتُ أنّني لا أستطيع تحمّل هذه الصّداقة، وأنّ عليها أنْ تُغادِر، ولمّا لم تفعل، فعلتُ أنا.

بدأتُ أجمعُ بعضَ الحطب اليابس لأُوقدَ عليه النّار، نبحَ رَيّان: «لا تفعل». «أنا جائِع». «سوفَ يهتدون إليك. لا تكنْ غَبِيًّا». «لم آكُلْ طعامًا مطبوخًا منذُ ما يقربُ من عام». «سوفَ تُصبح طعامًا لهم إنْ فعلتَ». «اخرسْ أيّها الكلب». «ستندم إنْ لم تُطِعْني». حككتُ حجَرَي صَوّان، انقدحت الشّرارة في الهشيم، فبدأ سرَيان النّار، فقفزَ رَيّان عَلَيّ وأبعدَني عن موضع الحطب، ثُمّ دَعَس على موضع النّار قبل أنْ ينتشر فانطفأ، صرختُ في وجهه: «أنا جائع». مططتُ الألف فبدا يأسي واضِحًا: «لن تأكل إلاّ ما كُنتَ تأكل. لديكَ من التّوت الشّوكيّ والصّبّار ما يُغنِيك».

غافلتُـه هـذه المرّة، وعُـدتُ إلى قَدْح الحجرَيـن، لم أكـنْ أعـرفُ أنّ صـوتَ الانقِـداح سـوفَ يُنبّهـه، ركـضَ إلى أوّل النّـار فبـال عليهـا، «أيّهـا اللّعين مـاذا شربـتَ لتبـول كلّ هـذه الكمّيّة عـلى النّـار فتنطفِـئ؟!». «لمـاذا لا تُريـدُ أنّ تفهـم أنّ في هـذا نهايَتـك؟!». «فلْتـأتِ؛ لقـد مللـت». «لـن تفعـل وأنـا موجـود».

منـذُ صبـاح هـذا اليـوم وأنـا أُمـدّد جسـدي النّحيـل عـلى ورق الأرض اليابـس، وتُرابِهـا الأسـود، مـرّ الضُّحـى، مشـتْ أسرابُ النّمـل عـلى وجهـي، عـبرتْ كأنّهـا تسـيرُ إلى قلعتهـا حيـثُ تُخـزّنُ طعامَهـا، سـمعتُها تقـول: «كُـنْ مثلَنـا». انتصـفَ النّهـار، حَطّ الذُّبـاب الأزرق عـلى وجهي، وأيقظنـي مـن غفـوتي وهـو يلعبُ في فتحتَـي أنفـي، تركتُـه يفعـل مـا يحلـو لـه، بـدأ قُـرصُ الشّـمس يتخلّى عـن عَرْشِـه في صفحـة السّـماء، جـاءَ دورُ النّحـل، كان أزيـزُه يُذّكـرني بـأمّ العبـد، بالمقابـص، بصـوتِ مـرور الرّصاصـة المُنطلقـة مـن فوهـة بندقيّـةٍ تعـرفُ طريقَهـا إلى هدَفِهـا، استمتعتُ بهـذا الصّـوت... غطسـتِ الشّـمس، أعلنـت عـن رحيلهـا، وهبـطَ اللّيـل، جـاء دور البراغيـث، اسـتوطنتْ جسـدي، واتّخـذَتْ منـه مطعـمًا ومنامًـا، «مرحبًـا أيّتهـا البراغيـث، لـن تجـدي شـيئًا في لحمـي لتأكليـه، إنّـه يابـس، كيـفَ يُمكـن لجسـدٍ جائِـعٍ أنْ يُطعِـمَ سِـواه؟!».

القُمَّـل؟! لم يبـقَ إلاّ القمـل!! مُراقبتـي الطّويلـة لـه علّمتْنـي عاداتـه في الحيـاة، القمـل لا يعيشُ عـلى أجسـاد البـشر وثيابهـم فحسـب، إنّ عالَمَـه الأجمـل هـو ورق الشّـجر، تكمُـنُ عـلى الورقـة، وترصـدُ خيـطَ الضّـوء، إذا انقطـع، فمعنـى ذلـك أنّ جسـدًا مـا مـرّ مـن تحـت الورقـة، تُسـقِط نفسـها مـن الورقـة العاليـة عـلى الجسـدِ الفَـخّ، وتبـدأ رِحلـة الطّعـام في المدينـة المفتوحـة عـلى أشـهى الأنـواع، إذا كان جسـدًا بشريًـا

فهذا يعني أنّ الرّطوبة ستكون مخزونها المائيّ الّذي لن ينتهي، وإذا كان جسدَ حيوانٍ، فإنّ البهارات الّتي تُطيّب طعامَها ستكون الألذّ في تاريخ رحلاتها الطّويل بين الأجساد، تسير من الجسد الغَضّ إلى غابات الشَّعْر، وهناك تجدُ سَرَاحَها ومراحَها في البُصيلات الّتي تحوي مادّة طَعامِها الأطيب؛ الرّائحة والملمس والتّوابل؛ إنّها تعرفُ ما تريد، لن تكون أذكى مِنّي، أنا أيضًا أعرفُ ما أريد!

(٢٨)
الكهف

انقطع يعقوب عن النّاس كما انقطعتُ، رؤية النّاس حجاب، كلامهم أقدام ثقيلةٌ في الوحل، والتّعامل معهم يُوقِع في المصيدة. حينَ لا ترى إلاّ نفسك، ولا تلتقي أحدًا سِواك، تعمل العينان بطريقةٍ مُختلفة، ويُصبِح لديها حساسيّة عالِية، بحيثُ إنّكَ ترى ما لم تكنْ ترى، وتلتقي في العالَم المحجوب بما لم تكنْ تلتقي.

ولدٌ صغيرٌ، لم يكنْ يتجاوز التّاسِعة، يسير مع أبيه، أشار الولد إلى حيثُ يختبِئ يعقوب، نظرَ إلى نفسِه؛ وهمس: «هل هناكَ سِواي؟! أأشارَ إليّ بالفِعل، ربّما إلى الشّجرةِ الّتي تبتدِئ الحقل من ورائي، ربّما إلى سحابةٍ عابرة، لماذا عليّ الاعتِقاد بأنّه أشار إليّ؟! كيفَ عرفتُ أنّه رآني؟! أنا شبح؛ مَنْ يرى شبحًا؟!». غير أنّ هذا لم يُشعره بالطّمأنينة، إنّ إشارةً واحدةً تخترق الفراغ ولو كانتْ من طفلٍ تُحرّكه البراءة، قد تُحرّكها الرّصاصة في المرّة القادِمة فتخترق الرأس، ولِذا؛ غادر الموقع على الفور!

بحثَ عن ملجأ جديد، كيفَ تضيق الأرض عن مخبأ؟ ليسَ سهلاً أنْ تطمئنّ لأيّ شيء، «كلّ شيْءٍ قاتلٌ حينَ تلقَى أجلَك». كلّ شيءٍ يبحثُ عنك، كلّ واحدٍ يريدُ أنْ يظفر بِك. شعرَ أنّ حجارة الطّريق تحوّلتْ إلى عيونٍ تتفحّصه، ونُباح الكلاب إلى أصواتٍ تدلّ علَيه، وذرّات التّراب إلى أفواهٍ تشي به، بدا أنّه صار يخشى حتّى من تَردُّدِ النَّفَسِ في صدره!

غيرَ أنّ الشّكّ في كلّ شيءٍ جعل الحواسّ تُفعِّل جِهاز الإنذار المُبكّر لديه؛ لا مُفاجَآت، لا توقّعات، لا صُدَف تحدث، ولا يقين

بشيءٍ، وانقِطاع الأمل، وكلّ شيءٍ خارِجَك يجب أنْ يظلّ خارِجك، أنتَ مُنبتٌّ تمامًا عن كلّ ما يربطك بالعالَم من حولك، ومُنكفِئٌ على نفسك؛ لأنكَ أنتَ العالَم!

غير أنّ خوفَنا الدّاخليّ، وهروبنا حتّى من أنفسِنا حوّلنا إلى أبطال، صارتْ قِصصُنا على كلّ لسانٍ، كان الأطفال يروونها ويتخيّلون أنفسهم مكاننا، بل صاروا يحلمون أنْ يروا في طريقهم واحِدًا مِنّا، صارتْ حكايانا المغموسةُ بالغموض تتّخذُ طابَعًا أسطوريًّا، في المقاهي تُروى كما في المساجد، ويدخل فيها ليس فيها هنا أو هناك. وفيما كانتْ تُقِضّ مضاجع أعدائِنا فإنّها كانتْ مصدرَ إلهامٍ لأطفالِنا، ثُمّ ماذا بعدَ ذلك؟! يهدمون بيوت المُطارَدين، يُنكّلون بعائِلاتهم؟! ولْيكنْ؛ سوفَ نهدِمُ على الاحتِلال دولته، ونُنكّل بجنوده كما ينبغي أنْ يكون التّنكيل!

وجد يعقوب بِئرًا مهجورة، في أطرافِ قريته بير الباشا. بِئرٌ مهجورةٌ في القرية خيرٌ من جنّة وارفةٍ غريبة، من هنا يرى السّماء الّتي أظلّتْه طِفلاً، ويشمّ عبيرَ حقولِها، ويسمع ولو من بعيدٍ أصواتَ الحياة فيها، وينظر ولو من طرفٍ خَفِيّ إلى أطفالِها الواعِدين!

كانَ يهبطُ إلى البِئر بحبلٍ مجدولٍ، يقفز في المتر الأخيرة من هبوطه إلى القاع، يشعرُ بوجعٍ خفيفٍ في الظّهر. هل في القاع غير الظّلام؟! وإذا أرادَ أنْ يصعدَ فإنّه يرمي الحَبل الّذي يحوي خُطّافًا ذا أربعِ شُعَبٍ حديديّة في نهايته إلى أعلى البِئر لينشب في أطرافها. يقضي في البِئر ثلاث ليالٍ سويًّا ليسَ معه إلاّ الخبز والماء، يقسمُ الماء إلى حِصّتَين، حِصّة للشّرب وأخرى للوضوء والصّلاة. من هنا يُراقب النّجوم إذا نهشَه الملل، يُحادِثُها ويقصّ عليها حكاياته، لولا الحكايات الّتي لا تنتهي لمات؛ الحكاياتُ خيطُ النّجاة!

يخـرجُ في اليـوم الثّالـث، عـلى ظهـره رَشّاشُـه الّـذي باعـتْ زوجتُـه جـزءًا مـن مَصاغِهـا الذّهبـيّ لتُهدِيَـه لـه، تقـول وهـي تُقلّـده إيّـاه مُبتسِـمةً وفَخُـورة: «لسـتَ رَجُـلي إذا لم تحـمِ بلادَنـا، وتُجهِـزَ عـلى قاتِلينـا». الخُطّـاف ينشـبُ في الأعـلى بعـد أربـعِ محـاولات عـلى الأقـلّ، يُمسـك بكلتـا كفّيـه شـادًّا ذراعَيـه حولـه، ولافًّـا سـاقَيه عليـه، ومُمطِّطًـا جسـده، ويبـدأ التّسـلّق رُويـدًا رُويـدًا، تُسـاعِده أحيانًـا بعـضُ النّتـوءات في جـدار البِئـر الدّاخـليّ، يمـلأ رِئتَيـه مـن هـواء كان قـد فقـدَ كثيرًا منـه في الأسـفل، يلبـسُ عـلى رأسـه كوفيّـة الرّعـاة البـدو، ويحمـل عصـاه، وينتعـل حِـذاءً مُمزّقًـا، ويُلطّـخ وجهـه بِسـواد الرّمـاد، ويمـضي مـن أجـل أنْ يجِـدَ بعـضَ الطّعـام، ليـسَ أثمـن مـن الخُبـز والمـاء، بضـع لُقيـمات، وبعـضَ رشـفاتٍ في اليـوم مـن أجـل حيـاةٍ ليسـتْ كالحيـاة، مـن أجـل أنْ يسـتمرّ هـذا القلـب نابِضًـا بالتَّـوقِ ليـومِ الخـلاص!

تأكلـه الرّتابـة. يتذكّـر كلـمات محمـود: «الرّتابـة قاتـلٌ صامـت». سـوفَ يتخلّـى عـن حَـذَرِه. يقـول لـه عقلـه في حالـةٍ مـن اليـأس: «الأمـر لا يسـتحقّ كلّ هـذا». يسـمعُ أصواتًـا كثيرة: «ومـاذا في الاستِسـلام؟! إنّـه مُريـحٌ، ويجعـل النّهايـات المُرتقَبـة تـأتي سريعًـا». ينفـضُ رأسَـه، يُسـاقِط الأفـكار الّتـي توحِـي بهـا وحدتُـه. يصمـد، لا يسـتمرّ صمـودُه كثيرًا، فيعـود إلى اليـأس مـن جديـدٍ، وبـين الصّمـود والانهيـار يظـلّ يتأرجـح في كلّ ثانيـة!

تُصـبّره حكايـا المُطارَديـن الّذيـن سـبقوه، لم يكـنْ وحيـدًا، كان نهـر المُناضِلـين الّذيـن رسـموا الطّريـق يمـدّه بالعزيمـة، غـير أنّـه يشـعر بالعجـز هنـا، كيـفَ تُثـير حميّتـه هـذه البُطـولات ويبقـى مثـلَ شـاةٍ جربـاء في بِئـر نائيـة؟! وكيـفَ يحمـل هـذا السّـلاح عـلى ظهـره كأنّـه مِحـراثٌ

صَدِئ؟! ما فائِدة الكلاشينكوف إنْ لم يُزغِرد؟! وما فائدة الرّصاص إنْ لم يُفجّر؟! أيظنّ أنّه بتخفّيه هذا يحمي نفسَه؟! إنّ زمن التّخفّي يُصبح زمنَ التّولّي يومَ الزّحف، وهو لا يُريد أنْ تراوده هذه الأفكار فتقضي عليه.

تذكّر (عزّت). كيفَ يصل إليه؟! كيفَ يبحثُ عن خيال، المُطارَدون أشباح تقضّ مضاجِع مُطارِديه، يتبادلان الأدوار؛ يُصبِح المُطارَد مُطارِدًا! ما الخيطُ الّذي يُمكن أنْ يقودَ إليه؟! الرّصاص بالطّبع، دار في خَلَده: لا يجلبُ الرّصاصَ غيرُ الرّصاص، خرجَ من البِئر هذه المرّة بروحٍ جديدة، صعدَ هضبةً مُشرِفة في بير الباشا، أطلقَ في الهواء إحدى عشرة طلقة، إنّها كلمة السّرّ بينهما، في اليوم الثّاني وجده على الهضبة، تعانقا، قال له: «أنا غائبٌ عن الوجود كلّه، المعلومات كلّها لديك، هل من صيدٍ ثمينٍ؟». ردّ عليه: «اتبعْني».

ترَصَّدا دوريّةً عسكريّة تمرّ عبر شارعٍ يؤدّي إلى الجهة الغربيّة من بير الباشا، كَمَنا، كَتَما أنفاسَهما، تذكّر يعقوبُ محمودًا، إنّه أستاذ. من خلال المِنظار زغرد الكلاشينكوف. سقطَ المُغتصِبون، فَرِح، إنّ اختفاءه لم يكنْ دون مقابل. في المرّة الثّانية كان أكثرَ ابتِهاجًا واندِفاعًا وأقلّ حذرًا، مشى مع (عزّت) مسافة طويلة إلى يعبد، هل يعودُ البطل إلى المكان الّذي تدرّب فيه على القنص؟! لكنّه لم يدخل الأحراش، هَمّ بذلك، فَكّر بمحمود؛ ماذا يُمكن أنْ يكون حدثَ له؟ هل ما زال حَيًّا؟ هل خرجَ من قوقعته ليقومَ بتنفيذِ بعضِ العمليّات السّريعة، ربّما. غير أنّه استبعدَ أنْ يفعلها، محمود لا يخلع رِدَاء الحذر مثلَه بسهولة.

كمنَ مع (عِزّت) من جديدٍ، عشرون رصاصةً أردتْ ثلاثةَ مستوطنين، مصدر النّار لن يظلّ سِرًّا. ورائحة البارود تدلّ على حامله. قال لعزّت: «هذا يكفي، لن نلتقي مُجدّدًا. أنتَ لا تعرفُ المكان الّذي أختبئ فيه، واشطبْ من ذاكرتك أنّني التقيتُك». عادَ إلى البئر، إلى موضع اختبائه، لكنّه قبلَ أنْ يصلَ إليه، رأى من بعيدٍ قِطعةَ قماشٍ في فمه لم يرها من قبلُ، تجمّد مكانه، لم يتقدّم خطوة أخرى. راحَ يراقبُ المشهدَ من بعيدٍ، مرّتِ الشّمس، بدأ لونُ السماء يقتم، تخلّى الأزرق الفاتح عن لونه لصالح الكُحليّ، ثُمّ الكحليّ لصالح السّواد... لم يلاحظْ أيّ شيءٍ غيرَ طبيعيّ خلال فترة المراقبة الطّويلة هذه؛ فهَمّ بأنّ يعود للبِئر، حدّث نفسه: «البِئرُ أمان». لم يكدْ يخطو خطوتين باتّجاهه حتّى انفجرتْ فوهته، وتصاعدتْ ألسنة اللّهب فوقه أكثر من عشرة أمتار. جمّدتِ المُفاجأةُ قدمَيه؛ لقد كان مكشوفًا!!

أطلقَ ساقَيه للرّيح، قريته لم تعدْ آمنة، ولا جِوارُها، ولا حقولها ولا هِضابُها. هربَ بعدَ أن بلع ريقه مُحاوِلاً أنْ يستوعبَ ما جرى، الهول يضخّ الدّمَ في ساقَيه، كان الظّلام يُغلّف كلّ شيءٍ، وكان يهربُ دون أنْ يدري إلى أين، تعثّرت قدمه بحجرٍ، سقط، شعرَ أنّ ظهره انشطرَ إلى نِصفَين، تحامل على نفسِه، ومشى وهو يعرج، لكنّه تحامل أكثر على وجعه، وحاول أنْ يركض، فصار يقفز كالكنغر. وصلَ إلى قرية الزّبابدة بعدَ ساعاتٍ عِدّة، إنّها بعيدةٌ عن الأعين، لن يُفكّر الاحتِلال أنّ واحِدًا مثلَه يُمكن أنْ يختبِئ فيها.

انتظر حتّى انسحبتْ خيوط الظّلام، وبدأتْ خيوط الفجر تحلّ محلّها، اختار مغارةً في سفح جبل، كان بابُها يُولّي وجهه نحو

السّماء، وظهرها للقرية. من هنا إذا دار من بابِها سيرى القرية تنام تحته، ومن هنا يُمكن أنْ يراقبَ أيّ مخلوقٍ يمشي على قدمَيه يحاول أنْ يصل إليه، ستكون رصاصات الكلاشينكوف بانتِظاره.

لا بلدَ خيرٌ من بلدٍ؛ أحسنُ البلادِ ما حَضَنك. مرّ شهرٌ، صار سقف المغارة سماءَه، وترابُها فِراشَه، وزواحفها طَعامه. كان في المغارة سِردابٌ ضيّق، دخَلَه وهو محنيّ الظّهر، مشى فيه بضعة أمتار ثُمّ عاد، كان مُظلِمًا لا يرى فيه شيئًا، والظّلام عدوّ، ولا أحدَ يدري ماذا يختبِئ خلفَه.

شَمّ رائحة الخوف تأتيه من قِبَل السّرداب، كأنّما كان قلبَه المثقوب، فأراد أنْ يكتشفه. في الأيّام اللاّحقة، بقدّاحة وببعض الشّموع المُوقدة استطاع أنْ يعرف إلى أين يؤدّي. كان طُولُه أكثر من ثلاثمئة مترٍ، ينتهي بفتحةٍ توقفك وجهًا لوجه مع بيتٍ قَصِيٍّ قديمٍ من بيوت القرية، ومع أنّ البيت كان مهجورًا لا تطنّ فيه ذبابة ولا تدبّ فيه نملة، إلاّ أنّه شَعَرَ بأنّه يُمكن أنْ يكون خنجرًا يطعنه في خاصرته، فقرّر أنْ يُغلِق نهاية السّرداب من تلك الجهة ببعضِ جذوع الشّجر والشّوك اليابس، ففعل. ثُمّ عادَ إلى المغارة.

كان ينزل إلى القرية مرّة واحدة في الأسبوع، يُقدّم نفسِه في كلّ مرّة بأنّه عاملٌ من العُمّال الّذين يعملون في الحقول، مُتنكّرًا في كلّ مرّة بصورةٍ بسيطةٍ من صُوَر التّنكّر، يجلبُ بعضَ الطّعام والشّراب، وبعضَ الحاجيّات الأخرى. ثُمّ فكّر في أن يُقلّل من فترة المناوبة في النّزول إلى القرية خوفًا من أنْ يشكّ فيه أحدُهم فتكون في ذلك نهايته. لكنّ ذلك كان يُؤثّر على تخزينه للطّعام، فينفد، فلا يجدُ ما يسدّ به رمقه، وكانتْ تمرّ عليه أيّامٌ وليالٍ لم تُدغدِغ جِدار معدته لقمةٌ واحدة، ولو كانتْ كِسرة خُبزٍ يابسة!

حلّقتْ مروحيّة. المروحيّات في سماء فلسطين غربان. سوفَ تقذفُ صاروخها في أيّة لحظة. غادرَ المغارة، لو لم ترصدْ مخبأه لَما حلّقتْ هنا. غير أنّها الرّوح، تقولُ اذهبْ إلى حيثُ الحياة، ولكنّكَ لا تدري أنّها تقودُك إلى الموت. تأخذ بيدِك إلى ما تظنّه سبيل النّجاة، غير أنّ الحتف يرقصُ لكَ على جانبَيها. صوتُ المروحيّة يقترب. ركضَ باتّجاه اللاّشيء. من دون بوصلةٍ ولا هدفٍ، سوى الهروب، ركضَ بأقصى ما يستطيع، قذيفةٌ صاروخيّة كانتْ كفيلةً بأنْ تشلّ بنايةً كاملةً من أركانها، وتهدمها على رأسِ ساكنِيها، غير أنّه نجا. كم من محاولةٍ اغتِيال تبقّى لهم كي يقع في أيديهم في نهاية المطاف؟! عشرُ محاولات؟! ربّما.

إنّها ثلاث سنوات، هل تعرفون كيفَ يُمكن أنْ تقضي كلّ هذه الفترة الزّمنيّة الطّويلة من حياتك في كهفٍ؟! حيثُ البرد القارس في الشّتاء، والرطوبة الخانقة في الصّيف؟ هل تعرفون كيفَ يكون الحجاب الّذي يصنعه الحذر ليقف بينكَ وبين أهلكِ، فتقضي الوقتَ هذا كلّه دون أنْ تراهم؟! إنّه أشدّ من القتل!! هل تعرفُون كيفَ تتقلّص الرِّئَتان حين لا تجد هواءً في السّرداب من أجل أنْ تتنفّساه، فلا تتنفّسان إلاّ الغُبار والحَشرات؟ كانتْ هنا حياته.

كانتْ تمرّ عليه ليالٍ شديدة البرودة، يحزّ فيها الصّقيع العِظام، وكان إشعال النّار أمنيةً هاربة في تلك اللّيالي؛ ليسَ لأنّه لم يكنْ قادِرًا على إشعالِها، إنّما خوفًا من أنْ تدلّ النّار عليه فيُصبحَ طريدة. وكان يسدّ باب الكهف بالأعشاب اليابسة والجذوع حتّى لا يراه فيها أحدٌ، ويحمي نفسه من هوامّ الوحوش المُفترِسة النّاهشة. ومرّة سمع صوتَ أقدامٍ تتّجه إلى باب الكهف، واسترق النّظر فإذا هو مُزارِعُ عابرٌ، ويبدو أنّه

رأى الجذوع فأراد أنْ يأخذها حطبًا يُوقِد عليها مدفأته، وجذبَها المُزارع من الخارج، وراح يعقوب يجذبها إليه من الدّاخل خوف أنْ ينكشف، لم يُصدّق المُزارع أنّ هذه الجذوع يُمكن أنْ تكون ثابتة في الأرض على هذا النّحو، فجذبها إليه بقوّة فانجذبتْ بمقدار، لكنّها سرعان ما عادتْ إلى الدّاخل، فوقع الهلع في قلبِه، وظنّ أنّ جِنّيًا يُمسكها من الدّاخل، وولّى هارِبًا لا يلوي على شيء!

لا يُمكن أنْ تنجح في التّخفّي كلّ هذا الوقت، بعضُ النّظرات في السّوق تفضحُك، بعضُ الخطوات في الطّريق تَخُونُك، وبعضُ من تُعطِيه ظهرَكَ يطعنُك. والنّهاية الّتي تبدو بعيدةً جدًّا تحصل في لحظةٍ خاطفة. والضوء القادم من اللاّنهاية يَبهَرُ عينَيك في أقلّ من ثانية، وأنت؟ ليسَ عليكَ أنْ تقلقَ بشأنِ أيّ شيءٍ. ومن الطّبيعيّ أنْ تعترف ولو مرّة واحدة بأنّ السّفينة الّتي في البحر لا يقودها الرُّبّان الخبير، إنّما تقودها الأمواج العمياء.

كانتْ آلام ظهره قد وصلتْ حَدًّا، تمنّى فيه أنْ يُلقِي بنفسه لحظَتها في أحضانِ أيّ أحدٍ، أنْ يجدَ دِفئًا في عيون أيّ بشرٍ، بدل هذا الصّقيع المُتكسِّر. ما الّذي يُمكن أنْ يُصبّر المرء حتّى هذه اللّحظة؟! إنّ النّضال والدّفاع عن الوطن ووجه الله ليستْ أشياء تُقال، وليستْ مفرداتٍ معزولة، وإنّ بعضَنا يُخيّل إليه شعورُه الرّومانسيّ أنّها سَهْلة، وأنّ أيّ مُقاومٌ يُمكن أنْ يتعايشَ معها. كلاّ، إنّ الرّضى بها يُشبِه اليقين بوجود الله. والمسافة بينها وبين الحقيقة أشدّ بونًا من المسافة بين السّماوات والأرض.

مَنْ يُراهنَ على بقائه طليقًا أكثر من هذا؟ لا أحد، ولو تحوّل إلى ضَبّ، أو صار شبحًا. النّهايات دائِمًا سريعة. غير أنّه عاشَ

في سـنوات المُطـاردة في صَفـاءٍ ونَقـاءٍ عجيبَـين، حتّـى ظَـنّ نفسَـه سِـواه!

إنّـه خريفُ عـام ٢٠٠٣م؛ هـذا الخريـفُ الّـذي قـادَه إلى السّـجن سـينتهي... لا شيءَ يـدوم فيـكَ أو تـدوم فيـه، كُلُّ أمـرٍ بِقَـدَر.

(٢٩)

آهِ ما أجملكْ!

نُقِلَ الرّقم (٥) إلى سجنٍ آخر؛ إنّه سجن الجنيد. مشى إلى الزّاوية بخطًا هادئةٍ واثقة، وكصوفيّ رفع كفَّيه مُتقابِلَين أمام صدره وخفض رأسه وتلا ما تيسّر، ثُمّ مشى إلى الزّاوية المُقابِلة ودَسّ ورقةً في شِقّ، ثُمّ نظر إلى الأعلى، وهمسَ كلماتٍ لم يسمعْها إلاّ الله. ثُمّ ذهب إلى الزّاوية الثّالثة فالرّابعة، قرأ شيئًا عند كلّ زاوية، ثُمّ أسدلَ قُبّعته على رأسه، ووضع كفّيه في جيبَيه، ومشى وهو ينظر إلى موضع قدمَيه بطريقةٍ أشبه بمشية الحَمام، ثُمّ ولج إلى غرفته، لم يُسلّم على أحدٍ، ولم ينظر في وجه أحدٍ، و... تمدّد على البرش، وغاصَ في خيالاته.

في السّاعة الثّالثة فجرًا أيقظَ (نعمان): «كلُّ عمل لا تسبقه صلاةٌ باطل؛ صَلِّ. وكلّ دربٍ لا تسبقه نِيّة مقطوع؛ انْوِ. قُمْ. احذرْ. الدّقّة. العيون لا تنام. الشّكّ لا يأخذُ قيلولة، الرّصاص كلّه مُعدّ لنا سلفًا. لا تكنْ صيدًا سَهلاً!». «أنا لك». «لا تقلْ ذلك؛ نحنُ له». «تقصدُ الله؟!». «ومَنْ سِواه». «وتلك؟». «مَنْ تقصد؟». «فلسطين». «لها الله».

«سينقلونكَ صباح اليوم إلى سجن النّقب»، قال صالح. «وسينقلونك إلى سجن كفاريونا»، قال نعمان. أردفَ صالح: «سجنان ووجهٌ واحدٌ». ضيّق نعمان عينَيه مع أنّه يعرفُ كلّ شيءٍ وسأل: «وجهٌ واحدٌ أم عينٌ واحدةٌ؟». ردّ صالح وهو يشدّ على يدِ شبيهه: «أنا أنت». وضَحِكا ضحكةً لم تُوقِظ في الغرفة أحدًا، وراحا يُنشِدان: «أنا يا أخي أنتَ... حُزنُكَ حينَ يسودُ الظّلامُ ويشتدّ ثِقْلُ الحديدْ...

وتُدمي يدَينا القيودْ... ووجهُكَ بدرُ الدُجَى في الظّلامِ البعيدْ، فلا فرقَ بَيْنَ القُلُوبِ الّتي ما أَحَبّتْ سِوى ربِّها... ولا آمَنَتْ بِسِوى السَّيْفِ في دَرْبِها... وَلا لَيلَ ما دُمْتَ لِي، ولا حُزنَ ما دُمْتُ لَكْ... فقل لي: يا أنا... آهِ ما أجملَكْ!». وتمايَلا على أنغامِ كلماتِهما.

يصمتانِ معًا. ينظران في وجهَيهما، يقول أحدهما: «هل سينتبهون إلى هذا؟!» ويُشير إلى الفراغِ بين الشّعرات الّتي أسفل الشّفة وشعرات الذّقن. «إنّهم لن يُدقِّقوا فيه، هُمْ عُميٌ فكيفَ ينتبهون؟!». «آمُل ألاّ ينتبهوا حَقًّا». «لم ينتبه لذلك في السّجن مِن أصدقائنا الّذين نُعايشهم طوال الوقتِ أحدٌ باستثناء محمود، فأنّى للسّجّانين بذلك؟!».

يُغامِرُ المُناضِلُ بكلّ شيءٍ، ليسَ لديه ما يخسره، يدفعه هذا إلى ابتِداع المُعجِزات، واقتِراف الأهوال؛ ليس هناك أثمن من الرّوح، غير أنّها رخيصةٌ عنده إذا كانتْ في سبيل وطنه. همسَ صالح وهو ينظر في عينَي نعمان: «أنتَ محكومٌ بمدّة قليلةٍ، وسوفَ تخرج، أما أنا فمحكومٌ بثلاثين عامًا، فَلِمَ قبلتَ؟». ردّ نعمان: «لأنّني محكومٌ بهذه المدّة القليلة فسأخرج، أمّا أنتَ فلا بُدّ لهذه الحيلة من أجلِ تحريرك». «وإذا اكتشفوا الخُدعة؟». «ولْيكنْ؛ أنا أنا، مدّتي ستنتهي، أمّا أنتَ فلن يعرفوا ما حصل إلاّ بعدَ أنْ تكون قد تمكّنْتَ من الهرب وإيجاد طريقةٍ تمنعهم من أنْ يصلوا إليكَ ثانية».

«بوسطة». صاحَ الجنديّ. طرقَ على الأبواب: «هيّا. اخرجوا. بسرعةٍ. ليسَ لدينا النّهار بطُوله». عانقَ صالحُ نعمانَ، وبكى. هتفَ نعمان وهو لا يزال يُعانقه: «لا تبْكِ. أنا فِداؤكَ». تبادلا الهُويّات. صرخَ الجنديّ الأخرق: «نعمان». خرج صالح من الغرفة

قفزًا، رافِعًا يدَه: «ها أنذا». سأله الجنديّ: «هويّتك». مَدّ له الهُويّة، نَظَر فيها بلا عينَين، قرأ الاسم، ثُمّ أشارَ له إلى الباب، قيّده جنُديٌّ آخر ودفَعَ به إلى البوسطة، امتلأتْ. لم يكنْ فيها مقاعد، كانتْ تضيق بنزلائها المُغطّاة عيونهم، وسقفُها يسرقُ من طُول كلّ واحدٍ فيها، تهادَتِ البوسطة في الطّريق، ومضتْ شاقّة الصّحراء إلى النّقب. حيثُ السّجن الّذي تسفُّه ريحُ السّموم، في اللّيالي شديدات السّواد على قلوبِ نقيّات الطُّهر.

في سجن الجُنيد، كانتِ الأصوات لا تزال تتعالى، الجنودُ يصرخون من جديد: «بوسطة... بوسطة». تتأهّب دُفعةٌ جديدةٌ للنّقل، يزعق أحدُهم: «صالح». خرجَ نعمان مُسرِعًا، يقفُ مُهندِمًا ثيابَ السّجن: «أنا هو». «هويّتك». فتّش في جيبِه، لم يعثرْ عليها، لا بُدّ أنّها في الجيب الآخَر، فتّش في جيوبه كلّها ولم يجدْها، كان يبدو عليه الاضطِراب، فكّر أنّه ربّما وقعتْ منه عندما خرج من الزّنزانة، بالكاد استطاع أنْ يسأل: «هل أستطيع أنْ أعودَ إلى الزّنزانة من أجل البحثِ عنها؟!». نظرَ إليه الضّابطُ وهو يحتضنُ رشّاشه على صدره، صار قريبًا منه، شعرَ بأنفاسِه الكريهة تلفح وجهه، كانتْ عيناه تقدحان شررًا: «مكانك يا...» ردّ نعمان: «صالح...». «اسم صالح... قلتَ لي صالح...». حَدّق فيه من جديد، خفقَ قلبُ نعمان، وتساءل في نفسه: «لماذا يُدقّق النّظَرِ فيّ هكذا، هل يعرفني؟ كلا... أنا لم أره من قبل... لكنْ... ربّما يعرفُ (صالح)، ولكنّنا مُتشابِهان إلى حدّ التّطابق، ولْيكنْ يعرفه، أنا هو... وسأُصرّ على أنّ اسمي صالح...» شعرَ ببعض الطّمأنينة لهذا الخاطر الّذي هَدّأ به رَجَفَان قلبه... استدار الضّابط نصفَ دورةٍ، وسأل أحد الجنود: «هل في الكشف لديك اسم صالح..؟». نظر الآخر فيه، وهتف: «نعم يا سيّدي».

«وهل مكتوبٌ أنّه سيُنقَل إلى سجن كفاريونا؟». «نعم يا سيّدي».
شعرَ نعمان بدفقةٍ جديدةٍ من الرّاحة، ابتسم ليُزيل ما تبقّى من غمامة الاضطراب الّتي اعترتْه في الدّقائق السّابِقات، فيما سَمِع الضّابط يسأله من جديد: «هويّتك يا صالح...». أعادَ السّؤالُ الغمامةَ أو بعضَها إليه، فتّش في جيوبه، لكنّ أصابعه لم تكنْ هذه المرّة تضطرب، لم يلحظِ الجنديّ الارتعاشة الخفيفة لجفنِه الأعلى، فيما كانتْ هناك أقدارٌ تقول له: «لم تفتّش في الجيب العلويّ يا نُعمان!». أخرجَها من هناك، وأعطاها للضّابط: «ها هي». نَظَر فيها الضّابطُ سريعًا، ثُمّ أعادَها إليه: «هَيّا بوسطة». صعد إلى سيّارة العذاب، ومضتْ به إلى السّجن، خلال ذلك اليوم كان أحدُهما ينوبُ عن الآخَر في سجنه، وفي كلّ شيءٍ.

في النّقب، حيثُ الزّنزانة خيمة، وسِياطُ الهواء اللاّهب في النّهار، والبرد القارس في اللّيل أشدّ من وقع سياط الجلد، كَمُن (صالح) في خيمته، إنّ المرحلة الأولى من عمليّة الهروب الّتي خطّط لها قد تمّتْ، سيعيشُ هو ونعمان كلٌّ باسم الآخر. وهنا في النّقب عليه أنْ يبقى في هذه الخيمة على الأقلّ ثلاثة شهورٍ قبل أنْ يُفرِج عن إقامته الاختِياريّة فيها حسبَ خُطّته ويُخالِطَ النّاس. إنّ عينًا واحدةً تتعرّفُ إليك ستخونُكَ دون أنْ تدري، إنّ كثيرًا من سُجناء النّقب يعرفونه، ويعرفون عمليّاته، ولِذا ثلاثة أشهر، تحاول فيها أنْ تُعدّل اتّجاه الرّيح، وتسقي غيرَ حقلِكَ، من أجل أنْ تقطفَ الوردة في الحقل الّذي تريدُه في الوقتِ المُناسِب.

إنّ هروبًا بالطّريقة الّتي يُفكّر هو فيها لن يكونَ سهلاً، وإنّ الصّبر هو كلمة السّر في النّجاح، فلْيصْبِر إذًا. ولينفّذْ خُطّته في

مرحلتها الثّانية بتمهّل، وبدهاء، وبحكمة، فإنّ خطأ واحِدًا سيجرّ عليه وعلى (نعمان) وعلى (عامر) أحكامًا من المُؤبّدات هم في أمسّ الحاجة ألاّ تمسّهم.

ولكنْ مَنْ يكون (عامر) هذا؟ إنّه أحدُ أركان الخُطّة. يقتضي الأمر أنْ يأخذَ صالح منه حُكمه تمامًا كما أخذ من نعمان اسمَه.

مرّتْ أربعةُ شهور، خرجَ بعدَها إلى السّاحة. الخيام وردُ الصّحراء. قلوب أهلها قَطْرُ الماء، وعُيونهم صَفاء السّماء، وأجسادُهم خيالاتُ رُحّل، إلاّ أنّ للنُّحول الّذي يعرو أجسادَهم فائدةً لم يعهدْها أهل السّجون المغلقة والجدران العالية والبّوابات المُصفّحة، إنّها تحوّلهم لِظباءٍ إذا أرادوا الجري، وإلى ذِئابٍ إذا أرادوا الفتك، وإلى أسودٍ إذا أرادوا المواجهة.

مرّ به، ووضعَ في يده ورقةً دون أنْ ينظر في وجهه. أخذها (عامر) خبّأها مُحاوِلاً ألاّ ترصده كاميرات المراقبة ومضى. لم يدفعْه الفُضُول إلى أنْ يفتحها، إنّه يعرفُ هذا الوجه، والوجه قال له دونَ لِسان: «انتظرْ عشر ساعاتٍ على الأقلّ قبل أنْ تنظرَ فيها، افعلْ ذلك بعدَ أنْ ينام الجميع». في اللّيل، حيثُ لا صوتَ إلاّ هواءٌ قادِمٌ من جهة الشّمال، من الأرضِ المُقدّسة، فتَحها، وجدَ فيها عبارةً يتيمة: «إلى الرّقم (٢) أنا الرّقم (٥)، سأخرج يومَ موعِدكَ باسمك». ابتسم، طوى الورقة طيّاتٍ كثيرةً، ثُمّ وضعها في فمه، وابتلعها دفعةً واحدة!

ليلةٌ واحدةٌ أخرى مرّت. انتظرا حتّى سافرَ القمر باتّجاه نهاية القُبّة السّماويّة، وقبلَ أنْ يستسلم اللّيل للفجر، خرجَ كُلٌّ منهما من خيمته على أطراف أصابعه، في منتصف الطّريق عَنّ لصالح أنْ يُغنّي، إنّ شعورًا غامِرًا بالانتِصار في خُدعته الجديدة جعله

يشعر ببعض الزّهو، بالفِعل غَنّى دون صوت: «سأزيلُ بغيَكَ عن وجودِكْ... وأذيب بأسِي في جُنودِكْ...». لم يلتقيا جَسدًا، سلكَ عامر وسطَ الطّريق، وسلك صالح طرفَها. وفي غضون دقائق كان أحدهما ينام في خيمة الآخر.

جاءت إدارة سجن النّقب، ضابطٌ ذو وجه صفيق، حوله كلابُه، كان يحمل كشف الإفراج لثلاثة سُجناء هذا اليوم، هتفَ الضّابط: «عامر..». خرجَ صالح من خيمته، متظاهِرًا بالنُّعاس وباللامُبالاة، وتثاءبَ واضِعًا يده على فمه، وتمطّى بجذعه الممشوق طويلاً قبل أنْ يقول: «أنا عامر...». ركب مع سجينَين آخرَين البوسطة الّتي أوصلتْه إلى البوّابة، ومن هناك نزل بهدوء من البُوسطة، ومشى واثق الخُطوات خارجَ السّجن، واضِعًا حقيبته على ظهره، واختفى في الدّروب الّتي مدّتْ أكُفّها إليه مُحيِّية كأنّها صديقٌ قديم. وخلال أقلّ من يومَين وصل (صالح) إلى الخليل.

في صبيحة اليوم الثّالث، تعالَى صُراخ (عامر) وسط الخيمة، تجمّع السُّجناء، لم يعرفوا ما الّذي دعاه إلى الصُّراخ على هذا النّحو فجأة، تجمّعَ من بعدِها عددٌ من الجنود، وهم يهمرون، وصوتُ قائدهم: «عُودوا إلى خيامكم... وإلاّ». تقدّم عامرٌ خطوتَين: «أيّها الضّابط...». نَظَر إليه الضّابط مُحتقِرًا، لم يُعِرْ (عامر) احتقارَه أيّ اهتِمام، ونادَى: «لقد صدر قرار إفراجي منذُ مدّة، وكان عليكم أنْ تُفرِجوا عنّي قبل ثلاثة أيّام، فلماذا تحبسونني إلى الآن؟!». تخلّى الضّابطُ عن احتِقاره له وسأله: «ما اسمُك؟». «أنا عامر». «عامر...!!» واتّسعتْ حدَقَتا عينَيه: «أنتَ عامر؟!». «نعم، أنا عامر». «لقد أفرجْنا عنكَ بالفِعل قبل ثلاثة أيّام». دوّتْ ضَحِكةٌ

مُجلجِلةٌ منه: «أفرجْتم عنّي.. هل أنتَ مجنون أيّها الضّابط... ماذا أكون أنا؟ شبحُه مثلاً... قرينُه... هل هناك نُسختان منّي تعيشان في هذا السّجن..؟!». وارتفع بضحكته إلى مستوىً جديدٍ، فيما ملأتْ ضَحِكات السّجناء من خلفه الفَضاء!

(٣٠)

خيطُ الدّم

«لن يكون في غير المكان الّذي كان جزءًا منّا قبل سنين طويلة». هكذا حدّث (صالح) نفسه، يعرف الأستاذ أينَ يكونُ تلميذُه!

مضَى إلى أحراش يعبد، إنّ ألفَ عينٍ أُطلِقتْ خلفه تتعقّبه منذُ أنْ اكتُشِفت فضيحة الهروب. ضاقتْ عليه الأرض، الصّهاينة المُحتلّون والصّهاينة العُملاء يبحثون عنه، إنّهم حرثوا الأرض وأحرقوا الحقول في مُحاولاتٍ مُستميتةٍ للقبض على (صالح)، الرّقم الّذي أدخل مفهوم توازن الرّعب خلال ثلاثة أشهر من هروبه المُعقّد الدّقيق. اعتبره (الشّاباك) المُطَارَد الأوّل في فلسطين.

يتحوّل المُطارَد إلى إنسانٍ آخر، ثُمّ يتحوّل هذا الإنسان إلى كائنٍ آخَر، ثُمّ يرتقي عن مرتبة البشر بالتّمايز عنهم، وينفصل عنهم بالتّباين في كلّ حركةٍ وسكنةٍ يتوقّعها أو يُخطّط لها، ثُمّ يواصل اختِلافه عن الكائنات كلّها، حتّى يُصبِح في النّهاية شبحًا، ولِذا كانتْ في هذه اللّحظات ثلاثةُ أشباح تجول عبر المنطقة: صالح، ومحمود، ويعقوب... ولكنّها أشباح تتحوّل إلى طيوفٍ من نور ونِقاء عندَ مَنْ يرونهم أبطالاً خارِقين في عيون أطفال فلسطين، وأشباحٌ تتحوّل إلى هلعٍ ورُعبٍ ينقذف في قلوب الصّهاينة، ويجعل النّوم حُلمًا بعيدَ المنال في عيونهم!

كنتُ في تلك اللّيلة أستلقي على ظهري فوق صخرةٍ تحفّها أَجَمةٌ من الأشجار الكثيفة، أعقد يُمنايَ على يُسراي، وأُرسل نظري

البعيد إلى النّجوم الّتي تبدو من خلال غُصُون الأشجار، كانتْ تلمع، فتظهر وتختفي، كأنّها تمارِسُ معي لعبة التّجلّي والخَفاء؛ تضحك فيها كلّ مرّةٍ من ظهورها اللامع بعد اِنطِفائِها المُفاجِئ. كان عهدي بالبشر قد طال، لم أرَ وجه بشريٍّ منذُ أكثر من أربعة شهور، كم هو قاسٍ أنْ تفقد الوجوه الّتي تُحبّها، وأنْ تُحرَم العيون النّظر في عيونِ مَنْ تُحبّ. كنتُ أعيشُ هنا على ذكرى الشّيخ (عبد السّلام)، كانتْ ذكراه تقتل جزءًا من الوقت، ولكنّها لا تقتل الوقت كُلّه، لن يعرفَ أحدٌ سِوى الله وسِواي كم مرّة فكّرتُ في أنْ أعودَ إلى البيت؛ لأرى وجه أمّي، أو أرى وجوه مَنْ تبقّى من إخوتي، غير أنّ رَيّان نفسَه الّذي ذاق مرارة الِتصاقه بي منذُ عرفتُه لم يقبل لي ذلك، وكان في كلّ مرّة يُحذّرني من أنْ أضعف في لحظةٍ يكسرُ فيها الحنين بوصلة الحذر فتقع الطّامّة. غير أنّنا؛ أنا وهو في هذا اللّيل البهيم نتجرّع مرارة الفقد والبُعد معًا. أنا مُمَدَّدٌ مثل الموتى على هذه الصّخرة، وهو مُنكفِئ إلى جانِبي مثل جِيفةٍ، قد تكّور على نِفسه، مُضطجِعًا على جانبه، ودافِنًا رأسه في بطنه!

فجأةً وقفَ. ونصبَ أُذنَيه، فنهضتُ لذلك، وتحفّزتُ لأمرٍ قد يكون مُباغِتًا؛ لن يفعل (ريّان) ذلك إنْ لم تكنْ إحدى المخلوقات الّتي قد تُسبّب الأذى قادمةً باتّجاهنا، أو هي في المحيط الّذي نقبع فيه... بالفِعل، رأيتُ شبحًا قادِمًا من بعيد، فتأهّبتُ، وزحفتُ أسفل الصّخرة وأنا أُنقِّلُ نَظَري بين الكلب وبين الشّبح، ثُمّ في خِفّة مددتُ يدي إلى الأسفل والتقطتُ الرّشّاش، وسحبتُ الأقسام واستعدَدْتُ لكلّ ما هو غيرُ مُتوقّع، كان الشّبح لا يزال يُواصِلُ تقدّمه نحونا، نظرتُ إلى (ريّان) فرأيتُ فتحتَي أنفِه ترتعشان، ولكنّه كان قد أقعى، ونصبَ ساقَيه الأماميّتين، كأنّه يستقبل القادم أو يُرحّب به!! لقد

شَـمّ رائِحـة القـادم الغريـب بالفِعـل، فلـماذا لا يهجـم عليـه ويُعمِـل أنيابَـه في عُنِقـه؟! وفيـما كان (ريّـان) ينظـر إلى القـادم المُتهـادِي في الظّلام باطمِئنـانٍ كانـتْ أوصـالي تعـاني الاضطـراب والتّرقّـب. حدّثـتُ نفسـي: «لا يُمكـن أنْ يتصرّف ريّـان علـى هـذا النّحـو إلاّ إذا كانَ قـد عـرفَ القـادمَ مـن رائِحتـه». أردفـتُ: «ولكنّنـا لم نقابـل بشريًّـا منـذُ فـترةٍ طويلـة، فهـل يحتفـظُ الكلـب بروائحهـم طَـوال هـذه المُدّة؟ هـل لديـه ملفّـات لتخزينهـا يسـتدعيها في اللّحظـة المُناسِـبة فيعـرف العـدوّ مـن الصّديـق؟!

صـار الشّبح على بُعدِ خُطُواتٍ، تأهّبْتُ أكثر، وازدادتْ جرعـة الخـوف في أعماقـي، وركـزتُ الرّشّـاش علـى كتفـي مُسـتعِدًّا لأيّ طـارِئ، وحدّقـتُ في القـادم بِدقّـة، غـير أنّنـي ألقيـتُ نظـرةً خاطِفـة علـى (ريّـان) لأعـرفَ ردّة فِعلـه بعـد أنْ صـار الشّـبح قريبًـا إلى هـذا الحَدّ، فرأيتُـه يفتـحَ فمـه ويلعـقَ أرنبـة أنفـه، كان هـذا يعنـي أنّ الشّـبح القـادم صديـقٌ، وأنّـه لا خـوف منـه. ومـع ثقتـي المُطلقـة بأحـكام الكلـب، إلاّ أنّ طبيعـة البـشريّ الّـذي لا يُلغـي الإيـمانُ بقيّـةَ الشّـكّ في قلبـه أبقـاني مُتحفِّـزًا، فلـمّا صـار علـى مسـافة قريبـةٍ جِـدًّا، هتفـتُ وأنـا أُصـوّب الرّشّـاشَ نحـوه: «مكانـك». فتسـمّر الشّـبحُ مكانـه. «مَـنْ أنـت؟!». «أنـا أخـوك». «لا أخَ لي». «علـى هـذه الصّخـرة جلسْـنا قبـل سـبع سـنواتٍ». «صخـرةٌ من ألـفِ صخـرة». «لـديّ كلمـة سِرّ». «قُـلْ». «سَـلْ تُعـطَ». حيـنَ قـال الكلمتَـين الأخيرتَـين هـدَأَ لُهـاثِ أنفـاسي، وتباطـأتْ أقـدامُ القلـب الّـذي كان يركـضُ في كلّ اتّجـاه... تراخـى إصبعـي المشـدود خلـفَ الزّنـادِ قليـلاً، هتفـتُ: «أَبِـنْ». «أنـا الرّقـم (٥)». «أنـتَ صالـح؟!». «أنـا هـو». سـقطَ الرّشّـاشُ مـن يـدي، وركضـتُ نحـوه، فاحتضنتُـهُ، وبقيـتُ مُعتنقًـا لـه، ولم أُفلِتْـه حتّـى انسـاحَ مـاء الحنـين فمـلأ قلبـي، فارتويـت.

«أتيتُ لكَ بِطعامٍ». «لم آكُل منذُ ثلاثة أيّام». «ما أخبار نعمان؟». «بقي في السّجن، حُوكم ثانية، لكنّ بقاءه في السّجن لن يطول».

نَبَتَ (صالح) من الغيب، هبطتْ نجمتُه من السّماء، ظهر كما يظهر الأمل بعدَ طُولِ يأس. «لن يتركونا». «ولن نتركهم». «إنّ السّلطة قبل الشّاباك تبحثُ عنّي». «من قديمٍ كُتِبَ على الشّرفاء أنْ يُطارِدهم الخَوَنة». «لن نقفَ كالبُلَهاء». «ماذا تقترح؟». «لن تطول هذه المُطارَدة». «لا تقلْ ذلك». «أُحِسّ أنّ الأمر قريب». «ماذا تنوي أنْ تفعل؟». «لن أقعَ في أيدي أيٍّ من الجهتَين، قبلَ أنْ أُنفِّذَ العمليّات الّتي أخطّطُ لها كلّها».

هل كانَ العَشاءَ الأخير؟! هل يبقى له في الفم طعمُه الّذي لا ينتهي؟! على خريطةٍ فوقَ تلك الصّخرة الّتي تُشبِه صخرة القُبّة من حيثُ أنّ أمرها إمّا هابِطٌ من السّماء أو صاعِدٌ إليها، فكّرْنا بكلّ ما ينبغي علينا فِعلُه. كُنّا نشعر أنّ الشّيخ (عبد السّلام) حاضِرٌ بيننا، وأنّ روحَه ما زالتْ تلفّنا بالطّمأنينة، وتمدّنا بالعزيمة والإصرار.

كُنّا نُسابِق الزّمن، شكّل (صالح) بوجهٍ سِرّي مجموعةً من الخلايا المُقاتِلة، كان حُبّ الأوطان يدفعهم إلى عِناق الموت طواعية، لم يكنْ من حُبٍّ ليدفعهم إلى النّهايات السّريعة مثل هذا الحُبّ، كانتْ فلسطين عروسًا مَهرُها الدّم، لم يبخلْ هؤلاء الشّهداء المُحتمَلون بدمائِهم مرّة، ولم يتردّدوا في أنْ يسكبوها على ثرى معشوقتهم لحظة!

من أينَ كان (صالح) يأتي بالسّلاح؟ اسألوه أنتم. لديه وسائلُه الخاصّة. كيفَ هربَ هروبًا مُزدوجًا من السّجون؟ اسألوه أنتم. لديه خيالُه الخاص. كانتْ هناك خلايا عسكريّة مُسلّحة

بالكامل تُؤدّي خُططًا عبقريّة لا تقوم إلاّ في عقلٍ جبّار مثل العقل الّذي يملكه (صالح). كان شبحًا. كنتُ أحسّ أنّه يتحوّل إلى الرّقم (٠) وأنا أنظر إلى أستاذيّته في التّخطيط والتّنفيذ؛ لقد تعلّمتُ منه الكثير.

ومن (الخليل) إلى (سلفيت) مرورًا (بجنين)، كان خيطُ الدّم لا ينقطع، كأنّ الشّهادة رَحِم، كأنّ الدّم الطّاهر يجمع لُحمةَ هذه البِلاد، من أجلِ عينَيها نموت، ومن أجلِ خلاصِها من دَنَسِ الغاصبين نبذُلُ كلّ ما يعتقدُ عالَمُ الطّين أنّه ثمين!

عادَ إليّ ذات مرّة وفي صدره رَصاصة. كان دمه لا يزال دافِئًا. مسحه بأصابعه، ورفعه أمام وجهه، فأنار. هتفتُ: «يجب أنْ نأخذك إلى المُستشفى». «لا يُمكن». «لِمَ؟»». «سيقومون باعتِقالي. أُفضّل أنْ أموتَ هنا بعيدًا على أنْ أقع في أيديهم». «سآخذك إلى مُستشفًى في الخليل، ولن يعرفَ الصّهاينة بوجودك». «العربُ أشدّ في ملاحقتي منهم، أخشى أنْ أقع في أيديهم». أقنعتهُ في النّهاية أنْ نمضي.

تنكّرْنا بما نستطيع، وركبْنا سيّارة عابرةً في الطّريق، وأقنعنا صاحبها أنّ الدّم بسبب سقوطه من شجرةِ صنوبرٍ كان يعتليها». أُدخِلَ إلى الغرفة رقم (١١) في المُستشفى، لَمح أحدهم ينظر إليه بريبة، أشار إليّ بطرفِ عينِه أنْ أهرب، سيعتقلونك، أنْ يبقى أحدُنا حُرًّا خيرٌ من نُعتقَل معًا. بعدَ خمس دقائق ملأ الغرفة خمسةٌ من عناصر الأمن، حقّقوا معه، وتركوه بعد أنْ عيّنوا حارِسًا على باب غرفته، في اللّيل، تسلّل من النّافِذة، عبر أنابيب الصّرف الصّحّي، وغاب في الظّلام، وعادَ إليّ.

غير أنّه كان يعرفُ أنّ ميدان السّباق له نهاية، وأنّ الشّوطَ له غاية، قال لي: «أتمنّى ألا تكون نهايتي على يدِ مَنْ يتكلّمون بلساننا». خفضتُ طرفي: «لا أحدَ يدري ما يُخبِئه الغيب لنا». «لنا الله».

شعر أنّه غُصنه المُورِق بدأ يذوي وهو يُواصِل انبِتاته عن الجذع، ما الغُصنُ دون ساقِه إلاّ عودٌ يابِسٌ، كان يريد أنّ يتشمّم آثار أقدامِ أبيه الّذي استُشهد قبل عشرة أعوام في الانتِفاضة الأولى، أنْ ينظر في عينَي أمّه ولو لم يكن من الممكن أنْ يحتضنها، حتّى لا تكون نهايتهما معًا... يعودُ الإنسان - مهما كابرَ - إلى التّراب الّذي أطلَعه، إلى الثّرى الّذي نما فيه، إلى الحضن الّذي حماه من الصّقيع، وإلى البيت الّذي آواه؛ ظَنّ (صالح) أنّ زيارةً خاطِفة لبيته في (سيلة الحارثيّة) في جُنحِ الظّلام لن تُغيّر في المُعادلة وأنّها ستُطفِئ نيران أشواقِه. لكنّه لم يدرِ أنّ هذه النّار سوفَ تكون نهايته!

عينٌ ما كانتْ تقبع في زاويةٍ واحدةٍ من شارعٍ يمرّ به النّاس كما يمرّون بأسواقهم، ظلّ ينظر إلى مكانٍ واحدٍ طيلة أشهرٍ طويلة، لم يغيّر المكان، لم يُغيّر زاوية النّظر، ولم تتعدّد لديه المهمّات: «عليكَ أنْ تراقب طوال الوقت المكان نفسه وترفع التّقرير في كلّ يومٍ». إنّه هو. الهدف الّذي لا تُخطِئه العين لأنّه لم يُخطِئ هدفًا.

اعتقلوه قبل أنْ يدخل البيت. كانوا يتكلّمون العربيّة. أخذوه إلى رام الله. أنزلوه إلى أقبية التّعذيب، ليس لدى العرب مُحاكمة، لديهم موتٌ مُقسَّط. وأسئلةٌ لا يسألها الصّهاينة أنفُسُهم. اجتمع حوله زبانية التّعذيب، كانوا أكثر من عشرةٍ يتناوبون على إزهاق رُوحِه. سألوه: «أنتَ مُتّهم بحيازة القنابل». «كان ذلك وأنا في السّادسة عشرة من عمري». «إنّها جريمة». «كنتُ أقتل بِها

مَنْ قتلني وقَتَلَكم». يَهوي البُسطار على وجهه، وهو مُقيّدُ اليدَين إلى ظَهره، كان يودّ أنْ يقول له: «أنا مُسلِمٌ مثلك، عربيٌّ أنا وأنتَ أيّها الجَبان، لماذا تُعذّبني؟! ألا تجري في عروقي الدّماء الّتي تجري في عروقِك؟!». لكنّ الدّم الثّاعب من فمه خنقَ هذه التّساؤلات، فيما كان يسمع آخَر يقول: «إنّ بيريز طلب التّخلّص منه، لا يُمكننا أنْ نرفضَ أمرًا يطلبُه منّا رئيس الوزارء». صَدَقوا؛ إنّه رئيسهم هم.

يسألونه: «لماذا حرقتَ عشرات الدّونمات من الأراضي المزروعة بالأشجار المُثمرة؟». «لقد حرقتُ حقول المُستوطَنات». «إنّها أرضُهم». «بل أرضُنا. سرقَها اللّصوص ولن أجعلهم يهنؤون بها». «اخرسْ يا واطي». يُهرَع إليه أحدهم يُمزّق قميصه، يُصبح صدره عارِيًا، يقرفصُ عنده، ويرفعُ زجاجةَ موادّ كيماويّة حارِقة، ويسكبُها على صدره، تحرقُ جِلده، يعلو صوتُ نشيشها، يكزّ صالح على أسنانه، يقول له المُحقّق: «مُؤلِمة؟! صحيح؟!». أرادَ أنْ يُجيبه: «لكنّها ليستْ أشدّ ألَمًا من خيانتكم»، لكنّ فمه المُطبِق وأسنانه الّتي يشدّ عليها لم تُمكِّناه من ذلك.

يسأله مُحقّق آخر: «أنتَ مُتّهمٌ بقتل ظابط كبير من حرس الحدود، ومُتّهمٌ بمحاولة اختِطاف جندي إسرائيليّ ومُبادلته بالأسرى». «إنّه إسرائيليّ كما قلت؟». «ولكنّه إنسان، وله أهلٌ وأولاد». «والأسرى؟! ماذا يكونون؟! حيوانات؛ أليسَ لهم أولادٌ وأحلامٌ هم الآخَرون». «اخرسْ يا حيوان». كان في خاطره ألفُ وجع، وفي خاصرته ألفُ طعنة، وفي صدره ألفُ سكّين، وفي فمه ألفُ سؤال: «لماذا تُعذّبونني وأنا أدافع عنكم؟ وأنا أقاتل من أجلكم؟ أتكون الأرضُ الّتي أطلعتْني غيرَ الأرضِ الّتي أطلعتْكم؟!

أتكـون الرّحـم الّتـي أنجبتْنـي غـيرَ الرّحِـمُ الّتـي أنجبتْكـم؟! لِمَ كلّ هـذا؟!».

استمرّ التّحقيـق والتّعذيـب ثلاثـةَ أيّام. تركـوه في شـقّة مَنسـيّة، حـينَ اكتُشِـفَ استشـهادُه عـام ١٩٩٦م، كان جسـدُه غـيرَ جسـدِه؛ كانـتْ عنقـه تتـدلّى عـلى صـدره مكسـورةً كأنّهـا لا تنتمـي إليـه، وكانـتْ آثـارُ الحـروق تُغطّـي ثلاثـة أربـاع جسـده كـما تُغطّـي ثلاثـة أربـاع وطنـه، وكانـت الدّمـاء السّـوداء الجامـدة تسـيلُ خطوطًـا كأنّهـا ينابيـع قـد تفجّـرتْ فيـما مـضى مـن ألـفِ عـين، وكان هـو غـيرَه، لأنّـه تـركَ هـذه القـشرة الغريبـة الّتـي تُسـمّى الجسـد، وروحُـه قـد ارتقـتْ إلى عِلّيّـين.

(٣١)

فَخّ العاطِفة

لم تكـنْ أوّل مَـنْ أُودّع يـا صديقـي، ولـن تكـون آخِرَهـم، لقـد كُتِبَ على هـذا القلـب أنْ تـزداد ثُقوبُـه كلّ يـومٍ برحيـل أحبّتـه؛ مـا أقسـى أنْ يرتقـي جـزءٌ منـكَ إلى السّـماء، ويرسـف مـا تبقّـى منـكَ في الطّين! أمـا تَعِـبَ هـذا الرّاسـف حتّـى يلحـق بمـن سـبقوه فيرتقـي كـما ارتقَـوا؟!

لـن أقتـلَ بِـك، لـن أنتقـم، ولـن أثـأر، الثّـأر حيلـةُ الضّعفـاء، وردّة فِعـل عاطفيّـة يغيـبُ فيهـا العقـل عـن الإدراك، لكنّنـي سـأظلّ سـائِرًا عـلى الـدّرب مهـما بـدتْ نهايتـه مسـدودة، النّضـال ليـس خيـارًا، إنّـه عقيـدة، وهـو نهـجُ حيـاة. لـن يتوقّـف خيـطُ الـدّم، حتّـى يرتقـي أحدُنـا نحـن الأرقـامَ الّتـي مـا زالـتْ لهـا في علـم الغيـب خطـواتٌ لم تمشِـها كلّهـا عـلى هـذا الـتّراب المُقـدّس، ويومًـا مـا ستنتهـي خُطـواتي كـما انتهـتْ خُطواتُـكَ أيّهـا الحبيـب، وحينـذاك، ستمـلأ الفرحـة قلبـي، ذلـك أنّ انتِهـاء الخُطـوات إعـلانٌ باقـتراب اللّقـاء الّـذي لا يكـون مـن بعـده فـراق، حيـثُ لا وَصَـبَ ولا نَصَـب، ولا تَعَـبَ ولا رَهَـق؛ أيّهـا العـالي في السّـماوات: متـى أراك؟!

ركضـتُ هـذا اليـوم في كلّ اتّجـاه، أجـري نحـو المجهـول المعلـوم، أقـع في حفـرة الوجـع وأقـوم، تصيـدني الذّكـرى فتُرديني قتيـلَ شـوقٍ ثُـمّ أنهـضُ مـن جديـد! منـذُ الصّبـاح الّـذي عرفـتُ فيـه نبـأ استِشـهادك وأنـا أركـض، لا أدري إلى أيـن، ولمـاذا؟ كنـتُ أُسـابِقُ الرّيـح كأنّنـي كنـتُ أهـربُ مـن أنْ أتخيّـل وجهـكَ يـومَ ارتقيـت، كان توقّفـي عـن الرّكـض يعنـي أنْ يطلـع لي وجهـكَ مـن بـين الأشـجار فيُصيبنـي الهَذَيـان والنّحيـب، ومـن أجـل هـذا كنـتُ أهـربُ منـك، أهـربُ مـن حضـوركَ فِيّ، كنـتُ أشـعرُ

أنّني كلّما نهبتُ الأرضَ بأقدامي تساقطَتْ صُورُ عذاباتك من رأسِي، لم تكنْ هناك وسيلةٌ أخرى من أجل أنْ أتخلّص من المشهد، قطعتُ في هذا الرّكض المحموم كلّ أحراش يعبد، ثُمّ لم يكفني ذلك، فخرجتُ منها إلى سهل ابن عامر، كان الكلب يركضُ خلفي وهو ينظر إليّ يريدُ أنْ يعرفَ لِمَ أفعل ذلك؟ لكنّ الكلاب تعرف حُزنَ أصحابِها، كانتْ عيناه وسطَ هذا اللّهاث السّريع تدمعان، هل يبكي رَيّان؟ ليستْ أوّل مرّة، لقد بكى من قبلُ.. لا زلتُ أركضُ في مرج ابن عامر، في وسطِ سهولٍ مفتوحة، كنتُ مكشوفًا على السّماء، أيّة طائرةٍ تمرّ من هنا سأكون طُعمًا سهلاً لها، غير أنّني كنتُ أشعر أنّها لو أمطرتْني بالرّصاص فسيتساقط الرّصاص من حولي كما تتساقطُ حبّات البرتقال عن الشّجرة، وستذوب في التّراب كما تذوب حبّات الخوخ النّاضِجة، ولن تمسّني بسوء... ثُمّ ماذا تريدُ الطّائِراتُ منّي؟ ها أنذا أفتحُ ذِراعَيّ على اتّساعهما مُرحّبًا بالموت كما يليق، ومُبتسِمًا أمامه على أجمل ما يكون الابتِسام!

كان يومًا جنونيًّا. عشر ساعاتٍ من الهروب اتّقاءَ الذّكرى، ما أوجع الفَقْد! قلتُ لريّان وأنا مُستلقٍ على ظهري في الأحراش بعدَ ذلك كلّه: «إذا انهمرتِ الرّصاصات عليّ ماذا ستفعل؟». ردّ: «سأتلقّاها بصدري». «إلى أيّ مدى أنتَ صادق؟». «إلى المدى الّذي تَصدُقُ فيه نملةٌ في حماية سِربها». هل كُنّا نهذي؟! قضمَ التّعب والحُزنُ تُفّاحة قلبَينا، نمنا جوعَى تلك اللّيلة، لا يليق بالثّكلان أنْ يذوقَ الطّعام!

مرّ أسبوعان. نقطع الوقت أحيانًا بالحديث، يبدو أكثره هلوسة، أقمتُ في هذه اللّيلة مُناظرة مع (رَيّان) عن أنواع القَتَلة،

قلتُ له: «الجوعُ قاتل». ردّ: «لا يجوع من طَعِم الحقيقة». «والعطشُ قاتل». «لا يعطشُ مَنْ شَرِب ماء اليقين». نهرتُه: «لا تتفلسف أمامي». «لِمَ لا، البشر يتفلسفون أسوأ منّي». ضحكْنا، تابعتُ: «والخوف قاتل». أرادَ أنْ يردّ، سبقتُه: «لا تقلْ لي لا يخاف مَنْ خافَ الله». ضَحِك، وصمت. قلتُ: «ومَنِ القَتَلة في نظرك؟!». ردّ: «الخيانة قاتلٌ خبيث». «والبُعد». «والقلبُ الّذي لا ينسى». «والشّوق الّذي لا يهدَأ». «والبرد والظّلام والحُزن و..». «ما أكثر القتلةَ...!!».

مرّ شهرٌ آخر؛ كان الشّوق قد حَزّ وجداني، وقطّع شرايين الفُؤاد، لم أرَ وجه أمّي، لِمَ يكون الحرمان منه ذابِحًا هكذا؟ لا بُدّ من... صمتٌ... تذكّرتُ ليلةَ القَتَلة، لم أنتبه حينَها إلى أنّ الشوق قاتلٌ يُضاف إلى صفّ القتلة الطّويل الّذي لا ينتهي.

بعضُ الأسرار ينفثِئ سِرُّها دون أنْ يدري أحدٌ، ينكشف السّرّ فجأة ولا يعودُ إلاّ حقيقةً عارية، هل استطاعوا أنْ يُمسِكوا بطرف الخيط الّذي يقود إلينا نحن الأرقام الغامضة؟!

صارَ كلّ شيءٍ يبحثُ عنّي، لم تعد السّلطة وحدها تفعل ذلك، كان الاحتِلال يقودُ العمليّة، لم تعد العيون الّتي تنظر من بُعدٍ كافية، ولا تلك الّتي تراقبُ الزّواريب والأزقّة، ولا تلك الّتي تصنع من نفسِها عجوزًا يُطالع الجريدة في مقهى القرية، ولا الّتي تسير على قدمَين ذاهلتَين، بل صنعوا عيونًا تنظر من الأسقف، من السّماء، صُورًا جوّيّة دقيقة تبحث عن هذا المُطارَد الزّئبقيّ.

«ما الّذي يدفعك إلى أنْ تفعل هذا؟». «الشّوق يا ريّان... الشّوق... أنتَ لم تُجرّبه... لا أُمَّ لك، لا أبناء، لا إخوة... فلِماذا عليكَ أنْ تشعر بي أو به؟!». «الشّوق فَخّ العاطفة يا صديقي...

قاتِلُكَ الأجمل، ولكنّه الأوجع... كُنْ عاقِلاً يا صديقي». «لا تُمْلِ عليّ فلسفتَك من جديد». «أنا لا أتفلسف، لكنّني أحميك وأحمي نفسي، ما أحمقَ البشر!». «هل تشتم أيّها الكلب؟!». «نعم؛ يعرفون أنّهم يسيرون إلى مهالكهم فلا يتوقّفون، بل تراهم يغذّون السّير إليها». «قلتُ لك: أنتَ لا تعرفُ ما الشّوق، ولا ما الأمّ». «لا يعنيني أنْ أعرف، يعنيني أنْ أحميك. حَكّمْ عقلكَ يا رجل». «صرتَ تناديني يا رجل يا كلب!!». «ها أنتَ تغضب... هذه مقاتل البشر، الغضب الّذي لا مبرّر له، والشّوق الّذي يُمكن تأجيله». «لا يُمكن يا رَيّان... لا يُمكن...». «أنا أمنعك». «أنتَ لا تستطيع». «بل أستطيع». «لا تُعانِدْني».

ومشيتُ مُتحدّيًا (ريّان) خارِجًا من الأحراش بخطواتٍ سريعة، والكلب يتبعني: «وجهكَ هو هو أيّها البشريّ... تنكّرْ على الأقلّ... إذا قرّرْتَ أنْ تكون صيدًا، فلا تكنْ صيدًا سهلاً». كان الكلب يتبعني، وفجأةً وقفَ، ونصبَ أُذنَيه رادارًا، عرفتُ أنّه يسمع أصواتًا، سأسمعها أنا من بعدِه، بقينا جامِدَين مكاننا، كان السّكون والهدوء يغلّف المكان، باستثناء أصوات الطّيور الّتي تُسمَع من حينٍ إلى حين، وحفيف أوراق الشّجر الّذي يتناهى إلى مسامعنا كلّما حرّكه الهواء.. ثُمّ... دقائق... ها هو صوتُ أزيز... ليستْ طائِرات مُحلّقة... إنّها زَنّانات صغيرة... سمعتُ الكلب ينظر إليّ كأنّه يقول لي: «ها أنتَ تسمع؛ ألم أقلْ لك؟!».

غير أنّ العقل إذا حجبتْه العاطِفة ألغى كلّ مساحةٍ للتّفكير، قلتُ له: «زنّانات طبيعيّة، سماؤنا كلّها مُحتلّة مثل أرضِنا يا عبقريّ... وماذا في ذلك..». ومضيت، فتبعني وهو يُبصبص، كأنّه استسلم.

وصلتُ إلى عرابة، بيوتُها، شوارعُها... يااااه... أزقّتها... الطّفولة الغاربة... الذّكريات الهارِبة... الحارات، الوجوه، النّاس... كان كلّ شيءٍ فيها يُعيدُني إليها... نظرتُ إلى (ريّان) الّذي خفض بصره غير راضٍ عمّا فعلت، وهمستُ في أذنه: «أترى هذا الجمال... أترى... كلُّ شيءٍ هادِئ، لا يُوجَد ما يمنعنا من الاستمرار..» رأيتُه يُثبّت قائِمتَيه الأماميّتَين كأنّه يقول لي: «لا تتحرّكْ، لا تفعلْ، الموتُ يختبِئ خلفَ هذا الهدوء الظّاهريّ... الحتف يختفي وراء هذا الجمال الأخّاذ.. أتوسّل إليك ألاّ تفعل». لكنّ حجاب العقل كان يزداد قتامةً كلّما اقتربْتُ أكثر من رائحة التّراب، وصُور الأحباب، وذكريات العشق، و... ووجه أمّي.

واصلتُ السّير بحذر، أمشي وأقف، وأنتظر، وأرقب، وأجلس، وأمثّل دورَ غريبٍ عابرٍ يريدُ رشفةَ ماءٍ واحدةً تُعينه على مسيره الطّويل، ثُمّ ها هو بيتُنا القديم، كمنتُ على مقربةٍ منه أنظر إليه؛ إنّه لا يزال على عهده، لم يتغيّر فيه سوى ذلك القوس الّذي يعلو المدخل؛ صارتْ تعربشُ عليه سوسناتٍ لم أكنْ أنتبه إليها من قبلُ... وتلك البوّابة الّتي أصابَها بعضُ الصّدأ.

أكلتُ خُطُواتي المُتبقّيات الّتي تفصلني عن البيت بلهفة الجائع، وولجتُ البوّابة خطفًا، وركنتُ ظهري إلى جدارها الدّاخليّ أستطلع المشهد، رأيتُ أمّي في الفناء وهي تكنسه، شهقتُ... إنّها تُمسِكُ المكنسة الّتي كانتْ تهوي بها على رأسي، لم أشعرْ أنّني بحاجةٍ إلى أنْ تفعلها أمّي معي مجدّدًا مثل اليوم.

طرقتُ على البوّابة كي تنتبه لي، لكنّها لم تفعل، ناديتُ بصوتٍ خفيض، لكنّها لم تلتفت، ركضَ إليها (ريّان) ما إنْ رأتْه

حتّى فزعتْ، غير أنّها عرفتْه من بعدُ، وعرفتْ أنّه لا يأتي دون ابنِها، فخفق قلبُها، وفيما كانتْ تُصوّب نظرها إلى بوّابة البيت، كنتُ أركضُ نحوها، وأضمّها، وأبكي بين يديها، وأنا أقول لها: «سامحيني يمّه... سامحيني».

أعدّتْ لنا العشاء، قالتْ لي وقد غلّف القلقُ سحابةَ وجهها: «ما بتخاف يعتقلوك يمّه». «لا يمّه لا تخافي... الصّبح رح أمشي... جِئتُ من أجل أنْ أطفِئ نيران شوقٍ لعامَين ماضِيين». «إنّ شاء الله ما بطول غيبتك يمّه».

كانتْ غرفتي لا تزال على عهدها، السّرير، والجدران، والصّور، والنّافذة وشَبَكُها، وخيوط النّمل، والرّائحة، قال لي (ريّان) وأنا أتفحّصها كأنّني أتفحّص جسدَ حبيبةٍ طال اللّقاء بها: «لا تنمْ هنا، إنّ حبيبتكَ ستكون قاتِلتك». رددتُ وقد ضجرتُ منه: «كُفّ عن ذلك يا رَيّان... أعرفُ ما عليّ فِعلُه.. وأشكر لك نصائحك الّتي لم تتوقّف عن الإدلاء بها.. أعرفُ كلّ هذا... ولكي تكون راضِيًا لن أمكث هنا غير هذه اللّيلة، وقبلَ أنْ يمدّ الفجر أُولى خُيوطه سأكون قد رحلت». بصبص بعينيه، أرادَ أنْ يقول لي: «لن يكون هناك فجر». ولكنّه آثر الصّمت.

زننننن... قفز الكلب من الفِراش... جذبني بأسنانه لأقوم: «استيقظْ أيّها الكَسول... إنّهم قادِمون». تثاءبْتُ... اغتظتُ... شددتُ الغِطاء الّذي أزاحه عن جِسمي، وعدتُ للّنوم. عوى الكلب بصوتٍ مبحوحٍ كأنّه يبكي. هل يبكي الكلب؟ كان يبكي دمًا!

حلّقتْ أربع مروحيّات فوقَ بيتنا، فيما كانتْ هناك طائِرات أخرى تجوب سماء جنين. نزلَ من المروحيّات أكثر من خمسين جنديًا

توزّعوا على فناء البيت، وسطحه، وعلى أسطح الجيران.. لم يقل الكلب لي عبارتَه الّتي كان له الحقّ في أنْ يقولَها: «لقد سمعتُهم قبل أنْ يصلوا إليك بخمس دقائق على الأقلّ، كان يُمكنكَ أنْ تهرب، ولكنّكَ لستَ عنيدًا فحسب، بل أنتَ لا تسمع النّصيحة، وتحتقرني، مع أنّك تدري صدقي ووفائي».

لم أتوقّع أنّ هذا سيحدث على هذا النّحو!! هل يُمكن أنْ أكون خطيرًا إلى هذا الحدّ؟! ألم تكتفِ الدّولة أنْ تبعثَ لي جنودَها حتّى بعثت طائراتٍ خاصّة. بدأتِ الطّائرات تُنزِل أفراد الكوماندوز... هبطوا مثل النّسور الجارحة مدرّعين ومُدجّجين، وانتشروا في كلّ مكان وعلى الأشجار، وفي المداخل. وأضاءتْ كشّافاتهم الّتي تُصوّب أضواءَها من بطن المروحيّات فوقنا، وتعالى صوتٌ بغيض: «سَلّم نفسَكَ يا محمود!».

(٣٢)

خيالات الموت

خَلَعوا الأبواب، حَطَّموا النّوافذ، وتولّى عشرةٌ منهم الوقوف على هيئة صفٍّ يعترضُ المدخل وهم يضربون بهراواتهم على الواقيات الزّجاجيّة، ويصرخون بالعبريّة: مَكانَك... قِفْ... وجهَك إلى الحائط... مُخرِّبون... و... اختلطَ السُّكّر بالمِلح، والزّعتر بالطّحين، والخُبز بالتّراب، وانقلبتِ الأواني، وتهشَّمتِ الجِرار، وانداح الزّيت، وانسكبَ السّمن... كنتُ أمامهم واضِحًا كالقدَر، لكنّهم آثروا أنْ يدمّروا كلّ شيءٍ. كان هناك صِياحٌ لا يتوقّف، وأوامر لا تنتهي، وأمّي... كانتْ تصرخ، وأهل البيت، وأشجار الحُوش... و(ريّان) الّذي كان يقفز من جنديّ إلى آخر وهو يحاول في استماتةٍ أنْ يُدافِع عنّي، وصَوّب أحدُهم بندقيّته نحوه، وسحبَ الأقسام، فركضتُ باتّجاهه وقفزتُ فوقَه فسقطنا معًا على الأرض...

واستيقظتْ (عرّابة) كُلّها على الزّعيق الّذي ملأ الفَضاء، كانت المروحيّات تَهمِر، تهبطُ حتّى ما يكونُ بينها وبين البيت إلاّ أمتار، والعواصف الّتي تصدر عنها تُبعثِر كلّ خفيفٍ وتُزحزِح كلّ ثقيل، ويتناثر في زوبعةٍ دائريّة حولنا كلّ أوراق الشّجر والملابس المنشورة على حِبال الغسيل... وارتفعتْ ثلاث مروحيّات إلى الأعلى، وظلّتْ مروحيّةٌ فُويق الفناء ثابتةً تزعق دون أنْ تتوقّف عن الصُّراخ المَقيت، كانتْ تبدو أنّها ثابتةٌ في مكانها لكنّها تترجرج، ومن الهول كنتُ أشعر أنّها ستسقطُ في لحظةٍ خاطِفةٍ، فتهدم البيت على مَنْ فيه.

والّليـل؟ أشـدّ قتامـةً مـن قلـوب هـؤلاء الغاصِبـين. والرّيـح؟ أشـدّ سَـفْيًا مـن حِقـد هـؤلاء المُحتلّـين. وبعـضُ أطفـال الحيّ؟ أصابهـم الهلـع، ورجفـتْ قلـوب النّسـاء، ومـا أفاقـوا مـن الهـول إلاّ بعـدَ أن انقضـتْ أيّـامٌ وليـالٍ عـلى تلـك الحادِثـة.

قيّـدوني بقيـود مَعدنيّـة خلـفَ ظهـري، وبأصفـادٍ ثقيلـةٍ جمعـوا بين رِجلَيّ، فلـم يكـنْ بينهـما من المسافة إلاّ ما يُتيـحُ أنْ أحرّكهـما بمقدار نِصـفَ مـتر أو أقـلّ. وعصبـوا عينَـيّ بالكوفيّـة الّتـي كنـتُ أضعهـا عـلى عنقـي، وشـدّوها حتّـى كادتْ عينـايَ تنفجـران، وفي الظّـلام دخلـتُ في ظـلامٍ أشـدّ ثُـمّ... خمسـةٌ أو عـشرةٌ لا أدري، هَـوَوا نحـوي، وانهالـت عـليّ الـرّكلات واللّطـمات والصّفعـات والرّفـس... ثُـمّ دفعـوني مـن ظهـري وقـد تـورّم كلّ شيءٍ فِيّ... كنـتُ أعمـى، لا شيءَ مـع هـذا اللّيـل سِـوى اللّيـل، وقذفـوني على مـا يبـدو في جيـب عسـكريّة، دار مُحرّكهـا واندفعتْ تنهـبُ الأرض، ومـن بعدِهـا انطلـقَ عـددٌ لم أُحصِـه مـن السّـيّارت العسـكريّة، ومـن بـين أصواتِهـا وزعيـق المروحيّـات، كنـتُ لا أزال أسـمعُ عُـواء (ريّـان) الجريـح!

حـينَ وصلْنـا إلى مركـز التّحقيـق، ركلنـي أحدُهـم ببسـطاره العسـكريّ عـلى صـدري، فسـقطتُ عـلى الأرض، سـمعتُ صـوتَ طقطقـة، لا أدري إنْ كان مصدرهـا رُسغِـي الّـذي حَـزّه القيـد، أم فِقـرة في الظّهْـر، أم عظمـةٌ في الصّـدر؟!

وقفـتُ. كنـتُ أحجـل. قـال صـوتٌ مـن خلـفِ أذنَي: «هَيّـا... أسرعْ أيّهـا المُخـرِّب... اركـضْ...» «كيـفَ أركـضُ وأنـا مُقيّـد اليدَيـن والرّجلَيـن؟» «اركـضْ». «كيـف أركـضُ والمـدى عمَـى؟!». «اركـضْ». حاولـتْ أنْ أسـتجيب، لكنّنـي سـقطتُ أوّل مـا حاولـتُ، وجذبنـي

أحدُهـم جذبـةً شـعرتُ معهـا أنّ كتفـي قـد انخلـع. «اركـضْ». صـار عَليّ أنْ أُوازِنَ بـين نصـف المـتر الّـذي تُتيحـه أصفـاد القدمَـين، وأنْ أتـلافَى السّـقوط، وأن أتجنّـب الارتِطـام بـأيّ شيءٍ يَشـغلُه الفـراغ الّـذي أمامـي، فقـد كنـتُ مـن دون عيـون!

عـشرةُ أمتـار، عـشرون... ثلاثـون... تلـك الّتـي قطعتُهـا، مثـلَ قطـاةٍ تحجـل، ثُـمّ أُلقيـتُ في الزّنزانـة، رُفِعـتِ الكوفيّـة عـن عينَـيّ. لم تكـنْ زنزانـةً كتلـك الّتـي عَهِدْتُهـا فيـما مضى. كانـتْ خَزّانًـا طُولـه مـتر وعرضُـه مـتر، وسـقفُه يمـسّ شَـعَرات الـرّأس، ومُصمَتـة، كأنّهـا كيـسٌ إسـمنتيّ، لا نوافـذ، ولا شـقوق، ولا حتّـى ثقـوبٌ ولـو كانـتْ بحجـم رأس الإبهـام. هـل أنـا في قـبر؟!

خيـالات المـوت. النّهايـات الّتـي تـأتي سريعـة. النّـدم الّـذي لا فائـدة منـه. صـوتُ (رَيّـان) الّـذي لا يكـفّ عـن طَـرْقِ جمجمتـي: «لمـاذا تصامَمْـتَ عـنْ نصائحـي!!». الهـواء الّـذي يشـكو الاختِنـاق... وصُـوَر الرّاحلـين. كيـفَ تجـيء هـذه الصّـور في هـذا المـكان، إنّـه لا يسـتدعي القـبر إلاّ مَـنْ غـاب فيـه، ولا يسـتدعي المـوت إلاّ مَـنْ اسـتدعاه، ولا يـرى إلاّ مَـنْ حُـرِم الرّؤيـة، وهـا هـي أجسـاد الشّـهداء تمـرّ في خيـالي، إنّهـا لم تسـلم مـن مفارقـة الـرّوح لهـا، حتّـى مثّـل بهـا الأقربـون قبـل الأبعديـن، ونهـشَ مـا تبقّـى منهـا العمـلاءُ قبـلَ الرّؤسـاء.

ألقَـوا عليـه القبـض بعـدَ أنْ ألقـى قنبلـةً عـلى دَبّابـةٍ تتسـلّى في الشّـوارع بسـحقِ كلّ مـا يمـرّ في طريقهـا، فجّـروا فيـه قنبلـةً فانفصـل فيـه كلّ مُتّصِـل، وافـترق كلّ مُجتمِـع. الشّـظايا تمـلأ أجسـادَ أصحـابي، لم يُخرِجـوا منهـا شـظيّة واحـدة في مشـافيهم البائِسـة، قالـوا: «إنّ إخراجَهـا سيُشـوّه الجسـد!». ظلّـتْ علامـةً عـلى النّضـال الّـذي تحـوّل إلى فكـرةٍ

لا تموت، ولا يحول لونُها مهما تحوّلتِ السّنون. رصاصةٌ مطّاطيّة في العين، سالتْ، لم تعدْ تنتمي لصاحِبها، صار أعمى، لكنّه لم يفقد صورةَ حبيبته، العين لا ترى كما ترى الرّوح، بعضُ الفقد امتِلاك. «وَقِّعْ»؛ يصرخ ضابطُ التّحقيق اللّعين، يردّ: «لا أرى حتّى أفعل». «وقّع على البَياض». لم يكنْ بياضًا أيّها المُحتلّون، كان سوادًا في كلّ شيء.

ثُمّ... لا أستطيع أنْ أبلعَ لُقمةً واحدة. ستأكل بطريقتنا؛ مَدّوا أنبوبًا بلاستيكيًّا قاسِيًا في فمه حتّى اختنق ثُمّ خرجَ من فتحة الشّرج، وفي الجهة الأخرى كانتْ روحُه تصعد. أنتم لستم بشرًا. مَنْ ظَنّ أنّ مُحتلاً وقاتِلاً ولِصًّا وكتلةً من الحقد المُختّر يُمكن أنْ يكونَ بشرًا؟!

رؤوس مَعدنيّة مُدبّبة، كان منظرها وحده يُثير الفزع في كلّ خليّة، وضعوها على رأسِه وفي موضع عورته ثُمّ سارتِ الكهرباء في جسده، كان يرتعش مع أمواج الكهرباء الّتي لا ترحم، يريدُ أنْ يصرخ حتّى تخرج بعضُ هذه الشّرارات الكهربائيّة مع صُراخِه لكنّه لم يستطعْ، كان يرتعشُ كجناحَي ذُبابة، ويهتزّ اهتِزاز نجمةٍ بعيدةٍ في السّماء، تسقطُ دون أنْ تُعلِنَ عن سقوطِها... هكذا يرتقي الشّهداء!

جريحٌ آخر، من عُمر الجراح الّتي شاختْ في جسد هذا الوطن الذّبيح دون أنْ تموت. كانتْ رِجلُه قد بُتِرتْ. من الممكن الحِفاظُ على الرِّجل الأخرى، ولكنْ إذا كنتَ قادِرًا على أنْ تفقدَ إحداهما فبإمكانكَ أنْ تفقد الأخرى، فقط عند محتلٍّ يرى أنّه لن تحلم بالمشي ولو عرجًا مرّة أخرى على هذا الثّرى الحبيب. صار بلا قدمَين، قطعوها له بلا رحمة؛ لأنّ الثّانية اشتاقت للأولى!

القبر الزّنزانة الّذي لا أزال أقبعُ فيه بعدَ مرور أكثر من شهر، كان يبعثُ في كلّ لحظةٍ من لحظات وجودي فيه مِئات الصّور الّتي شَهِدتُها أو تلك الّتي استدعاها خَيالي، كانتْ ذرّات الهواء القليلة هنا تعجّ بشريطٍ سينمائيّ يمنعني من النّوم، من الأكل، من التّوقّف عن التّخيّل، من الحياة. هل تعرفون لونَ عيوني هنا، عينان غائرتان لكنّهما تُقاوِمان الانطِفاء، شَعَراتي الّتي تتناثر متبدّدةً على جبيني خارِطة. جسدٌ نحيلٌ لكنّه يُقاوم الانكِسار، غير أنّ هذه الخيالات الّتي لا تكفّ عن التّدفّق في جمجمتي تشربُ عزيمتي، وتمتصّ دمائي، كيفَ أستطيع الهرب منها؟! كيفَ يُمكنني دفنُها في رأسِها؟! إنّها لا تكفّ عن التّجوال في فضاء هذه الجمجمة الّتي ترتفعُ فوقَ كاهِلَيّ! كيفَ تتخلّص من قاتِلك وقاتِلكُ يعيشُ في رأسِك؟!

في اليوم الخمسين أو السّتّين... لا أدري كيفَ يعدّ مَن كان في القبر أيّامه... في يومٍ ما من هذه الأيّام المُتشابِهة، أخرجوني من هنا... وأركبوني سيّارة عسكريّة، وذهبوا بي إلى منطقةٍ لستُ أدري إنْ كانتْ تنتمي إلى فلسطين، أو تنتمي إلى كوكب الأرض... كانتْ هناك أرضٌ واسِعة تضيقُ بقبورٍ متناثرةٍ على غير هُدًى في كلّ بقعة. أجلسوني بعدَ أنْ رفعوا العصابة عن عينَيّ لأرى... كانتِ القبور تبدو حقيقيّة... هل هناك قبورٌ مُزيّفة؟! كان الجنود يُشكّلون مع رشّاشاتهم المُتحفّزة ثلاثة أرباع دائرة من خلفي وعن يميني وشمالي، وحده الجزء الّذي يُتيح لي الرّؤية كانَ أمامي، وكان يقع على هذه القبور الّتي تنتصبُ شواهدها الحجريّة... كانتْ هذه الشّواهدُ تحكي قصّة من غابوا في الثّرى، بعضُها أكله العفن، ونبتتْ دمنة تحتها، وأخرى كانتْ تبدو جديدةٍ قد خُطّ فوقَها اسم مَنْ مات باللّون الأسود... لم يكنْ هناك من شيءٍ غير عاديّ حتّى هذه اللّحظة... ثُمّ فجأةً لاحظتُ

يـدًا تخـرجُ مـن قـبرٍ هنـا، وسـاقًا تخـرجُ مـن قـبرٍ هنـاك، شَـهقتُ... اضطربـتُ... ضيّقـتُ عينَـيّ لأتأكّـد مـن أنّنـي أرى مـا أرى... فاسـتمرّ المشـهد السّـورياليّ بالعبـث بي، لقـد بـدأتْ رؤوسٌ تظهـر فاغـرةً أفواهَهـا، لقـد كانـتْ تـصرخ، تبـدو أنّهـا تـصرخ؛ إذ إنّنـي لم أسـمع لهـا صوتًـا... ارتجفـتُ مـن الرُّعـب، لا يُمكـن أنْ يكـون هـذا حقيقـةً؟! لكـنْ كيـفَ أراه بهذا الوضـوح؟! هـززتُ رأسي هَـزّاتٍ مُتابعـة، فاهتّـزتْ صـور السّـيقان والأذرع والـرّؤوس الخارجـة مـن القبـور، ثُـمّ لمّـا توقّفْـتُ صَفَـتْ بعـد ذلـك، وعـادتْ إلى الخـروج، لم يبـقَ إلاّ أنْ تسـير، صرتُ أتخيّلُهـا تسـير بالفِعـل، غـيرَ أنّ صـوتَ الرّصَـاص المُنهمِـر فـوقَ رأسِي قتـل ذلـك الخَيـال... إنّـه صـوتُ رَصَـاصٍ بالفِعـل... ازززززز... لقـد مـرّتْ هـذه الرّصاصـةُ بالقـربِ مـن رأسي... الملاعـين... إنّهـم يُطلِقـون الرّصـاصَ بالفِعـل... نظـرتُ مـن جديـدٍ لأسـتجلي الحقيقـة، فـإذا الرّشاشـات الّتي يحملونهـا تَئِزُّ فِعـلاً، أردتُ أنْ أهـرب، أنْ أركـضَ نحـو القبـور، أنْ ألقِـي بنفسي في جوفِهـا، أنْ أرتمـي بـين العِظـام فهـي آمـنُ لي مـن هـؤلاء القَتَلـة، غـير أنّ قدمًـا كأنّهـا حائـطٌ هـوتْ عـلى ظهـري فأفقدتْنـي الوَعـي عـلى الفـور.

صحـوتُ في زِنزانـةٍ أكـبر مـن الخَـزّان السّـابق، أكـبر مـن المُكعّـب الحجـريّ، إنّهـا مرحلـةٌ جديـدةٌ إذًا. ظهـر مُحقّقـون بعـدَ ذلـك اليـوم ببـدلاتٍ أنيقـةٍ وربطـات عنـقٍ فاخـرة، كانـوا يدخّنـون أكثر مِمّـا يسـألون. ويصمتـون أكثر مِمّـا يَفُوهـون. كيـفَ يُمكـن لواحـدٍ مثلي أنْ يتحمّـل كلّ هـذا الجنـون؟!

في ماراثـون السّـباق في حلبـة المـوت الّتـي لا تُـرى أطرافهُـا، رَمـوا في زنزانتـي في أحـدِ هـذه الأيّـام العابِـرة دفـترًا وأقلامًـا وألوانًـا. كان

الدّفتر يقول لي: «ارسمْ أو اكتبْ». رسمتُ بالفِعل، اكتشفتُ في هذا العدم أنّني رَسّامٌ حقيقيّ، وأنّني كاتبٌ لا يُستهان بي. لقد قرؤوا كلّ ما في عقلي على الورق، أينَ أنتَ يا (رَيّان) لتقول لي: إنّ هذا كان فَخًّا جديدًا يُضاف إلى فِخاخهم الخبيثة الّتي لا تنتهي!!». كيفَ يُفكّر هؤلاء؟!

محكَمة... وقفَ كلّ مَنْ في القاعة... أنا في القفص... الموضع الّذي لم أغادره إلاّ لأعودَ إليه... محكمة... طَرْقةٌ أخرى... الهياكل الّتي أراها خلفَ طاولة الحُكم كانت تلبسُ ثِياب العدالة الظّالمة، ثياب اللّصوص الّذين جاؤوا من وراء البِحار البعيدة... محكمة... فتح رئيس القُضاة فمه، نطقَ بالحُكم أخيرًا... ثلاثة مؤبّدات... أربعة... عشرة... سجن مدى الحياة... لو دفع سُكّان الأرض جميعهم أعمارَهم ثمنًا لهذا الحكم لما وَفَوا به... وماذا تعني هذه السّنوات الّتي يجب أنْ أقضيها في هذه الأحكام الّتي لا يُمكن وصفُها، والّتي ستستمرّ حتّى تَرِمّ عِظامي؟! إنّ موتي لن يُشبِعهم، ستظلّ جُثّتي من بعدِها حبيسةَ تنفيذِ حُكمٍ لا نهائيّ مثل هذا! ثُمّ على أبنائي، وأبنائِهم من بعدُ، وسلالتي إلى يوم الدّين أنْ تقبع في زنازينهم تطبيقًا لهذا القَضاء... ولكنْ مَنْ قال إنّهم سيعيشون إلى ذلك العهد، إنّهم سيرحلون، وسيرحلون قريبًا، وسأرى بأمّ عيني هذا، سأراه حقيقةً لأنّني مؤمنٌ به، وسأخرج من هذه السّجون البغيضة، وسأنتصر عليهم، وسأتزوّج، وسأرقصُ بكلّ ما فِي جوارحي من فرح، وسيكون لي أبناء يحملون الرّشّاشات مثلي، ويركبون الطّائرات المُقاتِلة، وسأُغنّي بكلّ ما في حنجرتي من صوت...

(٣٣)

لم تهربْ من الجحيم، بل هربْتَ إليه!!

«وأوسعُ من هذا الفَضاء حديثُ الإنسان؛ فإنّ الإنسان قد أشكل عليه الإنسانُ، لكنّي من البشر ممزوجٌ بالخير والشّرّ، وأعلم أني بشريّ أزِلّ إذا قُلت، وأضلّ إذا ارتأيت، وأُخطِئ إذا توخّيت، وأُصيب إذا وُفّقت، وأُحقّقُ إذا أُلهِمت، وأَسعدُ إذا لُوطفت، فإذا لُمتَ فليكن لوْما هوْنا». هذه العبارة إهداءٌ لكَ يا ريّان، إنّها أشبهُ باعترِاف، بعضُ الاعترِاف يُخفّف وطأة النّدم، لقد قرأتُها من قبلُ عند التّوحيديّ.

مضى عهد الزّنازين أيّام التّحقيق، وتنقّلتُ في البوسطات؛ كأنّها كانتْ وطني الّذي ما حنا إلاّ ليقسو، وما قَسا إلاّ لِيَحنو، كان كلّ سِجنٍ يُسلّمني إلى الآخَر، ولم تكنْ تُنزَع عن يدَيّ القيود إلاّ لتوضَع فيهما، وأنا... في السّجون كلّها الّتي ابتلعتْني لم أكنْ أرى غير فلسطين، غير هذا التّراب الّذي يتشكّل فيه وجهُ أمّي، ووجه حبيبتي، وأشقّائِي، ورفقاء الدّرب، وأولئك الجنود المجهولون الّذين سال خيطُ الدّمِ من أجسادهم قبل أنْ تستأثر بهم السّماء، تُقبّل دماؤهم وجهَ الثّرى، يغيبون فيه، كأنّ عطشَه إلى أرواحهم لا ينتهي، وحينَ يأخذُ منهم ما يُعِينه على أنْ يظلّ مُعشِبًا يصعدون... أينَ يصعدُ الشُّهداء؟! كيفَ يرتقون إلى الأعالي؟! مَنْ يستقبلهم هناك؟ مَنْ يمسحُ على جِراحهم لِيُنشِئهم من جديد؟! مَنْ يأخذُ بأيديهم في النّعيم حتّى يتمنّوَا أنْ يعودوا مرّة ثانِية إلى الأرض، ليسَ إلى الأرض، بل إلى فلسطين، وهل الأرضُ كُلّها غير فلسطين؟!

وجنين؟ عُقدةُ المُحتلّ، الخنجرُ المرزوع في خاصِرته، جحيمُه الّذي يسقطون فيه كلّما اقتحموه، والصّوت الصّارخ الّذي يسمعونه في كلّ حين، في الأزقّة، في العمارات الفارهة، في الجدران العالية الواقفة قَدَرًا يحُول بين الأرض والإنسان، في الحوارات الّتي تدور في الغُرَف المُغلَقة، الصّوت الّذي يبصقُ في وجوههم صَباحَ مساء: «ارحلوا قبل أنْ تندموا». الصّوت الّذي يُرافقهم كلّما التَقوا بالبائعين على طاولات المُفاوَضات، وبالمُطبّلين، وبالأفّاقين، وببائعي الضّمائر، وبالعُملاء... يُفاوضونهم؟! يُفاوِضون سُلطةً مُنحلّة، لن يُفيدكم كلّ هذا، لا سلطةَ إلاّ للبندقية، ولا حُكْم إلاّ للرّشاش، ليقلْ هؤلاء البائِعون على الطّاولات ما يقولون، وليُطمْئِنوا جَزّاريهم ما شاؤوا، فالقول الفَصْل لم يكنْ يومًا إلاّ للحجر في يد صبيٍّ لم يبلغِ الحُلُم، والكلمة الأخيرة لا ينطقها إلاّ القابِضون على الزّناد، والصّفحة الحقيقيّة لا يَخُطّها إلاّ الدّم، والتّاريخ لن تكتبه إلاّ رصاصات المُقاومة... أمّا هؤلاء السّفلة المُنبطِحون فستسوقهم مكنسة الحقّ إلى مزبلة التّاريخ.

ليس في بلادنا مدينةٌ لا تُقاوم، كلّ ذرّة ترابٍ هنا ترفضُ المُحتلّ، كلّ حارة، كلّ زُقاق، وكلّ شجرة... هل تسمعون صوتَ التّراب إذا شغفه الحبّ ما يقول: «لا وجودَ لكم بيننا». هل تسمعون أنين الثكّالى ما يهمس: «لن نقبل بجِواركم ولو وعدتمونا بجنان عدن»؟! هل تسمعون صوتَ الشّجر إذا حرّكه نسيمُ الهَوى، إنّه يهتف: «مُحرَّم هذا الهواء عليكم أنْ تتنفّسوه؛ فلتختنقوا بدُخان راجِماتِكم»؟! هل تُصغون إلى نشيد الكائنات في سمائِنا ما يُغنّي: «زائِلون أنتم، ونحنُ الباقون»؟! وهل تسمعون فلسطين إذا هَزّها الشّوق ما تصيح: «ارحلوا عن ثراي، فلا حياة لكم فوقي»؟!

يحتفلون فوقَ أرضِنا المنهوبة، يفرحون في مآتمنا، ويرقصون على جِراحنا، ثُمّ يطلبون منّا أنْ نقبلَ بهم حقيقةً واقِعة؛ لن يكون. أُقسِمُ أنّه لن يكون. في يدكم الموت وفي يدنا الحياة، في وجودكم الظّلام وفي وجودنا النّور. أنتم زيفٌ ونحن حقيقة، ومهما امتلك الزّيف من جيوش، فليسَ أكثر من فُقاعةٍ تنفَثِئ أمام الحَقّ؛ فأين تهربون؟!

إنّه عيدُ فِصحهم، وإنّه عيدُ ثورتنا. كان (عودة) قد بحث كيفَ تكون ضربتُه هي الأقوى، كيفَ يتّحد غاز الأعصاب مع مشيئته ليُقطّع الأعصاب، وكيفَ تكون تضحك مادّة (الكلور) و(السّيانيد) إذا عَبَسَ الخطب.

تنكّر بِزيّ (امرأة)، دخل بين الرّاقِصين، إنّه يرى وجوههم الكالِحة، ويسمع عُواءَهم الفاجر، وأينَ؟ فوقَ طُهْرِ هذه البِلاد. حَمَل الحقيبة الّتي تحمل الموت. أوقفه مُفتّش الأمن على باب فندق (باراك) في (نتانيا)، قال له أو لها: «إلى أينَ يا حُلوة؟». ردّ دون أنْ يرفّ له جفن: «إلى الحفل». «وحدكِ». «إنْ أردتَ مُرافقتي فسأُضيف إلى الرّاقصين واحِدًا». سال لُعابُه: «لولا أنّني أقف هنا في وظيفةٍ بغيضةٍ مثل القرد لدخلتُ معكِ». «يُمكنكَ أنْ تطلبَ منّي موعدًا». قهقه: «أنتِ لعوب». ردّ (عودة): «أكثر مِمّا تتخيّل». «وهذه الحقيبة الّتي تحملينها؟». «بعضُ المُقوّيات... تعرفُ ما يدور في الدّاخل، على المُشتهاة أنْ تحتاطَ للسّرير». كادَ أنْ يتحرّشَ بها لولا أنّه حانتْ منه التِفاتةٌ إلى كاميرات المراقبة، فشعر بالخوف، وتراجع: «هل تعدينني أنْ نخرج في ليلةٍ حميميّة؟!». «بالطّبع...» وتظاهر بالتّردّد: «إذا...». «إذا ماذا...؟!». «إذا خرجتُ من هنا». قهقه بصوتٍ عال: «مَنْ قال

لـكِ إنّهـم يأكلـون الجميـلات في الدّاخـل؟!». «مَنْ يـدري؟!». قهقـه بصـوتٍ أعـلى هـذا المـرّة، وفتـحَ لهـا أو لـه الحاجـز، فدخـل.

كان ذلـك في أواخـر آذار مـن عـام ٢٠٠٢م، حيـثُ تكـون الأرضُ عـلى موعـدٍ مـع الرّبيع، مشـى (عـودة) بخطـواتٍ واثقـةٍ متّجهًـا إلى الصّالـة، كان يتمايـل لا غُنجًـا كـما ظـنّ الحـارس، ولكـنْ طربًـا بالموعـدِ الجميـل القـادم.

عَـبَرَ الـرُّواق، كان صـوتُ احتفالِهـم يصـكّ الآذان، وترتـجّ لـه جـدران الفنـدق، انفتحـتْ لـه البوّابة الخشبيّة الكبيـرة المُفضِيـة إلى القاعة، عـلا صـوتُ الفـرح الفاجـر حـينَ صـار هنـاك، كانـتْ قدمـاه تغوصـان في السّـجّاد الأثـير النّاعـم المخمليّ، نظَـرَ في الوجـوه، إنّهـم مـن ذلـك النّـوع الّـذي تـركَ المـوتَ خلفـه لـيراه أمامـه، مـن أولئـك الّذيـن سـاقتْهم أمانيُّ الحيـاة الرّغيـدة وأوهامُهـا فتركـوا أصقـاع أوروبّـا لينعمـوا بـدفءِ الأرض الّتـي تـدرّ لبنًـا وعسـلاً كـما قيـل لهـم، نظـرَ إلى حقيبتـه الّتـي يحملهـا، وهمـسَ في أعماقـه: «العسـل كلّـه هنـا، إنّـه (٤) كغـم مـن العسـل الصّـافي وسـتذوقونه بعـدَ قليـل».

عـبَرَ طـرفَ القاعـة الصّاخبـة، مـرّ بجموعهـم المُتمايِلـة، ونظـر في وجوههـم واحِـدًا واحِـدًا، وتخيّـل حـوارًا شـهيًّا يـدور بينـه وبينهـم: «مـا الّـذي أتـى بِـكَ يـا (أنـدري)؟». «أرض الميعـاد». «قلـتَ لي أرض الميعـاد؟! لـن تـرى ميعـادًا يتحقّـق أكثـر منـه اليـوم». «وأنـتَ يـا (ألـتر) لمـاذا تركـتَ بـلادك البعيـدة؟». «هربـتُ مـن جحيـم النّازيّـة». «مسـكينٌ أنـت، أنـتَ لم تهربْ مـن الجحيـم بـل هربْـتَ إليـه». «وأنـتِ يـا (دفـورا)، أيـنَ تركـتِ زوجـك؟». «في حضـن امـرأةٍ أخـرى». «لـن يجـدَ أدفـأ مـن حضنـك، وهنـا، في هـذه القاعـة، كانَ عليـكِ أنْ تـأتي بـه معـك لتغطسـا

معًـا في العسـل». «وأنـتَ يـا (أفراهـام) إنّـكَ تبـدو في مثـل سِـنّي، مـا الّـذي سـاقَ قدمَيك لتقـع في هـذا الفخّ؟». «البحـثُ عـن المتعـة؟ النّسـاء هنـا غـير». «صدقـت، المتعـة هنـا غـير».

وقـفَ (عـودة) أو وقفـتْ في وسـط القاعـة، نَظَـرَ حولـه كأنّـه يبحثُ عـن عشيق، رأى فلسطين في الزّاوية البعيدة تبكي لكنّهـا تبتسمُ في وجهـه وتُشـجّعه: «افعلْ ذلـك مـن أجلي». ابتسـم بـدوره حتّـى بـدا صَـفّ أسـنانه البِيـض: «نعـم مـن أجلـكِ يـا حُلْـوتي». سـحبَ القابـص، كانـتْ لحظـةً واحـدة لم تـدمْ أكثـر مـن ثانِيـة، ولكنّهـا سـجّلتْ تاريخًـا طويـلاً لـنْ يُنسَـى في ذاكـرة الطّرفَين اللّذَيـن يقفان على ضِفّتَين لا يمكـن أنْ يلتقيـا إلى آخـر العُمـر... بُـمْ... بُمممممم كبيرة، كبيرة جِدًّا، طـارَ لهـا كُلّ شيءٍ، في قلـبِ القاعـة الّتي لم يعـدْ لهـا قلـبٌ، في السّـقف الّـذي انهـار عـلى غاصِبيـه، في الجـدران الّتـي تصدّعـتْ عـلى رؤوس اللّصـوص... بُمممـم... لم تسـمعْ فلسـطين منـذُ أوّل قـدمِ لـصٍّ وطِئَتْهـا مثلهـا، إنّهـا نهايـة الأحـلام الّتـي لم تكـنْ إلاّ وهمًـا.

وهـو؟ لم يعثـرْ لـه أحـدٌ عـلى شيءٍ منـه، لا شيءَ ألبتّـة، ولا حتّـى ظُفْـر أصابعه الطّاهـرة الّتي سـحبت القابِـص، لم يبـقَ لـه منه شيء، غـابَ كأنّـه لم يكـنْ، ذابَ في جسـدِ فلسـطين، حتّـى صار هـو هي، كانـتْ تحضنـه لتُعطيـه الحياة، فيـما كانـتْ تُعطـي كلّ سـارِقٍ في تلـك اللّحظـة موتًـا ليـسَ كمثلـه مـوت.

لم يظهـرْ لـه أثـرٌ بعدَهـا، ولا حتّـى خيـطُ دمـه، فقـطْ صوتُـه، صوتُـه الّـذي ضَمّنـه وصيّتَـه: «هـذه الدنيـا لا يَخلُـد فيهـا أحـد»، لقـد اجتـزتُ إلى الضّفّـة الأخـرى، وبعـضَ اعتـذارٍ إلى مُحبّيـه: «قـد أتسـبّبُ لكـم ببعـض المتاعـب والمشـاقّ»، لكنّهـا تهـونُ كلّهـا في سـبيل الخَلاص.

جُنّ جُنون الاحتِلال. أوجعتْه الضّربة. هَزّتْ حقيبةٌ صغيرةٌ واحدةٌ كيانًا بأكمله، بدا هَشًّا؛ كأنّ كلّ جبروته لم يكنْ إلاّ انتفاشةَ الطّبل، جعل مُقاوِمٌ واحدةٌ دولةً تزعم أنّها الأقوى في العالَم تقفُ على رِجلٍ واحدةٍ، تكادُ تسقطُ من عَلٍ، صرخ (شارون): «سأقتل به الشّعبَ كلّه، سأجرف المُدُن، سأحاصر الرّئيس، سأقتلع الأشجار، سأهدمُ البيوت، سأسحق بالدّبّابات عِظام الأطفال، وسأبقر بطون الحوامل حتّى لا تأتي بعودة آخَر، سَ.....». صراخ البِغال البطينة إذا أوجعتْه الحقيقة.

بدأتِ الدّبّابات تنتشر في المُدُن انتِشار النّمل، تدخل في الدّروب الضّيّقة، وتلتهمُ في طريقها كلّ ما تُصادِفه. وبدا أنّ فلسطين تستعدّ لنهرٍ من الدّماء، ولكنْ متى كانت البِلاد تتحرّر من دون تضحيات ؟ !

من أينَ يخرج هؤلاء المُسلّحون؟! من أين ينبتُ هؤلاء المُقاوِمون؟! إنّهم مزروعون في كلّ مكانٍ، وينتشرون في كلّ صِقع، فأَرِحْ نفسَكَ، إنّ القابِض عليهم كالقابضِ على الرّمل؛ مهما شددتَ عليهم قبضتَك سينسلون من بين أصابعك عائدين إلى ترابهم، فيما ستبقى يدك فارِغةً تشكو الغيظ والغضب!

كانتْ جنين الهدف؛ الرّواية الّتي لم تكتملْ، والصّفحة الأشدّ نصوعًا في تاريخ المُقاومة الحديث، وكان عليه أنْ يقضي على كلّ مَنْ يدبّ فوقَها، لكي يظفر بليلةٍ واحدةٍ ينامُ فيها مرتاحًا، ولكنّ لياليه تتابعت دون أنْ يهنأ لحظةً بغفوةٍ عابرة.

(٣٤)

عشّ الدّبابير

اكتسحتِ الدّبّاباتُ الشّوارع، دخلتْ من الجِهات السّتّ، كانتْ تُزمجِر، وتصيح من غضبٍ وغيظٍ وحنق، وكانتْ جنازيرها تُمشّط كلّ شيءٍ في طريقها. خمسون دبّابة، مئة، مئتان، لم يبقَ من دبّابةٍ في جيش العدوّ إلاّ غادرتْ ثكناتها العسكريّة وتوجّهتْ في الاقتِحام الكبير إلى مُدِننا وقُرانا، ولكنّها كانتْ تعتقد أنّ مُخيّم جنين هو عشّ الدّبابير، وأنّه الأشدّ استِعصاءً على الاقتِلاع من بين المدن والمخيّمات كلّها، فصبّتْ عليه جامّ غضبها.

مَنْ هؤلاء المُلثّمون الّذين يزرعون الرُّعب في قلبِ الكيان الغاصِب كُلّه؟! إنّهم أبطالٌ حقيقيّون، أكثرهم لا تُعرَف أسماؤهم ولم يرَ أحدٌ وجوهَهم، يبدون مجهولين في عالَم الزّيف الّذي نعيش، لكنّهم في سِجلّ البطولة خالِدون، ما ضَرّهم جَهلُنا إنْ كان الله يعرفهم، إنّ الميزان ليس ذلك الّذي يَزِنُ به أهلُ الباطل في الدُّنيا، إنّما هو ميزان السّماء الّذي يزن به أهلُ الحقّ أولياءَه... أغلبُ الظّنّ أنّهم أرقامٌ، أرقامٌ كتلك الّتي كانتْ لنا أيّام الشّيخ عبد السّلام في أحراش يعبد. ومَنْ يدري كم رقمًا من أرقامنا الغامِضة نبتتْ هنا بين هذه البيوت المَنسيّة والشّوارع المُهمَلة!

قُوّتُنا في أنّنا حقيقيّون، نحنُ صورةُ هذه الحقيقة: «لنا الأرضُ، ولهم الرّحيل». ليسَ هناك من تجلٍّ لها أكثر من هذا الّذي يحدثُ في جنين، «سنقاتل حتّى النّهاية، حتّى آخر رصاصة، وحتّى آخر قطرة دمٍ نازِفة».

راحـتْ جرّافـات الجيـش الإسـرائيـليّ تُدمّـر منـازل السُّكّان العُـزّل لتفتـح الطّريـق للدّبّابـات والجنـود مـن أجـل أنْ يصلـوا إلى حـارة الحواشـين في قلـب المُخيّـم، نحـنُ في كلّ مـكان، لسـنا في الحواشـين فقـط أيّهـا الجَهَلـة، نحـنُ في المـاء والهـواء والسّـماء كـما نحـنُ في الـتّراب والزّقـاق والخرائـب، نحـنُ رُعبُكـم، وخيالاتُكـم القاتِلـة، لـن تنسَـونا مهـما طـال بكـم العُمـر... الجرّافـات تقتلـع الشّـجر، تُحطّـم الطّـوب، تَهُـدّ الأسـوار، تسـمحُ للدّبّابـات بالمـرور، تمـرّ دبّابـة عـلى جسـدِ طفـلٍ في الثّانيـة عـشرة مـن عمـره لم يُخْـلِ لهـا الطّريـق، طَحَنَتْـه، واختلـطَ لحمُـه وعظمُـه مـع جنازيرهـا، رَشَـحتِ الجنازيـر بالـدّم، وارتـوى الـتّراب منـه، عَـبَر الجنـود مـن خلـف تلـك الجنازيـر، حانـتْ منهـم نظـرةٌ إلى الجسـد المهـروس، تملّكهـم الرُّعـب، لقـد كانـتْ عُيُونـه جاحظـةً مُخيفـة، وبعضُهـم سَـمِعه يقـول لهـم: «لـن تمـرّوا». تحسّسـوا مواطِـئ أقدامهـم الرّاعشـة، ووضعـوا رشّاشـاتهم عـلى قلوبهـم الواجِفـة، ومَضَـوا كأنّـما يُسـاقُون إلى المـوت.

مـرّوا عـلى هـذا البيـت، صاحـت المـرأة الأربعينيّـة بهـم، وجّـه لهـا أحدُهـم فوّهـة رشّاشـه تراجعـتْ، ظهَـرَ زوجُهـا، رفَـعَ صـدره أمامَهـا لِيحميَهـا، انغرسـت الرّصاصـة في صَـدره، صـاح مـن الزّاويـة البعيـدة صـوتُ رجـلٍ سبعيّني: «قَتَلَـة... لعنـةُ الله عَلَـ...» لم يُتـمّ كلمتـه الأخيرة، أسـكتَته رَصاصـةٌ في الـرّأس.

(شـارون) لا يُتقـن غير القتـل، ونحـنُ نُتقِـن الصّمـود والمُقاوِمـة، سَـفّاحٌ متعطّـش للدّمـاء، أشـداقُه تسـيل عليهـا أرواحُنـا، كـؤوس خمـره تنضـح بعروقنـا، هـل هـذا بـشريّ؟! نحـن نواجـه أسـوأ الوحـوش في التّاريـخ، لكنّـه لـن ينتصـر، دَبّاباتُـه، طائِراتُـه، راجِماتُـه، مِدفعيّتـه، وجرّافتُـه مقابِـلَ صدورنـا العارِيـة، و... ولـن ينتصـر، لـن يمـرّ. وحشـيّته مقابـل

نِضالِنا، فُجورُه مقابل طُهرِنا، وسِكّينُه مقابل وَردِنا، مَنْ سينتصر في النّهاية؟ نحن. الدّمار ليس قُوّة، السّحق ليسَ حَقًّا، إرادتنا هي القُوّة، وعزيمتُنا هي الحقّ، ونحنُ لن نهون.

قال إنّها رِحلةٌ بالألوان، أريدُ أنْ أرى اللّون الأحمرَ طاغِيًا، وهتف: «أريدُ مجازر حمراء في مخيّمات بلاطة، وجنين، وطولكرم، وجباليا، والأمعريّ، وقدُّورة». ولْيكنْ أيّها السّفّاح، سترى كيفَ إذا انجلى النّقع مَنْ سيبقى ومَنْ سيرحل. صرخَ: «أريدُ مجازر جماعيّة، جُثَثًا مُكدّسة، اردموا عليهم بيوتهم، فلتصنع الجرّافات حُفرًا وأخاديد وألقُوا كلّ مَنْ تجدونه في طريقكم، النّساء والأطفال والشّيوخ، حتّى القطط والكلاب والمواشي... أريدُ القاني أنْ يتجلّى لعينَيّ، ابعثوا لي صورًا حمراء، وجوهًا مُغطّاةً به، أذرعًا وسيقانًا مُقطّعة، لن يُسكِتَ نَهَمِي إلى اللّون الأحمر سِوى المزيد، أنا مريضٌ بهذا اللّون، شرابي هو وطعامي، ألم تُدرِكوا هذا بعد؟!».

«أينَ زوجُكِ؟» سألوها. أجابتْ: «ليسَ في البيت». تناهى إليهم أصواتُ الأطفال الصّغار مذعورةً، جَمَعُوهم في غُرفةٍ واحِدة. ثُمّ سألوا من جديد: «مَنْ هذه؟». أجابتْ بصوتٍ راجفٍ: «هذه زوجة ابني». أمروا بصوتٍ راعفٍ وهم يُشيرون إليها وإلى زوجة ابنها: «إلى الغرفة». فجّروا الغُرفة على رأسِهم جميعًا، وانسحبوا. قال قائدهم وهو يُشعِل سيجارة: «التقطْ للّون الأحمر صورةً وابعثْها إلى وزارة الدّفاع!». تردّد أحدهم: «إنّ الأحمر مُختلِطٌ بغُبار الهَدم يا سيّدي، وشارون يريدُ لونًا صافِيًا».

سألوا في أحد الأحياء بعد أنْ خلعوا باب البيت: «هل هذا منزل الإرهابيّ حُسام؟». «ليس هنا أحدٌ بهذا الاسم». رصاصةٌ في

الصّدر، سال الدّم، التقِطْ لها صورةً أيّها الجُنديّ. سحبها إلى الزّاوية. نَهَره: «كلاّ، بل هنا». أرادَ أنْ يتلقط الصّورة، لكنّه أوقفه قائلاً: «انتظرْ. هل في البيت آخَرون؟». ردّ الجُنديّ: «خمسةُ أطفال». فكّر الضّابط في نفسه: «بالرّصاص أم بالتّفجير؟!». ثُمّ عزَم: «التّفجير يخلطُ الألوان، الرّصاص يوحّده». أطلقَ بنفسِه الرّصاصة الأولى على الطّفل الأوّل فخرّ على الأرض وراح الدّم يثعب من عنقه، ذُعِر بقيّة الأطفال، سُمِعَتْ صرخات الرّعب تشقّ أفواههم، وفرّوا، راحَ يُطلِق عليهم الرّصاص واحِدًا واحِدًا وهم يسقطون كما لو كانوا عصافير مُحلّقة تهوي من عليائِها، انتظرَ دقائقَ قبل أنْ يُكوّمهم في وسط الغرفة، ويلتقط معهم صورةً وهو يبتسم، ثُمّ يُعطِي هاتفه إلى الجندي: «الصّورة هكذا أوضح، ابعثها إلى شارون».

أعلنَ الجيشُ الإسرائيلي حظر التّجوّل. مرّ اليوم الأوّل والنّاس محبوسون في منازلهم، تجرّأ بعضُهم وخرج من أجل الحصول على الماء أو الطّعام، انتشر القَنّاصةُ المُتمرّسون على أسطح المنازل. «هل لدينا أوامر؟». «كلّ الأوامر لكم». أطلقوا النّار على كلّ مَنْ يسير في الشّوارع، تناثرتْ جثث القتلى، أسلاكٌ كهربائيّة مقطوعة تتأرجح على الأرصفة، حجارةٌ تملأ الطّرق، وطوبٌ يتدحرج في كلّ مكان، وفوارغ رصاصٍ لا يُمكن إحصاؤها، وبقايا قمامةٍ تتكوّم هنا أو هناك... في المساء لم يكنْ بالإمكان تمييز جثث البشر من جثث الحيوانات!

الجيشُ يجمع الأسلحة. ماذا يُمكن أن تكون هذه الأسلحة، أنابيب بدائيّة الصُّنع، مواسير مقطوعة من مياه البلديّة، ومسامير جُمّعتْ من مُخلّفات البِناء، وعُبوات منزليّة الصُّنع، وملح بارود

أُضيفتْ له بعضُ الكيماويّات الّتي تُباع في الدّكاكين، هذه أسلحتهم، كانوا يصنعون منها مُتفجّرات، أحزمة ناسِفة، كان الحِزام النّاسف حُلْمَ كلّ فتًى لم يبلغ الخامسة عشرة، المحظوظون منهم كانوا يتباهَون بأنّهم قادِرون على أنْ يلفّوا بها أوساطهم، وبصعقةٍ واحدةٍ يطيرون، ويطير معهم الحُلم الصّادق والوعد الحَقّ واللّقاء بالغائبين!

في اليوم الثّاني، تحرّك الموتُ قليلاً في الشّوارع، أطلّ النّاسُ برؤوسهم حَذِرين، الرّصاصة لا تعرفُ مَنْ تقتل، ولا تُفرّق في الأعمار، ولا تُميّز مَنْ يستحقّها مِن سواه، إنّها لا تعرفُ إلاّ كيفَ تقتل، كيفَ تُصيب الطّريدة، ولا يهمّها فَزَعُ الطّريدة مِن اطمِئنانِها... إنّها امرأةٌ؛ كانتْ تهرول باتّجاه النّجاة، كيفَ صَوّر لها عقلُها موضعَ النّجاة في مُخيّمٍ لا يتجوّل فيه غيرُ الموت، ولكنّها غريزةُ البقاء، كانتْ تجرّ أطفالَها الثّلاثة مُتعلّقين بذيلِ ثوبِها، حافِيةً، حاسرة الرّأس، تركضُ بهم، إلى مكانٍ يبدو أنّه خرابةٌ اعتقدتْ بأنّه سيحميها ويحمي أطفالَها، كان ذلك مُمكِنًا، لولا أنّ الرّصاص الّذي كان ينهمر بغزارةٍ كأنّه شُهُبٌ مُتساقِطة حالَ بينها وبين الوصول إلى المَلاذ... الرّصاصة الأولى كانت في ظهر الطّفل الأوّل، سقط، ثَقُلَ ذيلُ ثوبِها، نظرتْ إليه وهو ما زال يُمسِكُ بثوبِها ويُجرجِر نفسه على التّراب الّذي راحَ يشربُ من دمه المصبوب، صَرخَتْ، قهقه القَنّاص، بطّأ ثِقلُ الجسد الّذي تنسحبُ به من حركتِها، كيفَ تمضي، كيفَ تنتظر، كيفَ تُسرِع، كيفَ تهربُ من وحشِ الموتِ الكامن في الطّلقات، رفعتْ رأسَها إلى السّماء كأنّها تستغيث، كما لو كانتْ قد فقدتْ ثقتها في أحدٍ سِواه... غير أنّها سمعتْ صُراخَ طفلِها الثّاني، كانتِ الرّصاصة في الرأس، انفجر الرأس، تناثرتْ نُتَفٌ منه على ثوبِها المُمزّق، كادتْ تنهار، تستسلم لقدرها، لكنّ ذُعرَها جعلها تشدُّ ابنَها الثّالث على

صدرهـا، وتهـرب إلى الأمـام، الرّصـاص لا يتوقّـف. أيّهـا المـوت قليـلاً مـن الرّحمـة، أخـذْتَ اثنَين فأَبـقِ عـلى الثّالـث... لكـنّ الأمنيات الرّاعفـة تضيـع في مـوج المـوت المُتلاطِـم... ركضـتْ بـكلّ مـا ظـلّ في سـاقَيها مـن قُـوّة... الرّصـاص ينغـرز في القدَمَـين، أزيـزهُ يصـكّ الآذان، الهـروب، رصاصـة، خطـوةٌ أخرى في محاولـة النّجاة، رصاصتـان، نجاةٌ مُستحيلة، دفقـات مـن الرّصـاص... وحـينَ وصلـتْ إلى الخرابـة، لم يكـنْ معهـا مـن أطفالِهـا أحـدٌ، ركنـتْ ظهرهـا إلى الجِـدار نصـف المُهـدَّم، وأطلقـتْ نظـرةَ رُعـبٍ يائِسـة إلى الشّـارع، كان آخـر أولادهـا المُتسـاقِطين عـلى مقربـةٍ منْهـا، بـدا غائِـمًا مـن خـلال عينَيهـا الزّائغتَـين، رأتْـه يرتفـعُ بهـدوءٍ عـن الأرض ويطير بخفّـة كـما لـو كان فراشـة، فَرَكـتْ عينَيهـا لتتأكّـد مـن أنّهـا تـراه عـلى هـذا النّحـو، لم يكـنْ لهـا لتتأكّـد مـن شيء، شـدّتْ ظهرَهـا عـلى الحائـط تريـدُ أنْ تندفـع نحـوه مـن أجـل أنْ تحضنـه إلى صدرهـا المـليء بالـدّم وتعـود، غـير أنّ قُواهـا انهـارتْ تمامًـا، وسـقطتْ لتُكمِـل عـداد الشّـهداء الأربعـة!

(٣٥)

رائحة البارود

إنّها طائرات أف١٥ وأف١٦؛ الطّائرات الّتي تبعثُ بالعشرات إلى السّماء في قذيفةٍ واحدةٍ، نحنُ لسنا حيواناتٍ أيّها الحيوانات، نحنُ نبتُ الرُّبا، ونحنُ الغَمام، ونحنُ النّدى والهَوى، ونحن أهلوها، ولا أحدٌ أحرى بِدَقّاتِها من صدرِ أهليها. بُممممم... بُممممم... بُممممم... لم يتوقّف صوتُ الانفِجارات على مدى عشرة أيّام، ولا يبدو أنّهم سيرحلون، لا دبّاباتُهم، ولا طائراتُهم، ولا جنودُهم، ولا أيّ شيءٍ من قذاراتهم، لن تصمدوا أكثر مِنّا، وسنُقاتِل من حَيٍّ إلى حيّ، ومن شارعٍ إلى شارع، بل سنقاتل من غرفةٍ إلى غرفة، إنْ كنتُم تُذيقوننا الموت فسنذيقكم أشدّ منه وأبأس، وإنْ كُنّا نشربُه طوعًا فستشربونه رغمًا، موتُنا يلذّ طعمُه لشاربِه، وأمّا أنتم فسيكون لكم علقمًا وحنظلاً.

يعرفُ القَتَلة أنفُسَهم، يُدرِكون أنّ القتل يُصبح خَدَرًا يجري في العروق، إنّه إدمان الدّم، لقد قال «بن جوريون» له من قبلُ: «لا تقرأْ يا أرئيل؛ فأنتَ لا تصلح إلاّ للقتل، ونحن نريد قتلةً أكثر من مُثقَّفين». نعم، تلك هي الحقيقة؛ إنّه كِيانٌ يستمدّ استمراره من نهر الدّماء الفوّارة، ولا تقوم دعائِمُه إلاّ على الذّبح، كيانٌ قد ينتفش، يرتفع، يزهو، تزداد فُقاعته حجمًا وعُلوًّا، لكنّه ينفثِئ في لحظةٍ ما، لحظة الحقيقة الّتي تُطارِدُ كلّ القتلة.

الفضاء دم، الأرضُ دم، الوجوه دم، النّوافذ دم، الجُدران دم... الحرائق تصعدُ في المُخيّم كلّه، البيوت سجدتْ على أعقابِها،

القذائف من المدفعيّة والطّائرات تُحوّل كلّ شيءٍ إلى رُكام. المُلثّمون لا يستسلِمون، إنّه أشرسُ قِتالٍ يُمكن أنْ يخوضه الطّرفان، إنّه قِتال الشّوارع الّذي يُتقِنونه. عَبَرَ صَفٌّ من الجُنود زُقاقًا، إنّهم يُمشّطونه، من خلفهم رَتْلٌ آخَر من الدّبّابات، مُلَثّمٌ من حواريّي الشّيخ عبد السّلام كان يرقبُ المشهد من فوقِ سَطح بيتٍ في آخر الشّارع، فَجْر هذا اليوم زَرَع عند كلّ مفترق طريقٍ قنبلةً أو اثنتَين، فخّخ المداخل على طُول الشّارع، حَدْسُه قادَه إلى أنّهم سيمرّون من هنا، ظلّ منذُ الفجر ينظر إلى الشّارع الخالي بعينَي صقر، يكتُمُ أنفاسَه، الهدوء الظّاهريّ كان مُحايِدًا، ماتتْ حتّى العصافير الّتي كانتْ تُعشّش على الأشجار المزروعة في هذا الدّرب، وحده الموتُ والصّمت كانا سيّدَي الموقف، كان يشمّ رائحة الموت، تنبعثُ من كلّ مكان، ومع صعود الشّمس بدأتْ تلك الرّائحة تبهت، مَنّى نفسَه برائحةٍ جديدةٍ مُعتّقةٍ في الضُّحى القريب... انتظر طويلاً، لكنّ الأمل بدأ يلوح، إنّه يسمع جَلَبة من بعيد، أرسل نظره إلى أوّل الشّارع، خفق قلبُه فرحًا، ها هو أوّل جنودهم، بدأ يفحصُ المكان، اطمأنّ الجنديّ المُترقّب إلى أنّه لا أحدَ في مطلع الزُّقاق، فمضى، أشارَ بحركةٍ إلى بقيّة الجنود، فبدؤوا يسيرون خلفَه بتمهّل، شكّلوا صَفًّا تراتبيًّا، الدّبّابات وبعضُ المُصفّحات من خلفهم بدتْ هي الأخرى جميلةً مُشتهاةً في عينَيه، لديَه قوابس عشرين عبوة، ها هم يتحرّكون، قضمت الثّواني البطيئة قلبَه، هَمّ أنْ يُفجّر الشّارع في هذه اللّحظة، لكنّ النّصر صبرٌ، مرّتِ الدّقائق ثقيلةً تُجرجِر أقدامها المُترنّحة، ثُمّ... أليستْ هذه هي اللّحظة المُناسِبة لإرسال الشّارة السّلكيّة للقنابل؟! بلى، أرسل الشّارة الأولى إلى القنبلة القريبة منه... بُمْ... بُمممممم... فرقعة كبيرة، دويّ هائلٌ، طار ثلاثة جنودٍ إلى أعلى، فيما أُعطِبتْ أوّل دبّابة من جهته،

غطَسَ قلبُه في الفَرح... سادَ الذُّعر، سَمِعَ صياح مَنْ كانوا خلفهم، فتراجَعوا، أرسل الشّارة الثّانية، ابتلعتْ سبعُ قنابل دُفعةً واحدةً لُبّ الرّتل، هاجَ الجنود، وفيما كان بعضُهم يموت، كان آخَرون يُنادون على أمّهاتهم من الرُّعب... سحبَ القوابس المُتبقّية، كان صوتُ الانفِجارات المُتتالِية يُشبِه موسيقى مارشاليّة رقصَ لها هذه المرّة على قَدَمَيه، كُتَل اللّهب المُتصاعِدة فوقَ الآليّات العسكريّة كادتْ تصل إليه في سطح الطّابق الثّالث، مَدّ أَنفه باتّجاهها وتَشمّم رائحة أجسادهم المحروقة، كانت الرّائحة الحقيقيّة، وكانتْ ألذّ في أنفه من كلّ عطورات باريس المُصطنعة!

كان المشهد يحكي بطولةً فرديّة تنهار أمامها الأرتال المُدجّجة بأنواع السّلاح الفتّاكة كلّها، وحده صنَع هذا النّصر، سقطَ أربعة عشر قتيلاً وجريحًا في أقلّ من عشر دقائق، انسحبَ من المكان وانضَمّ إلى مجموعته الّتي تُعِدّ لعمليّات بطوليّة أخرى.

أربعةُ أيّام مرّتْ على اقتِحام الجيش الصّهيونيّ بمُعدّاته المُدمّرة كلّها لمخيّم جنين، ولكنّه لم يسقط، اليوم الخامس والسّادس والعاشر... لم يسقط... كيفَ تسقطُ البنايات ولا يسقط..؟! كيفَ يهربُ منه سُكّانه ولا يسقط...؟! كيفَ تنهار أعمدته الكهربائيّة وجُدرانه المُقشّرة وأبوابه الصَّدِئة ولا يسقط...؟! لقد أسقطتم كلّ شيءٍ فيه، ولكنّكم لم تُسقِطونا، ولن تستطيعوا!

دوريّة تمرّ، جنودٌ مُدجّجون بكلّ أدوات الدّفاع؛ رشّاشٌ آليّ، سُترةٌ واقِية، وماءٌ وطَعام في الحقيبة، ومِنظار ليليّ، وخوذةٌ ضِدّ الرّصاص، ومُسدّسٌ على الجنب، وحربةٌ في السّاق، و... كلّ ذلك لم يكنْ ليُشعِرهم بالأمان، كان الذّعر يركضُ في قلوبهم كما تركضُ الخيول

الجامحة في السّهوب الفسيحة... ها هم يسيرون بكلّ هذا وعيونهم المرعوبة مفتوحةٌ في الاتّجاهات كلّها... «اشتِباهٌ في حركة» همس أحد الجنود همسًا جريحًا، تجمّد الجُنديّ الأوّل في مكانه حينَ رَصَدَها، هتف بصوتٍ خفيض: «حركةٌ سيّدي». نظر الضّابط مذعورًا هو الآخر، وهتفَ بعدَ هنيهةٍ بصوتٍ راعش: «إنّه عصفورٌ ضَلّ طريقه أيُّها الأحمق». ردّ: «منذُ أنْ دخلْنا رحلتِ العصافير، غريبٌ أنْ نرى هذا العصفور هنا في هذا المكان». سارَ الموكب المفزوع، تَجمّد جنديٌّ ثانٍ: «لقد رأيتُ خيالاً يعبر من هناك». وأشار إلى بيتٍ مُهدّم، لم تقفْ إلاّ بعضُ جدرانه بأنصافها، تحفّزوا جميعًا، نظر الضّابط، ضيّق عينَيه، رفع المِنظار، وحدّق في عدَستَيه: «لا أرى شيئًا أيّها الجُنديّ». اطمَأنَّ مؤقّتًا، الضّابطُ لا يكذب، بالتّأكيد لا يكذب، وإلاّ فإنّ الهول يغلّف قلوبنا جميعًا، هكذا خطر ببال الجنديّ... مَضَوا... بعدَ دقائق، قال أحُدهم: «سمعتُ حَفَسة». قال ثانٍ: «ألم ترَ.. هناك... هناك... هل هُو خُفّاش؟!». وكان إصبعه الّذي يُشير به يرتجف... توالتْ من بعدها كلماتهم... «لقد مرّ من هنا». «إنّه وحش». «ها هو... طيفٌ كأنّه جِنّيّ». «أشباح... هناك... هناك... أشباح تطير». «لعنة الله على الجيش الّذي زَجّ بنا في هذه المحرقة». «لم يكنْ بشريّا، كان يقفز كأنّه حيوان». «هناك فوق ذلك العمود، كيفَ يُمكن لإنسانٍ أنْ يصعد أعلى هذا العمود؟! لا بُدّ أنّه قرد!!». «اخرسْ أيّها الجبان لا تُرعِبْنا... ليسَ فوق العمود شيء، هل أنتَ أعمى؟!». كان كلّ فراغٍ في الزُّقاق الصّامت يُجسّد أمامهم هيئاتٍ رهيبة، يبدو أنّ عقولهم المرعوبة اختلقَتْها... ثُمّ في لحظةٍ لا يُمكن أنْ يعرفها زَمن.. انهالَ الرّصاصُ عليهم، كانوا عشرةَ جنود، هربوا إلى أوّل بيتٍ وجدوه في طريقهم ليحتموا داخِله... حينَ صاروا داخل البيت، برز لهم أربعةُ مُلثّمين من طُفٍّ يلفّ السّاحة الدّاخليّة،

لا أحدَ يدري كيفَ ظهروا فجأة، وأينَ كانوا يختبِئون... ألقَوا عليهم أربعة قنابل... بُمممم... بُمممم... بُمممم... بُمممم... ثُمّ... لم يخرجْ أحدٌ منهم حَيًّا!

كانت التّقارير تصل إلى وزارة الدّفاع تِباعًا، وحدها صُوَر اللّون الأحمر الّتي التقَطَها الجُنود المُتبجِّحون كانتْ تُبعَث إلى (شارون)، فيما لم تصل إليه اعترافاتُ جنوده المذعورين: «كُنّا نهربُ من كمينٍ لنسقطَ في كمينٍ آخَر».

المُخيّم يتحول إلى (لينغراد) جديدة. ستفشلون أيّها الغُزاة، فعلْتُم كلّ شيءٍ؛ قطعتُم خطوط الاتّصال، وحاصرتُم المداخل، ومنعتم الطّعام والشّراب، وفرضتُم حظر التّجوّل، وقتلتُم كلّ مَنْ يتحرّك، وحلّقتْ طائِراتُكم فوقَ سماء المُخيّم حتّى باتَ سقفُه من حديد، وصوّبْتم إلينا نيران مدفعيّاتكم... ثُمّ ماذا بعدُ؟! لن تنتصروا، كلّما ظننتم أنّكم قضيتُم على المُقاوِمين، برزَ لكمْ عفريتٌ من بين الرُّكام فأذاقكم ألوانًا من العذاب، وصنوفًا من الموت لم تخطر في خيال أحدٍ منكم... أسقطتم قذائِفكم ولكنّنا أَسقطْنا معنويّاتكم، سرقتُم بيوتنا ولكنّنا سرقْنا أرواحكم.

مرّ رَتْلٌ آخر، دوّتْ أوّل قنبلةٍ، «أخذ الجنود يركضون بين الأزقّة، وعندما وصلوا إلى زُقاقٍ ضَيّقٍ مُحاطٍ بالبيوت كان بانتِظارهم كمين، لقد ترك المُلثَّمون الجنود يدخلون إلى الزُّقاق بأعدادٍ كبيرة، وحينئذٍ انقضّ عليهم استشهاديّ فَجّر نفسَه بينهم، تصاعدت الجُثث، ورائحة الشّواء، وكُتل النّيران، وإذ ذاك تَمّ تفجير عَشَرات العُبُوات النّاسفة الّتي رُبِطَتْ بسلسلةٍ واحدة، وكان هناك عددٌ من المُقاوِمين يتمركزون خلفَ النّوافذ القريبة، وبدؤوا يُطلِقون الرّصاص على

كلّ مَنْ ظَلّ حَيًّا... كانتْ مجزرة... طلب وقتَها الضّابط الأعلى من المُلثّمين وقفَ إطلاق النّار، كانَ صوتُه الباكي بلهجة الرّجاء الذّليلة: «نحنُ نطلبُ من قيادتكم وقف إطلاق النّار لإخلاء القتلى...». ردَّ عليه المُلثّمون بوابلٍ من الرّصاص، صرخ: «أستحلفكم بربّكم، أليسَ في قلوبكم رحمة...؟! ألم يأمركم دينُكم الإحسان إلى مَنْ رَكَع بين أيديكم... من أجل نبيّكم محمّد ارحمونا...».

لم يرحموا أطفالَنا، ولا نِساءَنا... بأيّ منطقٍ يطلبون مِنّا أنْ نرحمهم؟! ومع ذلك لأجل النّبيّ مُحمّد قبلنا بوقف إطلاق النّار لستّ ساعاتٍ فقط، كان ذلك يحدثُ لأوّل مرّة في التّاريخ؛ الجيش الّذي يقولون عنه إنّه لا يُقهَر، والّذي تخضعُ له دولٌ وجيوشٌ جرّارة يطلب من مجموعةٍ صغيرةٍ من المُلثّمين وقفَ إطلاق النّار!

الكمينُ المُركّب، هذا ما كُنّا نُتقِنه في معركة جنين، اصطَدْنا مرّة سبعةَ جنودٍ دفعةً واحدة، كانوا يتمركزون في وحدة تفتيش إسرائيليّة، هُرِعتْ وحدة أخرى لإنقاذ الوحدة المذبوحة، كانوا يظنّون أنّنا انسحبْنا من الموقع، لم يكونوا يعرفون أنّ وحدة الإنقاذ كانتْ هي المُستَهدَفة في الخُطّة، لا وحدة التّفتيش، حينَ وصلت الثّانية إلى الموقع كُنّا بانتِظارها، فتحْنا عليهم نيران بنادقنا... لن تمرّوا.

يفتّشون زُقاقًا من أزقّة المُخيّم فيجدون أنّ عبوةً ناسفة تنتظرهم فيه، يُفتّشون بالوعةً فتختلطُ رائِحتها برائحة البارود حين تنفجر العبوة النّاسفة الّتي خبأناها هناك، يُفتّشون رجلاً ستّينيًّا فينفجر السّتينيّ كلّه في وجوههم، يفتّشون حقائب النّساء فيجدون عبواتٍ ناسفةً تنتظرهم بدلاً من الحُليّ والأساور، تنفجر في وجوههم وتتركهم بلا وجوه!

يقولـون: «إنّـا نؤمـن بالموت، ثقافـة المـوت هـي مـا يحرّكنـا لنثـور!». هـم جَهَلَة، لم يعرفـوا مـا عرفنـا ولا عاشـوا مـا عِشْـنا؛ المـوتُ شيءٌ آخـر، ليسَ ثقافـة ولا عقيـدة، المـوتُ حيـاة بالنّسـبة لنـا، ولذلـك نفتـحُ صُدُورَنـا لـه. ذلـك الاندِمـاج مـع الـتّراب هـو إعـادةُ خلـقٍ مـن نـوعٍ مـا. المـوتُ الّـذي في عقولهـم ليسَ الموتَ الّـذي فينـا، هـم يُمكنهـم أنْ ينسَـوا، نحـنُ لا ننسـى. المـوتُ هـو حياتنـا الأخـرى، الحيـاة الّتـي تنقلنـا إلى الوطـن الحقيقيّ، هـذا الـتّراب، هـذه الجغرافيـا، هـذا التّاريخ، هـذه الأرواح الّتي تنتظرنـا هنـاك، تلـك الحيـاة الأخـرى هـي بوّابـة المـوتِ بالنّسـبة لنـا، إنّنـا نعـبره عـلى أمـل الحيـاة الخالـدة، الحيـاة الّتـي نلتقـي فيهـا بمـن نحـبّ، نلتقـي فيهـا بالوطـن المُحـرَّر وبالرّاحلـين. هنـاك، وهنـاك فقـط يُمكـن أنْ نشـعر بأنّنا عِشْـنا!!

(٣٦)

ساهي

مَضى عهدُ (جنين)، رَكَدَ الدّم ولم تركد الثّارات، وصَفَتْ سحائبُ السّماء ولم تصفُ سحائبُ النّفوس، كانتْ جنين ومخيّمها وقراها بأجمعها تُشبِه الجَمْر تحتَ الرّماد؛ ما إنْ تهبّ ريحٌ خفيفةٌ عليه حتّى يلتهب. وكانتْ تُشبِه لُغمًا كبيرًا ضغطتْ عليه قدم الاحتِلال، ما إنْ ترتفع تلك القدم حتّى ينفجر اللُّغم بكلّ شيء!

تذكّرتُ (نائل)، وجهه الّذي لا يُنسَى، لم يكنْ ممكنًا أنْ تنسى وجهًا هو صورة النّضال الطّويل الّذي لا تُرى له نهاية، تذكّرتُ شَعَرات ذقنه، عينَيه؛ كانتا عميقتَين، وادعَتين، فيهما من زرقة السّماء صفاؤُها، لكنّهما حزينتان حُزن ناي ناحَ على جِذع شجرةٍ اجتُثّ منها، كان صموتًا، لا تكادُ تسمعُ له صوتًا، غير أنّ صمتَه كان يقول أشياء كثيرة، أتذكّر يومَ زُرتُه في اعتقالي الأوّل، حينَ جمع بيننا الرّاحل الأثير (صالح)... أتذكّر نظرتَه، بعضُ النّظرات عصيّة على النّسيان مهما تقادمت الأيّام، أتذكّر حُزنَه، هل الحُزنُ شيءٌ يُنسَى؟! طلبتُ منه يومَها أنْ يُرِيَني ملعقته الّتي يأكل بها، الصّحن، وكأس الماء، وكوب الشّاي، ومنديله، وكلّ مُتعلقّاته، كنتُ أريدُ أنْ أحتفظَ بها. «هل أنتَ مجنون؟! كلانا سجينٌ يا محمود!!»، قال لي. رددت: «هذه المُتعلّقات يجب أنْ تُحفظَ في المتحف الوطنيّ يا نائل، إنّها شاهِدٌ على تاريخ طويلٍ من النّضال» ابتسم، وغَضّ طرفَه في حياء، يومَها قلتُ له وأنا أنظر في عينَيه:

فَمَا يَنْفَعُ الأُسْدَ الحَياءُ مِنَ الطَّوَى

ولا تُتَّقَى حتّى تَكُونَ ضَوارِيا

إنّها أيّامٌ ثقيلةٌ على القلب، لم أكنْ قد شكّلتُ أصدقاء في السّجن، ولا تعرّفتُ على التّنظيمات، ولا جلستُ إلى أحدٍ، لم يكنْ ذلك لأنّني لا أريدُ أنْ أختلطَ بأحد، بل لأنّه فُرِضَتْ عليّ عُزلةٌ إجباريّة أنا وأربعةٌ من السّجناء الآخرين بتهمة عصيان أوامر رئيس القسم. كانتْ فرصةً سانِحة لكي أُتِمّ ما بدأتُ حِفظه من القرآن. سنة من العزل في زنزانةٍ يتيمة، كانتْ كافِية لذلك.

خرجتُ إلى هواء الحُرّيّة المُخاتِل، أقصد أنّ خروجي من العزل كان بمثابة الخروج من السّجن، ذلك لأنّ النّظر في العيون، والحديث مع بشرٍ يُشبهونك، وتبادل الضّحكات معهم هو نوعٌ فاخِرٌ من الحُرّيّة، مهما كانت القيود المفروضة قاسيةً بعدَ ذلك.

في الفورة بدأتُ آلفُ كثيرًا من الّذين نتقاسَم معهم رقعةً من السّاحات الحبيسة، وجُدرانًا أربعةً مُتشابِكة، وبوّاباتٍ حديديّةً ذاتَ لونٍ واحد. كانتْ وجوه البشر حكايا، خلفَ كلّ وجهٍ من هذه الوجوه قِصّة بل قِصصٌ لو أردتُ أنْ أرويَها لاحتجتُ إلى الطّبريّ في تاريخه، ولن يكون كافِيًا. في أغوار هذه العيون الّتي تُحدّق في الفراغ رواياتٌ تطول، وسرديّاتٌ حزينةٌ لو سردتُها على أسماعكم لنزَفَتْ دمًا، غيرَ أنّ كلّ واحدٍ من هؤلاء كان يُخفِي حُزنَه بغِطاءٍ - لا يستر دائِمًا - يُسمّيه الصّبر، ويُداري أوجاعه بمُسكّنٍ - لا ينفع دائِمًا - يُسمّيه الرّضى... وهكذا كانتْ تسري حياتُنا.

كان كلّ ما يدعو إلى الألم حاضِرًا هنا، أوجاعٌ تمسّ الرّوح كما تمسّ كلاليب الحديد المُحمّاة الجِلد، ماذا سأقصّ عليكم ولديّ قصّتي أنا؟! على أيّة حال، لاحظتُ وجه هذا الأسير، كان يبدو ساهِمًا، لم يكن يُكلّمُ أحدًا، وكان قادِرًا على أنْ يظلّ مُحدِّقًا إلى لا شيءَ طوال

أيّام... اقتربتُ منه مرّة، ومددتُ يدي إليه مُصافِحًا: «أنا محمود»، تركَ يدي تسقطُ وظلّ ينظر في الفراغ كأنّه لم يسمعني. رفعتُ كفّي أمام عينَيه ولوّحتُ بها يمينًا ويسارًا، غير أنّه لم يطرفْ له جفن. تركتُه وسألتُ أسيرًا آخر عنه: «مَنْ هذا؟». «إنّه ساهي». أعدتُ الاسم لأتأكّد من أنّني سمعتُه بطريقةٍ صحيحة: «ساهي؟». «آه، ساهي ليس اسمه، لكنّنا نلقّبه به لأنّه سهيان دائِمًا». افترّتْ شفتاي عن ابتِسامةٍ مريرة، كنتُ مُقرفِصًا إلى جِوار مُحدّثي، وسألتُه ثانية: «وما تُهمته؟». «لا أحد يدري. إنّه معنا في الغرفة منذُ أكثر من خمسِ سنواتٍ لم ينطق فيها أكثر من خمس كلماتٍ». «وهل يزوره أحدٌ؟». «لا أدري. لم أرَ أحدًا يزروه من أوّل معرفتي به».

مضتْ أيّام السّجن مضيّ الظّباء، غير أنّها كانتْ قد عَلِقتْ بأرجلها مشابكُ جارحة، فكانتْ تعرج، وتنزفُ دمًا. ظلّ (ساهي) أو الّذي يُسمّونه بذلك في بالي، أردتُ أنْ أستحضرَ صورته وأقوم برَسْمه على الورق، كانتْ موهبتي في الرّسم قد عاودتْني، والسّجن منجم المواهب الدّفينة، وهو المِسبار الّذي تنكشفُ به خبايا النّفس وأسرارها. كيفَ يُمكن أنْ أراه وهو غائبٌ حتّى عن نفسِه؟! أعملتُ ذاكرتي وخيالي، ولكنّهما خاناني كما لو كانا يهربان منّي، امّحتْ صورتُه من ذهني تمامًا، كأنّني لم أره ألبتّة! عزمتُ في اليوم الثّاني في الفورة أنْ أنظر في وجهه طويلاً.

فُتِحَتْ أبواب الزّنازين، وتدفّقْنا إلى السّاحة مدفوعين بغريزة الحرّيّة، الحرّيّة القصيرة، تلك الّتي تنتهي عند جدار السّاحة العالي الّذي يصعدُ إلى أعلى فينتهي بسقفٍ شديد التّحصين، كُنّا نخدُع أنفسَنا ونعرفُ ذلك، لكنّ الحرّيّة الّتي تمنحها لنا مسافةُ ما بين

باب الزّنزانة وجدار السّاحة تُشعِرنا بلذّةِ كلّ ثانيةٍ فيها وإنْ كانتْ مُؤقّتة! رأيتُه قد واجه الجِدار البعيد وأعطَى ظهره لكلّ الأسرى المُتناثرين في السّاحة، فمضيتُ نحوه. «السّلام عليكَ يا...». لم يردّ. «ساهي أنا محمود». لم يردّ. «خُذْ، خبّأتُ لك هذه التّفّاحة لتأكلها». لم يردّ. هززتُه من كتِفه فلم تصدر منه أيّة ردّة فِعل، صرختُ فيه: «هل أنتَ تمثال؟ أنتَ بشريٌّ أيّها السّاهي. عليكَ أنْ تُخاطِبَني قبل أنْ...» وتوقّفتُ ظنًّا مِنّي بأنّ ذلك سوف يدفعه إلى الدّخول في حِوار معي، لكنّه ظَلّ جامِدًا، تصاعدَ الدّم في عروقي من الغضب، رفعتُ قبضةَ يدي لأهوي بها على رأسِه، غيرَ أنّه في مُنتصف المسافة استدار ونظر إليّ، كانتْ نظرته جاذِبة، فيها شيءٌ من الحُزن السّاحر، تراختْ قبضتي، وتراجعتُ إلى الوراء مبهوتًا، وتركتُه وأنا أكزّ على أسناني من الغيظ.

«سأعرفُ ما هو. لن أستسلم». حدّثتُ نفسي وأنا أصعدُ إلى برشي. التقطتُ قلم الرّصاص والورقة البيضاء ورُحتُ أرسمُ عينَيه، تذكّرتُهما الآن، كانتا عينَيْ نَبِيّ، لا يستوطن الحُزن إلاّ عُيون الأنبياء.

مرّ على ذلك شهرٌ أو اثنان لا أدري، حين سمعتُ في إحدى الفورات صياحًا وتجمهرًا لعددٍ كبيرٍ من الأسرى، ركضتُ نحوهم، فرأيتُ ثلاثةً منهم ينهالون بالضّرب على أسيرٍ لم أعرفْ من هو حتّى سمعتُ صوتَ أحدهم يقول: «خُذْ يا ساهي، ناقِصنا مخابيل». أزحتُ الأسرى المُتجمهرِين حولَه، وأمسكتُ بقبضة أحد الّذين كانوا يُوجّهون له اللّكمات ودفعتُه بعيدًا فسقط، وحانتْ مِنّي التِفاتةٌ إلى (ساهي)، إلى عينَيه، كانتا أشدّ حُزنًا، وكانَ ماء الرّجاء يقطُر منهما، وسمعتُه لأوّل مرّة يقول: «أرجوك يا محمود...» فاندفعتُ بكلّ ما

أستطيع، فخلّصْتُه من قبضة الّذين كانوا يضربونه، وصرختُ بهم: «اتركوه، إنّه لي». فسمعتُهم يقولون: «إنّه لِصّ، إنّه سارق، ويجب معاقبته»، ودخلتُ في عِراكٍ قصيرٍ بيني وبين الثّلاثة، فما إنْ وجّهتُ لكمةً للأوّل حتّى سقط، وكَفّ الاثنان وتراجَعا، وحضنتُ (ساهي)، فأخذتُه إلى زاويةٍ بعيدةٍ، ومنعتُ أيًّا من الاقتراب منه، وغسلتُ له وجهه، وسقيتُه ماءً حتّى هدأتْ أنفاسُه، ثُمّ سألتُه: «يقولون إنّكَ لِصّ فهل هذا صحيح؟». نظرَ في عينَيّ، ولم ينطق، فحَثَثْتُه على القول: «سأحميك، لا تخف». «هل تحفظُ السّرّ؟». «بالطّبع». «لكنّ السّرّ إذا جاوز الاثنَين شاع». «نحنُ لسنا اثنين، نحن واحد». وهذه المرّة بدا أنّه يتكلّم بشكلٍ طبيعيّ، وبدا أنّه فيلسوف انفتحتْ له طاقة الكلام دُفعةً واحدة.

(٣٧)

خُشخِيشَة

«اطلبْ من إدارة السّجن أنْ ينقلوني إلى غرفتك». «لماذا؟». «من أجل السّرّ». «ولماذا عليّ أنْ أفعل؟ لِمَ لا تطلبْ منهم أنتَ ذلك؟». «لن يقبلوا، أنا في تصنيفهم أهبل أو مخبول؟». «ولماذا سيقبلون إذًا أنْ ينقلوا إلى غرفتنا أهبل أو مخبولاً؟». «لأنّه كذلك». «......». «قُل لهم: إنّني أريدُ أنْ أحميه من التّعرّض للأذى على أيدي الآخرين». «هل تظنّ أنّ سلامتكَ تهمّهم؟!». «قُلْ إنّني من ذوي الاحتياجات الخاصّة وأحتاج إلى رعاية». «أشكّ أنّ ذلك ينفع». «قُلْ لهم إنّني من أقربائك وإنّ أمّي قد وصّتْك بِي». «ليستْ خُدعةً جيّدة». «أحمق». صمتُّ لبرهةٍ كي أستوعبَ أنّه يقصدني بهذه الشّتيمة، فأردف: «أحمق، وأخرق، وتضع العصا في الدّواليب، وتتردّد في أنْ تكتب ورقةَ نَقْل، وجَبان، ومُتفلسِف،... أيّ أبلهَ استعنتُ به؟!». كنتُ أحاول أنْ أبتلع المُفاجأة الّتي تنزل على رأسي كالصّاعقة جرّاء شتائِمه المُتلاحقة، قلتُ وعيناي مفتوحان دهشةً وغضبًا: «كيفَ تجرؤ على أنْ تُخاطِبني بهذا القول يا...؟!». ورفعتُ يدي أريدُ أنْ ألكمه، فوجدتُ يدي تتسمّر في منتصف المسافةِ بيننا، وأحسستُ بقبضةٍ من حديدٍ تُجمّد يدي، ورأيتُه يلفّ بقبضتِه الضّاغطة على ذراعي فأتلوّى معها، وأنا مذهولٌ بين أنْ أصدّق ما أرى وبين أنْ أحتمل الألم الشّديد، وانتصر الألم، فتفجّر صوتي: «آه... آآآه...». ولكنّه حدّق فِيّ بعينَين تقدحان شررًا، أينَ عينا النّبيّ الحزينتان اللّتان كانتا له أمسِ؟! إنّهما عينا شيطانٍ أو جِنّي الآن، كيفَ تملكُ عيناه هذا التّحوّل الكبير؟! وتبدّلتِ الأدوار، أنا الّذي رحتُ أنظرُ إليه بعينَين تفيضان رجاءً أنْ يُفلِتَ ذراعي قبل أنْ تنهرسَ في كفّه الّتي صارتْ أكبر من

وجهي، واستجاب لرجائي، ورحتُ ألهثُ وأنا أستجلبُ الأنفاسَ الّتي انكتمتْ في صدري جرّاء الألم، وبعدَ أنْ هدَّأتُ من رَوْعي سألتُه: «مَنْ أنت؟». أجابني: «اكتبْ في طلبِ النّقل إنّ (ساهي) هو ابن خالتي، وإنّ خالتي أوصتْني أنْ أرعاه لأنّه لا يستطيع تدبّر أمره وحده في سجن يعجّ بالأشرار». وقبلتْ إدارة السّجن بنقلِه إلى غرفتي، وصار برشُه في الطّابق الثّاني من سريري.

ولم أعدْ أسأله كثيرًا، واحترمتُ صمتَه، لكنّني رحتُ في المقابل أراقِبُه دون أنْ يشعر بذلك، وإنْ كنتُ أشكّ في أنّه لا يعرفُ أنّني أقوم بمراقبته... كانَ نوعًا من الجنّ... كان لِباسُ السّجن الفضفاض الّذي اختاره قد ساعدَه على التّمثيل في أنّه ضعيفٌ، وأنّ أيّ سجينٍ يُمكن أنْ يصفعه أو يبصق في وجهه دون أنْ يُحرّك ساكِنًا، غير أنّه كان يُخفِي تحت ذلك اللّباس الفضفاض جسدًا صلبًا منحوتًا نحتًا كأنّه قالبٌ مصبوب، وعضلاتٍ مفتولةً صلدةً لا يخترقها الرّصاص. وكان يبدو أنّه يعرجُ في مِشيته، وكان يتسوّل بقايا الطّعام، ويأكل منفردًا، ولا يُجالِسُ أحدًا منّا نحن الثّمانية الّذين كُنّا في الغرفة. وإذا صلّينا اصطفّ وحده في نهاية المُصلّين ولم يقفْ إلى جانبِ أيّ مُصلٍّ. وكان يسعل بشكلٍ مُتقطّع، ويتظاهر بأنّه يتناول دواءً، وإذا رفع كأسَ الماء إلى فمه، أرجعَ رأسَه إلى الوراء، وأبقى الكأسَ مسكوبًا في فمه دون أنْ يضعه على الأرض أو يُعيد رأسَه إلى الوضع الطّبيعيّ، وكان كثيرًا من يمدّ لسانه ويرشف القَطَرات المتبقّيات في آخر الكأس... ولم يكنْ أحدٌ حتّى عهدِ معرفتي به يعرف اسمَه الحقيقيّ!

وفي الوقتِ الّذي اطمأنّ الآخرون إلى أنّ هذا السّجين الغريب (خُشخيشة)، وأنّه أبله يستدعي الشّفقة والعطف، ويستجلبُ كلمات

من مثل: «يا لَه من مسكين!». «لماذا لا يسأل أهلُه عنه؟». «هل هو مقطوعٌ من شجرة؟!». «أعطِه ما تبقّى من الرّغيف، ألا ترى كم هو نحيل؟!»، كنتُ أنا على حذرٍ منه وتوجُّس، ولم أنسَ أنّ ذراعي بقيتْ مُتورّمةً أكثر من أسبوع جرّاء قبضته الّتي قبضَ بها عليّ في ذلك اليوم المشؤوم.

ذاتَ ليلةٍ، شعرتُ بحركةٍ في السّرير الّذي فوقي، كان هو، نظرتُ خفية، دون أنْ يشعر بأنّني مُستيقظ، وقد بدأ الرّعب يدبّ في أوصالي، كان يُمسِكُ بحديد السّرير، ظهره المُقوّس إلى الأسفل، ويداه مُعلّقتان بالمقابض، وينتقلُ من سريرٍ إلى سريرٍ بخفّةٍ كأنّه جنّيّ، ابتلعتُ ريقي وأنا أسمع دقّات قلبي وخفتُ أنْ تفضحني فيما إذا سَمِعَها، فهذا الجنّيّ الّذي (يتشعبط) ليسَ بشريًّا تمامًا، ثُمّ رأيْته قد قفزَ على الأرض من الطّابق الثّاني دون أنْ يُسمَع لارتِطام قدمَيه على الأرض صوتٌ، كأنّه لاعبُ جمباز مُحترِف! ثُمّ رأيتُه قد تسلّق إلى سقف الحمام، وأردتُ أنْ أتبعه فأراه بوضوح، لكنّ اختفاءه وراء الجدار هناك جعلني لا أُقدِم على ارتكاب هذه الحماقة خوفَ أنْ يكشفني، ولم أنمْ تلك اللّيلة، ولم أنمْ بعدَها ليالِيَ طويلة!!

لم تكنْ لديّ الجرأة أنْ أسأله من جديدٍ: «مَنْ أنت؟». وخِفتُ أنْ يتورّم صدري هذه المرّة إنْ فعلتُ. غير أنّني لاحظتُ شيئًا آخر غريبًا عليه، كانتْ تأتينا سِلالٌ خفيفة بلاستيكيّة، ولها يدان أو أذنان في الأعلى من المصّيص، وغالبًا ما كان يبعثُ فيها أهالي الأسرى ثيابًا أو أحذيةً أو ما شابهَ لأقربائهم، لقد رأيتُه في اللّيل، يقوم إلى هذه السّلال، فيقطع أيادِيها، ويخفيها داخل ثِيابه، ولمّا تفقدتُ سلّتي في الصّباح رأيتُ يدَيها مقطوعتَين، فعرفتُ أنّه هو!

على الفَطور، نظرتُ في عينَيه، كانتَا عينَي نبيّ حزينتَين على عادَتِهما، أنتَ إذًا لا تُظهِر عينَي الشّيطان إلاّ عند الضّرورة... امممم... لففتُ ساندويتشةً من اللّبنة مُغطّسةً بالزّيت وأعطيتُها له، فمدّ عُنُقَه وفتح فمه دون أنْ يستخدمَ يدَيه وقضَمَ أوّل قَضْمَةٍ، وهَزّ رأسَه سعيدًا، وهتفتُ في نفسي: «يا لَه من مُمثّل!»، وراحَ ينظر إليّ كأنّ لسان حاله يقول: «لماذا لا تُطعمني هذه السّاندويتشة لقمةً لُقمة كأنّني طِفلُكَ الصّغير؟!» وفيما كان الآخَرون يراقبونني وينظرون إلينا بإشفاق، قال أحدهم لي: «طَعْمِيه بِتِكْسَب أجر». وامتثلتُ وأنا أزدادُ حيرةً في أعماقي!

خلوتُ به في ساحة الفورة: «ما الّذي تنوي على فِعله؟!». لم يقلْ كلمة. «أنا شاهدتُ كلّ شيْء». لم ينبسْ بحرف. «إنْ لم تُحدّثْني فَيّشْتُكَ عندَ الإدارة» لم ينطقْ، غير أنّني لاحظتُ أنْ جفنَي عينَيه قد رجفَا، وشاهدتُ ظِلال الخوف تلوحان فيهما، وحدّقتُ في عينَيه فرأيتُهما تتحوّلان من عينَي نبيّ إلى عينَي شيطان، وفجأة قبضَ بكفّه الحديديّة على ذراعي، فهتفتُ: «ليسَ كلّ مرّةٍ يا ساهي». وقبضتُ بدوري على ذراعه، وراحَ كلّ واحدٍ منّا يشدُّ على ذراع الآخَر حتّى كادَ يعتصرها، ومع أنّني عرفتُ من قبلُ أنّ له جسدًا حديديًّا، فقد آن له أنْ يعرفَ أنّ لي ذات الجسد أيضًا. وتراختْ قبضتُه، فأرخيتُ قبضتي ودخلْنا إلى الغرفة كأنّنا غرباء، مشى هو أمامي، ومشيتُ أنا في خَطّ مُتعرّجٍ وراءه. وحينَ صرنا في الدّاخل وضع شادِرًا، كأنّه يُغطّينا، وهتف: «هل تحفظُ السّر؟». «لقد سألْتني من قبلُ وأجبْتُك». «أريدُ أنْ أسمعها منكَ من جديد». وغمزتُه بعيني وأنا أهمس: «سِرّك في بير». «يا خوفي يكون البير بِهَرّب». وضحكتُ فيما ظلّتْ ملامحه جامدةً كأنّها مقدودةٌ من صُوّان، واقتربَ منّي حتّى شعرتُ بحرّ أنفاسه، وهمس: «أنا أريدُ أنْ أهرب».

وقعتِ الكلمة في أذني كالصّاعقة، وهتفت: «تريدُ أنْ تهرب؟!!».
ووضع كفّه بسرعةٍ على فمي، وشدّ عليه وهو يهتف بصوتٍ مَغِيظ: «وَطِّ صوتَك، رَح ننكشف». ورحتُ أستعيدُ أنفاسي الّتي سرَقَها بعدَ أنْ رفعَ كفّه عن فمي ودفعني بعيدًا عنه قليلاً. ورُحتُ أُصلِح من هندامي، وأنا أحاول أنْ أترجمُ شعوري بالكلمات، غير أنّ الكلمات خانتْني تمامًا، ولمّا تعذّر النُّطق بها راح رأسي يهتزّ عِوضًا عن ذلك كأنّه بندول!

مرّ يومان وأنا أفكّر فيما قال، اختفتْ أيادي الشُّنط أو الحقائب من السّجن كلّه، لفتَ ذلك انتِباه بعضَنا، ولكنّ الأغلب لمْ يُعِر الأمر اهتِمامًا. تكسّرتْ بيننا صُخور التّرقّب، وانزاحتْ من وجوهنا ستائر الحذر، وإنْ بقينا حَذِرَين مِن كلّ شيءٍ حولَنا، سألتُه: «كيفَ ستهرب؟». «لا تستعجلْ». «عن طريق نفقٍ في الأرض؟». «لا، بل عن طريقِ سُلّمٍ في السّماء». وضحكتُ ضَحِكةً مشوبةً، ثلثُها سُخرية، وثلثاها تعجّب، وهززتُ كتفي: «سُلّم في السّماء؟» وأشرتُ إلى السّقف الّذي يعلونا، ثُمّ أشرتُ إلى القبّة المُحصّنة العالية في الفورة، وأردفتُ: «أين السّماء الّتي تبحثُ عنها؟!». فأشار إلى رأسِه وهتف: «هنا». «لا بُدّ أنّكَ مجنون». «أنا مجنونٌ باعتِراف الجميع، ولن يزيدَ اعترافُكَ حقيقة الأمر أو ينقصُه». «كيفَ ستهرب، قل لي، أنا لا أفهم؟!». «قلتُ لك لا تستعجلْ، العجلةُ فوت». «ومتى إذًا ستُخبرني؟». «اللّيلة بعد أنْ ينامَ الجميع». «لا، لن أنتظر حتّى آخر اللّيل، مَنْ يضمن لي أنْ يكونَ أحدُهم مستيقِظًا فتتحجّج بذلك». «فمتى تريدُ أنْ أُخبِركَ إذًا؟!». «على مائدة الإفطار». «سنكون كلّنا مُجتمِعين». «ذلك أبعدُ عن الاشتِباه بنا، والصّائمون لن ينتبهوا إلا إلى إفطارهم». «إذًا اتفقنا».



(٣٨)

عزيزي محمود...

إنّـه اليـوم الخامـس والعشرون مـن رمضـان، انتظرتُـه عـلى الإفطار، ولكنّـه لم يـأتِ. نظـرتُ في وجـوه الآخَريـن لكنّهـم كانـوا مَشـغولين بالطّعام كـما قـال ضُحـى هـذا اليـوم، نظـرتُ إلى قُضبـان الأسـرّة الّتـي كان يتعربشُ عليهـا كالقِـرد لكنّنـي لم أره، أردتُ أنْ أُحـوّل بـصري إلى الأعـلى حيـثُ السّـقف مخافـة أنْ يكـون هنـاك يُمـدّد أذرعـه عليـه كعنكبـوت، ولكـنْ... هـل أتوقّـع أنْ أراه هنـاك؟! لا بُـدّ أنّنـي أُصِبْـتُ في عقـلي، في النّهايـة نظـرتُ ولكـنّ السّـقف كان خاليًـا وجامِـدًا وكان ينظـر إليّ بسُـخرية. انتبـه أحـدُ النّـزلاء إلى شُرودي، سـألني: «لمـاذا لا تـأكل؟». أجبتُـه: «هـاه... لا... لا شيء... ولكـنْ ألم تـرَ صديقـي؟». «صديقُـك؟ مَـنْ؟ تقصـد المخبـول؟». أجبتُـه: «نعـم». فـردّ: «لا أدري، إنّـه مهبـولٌ، ممكـن أنْ يكـون في الحَـمّام» صدّقتُـه عـلى الفـور، ونهضـتُ ولم تـزل اللّقمـة في فمـي، ونظـرتُ داخـل الحـمّام، وتفحّصتُـه شـبرًا شـبرًا، ولكنّـه كان يضحـك هـو الآخَـر منّـي، تلمّسـتُ الجُـدران بيـدَيّ: «أيمكـن أنْ يكـون قـد دخـل فيهـا؟!». نفضـتُ رأسي وهمسـتُ في أعماقـي: «عـليّ أنْ أعـودَ إلى النّـزلاء وأُكمِـلَ إفطـاري قبـل أنْ يعبـثَ ذلـك بعقـلي». عُـدتُ بالفِعـل، قلـتُ لمُحدِّثـي وأنـا لا أزال واقِفًـا وأُشـيرُ إلى الحـمّام مـن خلفـي: «إنّـه ليـسَ هنـاك؟». هَـزّ كتفَيـه بـلا مُبـالاة، وخـرجَ صوتُـه مـن بـين ثنايـا مَضغِـه اللُّقمـة: «اجلـسْ رُبّـما هـو في العيـادة، أو ربّـما هـو في الإدارة...». سـألتُه: «الإدارة؟ ومـاذا يُمكـن أنْ يكـون يفعـل هنـاك؟». «أوووه.. ومـا أدراني؟ ألا تُريـدُ أنْ تتوقّـف عـن أسئلتك، إذا كنـتَ لا تريـدُ أنْ تـأكل فدَعْنـا نـأكل!». وتركتُهـم بالفِعـل، ولم آكل إلاّ اللّقمـة اليتيمـة الّتـي ازدرَدْتُهـا خـوفَ أنْ أختنـق بهـا، ومضيـتُ إلى

برشي، وجلستُ عليه شارِدًا، وراحتِ التّساؤلات الّتي تحوم في عقلي تتقاذفني في كلّ اتّجاه كأنّني خرقةٌ بالِية في مهبّ الرّيح: «أينَ هو؟ لقد وعد أنْ يُخبرني بخُطّته في الهرب على مائدة الإفطار؟ أيكون عندَ الإدارة بالفِعل؟ ولكنْ لماذا تستدعي الإدارة أهبل مثله...؟! كلاّ، ليسَ أهبل، إنّه أهبل في نظر النّزلاء، ولكنّ الإدارة ربّما تعرفُ حقيقته... هل هو عميلٌ لها؟ هل هو أحدُ العصافير؟ يا لَغبائي كيفَ وثقتُ به؟ لا بُدّ أنّ الطّوامّ ستهبطُ على رؤوسنا بسببه...» واسترجعتُ أصواتَ الّذين كانوا يضربونه في السّاحة دون أنْ يُدافِع عن نفسِه، وهم يصرخون: «لِصّ... لِصّ». واسترجعتُ كذلك عينَيه الرّاجيتَين، وغُصتُ في غَورِ أسئلةٍ لا قرار له.

سهرتُ تلك اللّيلة. غِيابُه المُفاجِئ لم يتركْ مساحةً لي كي أنام. «أيّها الخبيث أين أنت؟!» وصَمَتُّ مُفكِّرًا ثُمّ أردفتُ: «وما لي وإيّاك؟! فلْتذهبْ إلى الجحيم، إنْ كُنتَ عصفورًا فأنا أَخبَرُ النّاس في التّعامل مع العصافير، إنّك لا تستحقّ أنْ أشغل بالي بكَ كلّ هذا الوقت؟ فلأنَمْ إذًا». ومددتُ جسدي على البرش، ونظرتُ إلى أعلى كأنّني ممكن أنْ أراه يظهر هكذا فجأة على سريره يتمدّد هناك بهدوء كأنّ شيئًا لم يحدثْ... وابتسمتُ من بلاهةِ خواطري.

مرّ نِصفُ اللّيل، تذكّرتُ (ريّان)، كان عليّ أنْ أتذكّره، لقد مرّ على عهدي به ستّ سنين، أمّي قالتْ لي في آخر زيارة: «إنّه لا يأكلُ إلاّ قليلاً، وهو يبسطُ يدَيه أمام باب البيت ينتظر عودتك». وطافَ في خيالي يومَ لقائي به، وخوفي ثُمّ اطمِئناني، ورحتُ أكلّمه كأنّه موجود، وفي وسط هذه الخيالات الحالمة اللّذيذة نسيتُ كليهما وغطستُ في النّوم.

صحونا فجرًا على صَفّارات الإنذار، ارتجّ السّجن، فُتِحَت الأبواب الدّاخليّة كلّها، هُرِعَ مِئات الجنود يحملون الهراوات والواقِيات إلى السّاحات، كانتْ آخر خيوط الظّلام تنسلّ من ثوبِ اللّيل لتسمح لبياض الصُّبح أنْ يُسفِر، إنّه يومٌ عاديّ بالنّسبة لنا، كُنّا نسمع صُراخَهم، يبدو أنّه ليسَ عاديًا بالنّسبة لهم، ولم نعرفْ ما حدث، كان صوتُ الضُّبّاط يصيح: «عَدَد... عَدَد». كنتُ لا أزال أفرك عينَيّ مُحاولاً أنْ أستيقظَ على النّحو الّذي يُتيح لي أنْ أستوعب ما يجري... «هيّا... عدد... عدد». ورأيتُ مدير السّجن، وسألتُ زميلي الّذي في البرش بجانبي: «أليسَ هذا مدير السّجن؟». «إنّه هو بالفِعل». «هل يُمكن أنْ يحضر شخصيًّا ليُشرف على العدد؟». «لا بُدّ أنّ أمرًا خطيرًا قد حدث، إنّه لا يظهر إلاّ ومعه المصائب».

كان حشدٌ من الجنود يتوجّه إلينا مُسرِعين، كنتُ أراهم يمضون إلى غرفتنا غاضِبين، توجّسْنا جميعًا، حينَ صاروا في الغرفة، شعرتُ أنّ هواءَها خانق، وأنّ غُبارَها استقرّتْ حُبيباتُه أوسطَ رئتَيّ لدرجة أنّني سعلتُ، فيما وقفَ عشرةٌ من الجنودِ في الغرفة فضاقتْ بهم يتقدّمهم مدير السّجن الّذي صاحَ بأحد جنوده: «عدد...» فتقدّم الجنديّ بدوره، وقال يائِسًا بعد أنْ تأكّد: «ناقِص واحد يا سيّدي». لم أستطع ابتلاعَ المُفاجأة، ردّدتُ عبارته: «ناقِصْ واحد يا سيّدي... كيفَ؟ أليسَ عندكم في الإدارة؟ ألم تستدعوه؟! أليسَ واحِدًا من عصافيركم؟ هل بَحثْتُم في العيادة؟ هل فَتّشْتُم في الممرّات؟ تحتَ الأسرّة، فوقَ الغيم، بين السّماء... ماذا أليسَ موجودًا؟» وفيما كانتْ هذه الأسئلة النّازفة تطرق رأسي، سمعتُ المدير يسأل: «كيف ناقص واحد؟». ردّ الجنديّ: «لقد هرب يا سيّدي». «مَنْ؟» «ساهي». ووضعتُ كفّي على مُقدّمة عنقي أتحسّسها مُحاولاً ألاّ أختنق تمامًا:

«ساهي؟ هل هذا اسمَه الحقيقيّ؟ أم لقبه؟». اختلطَ الأمر عليّ مثل بقيّة النّزلاء، ورُحْنا ننظر في وجوه بعضِنا غير مُصدّقين.

لقد هربَ إذًا، هذا الثّعلب الماكر، كيفَ هرب؟! لقد قال ذلك لي في ثلاث ورقاتٍ تركَها مكتوبةً تحتَ مِخدّتي، صَرَّفْتُها في مياه المجاري بعدَ أنْ قرأتُها. كيفَ يُمكن أن يصنع الإنسان قناعًا يختفي خلفه حتّى يُصدّق الجميع أنّه سِواه؟!

«عزيزي محمود، أكتبُ ذلك لك، ولك وحدك، لا تسألني ما السّبب في اختياري لك أنتَ، لكنْ من المُؤكّد أنّها ليستْ قناعتي في أنّكَ تستحقّ ذلك، ولا لأنّكَ مِمّن يُتّخذ خليلاً فتُفشَى له الأسرار، ولكنّني كنتُ مُحتاجًا إلى شخصٍ يعرفُ كُنه حقيقتي، وظهرتَ أنتَ لي قَدَرًا في ذلك اليوم، كان لا بُدّ لأحدٍ من النُّزلاء أنْ يُنقِذني من براثن الوحوش الّتي كانتْ تنهال عَليّ من كلّ صوب، ومن أجل أنّ أقدار السّماء مع أبراجها تَضافَرَتا في تلك اللّحظة على أنْ تبعثَكَ أنت، أكتبُ لك ذلك. وعلى الصّعيد الآخر، ربّما تجدون أنتم الأسرى المُتبقّين من بعدي عَزاءً في هذه الكلمات لِتُنقِذكم من البؤس الّذي تغرقون فيه من جهة، أو تكون مُلهِمةً لكم على أنْ تُفكّروا بأساليب أخرى تُنقِذكم من جحيمكم الدّائم من جهةٍ أخرى.

صديقي محمود لقد خدعتُكَ أنتَ وبقيّة السّجناء، لن أكترث كثيرًا إذا سامحتَني على هذه الخديعة أم لم تُسامِحني؛ فالعبرة بالنّتائج كما يقولون، وأنا حقّقتُ ما كنتُ أصبو إليه، الدّور الآن عليك، وعلى رفقائك الّذين يتقاسمون معك القيد، وإنْ كنتُ أشكّ في أنّهم سيفعلون، ذلك أنّ الحرّيّة إرادة، والتّحرّر قرار، فهل ستكون لديهم تلك الإرادة وذلك القرار؟!

أتذكُر حقائب البلاستيك الّتي كانتْ تأتيكم من الأهالي؟!
لقد كنتُ أقطعُ يديَها المصنوعة من المَصِّيص، كان طُول كلّ يدٍ عشرين سنتيمترًا. وكنتُ أجمع كلّ خيطٍ من المَصِّيص إلى أخيه، لأُشكّل مِنها حبلاً طويلاً. كنتُ أصعدُ إلى الطّابق الثّاني الفارغ من النُّزَلاء، وأنظر من خلال النّوافذ الموجودة في الجهة الشّرقيّة إلى سُور السّجن. بين هذه النّوافذ حاجِزان: الأوّل هو الشّيك المُكهرَب والّذي يقع على بُعدِ خمسةَ عشرَ مترًا، ثُمّ الجِدار الإسمنتيّ الّذي يقع على بُعدِ عشرة أمتار تقريبًا من الشّيك، كانتِ المسافة بين نوافذ الزّنازين العُلويّة الفارغة وبين الجدار الأبعد حوالي خمسةٍ وعشرين مترًا، وكانَ عليّ أنْ أُشكّل حبلاً من خيوط المصّيص طُوله خمسةٌ وعشرون مترًا لكي يكفي هذه المسافة الّتي قِسْتُها بالنّظر، وعليه فإنّه كان عَلَيّ أنْ أقصّ أيادي حوالي (١٢٥) حقيبة، وهذا ما دأبْتُ على فِعله مع حقائبكم على مدى سنةٍ كامِلة، وحقيبتُكَ لم تكنِ استثناءً كما تعلم، وكنتُ أفعل ذلك بسرّيّةٍ تامّة حتّى لا يعرفَ أحدٌ منكم أينَ تذهبُ أيادي حقائبهم، ومع كلّ حذري إلاّ أنَ بعض النّزلاء الّذين تكرّر قَطْعُ أيادي الحقائب الّتي تأتيه شَكّ بي، ولِذا هجمَ علَيّ مع النّزلاء الآخرين في السّاحة وهم يصرخون: «لِصّ... لِصّ» في ذلك اليوم المشهود الّذي أنقذْتنِي فيه من بينِ أيديهم إذا كنتَ لا تزال تذكر!

كانتْ خُطّتي تقتضي في أنْ أقذف بهذا الحبل ذي الخمسة والعشرين مترًا من أقربِ نافِذةِ زنزانةٍ فارغةٍ في الطّابق الثّاني إلى جدار السّجن الأبعد، وواجهتْني من أجل ذلك مُشكلتان: الأولى هي أنْ أعثر على (عَقَفةٍ) حديديةٍ ذات مخالب تُمسِك بجدار السّجن البعيد، وأنْ أجِدَ فتحةً في نافذة الزّنزانة بحيثُ أمرّ من خِلالِها. أمّا العَقَفة فصنعتُها على مدى أربعة أشهر بعدَ أنْ استخدمتُ قطعةً

حديديّـةً مُهمَلـة نسـيها العامِلـون عـلى تنظيـف الزّنازيـن العلويّـة بعـدَ إفراغِهـا، وأمّـا الفتحـة الّتـي سـيمرّ جسـدي مـن خلالِهـا مـن النّافـذة، فلقـد كانـتْ قُضبـان النّوافـذ في الزّنازيـن العلويّـة تقـفُ بشـكلٍ عمـوديّ ويفصـل بـين كلّ قضيـبٍ وآخـر عـشرة سـنتيمترات، اعتمـدتُ عـلى أوّل عـشرة سنتيمترات هـي الفـراغ بـين حَـدّ النّافـذة الأيمـن وَأوّل قضيـب، ثُـمّ رُحـتُ أقـصّ القضيـب الأوّل مـن الأعـلى بحديـد العقفـة الّتـي صنعتُهـا، بعـدَ شـهرٍ مـن الصّعـود السّرّيّ ومراقبـة المـكان استطعتُ أنْ أقـصّ الطّـرف الأعـلى، ثُـمّ تركتُهـا عـلى حالِهـا عـلى أنْ أثنيهـا إلى الدّاخـل يـومَ الهـروب، وهكـذا سـيصير لـديّ فتحـة عُرضُهـا عـشرون سـنتيمترًا، وهـي أكـثر مـن كافيـةٍ مـن أجـل أنْ يمـرّ مـن خلالِهـا جسـدي النّحيـل كـما تعلـم. ظَـلّ عَـلَيّ أنْ أتـدرّب عـلى الزّحـفِ بيـدَيّ ورِجلَيّ المُمسِـكتَين بالحبـل هـذه المسـافة وأنـا مُعلّـقٌ في الفَضـاء حتّـى أقطعهـا إلى حيـثُ الجِـدار. ولعلّـك لاحظتنـي وأنـا أتعربـشُ عـلى قُضبـان السّريـر وأمـدّ جسـدي مـن بـرشٍ آخَـر في سـوادِ اللّيـل في الزّنزانـة بعـدَ أنْ ينـام الجميـع.

عزيـزي محمـود، إذا وصلـتَ في القـراءة إلى هـذه العبـارات، فاعلـمْ أنّنـي قـد خرجـتُ، بقيّـة القصّـة ستُخبِرُكَ بهـا كامـيرات المُراقبـة.
المُحـبّ (سـاهي)».

وغرقـتُ في التّفكـير وأنـا أقـرأ عباراتـه الأخـيرة، وأتخيّـل ابتسـامته الّتـي ترتسـمُ بزهـوٍ عـلى شـفتَيه وقـد انتـزعَ حُرّيّتـه، وحاولـتُ في غمـرة انشِـداهي وذهـولي أنْ أسـتجلبَ عينَيـه المُخاتِلتَـين، وتسـاءلتُ: «تُـرى هـل هـربَ بعَينَـي نبـيّ أم بعينَـي شـيطان؟!»

في أخبـار السّـاعة التّاسـعة صباحًـا أبـرزتْ كامـيرات المُراقبـة عمليّـة الهـروب، كان وجهـه إلى الكامـيرا مُباشرةً حـينَ كان يُحـاوِلُ أنْ

يرمـي حبـلاً فيـه عقفـةٌ حديديّـة بقـوةّ مـن خـلال فتحـةٍ لا تزيـدُ عـن عشريـن سـنتميترًا حتّـى تتشبّث بجـدار السّـجن الخارجـيّ، كان يبـدو كأنّـه رجـل (كاوبـوي) يريـدُ أنْ يرمـي الحبـل عـلى رأسِ ثـورٍ جامـحٍ في البعيـد، فيعلـق الحبـل بِقرنَيـه.

ها هـي ذراعُـه القويّـة تـدور بالحبـل مـرّاتٍ عديـدةٍ، إنّهـا ضربـةٌ واحـدةٌ، إنّهـا ضربـةُ القَـدَر اليتيمـة، فإمّـا أنْ تعلـق العقفـة بالجـدار وإمّـا أنْ تسـقطَ تحتـه، أو خلفَـه، وفي الحالَـين حياتـه وموتـه مُعلّقـان بهـذه الضّربـة، لكنّـه يبـدو أنّـه يعـرفُ مـا يفعـل ومؤمـنٌ بـه، لأنّـه كان غـيرَ مسـتعجلٍ في قـذف الحبـل هـذه القذفـة الّتـي سـتُقرّر مصيره... ثُـمّ هـا هـو بعـدَ محـاولاتٍ تجريبيّـة يرمـي الحبـل بالفِعـل، هـل هـذه الـذّراع سـتجعل العقفـة تطـير خمسـةً وعشريـنَ مـترًا مـن خـلال فتحـةٍ صغـيرةٍ ثُـمّ تتشبّث بالجـدار الأصـمّ البعيـد؟ إنّهـا محاولـة، والمحاولـةُ حتّـى ولـو لم تُحقّـق مـا تتمنّـى إلاّ أنّهـا تُبعِـد عنـكَ شـبح النّـدم في أنّـك لم تُحاوِلهـا... طـارَتِ العَقَفـة أمـام الكامـيرا، طـارتْ عالِيًـا كأنّ الجاذبيّـة تخفّفـتْ في تلـك اللّحظـة مـن أنْ تهـوي بهـا في منتصـف المسـافة... تبـدو المسـافةُ بعيـدةً حتّـى تصـل إلى الجـدار الخارجـيّ، وبـدا أنّهـا – مـع طيرانهـا هـذا – سـتسـقطُ قبـلَ الجِـدار ببضعـة سـنتيمترات، وسـتنتهي المحاولـةِ بشَـكلٍ مُحزِن... نعـم... يبـدو أنّهـا لـن تعلـق بالجـدار، كانـتْ في تلـك اللّحظـة تهـوي، وكان قلـبُ (سـاهي) يهـوي معهـا، كأنّـه أدركَ أنّ تعـبَ الشّـهور الفائِتـات في تحقيـق حُلـم عزيـزٍ سيموت في لَحَظَـات، غـيرَ أنّ الجِـدار لـه قلـبٌ، وأحـسّ أنّ عليـه أنْ يأسـى لقلـبِ هـذا الأسير الحالِم، فحَنـا رأسَـه! نعـم حنـا رأسـه سـنتيمتراتٍ قليلـةٍ لكـي يسـمح للعقفـةِ أنْ تتشبّث بذلـك الـرّأسِ المِطـواع... ثُـمّ... هُـبْ... هبيـب... تشبّثـتِ العقفـةُ بالفِعـل... طـار قلبُـه فرحًـا، جـذبَ الحبـل إليـه وشَـدّه، ثُـمّ ربطـه بأحـد قُضبـان

النّافذة القويّة، ثُمّ ها هو يقفُ على حافّة النّافذة، ويمدّ ذراعَيه القويّتَين إلى الحبل المشدود، ويُمسكه بهما بقوّة، ويمدّ جسده الّذي بدا ليّنا في تلك اللّحظات، ثُمّ يعكس اتّجاهه، فيُصبِح ظَهره إلى أسفل الفراغ الواصل بين النُّقطتَين، ورأسه إلى الأعلى بعد أنْ قبَضَ بكلتا ساقَيه كذلك على الحبل، وراح يتمدّد وينقبض، ويمضي بجسده المُعلّق بالحبل في السّماء، ويُراوح بين يدَيه ورجليه، يتكوّر ظَهرُه، ثُمّ ينسبط، وبخفّة بهلوانٍ قطَع المسافة الّتي تزيدُ عن عشرينَ مترًا في أقلّ من عشرينَ ثانيةً، وصارَ على السّور، بدا أنّه كان يريدُ أنْ ينظر خلفَه لِيُودّع السّجن، ربّما لِيودّعَ عزيزًا على قلبه ما زال يقبع فيه؛ عزيزًا واحِدًا هو محمود، ولكنّ تردّده انتصر لصالح ألاّ ينظر، فقط نظَر إلى الأفق الفسيح، ثُمّ إلى الموضع خارجَ الجدار الّذي سيحطّ عليه، وبدا أنّ انتِصاره على الجَلاّد مُمكِن، وبدتْ لحظة الحلم على أنّها حقيقةٌ لا شَكّ فيها، ولم يستسلمْ لمزيدٍ من الأحلام فإنّ الوقتَ ينفدُ منه، وإنّ صفّارات الإنذار لن تنتظره حتّى يرى أكثر، و...
وعليه الآن أنْ يقرفِص، ثُمّ يُمسك بكلتا كَفّيه أعلى الجدار، ويُنزِل جسده فيختصر ما يقرب من مترين من ارتفاع السّور الّذي يبلغ ستّة أمتار، ويقفز الأمتار الأربعة المُتبقّية، ها هو قد تدلّى بجسده، ويداه مُمسِكتان بأعلى الجِدار، إنّه يبدو على هذا النّحو؛ حُلُمًا مُعلّقًا، وفكرةً مُتأرجحةً تبحثُ عن قرار، ثُمّ ها هو رأسُه يقيسُ المسافة، ويقدّر عمليّة السّقوط، وها هو يُفكّر: إنّ وزني الخفيف سيخفّف من أثر السّقطة، ثُمّ إنّ الأمر يستحقّ ما هو أكثر من قفزةٍ واحدةٍ في الفراغ تطير بي بعدها إلى ملكوت الحرّيّة، ها هو يترك يده اليسرى فيسمح ذلك لجسده أنْ يقلّص المسافة بينه وبين الأرض قليلاً، وها هو يترك يده الأخرى ثُمّ... ها هو يسقط على الأرض، لا بُدّ أنّه تألّم

لهذه السّقطة مع كلّ تلك الاحتِياطات، ولا بُدّ أنّه كتَمَ صرخةً قويّة كانتْ ستندّ منه لولا أنّه خافَ أنْ يُعجّل ذلك بالقَبْضِ عليه، ثُمّ ها هو يتدحرج قليلاً على الأرض، ثُمّ يقوم وينفضُ التّراب والغُبار عن يدَيه، ورُكبتَيه، ثُم يمضي، هل هو يعرج؟ نعم، لقد كان يعرجُ عرجةً خفيفةً، غير أنّ هذه العرجة لم تمنعه أنْ يطأ بها جنَةَ وطنه، ويعُانق بها حُلُمَه، ويتركَ وراءَه جحيمًا لا يُطاق!!

(٣٩)

سجون مُتلاصِقة

جُنَّ جنون إدارة السّجن بعدَ هذا الهروب العبقريّ. عاقبْتنا عِقابًا جماعيًّا، ألقتْ ببعضِنا في زنازين العَزل بتُهمة مساعدة (ساهي) على الهَرب، لم يقلْ لي أحدٌ إلى اليوم اسمَه الحقيقيّ، لم يكنْ أحدٌ في غرفتنا يعرفُ ذلك، والإدارة تكتّمتْ عليه من جهتها، ولا أدري السّبب.

وزّعوا البقيّة على الزّنازين الأخرى. أُغلِقتِ الزّنازين العُلويّة بأبوابٍ مُصفّحة، ثُمّ راحتْ كمّية الطّعام تسوء وتتقلّص، وساعات الفورة تقلّ، والتّفتيش يحدثُ في كلّ يومٍ، وصودرتْ كثيرٌ من ممتلكاتنا الشّخصيّة، وكان يحدثُ أنْ تُفتّشَ زنزانتنا ثلاثَ مرّاتٍ في اليوم الواحد!

مرّ شهرٌ وأنا أسترجعُ في كلّ لحظةٍ وجهه وعينَيه، ثُمّ أشعر بالألم وأنا أتخيّل كَفّه الجبّارة تقبضُ على ذِراعِي، لا بُدّ أنّه من النّوع الّذي يُخطّط لمدًى طويل، وبصمتٍ مَهيب، ويعرفُ ما يفعل!

لم أبقَ في ذلك السّجن مدّة طويلة، نُقِلتُ بعدَ ستّة أشهرٍ تقريبًا إلى سجن (بِئر السّبع). لقد تَنقّلْتُ بينَ أربعةِ سجونٍ حتّى الآن، كانت السّجون منفانا الإجباريّ، كلّ منفى يقذفنا إلى منفى جديد. لم أكنْ أعرفُ أحدًا حينَ دخلتُ هذا السّجن، وسّع ذلك لديّ مساحة الحرّيّة الشّخصيّة، كان في السّجن مكتبةٌ قديمةٌ، لم يكنْ يُسمَح لنا بدخولها إلاّ مرّة واحدةً في الأسبوع، قضيتُ سنتي الأولى وأنا أقرأ كلّ ما يُمكن الحصول عليه منها، وكنتُ وحدي، أعرفُ أنّني

وحدي، كان شعور الوحدة يُسعِدني، الوحدة تُبقيك في مأمنٍ أحيانًا؛ تُبعِد عنكَ العيون المُتطفّلة، وتكفّ عنكَ الألسُن الجائعة للحكي، وتقلّل نسبة الخَبَث الّذي ينشأ عن الاحتِكاك بالنّاس. في الوحدة لذّة خاصّة، وفيها سعادةٌ غامِضة مستورة لكنّها مُعتّقة. نسيتُ نفسي بالقراءة، سنين الحصول على شهادةٍ جامعيّة مضتْ، السّجون موتٌ وجهلٌ، لولا أنّني كنتُ أحمي نفسي منهما بدفنِ وجهي في الكُتُب.

الوحدة لحظات صَفاء. كلّ ذلك كان في بِئر السّبع، أعني في سجنه، في خلوته الحميدة، لا بُدّ لي مثل ابن خلدون والإمام الغزالي من أنْ أعتزل كلّ ما يؤذي لثلاث سنواتٍ أو أربع. العزلة انبِثاق الأفكار، الأفكار الّتي يُمكن أنْ تُعين على تخطّي المرحلة الصّعبة القادمة وتجاوزها، لكنّني لا أُنكر أنّها قد تقود إلى الجنون، مدى معرفتي بالخيط الفاصل بين الشّكّ واليقين، والخيال والحقيقة هو الّذي أبقى على عقلي، أنْ تعرفَ نفسك، وتدرك ما تريدُ، وتتراجع في اللّحظة المناسبة، وتتقدّم خُطوتَين إلى الأمام هو الّذي أنقذني، أعني معرفة متى تُقدِم ومتى تُحجِم على بِئر الوحدة عميقةِ الغَور، ومَنْ يدري أين يجد فيها الماء؟! ربّما في أعمقِ أعماقِها، ربّما في ذلك الظّلام الّذي لا ينفذ إليه شُعاع ضوءٍ واحد!

طلبتُ من أخي الأكبر أنْ يجمع لي معلومات عن عمليّات هروب سابِقة من السّجون وأنْ يأتيني بها في الزّيارة القادمة. دخلتْ إليّ الأوراق بمئتَي شيكل. فوجِئتُ بكثرة العمليّات، بأفكارها العبقريّة، بقدرة أصحابها الجبّارة وبتصميمهم الّذي لا يلين. المعرفة تراكُم.

ها هو سجن (عتليت) عام ١٩٣٨م، أوّل عملية هروب للسّجناء أيّام الاحتلال البريطاني، البطل (عيسى البطّاط) أحد أبرز

قادة «ثورة القسام» أوّلَ انطِلاقتها، قَتَل في إحدى عمليّاته عالم الآثار البريطاني (جيمس ستاركي) أوائل عام ١٩٣٨م. خرجَ من السّجن لينضمّ للثّورة من جديدٍ، ثُمّ لينال حرّيّته الكُبرى بالشّهادة بعدَ أنْ خرجَ بأشهر.

في عام ١٩٥٨م خاض (١٩٠) أسيرًا مواجهةً مع إدارة السّجن والسّجّانين كافّة، وأخذوا عددًا منهم رهائن، وكانت النّتيجة أن استُشهِد (١١) أسيرًا، وقُتل سجّانان إسرائيليّان، ونجح (٧٧) أسيرًا في الهرب. كان الثّمن باهِظًا، فدى أحدَ عشرَ قمرًا إخوتهم الّذين نجحوا في الخروج، غير أنّني لا أريدُ لدمٍ من دماء إخوتي أنْ يسيل، الأمر يحتاج إلى طريقةٍ جديدةٍ في التّفكير.

لا زلتُ أقرأ كلّ ما في هذه الحكايا من عَظَمة؛ شَهِدَ (سجن عسقلان) هروبًا فرديًّا ناجِحًا للأسير (حمزة) المُلقّب بالزئبق ابن قرية عارة في المُثلّث (جنوب حيفا)، نجح في الهرب من السجون الإسرائيلية ثلاث مرّات: كانت الأولى من (سجن عسقلان) في عام ١٩٦٤م، والثّانية من المُستشفَى عام ١٩٦٧م، والثالثة من سجن (الرّملة) عام ١٩٧١م، ومضى لِيُضِيف إلى سجلّ بطولته صفحةً جديدة؛ إذ انضمّ إلى صفوف المُقاوَمة الفلسطينيّة في لبنان.

النّضال ليس له وجهٌ واحدٌ، ولا جغرافيا ثابِتة. والحرّيّة تُنشَد في كلّ مكان، ولهذا نحن نُقاتِلُ من أجلِها!

ابن قرية (سلواد) (محمود حمّاد) أحد أفراد هذه القافلة المُمتدّة، فقد تمكّن عام ١٩٦٩م من الهروب خلال نقله من سجن إلى آخر، وظل مُطارَدًا تسعة أشهر قبل أن ينتقل إلى الأردنّ، ويبدأ حياةً جديدة!

أمّـا الهـروب الكبـير، فـكان مـن سـجن (غـزّة المركـزيّ) عـام ١٩٨٧م، سـتّة مـن الأسرى ذوي الأحـكام المُؤبّـدة نجحـوا مـن خـلال العقـل المُدبّـر (مصبـاح الصّـوري) في أنْ يهربـوا هروبًـا جماعيًّـا، ويتركـوا خلفَهـم قيـادة السّـجن بحسرتهـم.

في العـام ذاتـه كان ثلاثـة أسرى في (سـجن نفحـة) في النّقـب عـلى موعـدٍ مـع الحرّيّـة، (خليـل) و(شـوقي) و(كـمال)، نجحـوا في أنْ يخلعـوا القيـد، كان بإمكانهـم أنْ يخلعـوه إلى أجلٍ غـير مُسـمّى لـولا أنّـه أُعِيـد اعتقالهم بعـد ثمانيـة أيّـام وهـم في طريقهـم إلى معـبر رفـح عـلى الحـدود مـع (مـصر).

بعـد نحـو أربـع سـنوات مـن الاعتقـال، ودخولـه المستشـفى في (بيـت لحـم)، إِثْـر تدهـور وضعـه الصّحّـيّ بسـبب الإضراب عـن الطّعـام، تمكّـن الأسـير (عمـر النّايـف) مـن الهـرب عـام ١٩٩٠م. نجـح بعـدَ أشـهرٍ في المغـادرة إلى (الأردنّ) ثـم إلى (بلغاريـا) عـام ١٩٩٤م. إذا كان عدوّنـا لا ينسـى فنحـنُ أشـدّ تذكّـرًا منـه! مـا أجمـلَ الفـرح إذا كان كلّ شروق شـمسٍ يُذكّـرك بـه، ويُعيـده إلى أحاسيسـكَ طازجًـا!

لعـلّ فكـرة الهـروب مـع الأنفـاق بـدأتْ عـام ١٩٩٦م مـع (غسّـان مهـداوي)، حـين نجـح ورفيقـه (توفيـق الزبـن) في الهـرب مـن سـجن «كفاريونـا». لقـد حفـروا نفقًـا بطـول (١١) مـترًا، سـنةً مـن الحرّيّـة المَشـوبة بالتّخفّـي والمُطـارَدة انتهـتْ بإعـادة الاحتـلال اعتقـال (مهـداوي). أربـع سـنواتٍ أخـرى فصلـتْ بـين زميلـه (الزّبـن) واعتقالـه عـام ٢٠٠٠م. كيـفَ يُمكـن أنْ تعيـشَ أربـعَ سـنواتٍ وكلّ إمكانيّـات الاحتِـلال مُسـخّرةً لهـدفٍ واحـد؛ أنْ تُعيـد وضـع القيـود في يدَيـك مـن جديـد!

غـزّة رائـدةُ الفكـرة العبقريّـة في الأنفـاق؛ لقـد بنـتْ عـوالمَ في خَيـالِ كلّ تائـقٍ إلى الحرّيّـة، وعـوالمَ أخـرى حقيقيـةً تحـتَ الأرض، مدنًـا

تسكنها الإرادة، وحياةً غير الحياة الّتي فوقَها، حياةً يُمكن أنْ تُعاشَ مُضاعَفة، وكلّ دقيقةٍ فيها تُساوي قرنًا بأكمله!

عام ٢٠٠٣م نفّذ ثلاثة أسرى في سجن (عُوفر) فكرةَ الأنفاق الّتي صارتْ عِلمًا، حفروا نفقًا طوله (١٥) مترًا على مدى (١٧) يومًا، (أمجد) و(رياض) و(خالد) لانتْ لهم الأرض، فأكلوا التّراب بالملاعق، وابتلعوه بالماء، و... وهربوا!

موعدهم الصّبح، أليس الصّبح بقريب؟! هربوا في ذلك الصّباح ولم تكتشفْهم إدارة السّجن إلاّ بعد مرور خمس ساعاتٍ على اختِفائِهم. عاشوا بعدَها سبعة أشهرٍ مُطارَدين، وانتهتْ حُرّيّتهم المؤقّتة في ليلةٍ دامسةٍ باردةٍ من ليالي كانون عام ٢٠٠٣م بعد العثور عليهم قرب قرية (كفر نعمة). دخلوا في اشتباك مع جنود الاحتِلال، ارتقى (رياض) شهيدًا، واعتُقِل (أمجد)، أما ثالثهما (خالد) فاعتُقل لاحقًا وأُفرج عنه بعد سنوات، فنالَ حُرّيةً ثانية، ثُمّ نالَ حُرّيّة ثالثةً أكبرَ من أُختَيها عندما استُشهد في اشتباكٍ مُسلَّحٍ عام ٢٠٠٦ شمال (بيت لحم).

كثيرةٌ هي العمليّات، لم أكنْ أعرفُ هذا من قبل، كلّ تفصيلٍ في عمليّات الهروب هذه كانتْ تُعشِّش في دماغي، كانتْ ترتسم على صفحةِ جمجمتي مشاهدُ الهروب كأنّها مشاهد تُعرَض على شاشةٍ سينمائيّة.

وفي حين أنّ أكثر عمليّات الهروب كانتْ تتمّ عبر نفقٍ محفورٍ تحتَ الزّنازين، وهي جبّارة بلا شَكّ، إلاّ أنّ طريقة (ساهي) في التّحليق في السّماء كانتْ أشدّ إثارةً لي، وأعظمَ أثرًا في نفسي!

تأثّرتُ بأفكارِ علماء كثيرين، قرأتُ كتبًا في سِيَر النّبيّ والصّحابة، وأفردتُ بحثًا عن نموذج البطل في هذه السِّيَر، صِفاته، ثقافته، والظّروف الّتي تساعدُ على نشوئِه، توسّع هذا البحثَ ليشملَ التّطبيق العمليّ فيه على أسرانا ومُناضِلينا الّذين لا يكفّون لحظةً عن مُقارعة المُحتلّ، صار البحثُ كتابًا، سمّيتُه (الرّواحل)، وكان يتّكِئ على الحديث: «النّاسُ كإبل مِئة لا تكادُ تجدُ فيها راحلة». فتّشتُ عن هذه الرّاحلة في كلّ عصرٍ، وفي كلّ قِصّة، واستخلصتُ الدّروس من حياتهم، وجمعتُ بعضَها إلى بعضٍ؛ فكانتْ هذه (الرّواحل).

تسرّبتْ إليّ أخبار (ساهي)، عاودتْني ذكرياتي معه، لم يخرجْ من أجل أنْ يعيشَ حياةً طبيعيّةً مع أنّه كان جديرًا بها، وكان من حَقّه أنْ يُفكّر على هذا النّحو، ولكنّه آثَر أنْ يكونَ راحِلة، ينفرد من بين كلّ مِئة، خطّط لعددٍ من العمليّات، وقتلَ عددًا من الجُنود، وحُوصِر بعدَ سنواتٍ من خروجه، هل لا زال يعرجُ مثلَ ما عرَجَ أوّل ما نال حرّيّته؟! أغلبُ الظّنّ أنّه كذلك. الحِصار حوله يضيقُ، ثُمّ يدخل في اشتِباكٍ يستمرّ ستّ ساعاتٍ مع أعتى وحدات الجيش الخاصّة، ثُمّ يسقط... أعني يرتقي في النّهاية، ولا شَكّ أنّه حينَ صَعَد إلى السّماء مع خروج آخر أنفاسِه من صدره، كان آنئذٍ يطأ الجنّة بعرجته.

ها هو كلّ شيءٍ يسير في النّهاية غيرَ عابِئ بنا، نحن القابِعين خارج الحياة هنا. كنتُ غارِقًا في تأمّلاتي في ليلةٍ من ليالي الشّتاء في عام ٢٠١٣م حينَ اقتحَموا غرفتَنا، ونادَوا: «محمود». فوقفْتُ أمام برشي هاتِفًا: «نعم». «نَقْل إلى سجن شَطّة».

(٤٠)

شَطّة

«هيّا بسرعة... ضُبّ اغراضَك». حملتُ ما يُمكن حَمْلَه؛ مِلعقتي، وكوبَ الشّاي الخاصّ بي، وصحن البلاستيك الأزرق الّذي رافقَني اثنتي عشرةَ سنةً. أمّا أوراقي فأخفيتُها في ملابسي حتّى لا تُصادَر. نقلوني في اللّيل، كانتْ طَرَقات المطر على شبابيك الزّنزانة المُتنقّلة تُشكّل موسيقى حزينة تُنشِدها سماء وطني الباكِية، غير أنّني وجدتُ فيها سَلوى مِن ليالٍ أخرى سحيقة حفرَتْ في الذّاكرة والوِجدان عميقًا. كنتُ وحيدًا في البوسطة، لا أحدَ يعرفُ حين ينقلونك إلى منفى جديدٍ ما السّبب، هو هكذا؛ أنتَ مَنفيٌّ على أيّة حال، ومذبوحٌ بالغربةِ في وطنكِ الّذي يأسو عليك بين هذه الوجوه المُتجهّمة والبنادق المُشهَرة، وتلك النّظَرات الغريبة في العيون الجامدة!

ها هو سِجن شَطّة يُرحّب بي، السّجن الّذي دَرَجَ على ساحاته وفوقَ زنازينه أبطالُنا الأحرار الّذين تحوّلوا إلى أساطير. البُطولة يصنعها الرّفض، رفضُ هذا الكائن الغريب، رفضُ سياساته القمعيّة، وعدم القَبول بأقلّ من رحيلِه عن أراضِينا صاغِرًا ذليلاً.

استقرّ بي المُقام في الزّنزانة رقم (١١)، الأرقام تُلاحقني على عادتها. كان فيها سبعةٌ آخَرون، سمحتُ لنفسي هذه المرّة أنْ أدخل في تفاصيل حياتهم اليوميّة. بدأتُ أراقِبُ مِن حولي كُلّ شيءٍ، هذه المرّة كانتْ قد تشكّلتْ في ذهني بشكلٍ يقينيّ فكرة الهروب، من هذا السّجن هربَ غيرُ واحدٍ، إنّهم يسدّون الفضاء في وجوهنا ولكنّ فضاءَ عقولنا عَصِيٌّ على الإغلاق، يكسِرُ جبروتهم، وينهضُ من أجل فِكرةٍ جديدةٍ

للهروب. ستظلّ حادثة (ساهي) مُلهِمةً لي، غير أنّ تطبيقَها في هذا السّجن يبدو ضربًا من المُستحيل. ومَنْ قال إنّنا نعترف بالمُستحيل؟!

لا تُصدّقوا أنّ أيّ سجينٍ في سجون الاحتِلال الّتي تنتشر على وجه بِلادي كالجُدريّ لم يُفكّرْ في الهرب، في اللّحظات الّتي يضعون فيها القيود في أيادينا ليُلقُوا بنا في الغياهب أو ينقلونا من سجنٍ لآخَر، نُفكّر كيفَ نكسرُ ذلك القيد، وكيفَ نَنعتق من هذه الجُدران الّتي تضغطُ على صدورنا. إنّنا جيلٌ لا يعترفُ بالهزيمة، ولا يقبل بأنصاف الحلول، ويتعالَى على أيّة مصائبَ يُنزِلونها بنا.

يتمّ عَدّ السّجناء مرّتَين أو ثلاثًا هُنا، يُنادِي السّجّان على الأسماء إذا كُنّا محظوظين، الاسم بِطاقةُ تعريفٍ، الشّعور بأنّ كيانَك لم يتمّ إلغاؤه، لكنّهم كثيرًا ما كانوا يعدّوننا بالأرقام، يبدؤون من الطّرف الأيمن الأبعد: واحد؟ موجود... اثنان... ثلاثة... أربعة... وهكذا... تفقد إنسانيّتكَ حينئذٍ وهُويّتك، وتتحوّل إلى رقم، لكنّ ذلك لم يكنْ يُشكّل فرقًا في شعوري لأنّني اعتمدتُه أيام الشّيخ عبد السّلام، تدرّبْتُ على أنْ أكون رقمًا، لكنّني كنتُ رقمًا مُؤثّرًا، رقمًا يُغيّر ما حوله، ورقمًا يُكتب في سجلّ الانتِصارت، لا أدري كيفَ تؤثّر تلك الأرقام على الآخرين؟ لكنّها بالضّرورة تُلغِي اعترافهم بأنّ هناكَ قلبًا خلفَ هذه الجوارح ينبضُ، ومشاعر تتأثّر، ووجودًا يتحرّك... إنّهم يريدون ذلك، يريدون أنْ نكون نكراتٍ ليسَ لها ذواتٌ مُعترَفٌ بها، كان ذلك مؤلِمًا لأكثرنا، غير أنّ تدرّبي على تلقّيه في مراحل سابقة من حياتي خفّف ذلك الشّعور بالضّعة إلى شُعورٍ بالتّعالي على هذا المُحتلّ، وبأنّه خائفٌ حتّى من أنْ يتلفّظ بالحروف الّتي تُشكّل أسماءَنا، كُنّا رعبهم ولا شَكّ في ذلك.

هنا تنسلخُ من ذاتك، وتفقد خصوصيّتك، أنتَ مكشوفٌ تمامًا للصّديق قبل العدوّ، صفحةٌ بيضاء ترى من خلالها العيونُ دواخلَك، كان ذلك ربّما أكثر ما عانيتُه في السّجن، ولذا درّبتُ نفسي على أنْ أضمّ جناحي على وجهي، وضلوعي على قلبي فلا ترى منها العيون إلاّ نزرًا يسيرًا، تدرّبتُ على كتمان المشاعر، وإخفاء تعابير الوجه، بل إنّني مع التّمرّس استبدلتُها بالهيئة الّتي أريدُ، فإذا نقر الخوفُ أوصالي، أمرتُ أقدامي بالثّبات، وأوقفتُ ارتعاشَ أصابعي، وإذا وكزتْ عينان هدأتي رُحتُ أُظهِر من الاطمِئنان واللامُبالاة ما أبدو فيه صخرةً جامدةً من الصّوّان لا تُؤثّر فيها معاول النَّظَر. أنا سيّد مشاعري، لم يكنْ الوصول إلى تلك المرحلة سَهْلاً، ولكنّني درّبتُ عليه نفسي جيّدًا.

تفقد خصوصيّتك هنا؟ بالطّبع. أنتَ الكُلّ والكُلّ أنت. غير أنّني كنتُ أتقوقع داخل نفسي حتّى أستُرَ ما كان يُمكن أنْ يُظهرني على غير ما أريد. كنتُ أفعل ذلك بطرائق مُتعدّدة؛ تختفي خلفَ شادرٍ تُنزله على البَرْش فتتمتّع بشيءٍ من الخصوصيّة، تدفن وجهك في كتاب، وتُشيح بنظرك إلى الحائط، وتكتب، الكتابة شكلٌ من أشكال النّجاة.

وكان الوقت الّذي لك لِسواك، لم يكنْ لك من وقتِك إلاّ ما انتزعْتَه بإرادةٍ صلدة، في كلّ لحظةٍ هناك لِصٌّ ما يسرقُ هذا الوقتَ الثّمين: التّفتيش المُتكرّر، نداءات التّنقّل، استدعاءات الإدارة، الصُّراخ بلا هدف، الذّهاب إلى العيادة، نقاشات السُّجناء الّتي كانتْ تذهبُ هدرًا حول الأفكار والتّحزّبات، و... ومع ذلك فإنّ الوقتَ هنا عجيبٌ، ذلك أنّه على كثرةِ انقِطاعاته الّتي تتمثّل في المظاهر السّابقة، كان يمرّ أحيانًا بطيئًا حتّى يشعر السّجين بأنّ زمنه ممتدٌّ إلى ما لا نهاية، وهو قابِعٌ ككلبٍ أجرب لا يدري ما يفعل!!

وكُنّا على صِفَتَين عجيبتَين، يحدثُ أنّ نحبّ حتّى الوله، ونكره حتّى الحقد، ونتجادَل حتّى لا يبقى لأحدٍ في قلبِ زميله ذرةٌ من احترام، كُنتُ أعي ذلك، نحنُ نقلّل من احترامنا لذاتنا حينَ نترك مساحة الخِلاف تتّسع، ولِذا كانتْ أجلّ مَهمّاتي في السّجن أنْ أردم الفجوات بين الأفكار، وأجسر الضّفاف بين القُلوب هاتِفًا بالحكمة الّتي كانتْ مفتاحًا لحلّ النّزاعات: «اختلافُنا في الرّأي لا يُفسِد للوُدّ قضيّة». ثُمّ ماذا أيّها الزّملاء، إنّ هذا لن يفرح له إلاّ هؤلاء المحتلّون، كلّنا سُجناء بين هذه الجدران الصّمّاء الخرساء، أليستْ هذه الحقيقةُ كافِيةً لتركِ النّزاعات غير المُفيدة جانِبًا؟! وإذا هبطتْ على رؤوسنا النّوازل، وقرّرت الإدارة أنْ تُنزِل بنا العقاب، فإنّه عقابٌ جماعيّ لا يُفرّق بين رأسٍ ورأس، دعوا هذه الرّؤوس تهدَأ، وهذه القلوب تقرّ، وتعالَوا نلتقِ في المساحة المُشتركة؛ كلّنا مُقاوِمون تلك صِفة الشّرف الأولى، وكلّنا محبوسون تلك صِفة الحقيقة الثّانية، وكُلّنا في الكارثة سَواء: «إنّ المصائب يجمعْنَ المُصابينا».

وإلى ذلك؛ لم نكنْ كُلّنا مُعافَين، كان فينا ما لا يُمكن تصوّره، ألاّ تختار ما تأكل، ولا الرّفيق الّذي يُجاريك، ولا الوُجهة الّتي تسير نحوها، ولا ما يأتي به الغد، ولا فكرة أنْ تأتي صفقةٌ فتُحرّرك، وتعيش دون أنْ تدري ما سيحدثُ في اللّحظة الآتية، تتناهبك الشّكوك، وتتقاذفك الظّنون، وتحتاج مَنْ يمسحُ على قلبِكَ المُتعَب فلا تجد، وتعيشَ في عُزلةٍ وأنتَ بين كثيرين، وتُحاول أنْ تأخذ قرارًا فرديًا فلا تستطيع، وتتظاهر بالقُوّة والصّمود فتكتشف أنّكَ هَشٌّ يُمكن أنْ تنهار لأتفه الأسباب، ويقضمُ تُفّاحةَ روحك مرورُ الوقت الرّتيب، ويأكل الملل جسدكَ ثُمّ يقذفه نُتفًا داميةً في الفراغ، وتشعر أنّ الّذي يُحدّثك ذِئب يتحيّن الفُرصَة للانقِضاض عليك، وتشكّ حتّى في نفسِكَ فتُخوّن

كلّ أحدٍ حتّى لا تسلمَ أنتَ من ذلك، وتهوي في جنون الارتياب الدّائم وأنتَ تشعر بظلمِ الأقربين قبل الأبعدين، وتفقد فضيلة التّعاطف، ولا ينطبع في ذهنك غير صورة القضبان الصّدئة، وصرير الأبواب المُغلَقة، وتقشّرات الجدران الكئيبة، وألم القيود الّتي تحزّ مِعصَميك، وتظنّ أنّ الفرج الّذي تحلم به سيتحقّق في كبسة زرّ، وتتخيّل نفسكَ خارج هذه الزّنازين المريرة فتصحو على واقعٍ أشدّ مرارةً... كُلّ ذلك سيقلبُ كينونتك، ويُغيّر وجودك، وقد يقودك إلى مساربَ تمضي إليها دون أنْ تدري كيفَ مضيت، ودون أنْ تكون قادِرًا على العودة منها بعدَ التّوغّل فيها، كأنّما قادَتْك رائحة الضّبع إلى مصيرك المجهول، والضّبع لها وجوه كثيرة هنا، كُلّهنّ مُغرِياتٌ قاتِلات، وستهتفُ في نهاية المطاف: لم أعدْ كما كنت، لقد حدثَ كلّ هذا ولا أدري كيف!!

إنّه السّجن، ولا يوجد تعريفٌ له أكثر من هذه الكلمة، حتّى تتداعَى إلى ذهنِكَ كلّ الآلام والأوجاع والقلق والخوف والتّرقّب والحذر والحُزن والهلع والبُعد والنّشيج والمساءات الّتي تعمّق تلك المساحات الرّماديّة فلا تتركك إلاّ هَباءً!

كُنّا نجلسُ ذات مرّة على طعام الغداء، حالةٌ من الهدوء والصّفاء، كُنّا صامِتين، لا أحدَ يملك رغبةً في الحديث، وكان الطّعامُ قليلاً، نمضغُ بهدوء كأنّنا مِعزَى تجترّ ما وجدتْ من حشيش الأرض، ثُمّ فجأةً نهضَ (ماجد) فصرخ، كان يشتم ويتوعّد، ويصيح: «يا لكَ من جَشِع، تأكل نصيبي، أنتَ قَذِر، أيّها الحيوان الحقير...» وحانتْ منّي التِفاتةٌ إليه؛ فإذا قدَماه ترتعشان، وإذا الزّبَدُ يتطايَر من فمه، وإذا عيناه تقدحان شررًا... وأصابني الذّهول، (ماجد) هذا كان أكثر نُزلاء مهجعنا هدوءًا، وأكثرنا صمتًا، بل إنّ حركته كانتْ مثلَ نسمةٍ عليلةٍ تمرّ سهوًا في فراغ المهجع، ولم أتصوّرْ أنّ هذا الهادِئ الوَقور ينفجر بهذا

الصّوت، وينهال بهذا السّباب، ولم أعرفْ على وجه الدّقّة مَنْ كان يعني فينا، ونظرتُ في وجوه السّتّة الآخرين في اللّحظة الّتي كان كلّ واحدٍ فيهم يراوِحُ نَظَره بيننا وبينَه كأنّهم لا يعرفون مَنْ يقصدُ فينا، بينما كان هو مستمرًّا في شتائِمه وتوعّداته، وفجأةً انهارتْ قدَمَاه، وسقطَ على الأرض، وصمتَ صمتًا كامِلاً مع أنّ جسده كان يرتجّ، زحفتُ نحوه وحضنتْهُ بكلتا ذراعَيّ، وضمَمْتُه إلى صدري وأنا أشعر برجفة جسده الّتي راحتْ تهدأ رويدًا، ثُمّ مسحتُ على رأسِه، وهتفتُ به: «لا بأس... أنا أعتذر بالنّيابة عن الزّملاء»، وبقيتُ مُحتضِنًا له حتّى هدَأ تمامًا، ثُمّ سمعتُه يهمسُ في أذنَيّ: «أنا تعبان، وأريدُ أنْ أنام»، ووقفتُ معه وأنا لا أزال أحتضنه، ومضيتُ به إلى سريره برفق حتّى وضعتُه عليه، كان مُستسلِمًا لي كطفل وديع، ولمّا تمدّدَ على برشِه سحبتُ عليه الغِطاء، وأدار وجهه إلى الحائط مُعطِيًا لنا ظهره، وفي ثوانٍ معدودة كان قد استسلم لنومٍ عميق!

مرّ ثلاثةَ عشر شهرًا على وجودي في سِجن (شطّة)، رأيتُ في وجوه النّازلين هنا وجهي، وقرأتُ فيها بُؤسَنا المُشترَك، وجرتْ في عروقنا دماءٌ سوداء، وخفقتْ فيه قلوبنا بآلاف الحكايات والتّنهّدات... ثُمّ ماذا تفعل بي هذه السّنون الطّوال الّتي وزّعتْني على السّجون قرابة عشرين عامًا، هل تعرفون ما يشعر به سجينٌ مثلي؟! هل تدرِكون كيفَ تمرّ عشرون عامًا بكلّ تفاصِيلها الذّابحة على قلوبنا نحن الغرباءَ المنبوذين خلفَ هذه الأسوار القصيّة؟! إنّه شيءٌ لا يُمكن أنْ تصفه الكلمات، ولا تتّسع له الحكايات، ولكنّني أريدُ أنْ أحكي، أريدُ أنْ أتخلّص مِمّا يعتمل في أعماقي، وأريدُ أنْ أنعتقَ من كلّ ما يخنق أحلامي.

(٤١)

إنّها مجرّد مِلعقة

لن أبقى بعدَ هذا هنا، لن أسمح لسنوات الانحباس الثّقيلة أنْ تستمرّ، ولن يكون بمقدورها انْ تشربَ من دمائي أكثر من هذا، لم يعدْ في عروقي دمٌ سارب، ولا في روحي مساحةٌ لتلك اليد الغليظة القابضة على عنق حرّيّتي.

نَظَرَ إليّ بعينَين عاتِبتَين: «تتركني هذه المدّة كلّها وحيدًا ما أقسى قلبَك!». «مَنْ؟ رَيّان... أنا؟ لا... لا لم أتركك؟ أنتَ تعرفُ أنّني كنتُ في السّجن؟». «وماذا يعني أنّكَ في السّجن؟ أنتَ لم تتذكّرْني ولم تستدْعِني؟». «أستدعيك؟ كيفَ يُمكن ذلك يا رَيّان، وأنتَ ترى أنّ بيني وبينَكَ هذه الحواجز؟». «هذه الحواجز هُراء يا محمود. هذه الأسلاك الشّائكة حرير يا محمود. هذه الجدران من إسفنج». «لا تعبثْ بي يا رَيّان. أنا أُحبّك. أنتَ صديقي». «الصّديق يسأل عن صديقه». «لا تُعذّبْني بما ليَس لي فيه يد». «أنا لا أطيق العيشَ بعيدًا عنك». «وأنا كذلك يا صديقي». «لكنّكَ تخلّيْتَ عنّي». «أنا؟ مُحال... مُحال يا رَيّان...». «إذا لم تَسْتَبْقِني فستفقدني، إنّها فرصتك الأخيرة...». «يا رَيّان قُلْ غيرَ هذا... غدًا سأتركُ هذا السّجن، وسأعودُ إليك، وسنعودُ إلى أيّامنا الجميلة، نذهبُ إلى أحراش يعبد، نحكي، نهذي، نجلسُ على الصّخرة الّتي التقَينا عندَها، نتذكّر الشّيخ عبد السّلام، ونُخطّط للعمليّات القادِمة...». هَزّ ذيلَه، وهَرّ هريرًا خافِتًا، وتشمّمَ الأرضَ بخَطْمِه، ثُمّ استدار، وراحَ يبتعد...!! «إلى أينَ تذهب يا رَيّان. لا تتركني وحيدًا». لم يقلْ شيئًا، مضى باتّجاه

البـاب، وأقعَـى قليـلاً عنـده، ثُـمّ التفـتَ إليّ بعينَـين تنزفـان دمـاءً، وسـمعتُه يُصدِر صوتًـا ذبيحًـا، ثـمّ رأيتُـه يخرج مـن البوّابـة، ويمضي متمهّـلاً، كان يغيبُ شـيئًا فشـيئًا في الضّبـاب الكثيـف، وكانـتْ عينـايَ تُتابِعانـه وأنـا أبكـي، وأهتـفُ بـه بصـوتٍ يتقاطَـر رجـاءً: «لا تترُكْني يـا رَيّـان». ولكنّـه لم يسـتمعْ لرجائـي، وظـلّ يختفـي في الطّريـق الضّبابيّـة حتّـى غـابَ عـن ناظِـرَي، وصرخـتُ صرخـةً شَـقّتْ سُـكون اللّيـل: «ريَّـان... ريّـااان... يـا رَيّـاااااان». واسـتيقظتُ مـن نومـي مفزوعًـا، هُـرِعَ إليّ (ماجـد)، وفي يـده كأسُ مـاء، وجلـسَ عـلى حافّـةِ سريـري، ومـدّ لي الكأس: «اشربْ... اشربْ يـا محمـود، لعلّـك رأيـتَ كابوسًـا في منامـك» رشـفتُ المـاء البـارِد مـن الكأس، ووضعتُـه جانِبًـا، ودفنـتُ رأسي في صـدر ماجـد، ورحـتُ أنشـج، فيـما راح هـو يُحـاوِلُ تهدِئَتـي: «لا بـأس... لا تقلـق... لكـنْ مَـنْ رَيّـان هـذا الّـذي كُنـتَ تـصرخ باسـمه في نومِـك؟!».

في الصّبـاح زارتْنـي أمّـي في السّجن، كانـتْ قـد هَرِمـتْ، وبـانَ عليهـا الوَهـن، لم أدرِ مـا أقـول، أنـا يـا أمّـاه لـولا السّـجن مـا جعلـتُ هـذه السّـنوات تفعـل بـكِ ذلـك، لمـن سـأقدّم اعتِـذاري يـا أمّـاه، لـكِ؟ لمقامِـك العـالي الّـذي يعلـو عـلى أرتـال المُدرّعـات، لرائحتك الزّكيّـة الّتي تتفـوّق عـلى رائحـة البـارود... أعتـذرُ عَـمّ يـا أمّـاه؟! عـلى هـذه الغربـة القسريّـة الّتـي حالـتْ بيننـا؟! عـلى هـذا الوجـع الّـذي لم يعـدْ يُحتَمَـل؟! عـلى هـذا العمـر الّـذي تنسـال قطراتُـه مـن مخِـلاة السّـنواتِ قطـرةً قطـرةً حتّـى ينتهـي؟! كانـتْ لا تقـوى عـلى الوقـوف طويـلاً، تُحـدِّق فِيّ بِصَمْـت، أردتُ أنْ أقـول لهـا: تكلّمـي يـا أمّـاه، قـولي كلّ مـا في بالـك، أعـرفُ أنّنـي عذَّبْتُـكِ كثـيرًا، وأسـهرتُكِ في اللّيـالي البـارِدات طويـلاً، لَحِقـتِ بي مـن سـجنٍ إلى سِـجن، لم تتركـي سـجنًا ممتـدًّا مـن الشّـمال إلى الجنـوب حتّـى وقفـتِ عـلى أبوابـه، تطرقـين عليهـا بأصابـع الرّحمـة رَجـاءَ أنْ تُفتَـحَ لـكِ فـتري هـذا

الوجه، وجه ابنكِ الّذي أتعبك، تقفين طويلاً قبل أنْ يُسمَح لك بنظراتٍ معدوداتٍ من خلالِ زُجاج سميك تُلقِينها عَلَيّ، ثُمّ تعودِين إلى البيت وقد كبرتِ في هذه اللّحظات سنوات، وشِخت من خلال هذه النّظَرات أعوامًا، أنا يا أُمّاه لولا فلسطين ما كنتُ لأكون هنا، لولا هذا العشق المُختّر ما وُضِعتْ في يَدَيّ ورِجلَيّ القيود، لولا أنّنا نذرْنا أعمارَنا ليومِ خلاصِها ما كنتُ لأقبع خلفَ هذه الأسوار العالية... كنتُ سأضعُ لكِ في كلّ باقةِ وردة، وسأحكي لكِ في كلّ جلسةٍ قِصّة، وسأطبع في كلّ لِقاءٍ على جبينِكِ قُبلة... لكنّه السّجن يا أُمّاه، والظّلم، والمحتلّ الّذي لا يرحم، سرقَ بلادَنا ولَصّ ترابَنا ويُريدُنا أنْ نرضَى به، ونجلسَ عاجِزين... آه يا أُمّاه على أيّام عرابة، على أيّام صفائِنا، آه على أيّام الطّفولة يومَ لم أكنْ أعي من هذه الدُّنيا شيئًا، على أيّام عروسة الزّعتر، على أيّام المدرسة والأصدقاء الخالِين من الهموم، لكنّنا كبرنا، هل نستطيعُ إيقافَ الزّمن، إنّه يفعل فينا فِعله، يذبحنا بِسكّينه، على أنّ عزاءَنا أنّه حينَ ذبحَنا لم تسلْ دماؤنا هدرًا، ولم تنزفْ ضياعًا، بل نزفتْ لأجلِ عينَيك الودودتَين ولأجل عينَي فلسطين اللّيتَن لا تُقاوَمان... مَدّتْ كَفّها على الزّجاج، كأنّها تهمّ بأنْ تمسحَ بكلّ ما فيها من حنانٍ على شَعَراتِ رأسي المتناثرات، أنْ تُخفّف من هذا الألم المُكتنز في عينَيّ، أنْ تُزيل غُبار سنوات السّجن المتراكم على جبهتي... لكنّ الزّجاج السّميك حال بين الكفّ الحنون وبيني... «كيفك يا محمود؟» محمود؟! تسألين عنّي يا أمّي؟! محمود، كيف خرجتْ هذه الحروف الخمسة من شفتَيك كأنّها نِداء السّماء الرّحيم لأهل الأرضِ المتعبين؟! تسألين عن حالي؟ أنا بخير... أنا الآن بخير، لأنّني أنظر في عينَيك رغم ما بيننا من مسافةٍ قريبةٍ بعيدة... وتنهّدَتْ بعدَها فشعرتُ أنّ الأرض توقّفتْ، وأنّ ما عليها

تساقطَ في الفضاء اللانهائيّ... قولي يا أمّاه، قولي... «أنا يا بُنَيّ غدًا سيطويني الغسقْ... لم يبقَ مِنْ ظِلّ الحياة سِوى رَمَقْ؟». «لا تقولي ذلك يا أمّاه... بقي الكثير، وستعيشين حتّى أخرج من السّجن، وستصمدين حتّى نلتقي، ويكون في حضنك نهاية كلّ هذا... «تعبتُ يا بُنَيّ... تعبتُ... إنّها عشرون عامًا... وإنّها سجونٌ كثيرة، ورِجلايَ لم تعودًا قادِرتَين على الوقوف بأبواب هذه السّجون، ولا على المشي إليها... أريدُ أنْ أحضنكَ قبل أنْ أموت؟». «سيكون يا أمّاه... أعدكُ أنّ ذلك اليوم سيأتي...». هَزّتْ رأسَها، وخفضتْ طرفَها، تحدّرتْ دمعتان من عينَيها على وجنَتَيها، وراحتْ تمسحهما بظاهر كَفَّيها. «لا تَبكِ يا أُمّاه... لا تبكِ... إنّ الفرج قريب، وإنّ النّصر آتٍ، وإنّها أيّامٌ... و...». ولم أستطعْ أنْ أُكمِل، وأردتُ أنْ أغيّر الموضوع، فسألتُها: «ما أخبار إخوتي؟». «بخير لا ينقصنا إلا أنْ نراك». «و...» وأردتُ أنْ أسألها عن (ريّان) فخفت، وغَصّ حلقي بالسّؤال، وشعرتْ هي بذلك، فأردفتْ: «تريدُ أنْ تسأل عن رَيّان؟». وهززتُ رأسي بـ (نعم). فصمتتْ، وعَبَرتْ عينَيها غمامةُ قلقٍ، وشعرتُ أنّه حدث لريّان أمرٌ ما، فأعدتُ السّؤال: «ماذا حدث لريّان؟». «لقد غادر البيت». «غادر البيت؟!». «كان ينتظرك كلّ يوم، كلّ لحظة، كلّما سمع وَقْعَ أقدامٍ في الشّارع هُرِعَ إلى البوّابة لعلّه يكون أنت، ثُمّ يعودُ خائِبًا يُبصِبص ويهزّ ذيله حزينًا... لقد كان ينام إلى جِوار سريرك كأنّه يحرسك أو ينتظر عودتك، ثُمّ إنّه قبلَ حوالي أسبوعَين، امتنع عن الطّعام والشّراب، وهَزُلَ جسدُه، ثُمّ غادَر من البوّابة، ولم يعدْ إلى البيت إلى اليوم».

رجعتُ في ذلك اليوم إلى مهجعي كأنّني فقدتُ أعزّ إخوتي. لم يكنْ (ريّان) كلبًا ككل الكّلاب، كان قدرًا هبطَ من السّماء، لا أدري

كيفَ عاشَ إلى اليوم، هل كانتْ فيه طِباعٌ غير طِباع الحَيَوان، وحينَ غادرَ كان قدرًا آخر لا أدري أين سيحطّ في قابل الأيّام؟!

كيفَ يُمكن لكتابٍ أنْ يفتحَ لكَ النّوافذ، ويُحطّم لك القيود، ويجعلك تعيشُ حُرًّا؟! سأحفر حريّتي بالكتاب، سيكون أداتي المعنويّة. أمّا أداتي المادّيّة، فسأعرفُ ما تكون.

أعدتُ ضبطَ مسبار القياسات الّتي تدرّبتُ عليها قبل أكثر من عشر سنواتٍ في سنيّ سنواتي الأولى آنئذٍ، الزّوايا، مساقط الضّوء، توزيع الغرف، تخيّل الأبعاد، وربطِ المسافة بالزّمن، عليّ أنْ أُعمِل مخيّلتي الّتي تجعل المحجوب مرئيًّا. لم أتّخذْ بعدُ صديقًا إلى الحدّ الّذي يُمكن أَنْ أُشارِكه خُطّتي القادِمة، السّرّيّة طريقُ السّلامة، والتّكتّم أصل النّجاح، وهؤلاء النّزلاء غرباء عمّا أُفكّر به، ولهذا لن يطّلع على ما في رأسي أحدٌ سِوى الله.

حصلتْ عمليّة تبديل في الغرفة، خرجَ أحدُنا، ليأتوا بآخر، كان هذا الخارج يتمتّع بميزة امتِلاك مِلعقة من الحديد، كانتْ عملة نادرةً يومئذٍ، أمسكتُه بذراعِه وهو يهمّ بالمُغادرة، وهمستُ في أُذنه: «المِلعقة». نظَر إليّ مُستغربًا: «ملعقتي؟!». هزرتُ رأسي بالإيجاب، ردّ: «ما شأنُها؟». «أعطِني إيّاها تذكارًا، جمعتْنا الحلوة والمُرّة هنا لأكثر من سنة، ألا يُمكن أنْ تُهديني إيّاها؟». «إذا جمعتْني بك سَنة، فلقد جمعتْني بهذه الملعقة سنوات، لا أستطيع التّخلّي عنها، إنّها عزيزةٌ عَلَيّ». «تُبادِلها؟». «لا يُمكن لشيءٍ أنْ يكون مُكافِئًا». «ماذا تريدُ مقابلها؟». تردّد قبلَ أنْ ينطق، ثُمّ هتف: «لا... لا أريد». «بحقّ صُحبتنا، إنّها مجرّد ملعقة». «ولكنّها تعني لي الكثير». «سأُعطيكَ مقابلها كتابَين من كتبي». «الكتب لا تعني لي شيئًا» شددتُ على أسناني من الغيظ،

كُنتُ مستعدًّا مقابل الكتابَين أنْ أُسجَن سنتين، وهذا الأخرق يقول لا تعني له شيئًا، ابتسمتُ محاولاً تدارك الموقف، وهتفتُ: «تبيعُها؟!». «امممم...» تردّدَ قبل أنْ أُردف: «في السّوق ثمنُها شيكل، ما رأيك لو ضربتُ الرّقم بعشرة؟». «امممم.... لا، ربّما لو ضربتَه بمِئة... ربّما سأُفكّر في الموضوع». «إذًا تريدُ مقابلها مئة شيكل؟». ردّ: «نعم». «وأنا قبلت».

صارت الملعقةُ لي. ماذا يُمكن أنْ تصنع مِلعقة؟! ستأكل التّراب، إنّها تأكل كلّ شيءٍ. يُمكن بها السّماح للشّمس بأنْ تُبدّد الظّلام. وهكذا بدأتُ!

توقيت الفَورة، النّاس مشغولون بالتّدفّق إلى السّاحة للعب السّلّة أو للمشي أو للتّمارين، مع توقيت التّفتيش، معادلة سهلة. سيدخل مُتغيّر ثالث، هو مكان التّفتيش، أمّا مكان الحفر فكان معروفًا سلفًا. لم تكنِ المُعادلة بهذه الصّعوبة، وعلى أيّة حالٍ؛ سأُجرّب. مَنْ قال إنّنا سنصل إلى ما نريدُ دون أنْ نُجرّب؟!

(٤٢)

أيهم

تفحّصتُ غرفة الحمّام، إنّها وحيدةٌ وتقعُ عن يمين الدّاخل إلى زنزانتنا في الزّاوية، وهي لا تزيدُ عن مترين في مترَين، فيها مِغسلة، تبدو قديمةً يُمكن أنْ تُخلَع بسهولة، فكّرتُ أنْ أفعل ذلك، ولكنْ ما فائدةُ خلعها إذا كان ما وراءَها لا يُؤدّي إلى الخارج، الحفر أفقيًّا يبدو ضَرْبًا من البلاهَة، إلاّ إذا كان ذلك النّوع من الحفر يُمكن تغطيته بشكلٍ جيّدٍ بعدَ إتمام الحفر، ويُمكن أنْ يقود إلى منطقةٍ غير صخريّة أو إسمنتيّة، أو أنّ الحفر عندَ نُقطةٍ معيّنة قد يُتيح لكَ الحفر عموديًا باتّجاه الأسفل حيثُ الأرض الّتي تقود باتّجاه الأفق الحقيقيّ. مُعاينتان والثّالثة، جعلتْني أُلغي فكرة خلع المِغسلة.

كانتْ لديّ مُشكلة في التّعامل مع مَنْ يُشاطرونني الغرفة، السّرّ لي وحدي، إشراكُ أيّ واحدٍ منهم به سيُمهّد لمعضِلات كثيرة أنا في غِنًى عنها، خاصّة أنّ علاقتي بهم جميعًا سطحيّة مع أنّها ودودة جِدًّا. غير أنّ تغيّر النّزلاء بتبديلهم بآخَرين حسبَ مِزاج الإدارة جعلني أُصمّم ألا أُطلِعَ أحدًا على ما نويتُه!

في المهجع اثنتا عشرة غرفة، تتوزّع على شكل حذوة حِصان قائمة الزّوايا، كانتْ غرفتنا في قلب هذه الحذوة شَمالاً، مِمّا يعني أنّها الأقرب إلى جدار السّجن، هذا يعني أنّ نسبة نجاح العمليّة سيزيد، إلاّ إذا تَمّ نقلي منها إلى غرفةٍ أخرى أو مهجعٍ آخَر لسببٍ أو لآخر، ولكنّ الأمر مضى كما لو أنّني سُمّرتُ في هذه الغرفة ولن أخرج منها إلاّ بما نويتُ القِيام به، فتحمّسْتُ أكثرَ للفِكرة.

عاينتُ أرضيّة الحمّام، البلاط قديمٌ بعضَ الشّيء، السّجنُ نفسه أُنشِئ عام ١٩٥٣م على هيئة قلاع (تيغارد) وهي شكل من الحصون العسكرية التي كانت تستخدمها القوّات البريطانيّة خلال الانتداب البريطانيّ لفلسطين. بُنِيت هذه القلعة نفسها على قمّة خان عثمانيّ. في نهاية عام ١٩٥٢م بعد ملْء سجن (تل موند) تقرر تحويل قلعة (تيغارد) إلى سجن. وفي عام ١٩٥٣م تمّ افتتاح المكان فصار سِجْنًا. كلّ مكانٍ لا يصلح لشيءٍ يتحوّل في الأنظمة العنصريّة إلى سجن!! وأنا الآن في السّجن القلعة، بعضُ ما بُنِي واستُخدِمَ قبل حوالي سبعين عامًا ما زال على هيئته، كان قلعةً حصينةً، وبناءً مهيبًا، تُذكّركَ أبراجُ مراقبته القديمة بأبراج القلاع في القرون الوُسطى، لقد بُنِيَ ليبقى، وشُيِّدَ ليستمرّ، ولكنّ الزّمن يفعل فِعله ولا يقفُ أمامه شيء، فكلّ ثابتٍ إلى تحوّل، وكلّ قويٍّ إلى ضَعْف، وهنا يُمكنني أنْ أُضيف عامل الزّمن ليكون عامِلاً مُساعِدًا في نجاح العمليّة.

البلاطُ الأصفر المُهترِئُ نوعًا ما جُدِّدَ أكثرَ من مرّة، ولكنْ ماذا يعني أنْ تُجدّده كلّ عشرينَ عامًا، سينحني أمام بطش الأيّام، سيَحُولُ لونُه، وتنخره بعضُ الفراغات بفِعل كائِناتٍ من خَلْقِ الله لا تُرى، وستتآكل (الرّوبة) الّتي تفصل بين هذه البلاطَات ويشدُّ بعضُها بعضًا، ولِذا هل يُمكن استِخدام مقصّ الأظافر من أجل حَتّ هذه الرّوبة وخلخلة البلاطَات؟ نعم، مُمكِنٌ جِدًّا!

بدأتُ بخلخلة البلاطات في منتصف عام ٢٠١٤م في فترة الفورة، كانتْ أفضلَ وقتٍ للبداية؛ فلا أحدَ في الغرفة، وكُلٌّ مشغول بالتّشميس، والحَكْي الّذي يدور بين النُّزلاء يُخفّف السّمع، وكذلك البُعد، فخارجَ هذه الزّنازين يبدو من عالَمٍ آخَر لا ينتمي إلى العالَم

الّـذي في داخلهـا، ولِـذا رُحـتُ أحزّ بسكّينٍ صغيرةٍ في مِقصّ الأظافـر الفراغـات وأحـتُّ (الرّوبـة) حتّـى تمكنّـتُ مـن خلـعِ أوّل بلاطـة.

كان علـيّ أنْ أختارهـا بعيـدةً عـن مِقعـدة الحَـمّام، بعيـدةً مـترًا عـلى الأكثـر، حتّـى لا يُلاحِظهـا زملائـي في الغرفـة إذا اسـتخدموا المِقعـدة، وحتّـى يكـون مـن السّـهل الحفـر بعيـدًا عـن العيـون المُتلصّصـة. كان الانتِصـارُ عـلى خلـعِ أوّل بلاطـةٍ يُشـبِه الانتِصـار عـلى جيـشٍ جـرّارٍ مـن الخـوف والتّرقّـب والحـذر والتّلفّـتِ واجهتُـه وحـدي، ولِـذا حـينَ أعـدتُ البلاطـةَ إلى مكانهـا، اسـترحتُ ثلاثـةَ أيّـام والفرحـةُ الّتـي تمـوجُ في أعماقـي تؤرجحنـي في فضـاءاتٍ بعيـدةٍ مـن الخيـال.

تعرّفـتُ عـلى (أيهـم) في إحـدى الفـورات، أعنـي هـو الّـذي تعرّف إليّ، كان مـن النّـوع المُقتَحِـم، أعنـي يقتحـم خلوتَـك، وبسرعـةٍ يسـتطيع بـذوقٍ فريـد أنْ يُحطّـم الجُـدران الّتـي تقـوم بـينَ غريبَـين في سِـجنٍ غريـب. كان ذلـك بعـدَ أنْ بـدأتُ الحفـر بشـهر، كنـتُ أقرفـصُ في السّـاحة راكِنًـا ظهـري إلى الجـدار حـينَ سَـلّم علـيّ: «أنـا أيهـم». لم أُعِـرهْ اهتِمامًـا كبـيرًا. ومـددتُ يـدي إليـه – بعـد أنْ وقفـتُ – بـبرود: «أهـلاً». حضننـي بذراعَـين حانيتَـين أوّل مـا وقفـتُ كأنّنـي شـقيقُه: «أنـا أعرفـكَ جيّـدًا». كان ردّي هـذه المـرّة أكثـر لُطفًـا ولكـنّ ذيـول الـبرود مـا زالـتْ تنسـحب مـن خلـفَ كلـماتي: «عجيـب، كيـفَ تعرفنـي ولم نلتـقِ؟!». «النّضـال رَحِـمٌ يـا محمـود». «ولكـنّ النّضـال رَحِـمُ كلّ أحـدٍ هنـا». «لا تكـنْ جافِيًـا، بعـضُ العمليّـات الّتـي قمـتَ بهـا كانـت مُلهِمَتـي في عمليّـاتي، أنـتَ أسـتاذ». «لا أسـتاذ ولا مُلهِـم، كلّنـا هنـا تلاميـذ يـا...»، وتوقّفـتُ قبـلَ أنْ يُكمِـلَ هـو: «أيهـم... أيهـم يـا محمـود، نحـنُ أبنـاء قضيّـة واحـدة، وأعتقـد أنّ كثـيرًا مـن الخطـوات الّتـي مشـيناها كانـتْ عـلى الـدّرب نفسِـه». سـألتُه

حينَها مُناكِفًا: «تلك الخُطوات الّتي مشيناها، فما بال الخطوات الّتي سنمشيها؟». ردّ وهو ينظر حوله: «هل تُخطّط لشيء؟». عرفتُ أنّني وقعتُ في فَخّ كلماتي غير المُنضبطة، هززتُ رأسِي بشِدّة، واستدركت: «كلاّ، أنا كبقيّة هؤلاء الأسرى الّذين تراهم ننتظر الغيب وما يأتي به الله». أرجعَ رأسَه إلى الوراء واستنكر: «لا أظنّ أنّكَ تعني ما تقول، مثلُكَ لا يتسلّل اليأسُ إلى قلبِه». «اليأس هذا، ما تراه هنا حولَنا من أسوارٍ وأسلاكٍ وجنودٍ مُدجَّجِين». «ولكنّ الأمل هنا أيضًا، تراه يتسلّل من بينِ تلك الأسوار والأسلاك والجنود ليلتقي بمن يُؤمن به». وانداحَ الكلام بيننا وأصبحْنا صديقَين.

كان أيهم من (كفردان)، كأنّ شِريان الدّم الّذي ينطلق من (جنين) يُغذّي كلّ ما حوله بالحُبّ ذاته، وبالصّفات إيّاها. كان طُوالاً، أبيض، وجهه يفيضُ بالبِشْر، إذا ألقيتَ عليه نظرةً واحِدةً غَمَركَ بالطُّمَأنينة، وكان ذا لحيةٍ شقراء مَشُوبة بلون الزّهر، ووجهٍ صبيحٍ مُورّدٍ بالخجل والرّجولةِ في آن، وكان شارِباه خفيفَين يحفّهما ليكونا أقلّ غزارةً من لحيته، وكانتْ هُناك نُقرةٌ في وسط ذقنه دائمًا ما يلعبُ بها، وكان ذا جبهةٍ عريضةٍ كأنّ تاريخ فلسطين الحديث مَسطورٌ فوقَها، ولكنْ له عينان شهباوان، هما إلى العُسلة أقربُ منهما إلى السّواد، كأنّه كان يأخذُ من كلّ لونٍ من ألوانِ الجَمال بِشَطْر، وكانتا من ذلك النّوع من العيون الّتي تغوصُ فيهما فتستسلم لهما بِما يُشيعانه من الوداعة واللّطف، ولكنّه كان إذا غَضِب وحَدّق بهما بدَتا عينَي صَقْرٍ يستعدّ للانقِضاض، وكنتُ أعجبُ من ذلك وقد عاينْتُهما في الحالتَين، كيفَ تكون لهما هذه القُدرة على التّحوّل السّريع؟! وما ضرّنا عيناه الصّقريّتَان إذا كان لا يتعامل معنا إلاّ بعينَيه الودودتَين، وكان له حاجِبان كثّان ينبسطان أُفقًا فوقَ جفنَيه، وينعقفان في الزّاوية

قليلاً، كأنّما ترسم الانعِقافة خَطّ النّهاية للأفق... وكان إلى كلّ ذلك شاعِرًا، ومُثّقفًا، وحاصِلاً على درجة الماجيستير، ولعلّ ثقافته هي أكبر عوامل انجِذابي إليه، كان كثيرًا ما يُنشِد في السّاحةِ قولَ الشّاعر:

سأنزِعُ من بينِ شِدْقِ الأفاعي

حُقوقي الّتي ضَيّعُوها سُدَى

سَأَمْضِي إِلى القُدْسِ فِي عَزْمَةٍ

وَأَجْعَلُ حِطّينَ تَأْتِي غَدَا

نُطَهِّرُها مِن دَنايَا اليَهُودِ

وَنُطْلِقُ مِنْ حَبْسِهِ المَسْجِدَا

وَيَبْسِمُ أَطْفَالُها الدَّامِعُونَ

وَأَسْمَعُ عُصْفُورَها إنْ شَدَا

وكان صوتُه دافِئًا إلى الحَدّ الّذي كنتُ أشعر على الحقيقة بهذا الدّفء في ليالي الشّتاء القارِسة.

بلاطَتان كافِيتان، كانتا من نوع البلاطِ المُربّع، لم يكنْ مُمكِنًا الاكِتفاء بخلع بلاطةٍ واحدةٍ؛ لأنّها كانت صغيرة بطول خمسةَ عشر سنتيمترًا وبالعَرض نفسِه، ثُمّ بدأتْ عمليّة الحفر، كلّفَتْني العمليّة مئة شيكل في البداية، وهو ثمن الملعقة الّتي اشتريتُها من السّجين الّذي كان هنا قبل ثلاثةِ أشهر، لكنّه ستُكلّفني أكثر من ذلك بكثيرٍ فيما بعدُ.

بدأتُ الحفرَ أفقيًّا. الحصمة أوّلاً، الّتي وزّعتُها في السّاحة حَصْمةً حصمة، نثرتُها في شقوق النّوافذ، وفي ثقوب الصّراصير والحشرات، وفي الزّوايا المُعتِمة في السّاحة، كان نثر الحصى بحيثُ لا يُلاحِظهُ أحدٌ من السّجناء أو من الشّرطة أوّل تَحَدٍّ حقيقيّ لي في هذه العمليّة، لكنّه مرَّ بسلام، وبعدَ شهرٍ حدثَ لهذه الحصى الصّغيرة حادِثٌ عجيبٌ؛ لقد اختفتْ تمامًا، كأنّ الأرض والزّوايا ابتلعتْها، أو كأنّها حلّقتْ في الفضاء لتحطّ في مكانٍ مجهولٍ لا يعلمه إلاّ الله!

ثُمّ جاءَ دورُ التّراب، احتطتُ لذلكَ أوّل الأمر في بدايات هذه العمليّة بكيسٍ في جيبي، كيسٍ صغيرٍ، وخرجتُ بالحفنة الأولى من التّراب في الثّلث الأخير من عام ٢٠١٤م إلى السّاحة، كنتُ أنظر في كلّ مكانٍ مُحاولاً أنْ أجدَ المكان الّذي يُمكنني أنْ أوزّعه فيه، بدا الأمر سهلاً على النّحو الآتي: اثقُبِ الكيس في يدك، ودَعِ الرّمل يسقطُ وأنتَ تمشي دون أنْ تُعيره انتِباهًا، ودون أنْ تأتي بأيّة حركةٍ مثيرةٍ للشّكوك، ثلاث مرّاتٍ أو أربعًا من الذّهاب والإياب في السّاحة سيكون الرّمل قد تسرّب كلّه. نجحَ ذلك بعضَ الشّيء، ولكنّ الرمل لا يكون دائِمًا جافًا، فلا يسقطُ بالطّريقة الّتي تظنّها، فلا بُدّ إذًا من أنْ تجلسَ في وسطَ السّاحة حتّى يبدو الأمر عادِيًّا، وتلعبَ بطابّة صغيرة، أو تعبث بتفّاحة، وتُسقط الرّمل المبتلّ، أو تُفتّته، لكنّ ذلك لا ينجح دائِمًا. وعليّ أنْ أتوقّف عن هذه الطّريقة، وأبحثَ عن وسيلةٍ أخرى.

وغَنّى (أيهم) ذاتَ مساءٍ وَرديّ: «سيمرُّ هذا اللّيلُ يا مَحْمُودُ حتّى لا يَكُونَ هُناكَ لَيلْ... انظُرْ إلى سِرْب الحَمامِ يَطِيرُ فَوقَ القُدسِ مَزهُوًّا... وَانْظُرْ لِسِرْبِ النّمْلْ... نحنُ الحَمامُ الحُرّ سوفَ يطيرُ يومًا

مثلَـه، والنّمـلُ في إصرارِه... سـنُذيقهم ألـوانَ وَيْـل... وَانْظُـرْ إلى مَـرْجِ ابْـنِ عامِـرَ نَحـنُ فِيـهِ الخَيْـلْ... صَهَلَـتْ فَأَرْعَبَـتِ الغَرِيْـبَ وَفَـرّ خَـوْفَ الهَـوْلْ... فتلقَّفَتْـهُ سُـيُولُنا وسُـيُوفُنا، والسَّـيْفُ نَحْـنُ، وَنَحْـنُ دَفْـقُ السَّـيْلْ».

(٤٣)

غريزة الطّيور

وُلِدَ مع الانتِفاضة الأولى، كان (أيهم) بطلاً. كلّنا أبطال. ربّما من زاويتنا الّتي نرى فيها أعمالَنا بطولة. وأيّ بطولةٍ أكثر من أنْ تتعلّم كيفَ تُقارِع عدوّكَ ذا الآلة العسكريّة الضّخمة وأنتَ لا تزال في المهد لا تملك إلاّ يدَيك وإيمانك؟! لقد اعتقله الاحتِلال وهو ابن (١٧) عامًا بينما كان يستعدّ للمشاركة في اعتصام تضامنيّ مع الأسرى الفلسطينيّين في (كفر دان)، ليمضي نصف عمره في سجون الاحتلال. إذا نحن - الّذين تُوحّدُنا المُقاوِمة - لم يقفْ أحدُنا إلى جانبِ أخيه، فهل ننتظر مِمّن باع البِلادَ والعِبادَ أنْ يفعل؟!

كان خطيبَنا في هذا المهجع، انتزعْنا معه أنْ نُصلّي الجُمعةَ في السّاحة جماعةً بخُطبة، وكان بوجهه السّمح، وطوله الفارع، يقفُ أمامنا أسدًا هَصُورًا يخطبُ فينا ونحنُ نُصغي إليه بقلوبنا وعقولنا، كان ثورةً تتأجّج، وكان يُحرّضُ على رَفضِ الواقع الّذي نعيش، ويُفتِي بقتل الصّهاينة المُحتلّين، وكان يبعثُ فينا الحَماسة إلى الحَدّ الّذي كُنّا نكادُ نقومُ من مَجاثمنا على الأرض في السّاحة لِنُهدّم الجُدران ونثور على الطُّغيان، ونمضي إلى بوّابات السّجن فنقتلعها، ونخرجَ إلى فضاء الحرّيّة تسيل من خلفِنا دماؤُنا وأشلاؤُنا.

كان يقول لنا: «مَنْ وُلِدَ حُرًّا لا يموتُ عبدًا». «للحرّيّة ثمنٌ لا يُدرَك بالقُعود، ولا يُنال بالخنوع». «لن تكون هناك نهايةٌ لأوجاعنا إلاّ بأوجاعنا». وكان يهتفُ بصوتٍ كأنّه الزّلزال:

وللحرّيّة الحمراء بابٌ

بكل يدٍ مُضرّجَةٍ يُدَقُّ

حدّثني (أيهم) كيفَ أنه جَهّزَ سيّارةً مُفخّخة، وهو لا يزال في العشرين، وانطلق لتفجيرها في مجموعةٍ من عساكر الاحتِلال، لكنّ عطبًا أصابها في الطّريقِ ولم يُنهِ مَهمّته الّتي كانَ سينتهي بها وجودُه على هذه الأرضِ، ومنذُ ذلك اليوم أصبحَ مُطارَدًا. سُجِنَ في سجون السُّلطة سنةً ونِصف السّنة على إثرها، في سجن (أريحا) الذي فرَّ منه بطريقته وعاد لعرينه في مدينة (جنين) العَصِيّة ليُواصل نضاله ضدّ الاحتلال. ولأشهر طويلة، ظلّ بين كَرٍّ وفَرٍّ يُقارع سارِقيه وقاتِليه ولصوصَه، واتُّهِم بإطلاق النّار على حواجزه العسكريّة واستهداف جنوده ومُستوطِنيه، ومَضى به الأمر على ذلك حتى نجح باختطاف مُستوطِنٍ يعمل طيّارًا حربيًّا ويُدعى (إلياهو أوشري) من أجل أنْ يُبادِله بالإفراج عن عددٍ من الأسرى، ولكنّ الاحتِفاظَ به في الوقتِ الّذي استنفر فيه الاحتِلال أيّام اختِطاف (جلعاد شاليط) صَعّبَ الأمر، فانتهى به إلى قتله ثأرًا لعشرات الآلاف من ضحايانا الّذين لم تجفّ دماؤهم إلى اليوم. فصَمّم الصّهاينة على القَضاء عليه، وتعرّض لمحاولات اغتيالٍ كثيرةٍ، لكنّهم فشلوا في اغتِياله. حاكَمَتْه السُّلطة في أروقتها، وأثناء تَوجُّهِه للمحكمة اقتحمتْ قُوّات الاحتِلال مقرّ المحكمة واعتقلتْه، وكان ذلك عام ٢٠٠٦م. ليسوقه القَدَر إليّ بعدَ ثماني سنواتٍ من السَّجْن فتكون هذه الصُّحبة.

في أيّامنا الّتي كُنّا نجلسُ فيها في السّاحة كُنّا نتعاهَد ذكريات الشّهداء والرّاحلين، سألتُه عن الشّيخ عبد السّلام، فقال إنّه لا يعرفه، لم يكن الشّيخ إلى اليوم معروفًا للكثيرين، كانتْ دائرةُ معارفه ضَيّقة، وتنحصر في الّذين يُعِدّهم للعمليّات القادمة، لكنّ كلّ واحدٍ من تلامذته هو صورةٌ تختبِئ خلفَها آلافُ الصّور؛ صُور المقاومة والتّحدّي والنّهج الّذي لا يُغيّر المسير مهما كانت التّضحيات.

كانَ صَمُوتًـا إلاّ إذا اقتـضى الموقـفُ الـكلام، وكان قليـل الضّحـك كثيرَ التَّبَسُّـم، وكان لا يقـع في خصُومـةٍ مـع أحـدٍ، كان يُشْـبِه ذلـك الأعـرابيّ الّـذي إنْ دَبّ الخِـلافُ بينَـه وبـينَ مُحَدِّثِـه، حمـل نَعلَـه تحتَ إبطِـه وَمضَى بهـدوءٍ تـارِكًا غمامات الخِلاف تتبدّد في الفَضـاءِ مِن ورائِـه، وتسـقطُ عـلى الأرضِ كأنّهـا رِداءٌ شـفيف.

تابعـتُ عمليّـة الحفـر بسرّيّـةٍ تامّـة، لم أُخبِرْ أحـدًا بِمَـن فيهـم (أيهـم)، ولم يكـنْ عـدمُ الثّقـة هـو السّبب، بـل حتّـى لا يتحمّـل المسؤوليّة معـي إذا انكشـفْت. بـدأتُ بالحفـر العمـوديّ، اسـتخدمتُ المِلعقـة، لا أدري إنْ كانـتْ مـن النّـوع القـويّ القـادر عـلى الحفـر، أو أنّ الـتّراب الطّـريّ لا يحتـاجُ أكثر منهـا لإتمـام مـا بـدأت، أم أنّ الأقـدار هـي الّتـي تُسـاعِدُ الإنسـان إذا مـا عَـزَم عـلى الأمـر وتـوكّل عـلى الله؟!

رافقتْنـي أكيـاسٌ مُتعـدّدة، جعلتُهـا صغـيرة، أحفـر بالملعقـة حينًـا وبأظافـري أحيانًـا أخـرى، وأمـلأ الكيـس، كلّ يـومٍ أملـؤه بمقـدار مـا يُسـاوي كغـم واحـدًا، أقـومُ فأُذيبُـه مـع المـاء في المغسـلة، وأُعيـدُ البلاطَـة الّتـي حفـرتُ تحتهـا إلى مكانهـا، وأُزيـل آثـار الحفـر بـما تناثـر مـن تـرابٍ بكنسِـه أو بِشَـطْفِه بالمـاء وإسـالتِه إلى المِقعـدة الّتـي كانـتْ مَمسـوحةً مـع الأرض تُتيـح للـماء المُترِب أنْ ينسـابَ فيهـا بسـهولة. بقيتُ على ذلـك شـهرَين حتّـى صار عمـق الحفـر العمـوديّ مـترًا. ولحُسـن الحَـظّ لم يلحـظْ أحـدٌ حتى الآن شـيئًا. وقـد شـعرتُ بـشيءٍ مـن الاطمِئنـان، وتبـدّدتْ سـحائبُ الخـوف مـع الأيّـام، ولكنّنـي تنبّهـتُ إلى أنّ اعتِيـادي الأمـر وتَبـدُّدَ مخـاوفي سيُوقِعنـي في المحـذور إنْ لم أرفـعْ درجـةَ ترقّبـي، وأشـعر بخفقـان قلبـي الّـذي رافقنـي في البِدايـات.

كان (أيهـم) مـن النّـوع الّـذي يضطلـع بقـدراتٍ عاليـة، فإضافـةً إلى أنّ الله زادَه بسـطةً في العِلـم والجِسـم، فإنّـه كانـتْ لديـه إرادةٌ للقِيـام

بمهمّات لا يتخيّل أحدٌ أنّه يُمكنه القيام بها، كنتُ أتخيّله قادِرًا على أنْ يلفّ بذراعَيه القويّة ثلاثة سَجّانين معًا، وأنْ يحمل بقبضةِ يده بابًا من أبواب الزّنازين الّتي يزيدُ وزنها عن (١٠٠) كغم، وكان لا يتفاخر بذلك، ولا يبدو أنّه يتباهى بِما وهبه الله من قُدُرات.

وكان زاهِدًا في أشياء كثيرةٍ كُنّا نتسابقُ للحصول عليها، كان زاهِدًا في الطّعام لا ياكل إلاّ ما يُقيتُ الجسد، وكان زاهِدًا في الرّياسة أو التّحدّث باسم الأسرى مع أنّه كان مُؤهلاً لذلك، وكان يُقدّم في كلّ أمرٍ إخوته ولا يتقدّم عليهم، وكان عازِفًا عن تمثيلنا أمام الإدارة مع أنّني كنتُ أعتقدُ - لبلاغته ورباطةِ جأشِه - أنّه خيرُ سفيرٍ لنا عِندهم. وكان لا ينظر في الأرض حتّى لا يُظنّ به الخَوَر، وكان ركينًا إذا ما اقتحمَ السّجّانون غُرفَنا، ولا يكاد يقوم من مقامه، وكان مع ذلك إذا تحدّث هابَه الجنود، وتراجَعوا خُطوةً إلى الوراء أو خُطوتَين كأنّهم يتوقّعون منه ضربةً قاضِيةً تُسقِطهم بكلّ عتادِهم غشايا على الأرض.

وتابعتُ أنا الحفر، ولمّا صار العُمق مترًا ونصف المتر، أيقنتُ أنّني يجب أنْ أحفر باتّجاه أفقيّ، وفكّرتُ في الاتّجاه، وكان عَلَيّ بالحدس إدراك الجهة الصّحيحة، فإنّ حفرًا باتّجاهٍ ما ربّما يقودُك إلى مكانٍ تحت زنزانةٍ أخرى، ثُمّ إلى سلسلةٍ من الزّنازين، فيذهبُ الجُهدُ هدرًا، لتكتشفَ ربّما بعدَ سنةٍ أنّكَ كنتَ تحفر في اتّجاه خاطِئ، وبأنّ كلّ ما فعلتَه هو أنّكَ دُرْتَ حولَ نفسِك.

قضيتُ أسبوعًا كامِلاً وأنا أُخمّن الاتّجاه الصّحيح، وألغيتُ منذُ البداية اتّجاهين، وبقي أمامي احتِمالان، وبقيتُ أدور في الفَورة، أُحدّد المسافات والزّوايا، وأتوقّع شطرَ الحفر، وأقيسُ المسافةَ بعَينَيّ،

حتّى ترجّح لديّ أنّني يجبُ أنْ أحفر شَمالاً، وتخيّلتُ في ليلةٍ من ليالي التّفكّر الطّويل، أنّني حفرتُ شهورًا طويلةً ثُمّ اصطدمتُ بجدارٍ إسمنتيّ، وأصابني الرُّعب لمجرّد هذا التّخيّل، ولكنّني لم أكنْ أملك معلومةً يقينيّة، كلّ ما كان لديّ هو المُحاولة، وإنّ الحرّيّة لتستحقّ المحاولة حتّى ولو أفضتْ بِكَ إلى غيرِ ما تريد، وتركتُ الأمر لله، وقلتُ: «لكَ يا ربّ فوجّهْني إلى حيثُ أرى وجهكَ في السّماء».

وسألني (أيهم): «تبدو مُتعَبًا». ورَدَدْتُ: «لستُ كذلك». «لقد لاحظتُ ذلك التّعبَ على وجهكَ في الأيّام الأخيرة، هل هناكَ خطبٌ ما؟!». وعرفتُ أنّني بدأتُ أنكشفُ لأقربِ أصِدقائِي، وتظاهرتُ بأنّني لا أفهم سؤاله، فهتفتُ: «ماذا تعني؟». «أراكَ تغيبُ في الفورة، أبحثُ عنكَ فلا أجدك». «ربّما أكونُ في زاويةٍ ما وأنتَ لا تراني». «لا... لقد بحثتُ في كلّ مكانٍ فلم أرك، الزّوايا لا تُخبِّئُك». «ربّما أكونُ مُستلقيًا على سريري في الغرفة، أحيانًا لا أحبّ أنْ أُشارِكَ النّاس مسيرهم في غير غاية». «المَفروض أنّ بقاءَكَ في الغرفة يُظهر الرّاحة على وجهك لا التّعب الّذي أراه». «إلامَ تريدُ أنْ تصل؟». «أريدُ أنْ تقول لي الحقيقة، ألا تثق بي؟!». وسارعتُ إلى القول مُبدِّدًا شُكوكَه: «بالطّبع، أنا لا أثق إلاّ بك». «فما الّذي تُخفيه؟». «لا شيء». «لا تُحاولْ». وشعرتُ أنّني مُحاصَرٌ، وضقتُ ذرعًا بهذا الحِصار، فحاولتُ تغيير الموضوع: «لقد صاروا يبعثون إلينا بنوعيّة سيّئةٍ من الطّعام، تُرى لِماذا؟». وفشلتْ هذه المحاولة حينَ ردّ: «لا تتفلّتْ من الإجابة الصّحيحة». «أوووووه... أنا متعبٌ... فقط مُتعَب، ماذا يُمكن أنْ يحلّ بجسدٍ ضغطتْ على صدره قُضبان السّجن عشرين عامًا؟!». وشعرَ هو أنّه تمادَى في أسئلته، فصمت، والتفّ نحوي، وحضنني بحنوّ، حتّى ذاب كلّ ما في جوارحي من غضب، وهتفَ

بصوتٍ دافِئ: «لا بأس، لا تقلقْ يا صديقي، أنا فقطْ أريدُ الاطِمئنان عليك، لا أريدُ أيّ شيءٍ آخر». «أنا بخير». وفي اللّيل لم أنمْ، وحزنتُ أنّني كنتُ مكشوفًا إلى هذا الحدّ، وقرّرتُ أنْ ألبسَ قِناعًا أخفي خلفه مشاعري حتّى عن (أيهم).

واستمرَرتُ في الحفر الأفقيّ. وحفرتُ المتر الأوّل في شهرٍ، ثُمّ المتر الثّاني والثّالث. وبدأتُ أختنقُ بروائح الرّطوبة، وأثّر ذلك في تنفّسي، فكنتُ أخرجُ من هناك ضيّق الصّدر، ودَبّتْ فِيّ الحَماسة، لكنّ حماستي كادتْ تقضِي عَلَي، وعرفتُ أنّ الاستِعجال يُفضِي إلى الحِرمان، وكان عليّ أنْ أُوازِنَ بين ذلك الحماس الغريزيّ وبين الانكِشاف، وشعرتُ أنّني صِرتُ قريبًا من الحرّيّة، ودفعني ذلك إلى مزيدٍ من الحفر، فصرتُ أحفر في اللّيل نِصفَ ما أحفره في النّهار، كنتُ أتحيّن الفرصة الّتي يستسلم فيها الزّملاءُ إلى النّوم، فأدخل الحمّام واضِعًا الفُوطَة على كاهلي، مُتظاهِرًا بأنّني أريدُ أنْ أستحمّ، وأفتحُ صُنبور الماء، وأهوي إلى نفقي العزيز، وأزاول الحفر، وأنا أسمعُ أصواتَ أنفاسي البطيئة المُختنِقة، وشعرتُ مرّة بالاختِناق، وقلّتْ كمّيّة الأوكسجين في النّفق، حتّى كدتُ أغيبُ عَنِ الوَعي، فخرجتُ مُسرِعًا أستنشقُ شيئًا من الهواء المسروق من رِئَتَيّ في الأسفل.

صِرتُ بعدَها أتدرّب على كَتْم أنفاسي، أو التّنفُّس بمقدار ضئيلٍ حتّى لا أستنفدَ كمّيات الهواء كاملةً في النّفق الضّيّق، كان عبارةً عن إسطوانةٍ تُحاصركُ من كلّ الجهات، لا تستطيع أنْ ترفع فيها رأسَك ولو بضعة سنتيمترات، وكأنّ النّفق كان يلبسني، ناهيكَ بالأتربة الّتي تتساقطُ على رأسِكَ وتملأ ثيابَك، وتدخل في فتحاتِ أنفِكَ دون أنْ يكون لكَ قدرةٌ على إزالتها أو التّخلّص منها هناك. ولم

يكـنْ - إلى ذلـك - بمقـدروي وأنـا أزحـفُ عـلى بطنـي أنْ أنقلـبَ عـلى ظهـري، كان ذلـك يُكلّفني عـددًا كبـيرًا مـن الأتربـة مُرشّـحًا أنْ يدخـل فمـي وأنفـي وعينَـيّ بسرعـةٍ وبكمّيّـاتٍ كبـيرة.

كان (أيهـم) ينظـر في عينَـيّ طويـلاً دون أنْ يقـول كلمـةً واحِـدة، لكـنّ عينَيـه كانتـا تنوبـان عـن لِسـانه، كانـتْ عينـاه تقـولان مـا لا يُقـال، وكان يفهـم أنّنـي أفهـم، ولكنّـه يكتـمُ مـا تفاهمْنـا عليـه بلغـة العيـون، كانـتْ عينـاه تقـولان: «إنّهـا أشـياءُ في قدرتنـا، كيـفَ يُمكـن أنْ يقـفَ أحـدٌ في وجههـا؟!». «إنّ رغبتـكَ في الحصـول عـلى مـا تريـد تُحقّقهـا إرادتُـك». «إنّ الطّيـور تُفضّـل أنْ تجـوع عـلى أنْ تبقَـى في أقفاصِهـا». «كلّ مـا يحـدثُ لـكَ مِـنْ نفـعٍ فإنّـه نفـعٌ بطريقـةٍ أو أخـرى لي ولـكلّ المظلومـين. أنـتَ أيقونـة هـذا الخـلاص فـلا تُفكّـر في سِـواه».

ومضـتْ ليـالٍ لا يـدري أحـدٌ كيـفَ تمـضي؟! مـا العُمـر هنـا؟ مـاءٌ منسـابٌ. فكـرةٌ مُضيَّعـة في الـدّرب. طريـقٌ طويلـةٌ تحفّهـا الأفاعـي مـن كلّ جانـب. يـأسٌ عميـقٌ زُعـافٌ في قَعـره بعـضُ الأمـل الحلـو. ومـا الأمـل؟ أنْ تـرضَى بهـذا العمـر المُنسـابِ قطـرةً قطـرةً مـن ثقـوبِ غربـالٍ عـلى وعـدٍ بـأنْ تعلـقَ قطـرةٌ واحـدةٌ في النّهايـة دون أنْ تسـقطَ في الفـراغ!



(٤٤)

وصايا

ومضى النّفق يشقّ طريقَه إلى الجهة الّتي أردتُها. كانتْ قد مضتْ على تلك البداية البعيدة ثمانية شهورٍ على الأقلّ، احتفظتُ فيها بالسّرّ لنفسي. كان كتمان السّر أصعبَ من كتمان الخوف حين يُباغِتكَ أسدٌ مُفتَرِسٌ وأنتَ وحيد. الاحِتفاظُ بالسّرّ ثقيل، صعب. البوحُ سهل، مُريح، لكنّ عواقِبه قاتِلة.

قال لي (أيهم): «إنّني أُفكّر بما تُفكّر به أنت». فتساءلتُ: «وما الّذي تُفكّر فيه؟». نظرَ إلى نظرةً ماكرة، وابتسم: «الأسئلة المُعلّقة خيرٌ من الإجابات الكاشِفة». كيفَ تكون مكشوفًا وتظنّ أنّكَ حاذِق؟! وأنتَ لا تُغطّيكَ سوى قشرةٍ رقيقةٍ، لو نَزَعها عابرٌ في الطّريق لرآكَ على حقيقتك؟!

كُنّا نتذاكر عهد الشُّهداء، كان (أيهم) مُولَعًا بوصاياهم، وكان يحفظُها عن ظهر قلب كأنّه هو الّذي كتبَها، وكانتْ له وصيّته الخاصّة، كان يتلوها عَليّ، ويبكي في نهاية كلّ وصيّة، تلا مرّة وصيّة الشّهيد (صلاح شحادة) كأنّه يتلو نشيدًا ملحميًا: «أولاً: أوصيكم بتقوى الله والجهاد في سبيله وأن تجعلوا فلسطينَ أمانةً في أعناقكم وأعناق أبنائكم إلى أن يصدح الأذان في شواطئ يافا وحيفا وعسقلان.

ثانيًا: أُوصِي في كل أموالي وديوني التي ستفصل في ملحق خاص بتنفيذ حكم الله فيها، وذلك بعرض تفاصيل ما يتصل بأموالي وديوني على عالِمٍ شرعيٍّ مُختصٍّ من أتقياء المُسلِمين.

ثالثاً: أؤكد بتنفيذ المواريث حسب شرعنا الحنيف.

رابعاً: أوصي أن يتولّى غسلي - إن غُسِّلْتُ - الأخ نزار ريّان، فإنْ لم يكن فالأخ عبد العزيز الكجك، على أن يستروا عورتي ويحفظا سِرّي حفظهما الله وأن يتولّى لَحْدي في قبري أحدُ الأخوَين المذكورَين.

خامسًا: تنتهي التّعزية بي عند قبري وإنّي بريءٌ مِن كلّ مَن يقوم بنَصب مَأتم لي، وأبْرأ إلى الله من كلّ عملٍ يُخالف شرع الله من النِّياحة أو اللَّطم أو شَقّ الجُيوب أو نَتْف الشُّعور أو تكبير صُوَري ووَضْعِها على الجُدران.

سادسًا: أُوصي أهلي وزوجتي وذُرّيّتي بالدُّعاء لي بالمغفرة والسّتر، وأنْ يُسامِحوني على أيّ عملٍ يَجِدونه في خواطرهم عَلَيّ سَبَّبْتُه.

سابعًا: أن يكون قبري بجوار قبور الصّالحين ما أمكن، وألا يُبنَى قبري أو يُجصّص أو يُكتَب عليه الشّهيد، وإن استُشهِدت فاللهُ أعلمُ بعباده.

وأخيرًا أدعو الله تعالى أن يرحمني وإيّاكم، وإلى لقاءٍ عند ربٍّ غفورٍ رحيمٍ كريمٍ بإذنه تعالى».

وكُنّا نبكي بُكاءً مريرًا، ولكنّ عزائِمنا كانتْ تقوى، وهِممنا تعلو، وكُنّا نستصغر ما فعلْناه إلى جانبِ ما فعلوا. كانتْ وصايا الشّهداء الّتي يحتفظُ بها (أيهم) في صدره مناراتِ الدّرب، وراياتِ الهداية.

وشعرْنا بِحَرّ التّحيّة الصّادقة يتدفّق في قلبَينا حين تلا عليّ وصيّة الشّهيد (باسل الأعرج): « تحيّة العروبة والوطن والتّحرير،

أما بعد.. إنْ كنتَ تقرأ هذا فهذا يعني أنّني قد مِتُّ، وقد صَعَدتِ الرُّوحُ إلى خالقها، وأدعو الله أنْ أُلاقيَه بقلبٍ سليم مُقبِلٍ غيرِ مُدبِر، بإخلاصٍ بلا ذرّة رياء. لَكَمْ من الصَّعب أن تكتبَ وصيّتك، ومنذُ سنينَ انْقضتْ وأنا أتأمّل كُلَّ وصايا الشُّهداء الّتي كتبوها، لَطَالما حَيَّرَتْني تلك الوصايا؛ مُختصرةً سريعةً مُختَزلةً فاقدةً للبلاغة ولا تَشفِي غَليلَنا في البحث عن أسئلةِ الشّهادة. وأنا الآن أسيرُ إلى حتفي راضيًا مُقتنِعًا وجدتُ أجوبتي، يا ويلي ما أحمقني؛ وهل هناك أبلغ وأفصح من فِعل الشهيد؟! كان من المفروض أن أكتب هذا قبل شهورٍ طويلة، إلاّ أنَّ ما أقعدَني عن هذا هو أنّ هذا سُؤالُكم أنتم الأحياء فلماذا أجيب أنا عنكم فلتبحثوا أنتم، أما نحن أهل القبور فلا نبحث إلا عن رحمة الله».

وسألتُه ألاّ يتلو عليّ مزيدًا من وصايا الشّهداء، فإنّ قلبيَ لم يعدْ فيه مُتسّعٌ لمزيدِ من الحزن، وإنّ الآماق لم يعدْ فيها موضعٌ للبُكاء. وسمعتُه يُنشِد:

لَعَمْرُكَ إنّي أرَى مَصْرَعِي

وَلَكِنْ أَغُذُّ إلَيهِ الخُطَا

ورحتُ أرتق ما انفتق من القلب، وأجمع ما تمزّقَ منه بالانهماك بالحفر، وتولّتْني هِمّة عظيمةٌ دافِعُها القَهرُ أكثرَ من التّسليم، والغضبُ أكثر من الرّضا. ورحتُ أحفر التّراب والصّخر بأظافري على الحقيقة، وكانتْ تَنِدُّ منّي صَرَخاتٌ تضيعُ في ثنايا التّراب، وتسقطُ في أغوار العَتَمة. وشعرتُ بعدَ كلّ هذا أنّني سأبقَى أحفر إلى ما لا نهاية، ولن أخرجَ من هنا. وأنّ عليّ أنْ أرضَى بِقَدَري، وأثقلني السّر الّذي أحمله في صدري كأنّه جِبالٌ جاثِمة، وراحَ يحزّ أحشائي

بِسكّين الأسئلة: إلى متى؟ وهل لهذا الأمر نِهاية؟ ولِمَ لا أستكين إلى ما كَتَبه الله في لوحه المَحفوظ؟ ولأرضَ بِما أنا فيه؟ ولكنْ؛ ما أدراني بِما كَتَب الله، ألا يُمكن أنْ أكتبه أنا، بفِعلي، بإيماني بِأنّني إنْ تقدّمتُ إليه شِبرًا تقدّمَ إليّ ذِراعًا، وإنْ أتيتُه أمشي أتاني هرولةً؟! وظلّت الأسئلة تنقر دِماغي حتّى شعرتُ بأنّني لن أتخفّف منها إلاّ إذا شاركتُ سِرّي مع (أيهم)، ففي النّهاية هناكَ حَدٌّ للاحتِمال، وإنّ الحِمل إذا وُزّع خُمِل، وإنّ الثّقل إذا شُورِكَ خَفّ، وهَمَمتُ بذلك فِعلاً، وسألتُ (أيهم): «أما فكّرتَ مرّة إلى متى؟». فردّ وقد برقتْ عيناه: «ألفَ مرّة». «فما الحلّ؟». «الهروب». ووقفتِ الكلمة على أطراف أصابعي وصعدتْ سيلاً حارًّا إلى قلبي فأحرقتْه بشُواظِها، وانتقلتْ إلى لِساني ففتحتُ فمي وكادتْ تخرج من هناك لولا أنّني أطبقتُه على الفور، وسددتُه بباطن كفّي، ورحتُ أرتجف، وصوتُ غَمغماتي يُحاول أنْ يخرج من بين أصابِعي. وبدا أنّ (أيهم) يعرفُ ما كنتُ أنوي قَوله، واحترَمَ تراجُعي، وضَمّني إليه على عادته ليُهَدِّئ من روعِي، وهتف: «لكلّ أجلٍ كتاب»، ومن خلفِ كَتِفَيه رأيتُ الشّيخ (عبد السّلام) في زاوية الغرفة يُشيحُ برأسه وهو يقول: «مَنْ كشفَ سِرَّنا حُرِمَ وصالَنا» وراحتْ كتفي تهتزّ بالنّشيج على صَدْره!!

واحتجتُ أسبوعًا لكي أتخلّص من وِزر ما كدتُ أنْ أقع فيه، قضيتُ تلك الأيّام ساهِمًا شارِدًا، أنظر دون أنْ أرى، وأحدّث النّاسَ دون أنْ أعي، ثُمّ عُدتُ إلى الحفر من جديد، ولكنّني هذه المرّة كنتُ قد وصلتُ إلى حالةٍ من الفوضَى الّتي تعصفُ بأعماقي فتتركُ كلّ ما خلفَها رمادًا، وفشلتُ في أنْ أضبِطَ انفعالاتي، أو أنْ أُقدّر عواقبَ قلّة الحذر، فصرتُ أخرجُ من الحفرة وأُذيب التّراب في المغسلة دون أنْ أنظّف الآثار بشكلٍ مُتقنٍ خلفي، وصرتُ لا أكترث لصوتِي ولا

لِصـوتِ مَـنْ دخـل الغرفـة أثنـاء الفـورة وأنـا أحفـر، وكنـتُ أنـزلُ إلى النّفـق قبـل أنْ أتأكّـد تمامًـا مـن أنّ الجميـع قـد أووا إلى فُرُشِـهم وناموا، إلى أنْ رأيـتُ ذاتَ مـرّةٍ ضـوءًا في وجهـي وأنـا في النّفـق، ولم أتبّينْ مَـنْ هـو، وتمنّيـتُ أنْ يكـون أحـدَ النّـزلاء، فـإنّ الفضيحـة تكـون أخـفّ، ولكنّنـي سـمعتُ صـوتَ الجنـديّ الّـذي صرخَ بي: «اطلـعْ يـا محمـود... اطلـعْ يـا مُخـرّب...». ووقـع الصّـوت علـيّ وَقْـع الصّاعقـة، وخرجـتُ ببـطءٍ وآلاف الأفـكار السّـوداء تحـوم في عقـلي، وحاولـتُ أنْ أتخيّـل المـآلات، ومـا يُمكـن أنْ يحدثَ جـرّاء ذلـك، ولكـنّ عقـلي كان قـد أُغلِقـت كلّ منافـذه، وأُحكِـمَ رِتاجُـه، ولمّـا صرتُ خـارجَ الحُفـرةِ رأيـتُ عـددًا مـن الجنود يُصوّبـون رَشّاشـاتهم نحـوي وهتـفَ أحدُهـم: «تريـدُ أنْ تهـرب؟ هـه... عـلى الأقـلّ لا تكـنْ غبيًّـا فتهـربَ بهـذه الطّريقـة المكشـوفة... هـل أنـتَ في نُزهـة؟!» وقُيِّـدَتْ يـدَاي - مـع صُراخ الجنـود - خلـفَ ظهـري، وخرجـتُ مـن الحَـمّام وأنـا أنظـر في وجـوه زُملائـي مُشـفِقًا عـلى مـا سـيحلّ بهـم بسـببي، وكنـتُ أعتـذر لهـم وقبضـات الجنـود تدفعنـي مـن ورائِـي، وحانـتْ منّـي التِفاتـةٌ إلى عينَـي (أيهـم)، لم يكـنْ فيهـما عِتـاب، ولا لـوم، كان هادِئًـا ينظر إليّ بفخـر، وكانتـا تبسِـمان كأنّـما تُشـجّعانني عـلى مـا فعلـت، وسـمعتهما تقـولان: «إنّهـا مُحاولـة، ولـن تكـون الأخـيرة. النّـصر لِمَـنْ صـبر».

عُرِضـتُ بعدَهـا عـلى محكمـة السّـجن الّتـي حَكَمـتْ علـيّ بالعـزل، ثُـمّ رُميـتُ في الزّنازيـن الانفِراديّـة، لأقـضي فيهـا عامًـا كامِـلاً.

(٤٥)

خارجَ العالَم داخلَ الذّات

مِترٌ في أقلَّ من مِترَين، سيكون ذلك عالَمك الجديد، عليكَ أنْ تأكل في هذا العالَم الفسيح وتشرب وتقضي حاجتك وتنام وتفعل كلّ شيءٍ!! لا بَشَر، لا حَيَوانات، لا شَجَر، وحدكَ مع الحجر الأصمّ، الحجر الّذي تُحاوِل أنْ تتّخذ منه - مع الزّمن - صديقًا، ولكنّه لا قلبَ له، وليسَ مُستعِدًّا أنْ يراكَ أو يسمعك أو يكترثَ لِحالِك، ظَنًّا منه أنّه ليسَ في وضعٍ أفضلَ منك!

مضى اليوم الأوّل عادِيًّا؛ تريدُون حَبْسِي وحيدًا؛ فلْيكنْ، لنْ أهتمّ، أنا أحتاجُ هذه الوحدة على أيّة حال. مضى اليوم الثّاني، شيءٌ من ضِيْقِ الصّدر... مضى اليوم الثّالث؛ أين الوجوه الّتي يُمكن أنْ تُحادِثني؟! لا أحد... لا وجه، ولا جسد، ولا عينان، لا وجود، حتّى ولو كان لطيفٍ أو لِشبَحٍ عابر، بدأ الهواء يُحاصِرني.

مضى اليوم الرّابع... أحاوِلُ أنْ أتعالَى على ما أنا فيه، أصرخ: «لن تكسروا إرادتي، أنا وحيدٌ ولكنّني غيرُ خائف، لستُ مُحتاجًا للحديث مع أيّ بشريّ» سقطَ صُراخي في اليوم الخامس، وفي اليوم السّادس تحوّل إلى ذرّاتٍ صغيرةٍ لا تُرى، ثُمّ انساب من تحتِ شقوق الباب... هل سيحصلُ معي ما حصل مع (النّمور في اليوم العاشر)، يبدو أنّ اليوم العاشِر سيأتي سريعًا...

في اليوم السّابع بدأتُ أضعُ خدّي كالأبله على الجدران، أتمسّح بها، وأطوفَ بينها، وبدا صوتي خفيضًا وأنا أقول: «لن يطول هذا الأمر، غدًا سينفتح هذا الباب اللّعين، وسأخرجُ من هنا إلى

الفَورة، إلى ساحةِ التّشميس... لا بأسَ لو خرجتُ إليها وحيدًا، أريدُ أنْ أرى الشّمس».

لم ينفتح الباب في اليوم الثّامن، ولا أطّلتِ الشّمسُ برأسِها من وراء الجُدران الضّيّقة، أحسستُ أنْ جسدي بدأ يلين، أصبحَ رَطْبًا كأنّه جسدُ أفعى هَرِمة، أحسّ بَحكّةٍ في جِلدي، وبتهارشٍ في جسدي... أووووه... لماذا كلّ هذا الضّيق؟! الأمرُ طبيعيٌّ؛ هل عَليّ أنْ أُذكّر نفسي بأنّني لستُ نزيلاً في فُندق؟!

في اليوم التّاسِع أردتُ أنْ أستوعبَ أنّني لن أرى النّور مرّة أخرى، فشلتُ. أردتُ أنْ أتذكّر أنّني حاولتُ كَسْرَ رأسَ الاحتِلال بمحاولتي الهروب، نسيت. حاولتُ أنْ أقومَ من مكاني ليجري الدّم في أطرافي المُتيبّسة، عجزت. ما الّذي يحدث؟! ألن يتغيّر هذا المكان؟! أجلسُ مُسنِدًا ظهري إلى الجِدار المَقرور، أرفعُ رِجلي اليُمني إلى صدري بزاويةٍ قائمة، وأمدّ اليُسرى أمامي، وأتظاهر باللامُبالاة. أقفُ على قدمَيّ، أحاول أنْ أركل العالَم بحِذائي، ولكنّه بدا أنّه هو الّذي يركلني.

أينَ هذه الزّنزانة المُرعِبة؟! في أيّ قِسْمٍ من السّجن تقبع؟! هل ما زلتُ موجودًا في سجن (شَطّة)؟ أأنا هنا أم هناك؟! ما تعريف الـ (هنا) وما تعريفُ الـ (هناك)؟ هل هما واحدٌ أم اثنان؟! هل يتقابَلان أمْ يتقاطَعانِ أم يمضِيان في خَطَّين مُتوازِيَين لا يلتقيان أبدًا؟! هل أنا في العالَمَ الّذي يُعرّفونه بأنّه عالَمَ البشر، أم أنّني نُفيتُ منه إلى عالَمٍ آخر لا يُدرَى كنهه؟! لِيَنفوني إليه كما أرادوا ولكنّني أريدُ أنْ أعرفه. أُريدُ أنْ أعرفَ هذا العالَمَ الّذي أنتمي إليه أو ينتمي إلَيّ؟!

في اليوم العاشر تحوّلتْ عيناي إلى زُجاج، لا أرى بِهما، لكنّهما يكشفان عن دواخلي، كنتُ عارِيًا تمامًا من الدّاخل، كان يُمكن لأيّ

مخلوقٍ هنا أنْ يرى مِئات الذّئاب الّتي تتعاوَى في أحشائي، يُمزّق بعضُها بعضًا؛ أينَ أنتَ يا (رَيّان)؟!

زنزانتي الانفِراديّة بلا نوافذ، لا نافذة ولو كانتْ يتيمة، الجدران تبدو بيضاء، أو كانتْ كذلك، أو هي كذلك، ثُمّ غلّفها سَوادُ قلبي فلم أعدْ أراها إلاّ إذا لَمَسْتُها. لا يوجد في الجدران الأربعة الضّيّقة الّتي تُشبِه تابوتًا مُحكَم الإغلاق إلاّ باب حديديّ ثقيل، لم يكنْ يُفتَح أبدًا، كان فيه طاقةٌ في متره السّفليّ، طاقةٌ صغيرةٌ تسمحُ لصحن الطّعام أنْ يُمدّ إليّ عَبْرَها، دون أنْ أرى وجه مَنْ مَرّرها ولا أيّ شيءٍ منه، تضاءلَتْ أمنياتي بعدِ شهرٍ إلى أمنيةٍ صغيرة؛ أنْ أرى كَفّ عدوّي البشريّة الّتي تمدّ الصّحن، حتّى هذه الأمنية كانتْ هاربة!

مثلَ كلبٍ أجرب كنتُ مُمَدّدًا في الزّنزانة. ماذا أفعل حتّى يُخرجونني من هنا؟! مَرّ عليّ شهران، ثلاثة؟! كيفَ لي أنْ أعرف، أنا لا أرى شمسًا ولا مغيبًا، ولا ليلاً ولا نهارًا حتّى أعدّ الأيّام... هل أُسامحهم بِما مضى من أيّام، ثُمّ أبدأ منذُ الآن بتسجيل الأيّام الّتي تمرّ عليّ مرور الوحوش الثّقيلة بِجوار أعمى؟! كيفَ أفعل ذلك؟! سأقوم بالحفر بأظافري على الجدران لكلّ يومٍ خطّ، أوَقّتُه على مرور الصّحن من الطّاقة السُّفليّة، أربعة خطوط أفقيّة والخامس عموديّ... هكذا يُمكن أنْ أحسبَ ما يمرّ عليّ من أيّامٍ هنا... هل يسمح اللّصّ لي بيومِ زيارةٍ واحدة... زيارة يتيمة، أرى فيها أيّ بشريّ، لا أُريدُ أنْ أرى وجه أُمّي أو واحِدًا من إخوتي، يكفيني أنْ أرى أيّ وجهٍ بشريٍّ ولو كانتْ وجوه هذا الاحتِلال البغيض؟! تحلم!!

حفرتُ بأظافري عشرة خمساتٍ حتّى الآن، بدا ذلك في البداية مُسلّيًا، شيئًا ما يُمكن أنْ تفعله بدلاً من الوجود العَدَميّ،

لكنّ ذلك صارَ مُمِلاً بعد أربعين من الخمسات الّتي ملأت الجِدار الّذي عن يميني... ماذا أفعل؟ رحتُ أمشي بشكلٍ جنونيّ، لكنّ أرضيّة الزّنزانة لا تسمح بخطواتٍ كثيرةٍ أو واسِعة، ولْيكنْ. هي خُطُواتٌ قليلةٌ قصيرة، لكنّها تحميني من التّعَفُّن... رُحتُ بالفعل أمشي كالمجنون، خُطوتان وفي الثّالثة تصطدم بالجِدار، خُطوتان ونصف، ذهابًا، ثُمّ إيابًا، ثُمّ طرقةٌ بالكَفّ على الجدار، ها أنذا أمشي، ثُمّ أمشي، ثُمّ أمشي... إلى أنْ سقطتُ من التّعب في بِئر النّوم العميقة.

في النّوم رأيتُ ثلاثةً؛ عرفتُ اثنَين وأنكرتُ الثّالث، رأيتُ صديقي (رَيّان)، رأيتُه يتمسّح بي وهو يمشي إلى جواري وسمعتُه يقول: «لكلّ شيءٍ نهاية!». «هل أنتَ حَيٌّ يا رَيّان؟ هل أنتَ حقيقيّ؟ كيفَ استطعتَ أنْ تتجاوز الحواجز المُشبّكة والجدران الصّمّاء والأبواب المُوصَدة وتصل إلى هنا؟». لم يُجِبْ. أمّا الثّاني فكان الشّيخ (عبد السّلام)، سألتُه: «هل أنتَ حَيٌّ أيضًا؟ أينَ حطّتْ بِكَ الأقدار؟». لم يُجِبْ. كان يكتفي بالتّبسّم، كانتْ لحيته الوضيئة تُضيءُ عتمة رُوحي. «اصدُقْني القول يا شيخ؟ هل عَبَرْتَ إليّ بروحِكَ أم بجسدك؟!». سمعتُه يقول: «ما قيمة الجسد لولا الرّوح». ولكنْ هل أنتَ أنت؟ هل ما زلتَ تُخطّط وتُجهّز المُقاوِمين وتُنفّذ العمليّات؟». رَدّ: «إنّنا يا محمود لا نضع السّلاح إلاّ يومَ التّحرير، ولا نرتاح إلاّ يومَ النّصر». أمّا الثّالث، فلم أعرفه، كان أسمر، خفيفَ شعر الرّأس، وجهه يقول دون أنْ ينطق، ولم أكنْ قد رأيتُه من قبل، وسمعتُه يقول: «سنلتقي». وسألتُه: «أينَ سنلتقي وأنتَ تراني في هذه الزّنزانة الّتي لا يتسلّل منها الهواء؟!». فردّ: «ستخرج من هنا، وسنلتقي أعِدُكَ بذلك». وصحوت!

بـدأتُ بالطّـرق عـلى الجـدران، أدور بينهـا وأطـرقُ عليهـا، كان الطّـرق في البدايـة خفيفًـا، ولكـنّ غضبًـا مـا تفجّـر في أعماقـي، فرحـتُ أطـرقُ بقبضـةٍ قويّـة، كان الجِـدار يهزأ بي وبقبضـتي: «مـاذا تفعـل؟! هـل تـرى كَفًّـا تُناطِـحُ مِخرزًا؟!». «اخـرسْ أيّهـا الجِـدار، لـن تكـونَ عونًـا لهـم عَـليّ». رحـتُ أطـرقُ عـلى البـاب بقـوّة وأصيـح: «أيّهـا القَتَلـة... أيّهـا السّـفّاحون... لـن تكونـوا أقـوى مِنّـي». هَـزِئَ البـاب بي، لم يتزحـزحْ مـن مكانـه ملّيمـترًا واحِـدًا، ولم يرتـجّ، ولم يحـدث لـه شيءٌ، وتعالـتْ صَرَخَـاتي، ثُـمّ بـدأتْ تخفُـتُ شيئًا فشـيئًا، وتحوّلـتْ إلى بـكاءٍ صامـت، ورحـتُ أُقبّـل الجُـدران، وأستعيدُ مـا أحفـظُ مـن القـرآن، وأبكـي، و... أضفـتُ عـلى الجـدار الّـذي عـن يمينـي خمسـةً جديـدة!

«أنـا أمـوتُ هنـا!». «كلاّ، لـن تمـوت مـا دُمـتَ تُقـاوِم». «أنـا نكـرة». أنـتَ العـالَمَ كلّـه». «أنـا وحيـد». «معـك قلبُـك، وذلـك يكفـي». «سأُصابُ بالجنـون». «يُمكـن الاحتِيـال عليـه». «ولكـنْ كيـف؟». «تدبّـرْ كيـفَ صِرتَ إلى هنـا، ولمـاذا اختـارَكَ الله لهـذا دون سِـواك، مـا اختـاركَ ليضعـك بـل ليرفعـك، ومـا أنزلـكَ إلاّ ليُقِيمـك، فـلا يطّلـعِ الله منـكَ إلاّ عـلى مـا يُحـبّ». «يذبحنـي الشّـوق إلى إخـوتي». «يُغنيـك الله». «الحنيـن داء». «المعرفـة دواء». «أعـرفُ مَـنْ ومَـاذا». «اعـرفِ الله يعرفْـك. اسـترْ عنـه، ولا تسـترْه عنـك». «أنـا وحـدي في وحـدتي». «أنـتَ كثـيرٌ فيـك». «تكسـرني الرّيـاح». «احـنِ ضلوعَـك عـلى قلبِـك تسـقطْ عنهـا الرّيـاح». «لا شِراع لي يسـير بي». «الأشرعـة تـدلّ عليـك فَخَفْهـا، وتُعرِّضُـكَ للعواصـف فأَخْفِهـا. امـضِ فيـك فـإنّ وصولـكَ إلى الغايـة محتـوم».

خَفـتّ وجـودي في النّهايـة، انعدمـت الجاذبيّـة، لا وزن لي، رأيـتُ نفسـي مُعلّقًـا في سـقف الزّنزانـة، أردتُ أنْ أتـدلّى حتّـى صرتُ قابَ قوسَـين

أو أدنى. جسدي يريدُ التّحرّر، يأبى أنْ يهبط، ذراعايَ مفتوحتان على اتّساعَهما، أشعرُ أنّني أطير. أحلّق. أمضي إلى سَماءٍ بعيدة ليسَ لها حَدّ. يجرحني الضّوء بعد شهور العَتمة، يُزعجني الصّوت بعدَ ليالي الصّمت. كلّ شيءٍ صار نَقِيًّا، علامَ تحزن؟ لَمْ تفقدْ ما يُحزَن عليه، بل وجدتَ ذاتك، ذلك هو الفرح يومئذٍ.

أحلمُ دون أنْ أُغمِضَ عينَيّ، لن تسرقوا حلمي. أستعيدُ صُورَ أحبّتي، وجه أمّي الملائكيّ، ضحكة أختي الطّفوليّة، كلمات أبي الدّافِئة، هرير رَيّان الحَنون، خطوات الشّيخ عبد السّلام الواثقة، ابتِسامة أيهم الودودة، و... أتعانَقُ بهم، أستجلبُ وجودهم، ها هي أرواحهم اللّطيفة تحفّ بي، مَنْ قال إنّ الشّعور بهم يقتضي حُلولَ أجسادِهم؟!

أُرَتّب هِندامي، بدلتي الحمراء الأنيقة، أنا أنيق، لن تسلبوني أناقتي. آكل الطّعام ببطءٍ وبتلذُّذٍ وبشهيّة، أطردُ الأفكار الخبيثة، سأُقاوم نعم، لن تنتصروا عَلَيّ، أرشقُ بالماء حوافّ الزّنزانة، على عَتَمتها ستُضيء، أُبقِي كلّ شيءٍ نظيفًا، أرتّب مِلعقتي الخاصّة، طبقي الخاصّ، كوبي الخاصّ، أضعها في تراتبيّة ذكيّة وجميلة، أنا حَيّ، لن تجدوني ميّتًا، الموتى أنتم.

أكتُبُ على الجدران؛ هل صِرتُ شاعِرًا؟! أينَ أنتَ يا (أيهم)؟ أسترجعُ بعضَ أشعاره، أكتبُ كتابًا كامِلاً على الجدران، أُحيط الخمسات السّبعين بخطٍّ عازل، وأكتبُ فوقَها بغير قلم وتحتها، وحولَها، سطورًا مرتّبة غير مرئيّة، وغير مُعوجّة، سطورًا مُنتَظمة، أملأ الجُدران كُلّها، أكتبُ هنا كِتابًا كامِلاً وأحفظه غيبًا؛ حينَ سأخرج سيكون من السّهل أنْ أستعيده حرفًا حرفًا!

فُتِحَ باب الزّنزانة، لم يُفتَح منذ سنةٍ كاملة، غمرني الضّوء المُتدفّق موجًا طامِيًا، فسترتُ عينَيّ بظاهرِ كفّي، احتجتُ إلى دقائق لأستوعب ما حدث؛ هل فُتِحَ باب الزّنزانة فِعلاً أمْ أنّني أتوهّم؟! كَلاّ، ها أنا أسمعُ أصواتَهم الغليظة، وها هو أحدُهم يقودُني إلى الخارج. «إلى أين؟». «ستُنقل إلى سجنٍ جديدٍ». «أووووه أَمَا تعبتْ مِنّا السّجون؟!!».

(٤٦)

الخزنة

أخـذوني إلى سـجن (جلبـوع)، ألبـسُ بدلـةً جديـدةً لسـجنٍ لا يبعـدُ كثيرًا، وأحمـلُ بطاقـةَ تعريـفٍ جديـدة مكتوبًـا عـلى يمينهـا الأعـلى סג״ב؛ «سـچاف» هـي اختصـار لكلـمات סיכוי גבוה לבריחה، أي: «احتماليّـة عاليـة للهـرب»، صُنِّفْـتُ بهـذا عـلى أنّنـي نزيـلٌ شـديدُ الخُطـورة. لا عِشـنا إنْ لم يكـنْ كلّ مُحِـبٍّ لأرضِـه خطـيرًا عليهـم. نحـنُ بنوهـا العاشِـقون. كنـتُ هزيـلَ الجسـد، كان وزني لا يزيـدُ عـن (٧٠) كغـم يـومَ نُقِلـت. كان يومَ فـرحٍ بالنّسبة لي، سـألتقي بالبـشر الّذيـن يُشـبِهونني بعـدَ كلّ هـذا!!

نزلـتُ مـن البوسـطة، ويَـدَايَ مُقيّدَتـان خلـفَ ظهـري، والعصابـة الّتـي عـلى عينَـيّ أُزيلَـتْ أوّل مـا انفتـحَ بـابٌ حديـديٌّ صغـير يقبـع في زاويـةِ بوّابـة ضخمـة. دُفِعـتُ إلى الأمـام، وخلفِـي أكثـر مـن عـشرة جنـود مُجهّزيـن بالبنـادق الرّشّاشـة، عـلى طاقـةٍ صغـيرةٍ بعـدَ بضعـةِ أمتـار مـن الدّخـول أخـذوا مُتعلّقـاتي وبِطاقتـي ونَظَـر السّـجّان الّـذي خلـفَ الزُجّـاج طويـلاً في عينَـيّ دون أنْ ينطـق بكلمـة، ثُـمّ هـوتْ عينـاه وألقـى نظـرةً عـلى سِـجِلّي الّـذي يبـدو أمامـه عـلى الشّاشـة، قبـل أنْ يُصعِّـدَ النّظـر فِيّ مـرّة أخـرى، ويـزمّ شـفتَيه، وينطـق: «محمـود العارضـة، سـجين خطـير، محاولـة هـروب فاشِـلة...» لم أسـمعْ بقيّـة مـا قـال، حـينَ همسـتُ في أعماقـي: «لـن تكـون فاشِـلة أيّهـا الفاشِـلون في المـرّة القادِمـة».

عـبرْتُ مـع عـشرةٍ مـن الحُـرّاس الممـرّ الطّويـل، قبـل أنْ تُفتـحَ بوّابـةٌ أخـرى بشـكلٍ تلقائـيّ، ونمـضي، ثُـمّ هـا هـو المهجـع الجديـد عـلى

ما يبدو، ها هو المنفى الأخير الّذي أُنفَى إليه في هذا الوقت من أوائل عام ٢٠١٦م، أغرقُ في خيالاتي وأنا أحاولُ أنْ أستعيدَ عشرينَ عامًا ماضِية، قبلَ أنْ يقول لي الحارس الّذي يدفعني بعصا من خلفِ ظهري: «مِنْ هنا». راحتْ قدمايَ تتشَمّان الأرض، أحاول أنْ أرسمَ مُخطّط السّجن في ذهني من أولى خُطواتي الّتي دَرَجتْ عليه، ها هو (الكانتين) في أوّل المهجع، سيكون مُتنفّس الشّباب في قابل الأيّام، وها هي السّاحة الّتي تنتشر على أطرافها الزّنازين، أحاول أنْ أعدّها بطرفةِ عينٍ واحدة، إنّها (١٥) زنزانةٍ في هذا المهجع فقط. كم مهجعًا يضمّ هذا السّجن البغيض؟!

وقفْنا أخيرًا أمام زنزانة رقم (٨)، ابتسمتُ وأنا أنظر إلى الزّنزانة رقم (١١)، لا بُدّ أنّ الأقدار تتغيّر، لِمَ لمْ يُرافقني الرّقم هنا أيضًا؟ همستُ في رِئتَيّ كأنّني أُواسي نفسي لأجيب: «ربّما لأنّها المحطّة الأخيرة». تراجَعَ إلى الوراء مَنْ كان يأمرني بالتّقدّم إلى الأمام ليهتف: «جنديّ. افتح الزّنزانة». تقدّم آخَر، أدار المفتاح في القُفل الضّخم فانحلّتْ عَقَفَتُه، أزالَه من مكانه، ثُمّ مدّ كَفّه ليدفعَ مزلاجًا حديديًّا إلى اليمين كي يُفارِق حَلْقَته، ثُمّ لِيَشُدّ على مقبض الباب المَلحُوم في وَسَطِه ويَدفعه إليه، كان ثقيلاً جِدًّا، بدا ذلك من مُجاهدة ذراع الجنديّ القويّة معه وهو يفتحه، ثُمّ بدت الزنزانة بِئرًا مُعتِمة، وبتدقيق النّظر في محاولة رؤية مَنْ فيها، رأيتُ رؤوسَ بعضِ النّزلاء الّذين لم يكونوا واضِحين تمامًا بسبب العَتَمة الدّاخليّة قِياسًا للضّياء الّذي يغمر أركان السّاحة في الخارج، شعرتُ بأنّهم أسودٌ محبوسة تتحرّك في أقفاصِها... كانوا هم بدورهم يُحاولون معرفة السّبب الّذي دَعا إدارة السّجن لفتح بوّابة الزّنزانة في غير موعدها، راحت رُؤوسهم السّبعة تتحرّك في الفراغ المُعتِم الّذي بدأتْ عَتمتُه تخفُت مع اندِفاق الضّوء إلى داخلِها

وهم يُحاولون النّظر إلى الجنود وإليّ والتكهّن بالّذي يحدث... «هنا... ادخلْ». وبهراوةٍ غليظةٍ أُلصِقتْ بظهري دُفِعتُ بقوّة إلى الدّاخل، وأُغلِقَ الباب من بعدي، ووقفتُ في الظّلام مُحاطًا بالزّملاء الجُدُد.

«السّلام عليكم». مرّتْ لَحَظَاتُ صمتٍ رهيبةٌ قبل أنْ أسمع أحدَهم في الزّاوية اليُمنَى يهتف: «محمود... محمود... أهلاً يا محمود». ويتقدّم نحوي فاتِحًا ذراعَيه على اتّساعهما، ثُمّ ليقوم بِضَمّي إليه: «كيف حالك يا محمود...؟! أخيرًا!!». حاولتُ أنْ أفهم الأمر وأبتلع المُفاجأة، قبل أنْ أتبَيّن أنّ هذا الّذي احتفى بي على هذا النّحو الوَدود لم يكنْ سوى يعقوب.

انداح الكلام بيني وبين يعقوب، عانقتُ فيه أشواقًا تمتدّ لأكثر من عشر سنين. «أنتَ هنا؟». «تنقّلتُ في خمسةِ سجونٍ قبل أنْ أنتهي هنا». «لنلتقي». «ليلتقي أصحاب الأحكام المُؤبّدة»، وضحك. هتفتُ: «المُؤبّدات ليستْ سِوى أرقامٍ، تسقطُ بقدر الله، لقد تعوّدْنا عليها».

جَهّز (يعقوب) لي السّرير الّذي إلى جانبه: «هنا ستكون محطّتكَ الجديدة، يسرّني أنّنا التقَينا بعدَ هذا الغياب القسريّ الطّويل». «كيفَ يكون اللّقاء حلوًا إلى هذا الحَدّ في مكانٍ مريرٍ كهذا؟!». قلتُ ذلك وأنا أُقلّب طرفي في أركان الزّنزانة، وأتفحّص الوجوه، كانوا ينظرون إلينا بترقّب، هتفَ يعقوب: «ستعرفهم وسيعرفونك».

في الصّباح، جلسْنا إلى مائدة الإفطار، رأيتُ أحدَهم في اللّيلة الفائتة يكتبُ في كومةِ أوراقٍ كبيرة، سألتُ يعقوب عنه، فأجاب: «إنّه سليم، يقوم بتوثيق حالات الأسرى كلّهم، يُعَدّ ما يكتبُ سِجِلاً تاريخيًّا مُهِمًّا». «كيفَ يعرفُ أخبار الأسرى كلّهم؟». «السّؤال معرفة،

إنّه لا يكفّ عن السّؤال، وقد سَمِعَ بكَ قبل أنْ تأتي، وأفردَ لكَ فصلاً غير هيّن في سِجلّه». «يعرفني؟». «مَنْ لا يعرفك؟!». «دَعْنا من المُجامَلات، أنا لا أُحبّها». «أنا حَدّثتُه عنكَ بأكثر مِمّا حَدّثتُه عن نفسي. قريبًا ستتعارَفان». «أرجو أنْ يعرفني من بعيدٍ». «لماذا؟». «لا أميلُ إلى إقامة علاقات صَداقة مع الآخَرين إلاّ بمِقدار». «تَجرِبتُك يجب أنْ تُروى». «كلّ أسيرٍ لديه تجربة، أظنّ أنّنا تلاميذ أمام تجارب كثيرين». «لا أحبّ أنْ تُقلِّل مِنْ شأنِ تجربتك». «أعني ما أقول». «دَعْكَ من هذا الكلام، هل تحبّ أنْ تقرأ ما كتبه عنك؟». «لا. أُفضّل أحيانًا أنْ أختبِئ عن نفسي، هل تظنّ أنّني سأعرفُ ما أنا خلفَ كلماتِ الآخرين عنّي؟! أنا لا أعرفني يا صديقي حتّى يعرفني سِواي!». «على أيّة حالٍ أنا لستُ فيلسوفًا مِثلك، ولكنّ الأمرَ يستحقّ أنْ تتعرّف إليهم هنا». «سأفعل بالطّبع، ستكون علاقتي بكلّ مَنْ عبرتُهم في السّجون في هذه السنين الطّويلة أو عبروني تتحدّد بمقدار ما أخدمهم، مهمّتي الأولى ألاّ أجعل خِلافًا ينشبُ بيننا على أساس توجّهاتنا وأفكارِنا المُختلفة، كُلّنا في الهمّ شرق». «صدقت». كُنّا لا نزال نتناول طَعام الفَطور حينَ همسَ يعقوب في أذني: «هل تعرفُ هذا السّجن؟». «كيفَ لي أنْ أعرفه وأنا لم أَفِدْ عليه إلاّ أمس؟!». «أنا أعرفه» قال ذلك وهو يتلفّتُ حوله كمن يبوح بسرٍّ خطيرٍ يخشى أنْ يطّلع عليه أحد. «ماذا تعني؟». «لديّ مُخطّط للسّجن!». «كيفَ حصلتَ عليه؟». «تلك قِصّةٌ طويلة».

كان سجن جلبوع الّذي أُنشِئ حديثًا عام ٢٠٠٤م هو السّجن الأكثر تحصينًا في سجون الاحتِلال، بل إنّه صُمِّمَ لكي يكون أكثر السّجون تحصينًا في العالَم! وكان يُشكّل تحدّيًا لكلّ مَنْ راودَتْه فِكرةٌ مجنونةٌ ذاتَ ليلةٍ هاذِية عبرتْ ذِهنه عُبُور الشّهاب الخاطِف في أن يُجرّبَ حَظّه في الهروب منه. يبدو التّفكير في ذلك ضربًا من العَتَه؛ فهو شديد الحراسة،

وأكثر أمانًا وإغلاقًا من بنك الدّولة المركزيّ، غُرَفه عبارة عن خَزنات، وكلّ خزنة وزنها عَشَرات الأطنان من الكيلوغرامات. كلّ غرفة وزنُها وما فيها من الباطون والإسمنت المُسلَّح أكثر بأربعة أضعافٍ من غرف السّجون الأخرى... بناؤه قلعة، يُسمّونه: السّجن الخَزْنة. هل تعرفُ كيفَ تكون الخَزنة؟! تُحيط به الأسلاك الشّائكة حول المهاجع، وكلّ مهجعٍ مُنبتٌّ عن المهاجع الأخرى، وليسَ بينها اتّصال حتّى ولو كانتْ سراديب تحتَ الأرض، كلّ مهجعٍ أو قِسْمٍ هو كيانٌ مُنفصل، والخروج من القسم يقتضي أنْ تمرّ في مسارات داخلية مُحاطَة بجدرانٍ من الأسلاك وأجهزة الرقابة بحيثُ تكون كلّ حركةٍ لكَ وسَكَنَةٍ مكشوفةً على مدار اللّحظة، ولا يُمكن أنْ تُقيم علاقةَ مع سجينٍ في مهجعٍ آخر من أجل التّفكير في البحث عن طريقٍ مُشتركة، أنتَ وحدك؛ أنتَ معزولٌ تمامًا!!

وراء الأسلاك الشّائكة المُكهربَة، أرضٌ مزروعةٌ بالألغام أو بالفِخاخ الصّائدة، وفي حين أنّ جدران السّجون الأخرى كانتْ ترتفع بمقدار ستّة أمتار، فإنّ جدران هذا السّجن ترتفع أكثر من تسعة أمتار، وهي سميكةٌ ومتينةٌ إلى الحَدّ الّذي لو قُصِفَتْ بالطّائرات فإنّها لن تركع، ولن تتنازَل حتّى بأنْ تحني رأسها ولو قليلاً، ولو أنّ قذيفةً صاروخيّة سُدّدَتْ نحوها فلن تُحدِثَ فيها أكثرَ من خَدْشٍ بسيط، كذلك الخَدْش الّذي تُحدِثُه مخالِبُ قِطّة صغيرةٍ في وجهكَ دون قَصْد.

في أعلى هذه الجُدران السّميكة أسطواناتٌ حديديّة مَعدِنيّة صقيلة، وهي ملساء لا يُمكن الثّبات لمن أرادَ الوقوف عليها ولو لثانيةٍ واحدة. وتتوزّع على هذه الجدران أبراجُ مُراقَبة تُغطّي جِهاتِها السّت، وينزرع عليها أكثر من (٧٢) كاميرا ليزريّة تلتقطُ دبيب النّملة، وترصدُ حركةَ الخُنفساء على مدار (٢٤) ساعة.

أمّا أرضيّته فلا يُمكن اختراقُها؛ ببساطةٍ ليسَ لأنّها من الإسمنت المُسلّح فحسب، بل لأنّ الباطون من ذلك النّوع الّذي يكون على هيئة قوالب مُصمَتة جاهِزة، تُنزّل على الأرضيّات بآليّات ثقيلة مُجهّزة، فلو أردتَ أنْ تحرّكها أو تُزحزحها أو تُحدِثَ فيها ثُقبًا فهذا لا يعني إلاّ شيئًا واحِدًا؛ أنّ هذا الثّقب لا يُمكن أنْ يحدثَ إلاّ في رأسِك. أمّا نوافذ الزّنازين فتصل بين أعلاها وأسفلها قُضبان مُصنَّعة من الإسمنت والحديد، وهي تركيبة غير قابلة للقطع بأيّ منشارٍ حتّى ولو كان آليًّا، لأنّها من حديدٍ مُطَوّر يُطلَق عليه «حديد نفحا» أشدّ قسوةً من حجارة الصّوان المركوزة في الوادي القارّة فيه منذُ آلاف السّنين. وتضمّ مجِسّات حَسّاسة تُعطي إنذارًا مُبكّرًا لتحذير السّجّانين عند البدء في قَصّها؛ كأنّهم كانوا يقولون لنا: «بَنَينا لكمْ سجنًا » أيّها الحالِمون - لا يُمكن لأيّ أحدٍ أنْ يهربَ منه، أَرُونا ماذا يُمكن أنْ تفعلوا؟!

ومع ذلك كان لا بُدّ لهذا التّصميم الكامل من غلطةٍ واحدة، هكذا كنتُ أفكّر دون أنْ يكون لديّ عِلمٌ بها، بل هو اليقين؛ غلطةٍ تُشبِه الشّامة السّوداء في جلدِ الثّور الأبيض، إنّها صُنع إنسانٍ، والإنسان ناقص، مهما حاول أنْ يكون كامِلاً سيعتريه هذا النُّقصان من جهةٍ لم ينتبه إليها، لأنّ ذكاءَه وتفوّقه ليسَا لامُتناهِيَين، هناك إنسانٌ آخَر لديه ذكاءٌ وتفوّق من نوعٍ مختلف، إنّه الّذي يقفُ على الضّفّة الأخرى يُراقِبُ بديع ما صنعْتَ مُحاولاً العثور - بعدَ طول المُراقبة - على خللٍ ما، خللٍ نُسِي في غمرة الانشِغال من أجل الوصول إلى الكَمال المُطلَق!

(٤٧)

الحكايات الّتي لم تُقَلْ

أنتَ مُحاصَرٌ من كلّ جهة. مَسدودةٌ أمامك الطّرقات كُلّها. تُعجِزك الحيلة. يقتلك الوقت. تخنقكَ الرّتابة. وتُونِسُك الفِكرة. لكنّ الفِكرة خُلِقتْ من رَحِم الحرّيّة؛ إنّها لا تعترفُ باليأس ولا بالعجز ولا بالمُستحيل. نحنُ فكرةٌ مُمكِنة، فكرةٌ مُذهِلةٌ لم تخطرْ لأحدٍ ببال، نحنُ أثَرُ الله في الإبداع!

بدأتِ العلاقة الجامدة مع السُّجناء هنا تتكسّر، كنتُ قد صنعتُ من نفسي نُسختَين؛ نُسخة هي ذلك الفَضاء المفتوح والقلبُ المكشوف يجد فيه الآخَرون عَزاءً، ذلك لأنّني كنتُ أعمل على تخفيف آثار الانحِباس على هؤلاء الّذين كانتْ أقلّ محكوميّاتهم هي المُؤبّد، السّجن تأبيدةٌ، هذا السّجن بالذّات تأبيدة!

أمّا النُّسخة الأخرى فقد كانتْ مُغلَقةً تمامًا، لا يستطيع أحدٌ اختراقَها، ولا مجرّد التّسلّلَ إليها إلاّ بمقدار ما أسمح له، وقد قرّرتُ أنْ تبقَى هذه النُّسخة مُعتِمة أشدّ الإعتام، مُحكمة الإغلاق أشدّ الإحكام، حتّى تحينَ اللّحظة المُناسِبة من أجل أنْ أفتحَ لها بعض الفُرُجات لِمَنْ أنتقيهم من رفقاء الدّرب الطّويلة، فيطّلعون على ما لم يطّلعْ عليه أحدٌ سواهم، وإنْ كُنّا جميعًا نتقاسَم هذه الدّرب، ونقبعُ في تلافيفها بكامل وجودِنا المُصادَر.

أركضُ في السّاحة، يركضُ سِواي، تتساقطُ في الرّكضِ سموم الأوهام، تَتذرْذَرُ أوجاع السّنين، نتخفّف مِمّا يُثقِلُ صُدورَنا، نحن الوعول الهائِمة في البرّيّة، البرّيّة الّتي تنتهي بعدَ بضع خُطُوات، لكنّها

على ضِيقِها فسيحة؛ ذلك لأنّنا كُنّا نركضُ في أعماقِنا، وأعماقُنا فضاءٌ بلا نِهاية. نلعبُ ربّما السّلّة، القفزةُ مع الكُرة ليستْ قفزةً عاديّة، إنّها قفزةٌ إلى السّماء، ذلك الشّعور الّذي يرفعك عن الطّين، ويُخفّف أثر القيد، ويُطلِق العِنان للسّموّ، السّموّ عن كلّ ما يشدّك إلى الأسفل، نحنُ في هذا طيورٌ تُحاول أنْ تجدَ لها منفذًا في هذه الأقفاص المُقفَلة!

ندخلُ بعدَ الفورة إلى الغُرَف، يبدأ العَدّ، يعدّون كلّ شيءٍ، البشر الّذين هم موجوداتٌ مثلَ بقيّة الموجودات بالنّسبة لهم. يَعُدّون الصّحون: «هذا ليسَ لك. من أينَ جِئتَ به؟». يعُدُّون الأواني الّتي تأكلُ بها، المِخدّات، الأغطية، الأبراش، يتأكّدون من أنّ كلّ مليمترٍ من حديدِها في مكانه، يهزّونها، أيّ برشٍ يجدون فيه خلخلةً ولو بسيطة يُبدّلونه، يأتون في وسطِ الأسبوع، يلحمون حديدَ الأبراش، يُثبّتونها في أماكنها بقُوّة، يعُدّون الأحذية؛ «حِذاءٌ جديدٌ، كيفَ دخل إلى هنا؟!». «المُمزّق من أحذيتنا مثلُ المُمزّق من أحلامِنا، مثلُ المُمزَّق من وجوههم وهم ينظرون إلينا». يتفقّدون الحَمّام، يطرقون على نافِذته، يهزّونها، لا مجال لأنْ تتزحزَح، كلّ شيءٍ في مكانه لم يُبارِحه قيدَ أنملة، العَدّ يعني أنْ يقلبوا كلّ شيءٍ رأسًا على عَقب، الفَوضى نِظامُهم، العَدّ في بعضِ المرّات يكون لأنفاسِكَ الّتي تلتقطُ بها الهَواءَ الخانِقَ هنا، يعدّون كلّ شيءٍ حتّى ذرّات الهواء، ثُمّ يخرجون وهم يشتمون بأقذع الألفاظ!

في سجن جلبوع خمسةُ أقسام أو مهاجع، يحتوي كل قسم على (١٥) غرفة، تتّسع كلّ غرفةٍ لـ (٨) أسرى، ولكنّ العَدَدَ قد يكون ضِعفَ هذا؛ متعلّلين بأنّ أصحابَ الأحكام المُؤبّدة قد زادوا في الفترة الأخيرة. الغرفة تُغلَق ببابٍ حديديّ يتجاوز وزنه مِئة الكيلوغرامات، وله طاقةٌ في أسفله كأنّه باب زِنزانةٍ انفراديّة لا بابُ غرفةٍ يقبع فيها

ما يقرب من عشرة أسرى. وإلى جانبِ الغرفة عن يسارها هناك نافذةٌ بشبكٍ فولاذيّ متقاطعٍ لا يسمح لليد أو الكفّ أنْ تخرج منه، إصبعٌ واحدةٌ فقط يُمكنها أنْ تعبر، وهي نافذةٌ لا تفتحُ على شيء، إنّها تفتحُ على ساحة التّشميس الدّاخليّة، كأنّما صنعوا لنا فضاءً صغيرًا مُغلقًا خارج الغُرَف، وكأنّهم يقولون: «إنّه سِجنٌ يُفضِي إلى سجن». لم يكن الاحتِلال يتباهَى بتحصينه سِجنًا أكثر من هذا السّجن. كان سِجنَ عزلٍ بمعنى الكلمة لقيادات الحركة الأسيرة.

لا يُوجد في السّجن طابقٌ ثانٍ. لا تواصل مع أحدٍ، الفَصْلُ مبدأٌ أساسيٌّ قامَ عليه كِيانُهم. تذكّرتُ (ساهي)، ساعدَه الطّابق الثّاني على الفِرار، هنا لا غُرَفَ فوقك غير الباطون المُسلّح، ولا يُمكن أنْ تُفكّر في شيءٍ سِوى أنْ تأخذَ نَفَسًا عميقًا، وتُهدِّئَ مِنْ رَوْعِك، وتبقى قابِعًا مثل أغنيةٍ حزينةٍ لم يسمعها أحدٌ في ذهنِ شاعرٍ بائس!

«هل يُمكن الحفر في أرضيّة السّجن يا يعقوب؟». «إجابة مثل هذا السّؤال عندَ شخصٍ واحدٍ هو أنتَ؟». «لا تُبالِغ». «أنا لا أبالغ». «ماذا تقول المعلومات الّتي جمَعْناها يا يعقوب؟». «تقول الكثير يا محمود!». «السِّرّ الّذي بيننا لا يطّلع عليه أحدٌ». نحنُ السّرّ، لا يُوجدَ خارجنا ما ليسَ مِنّا».

الحقيقةُ تصفَعُ أحيانًا؛ كانتْ أرضيّة السّجن فولاذيّة؛ مصبوبة بطبقة خَرَسانية مُدعَّمةً بحديدٍ مُقوًّى متينٍ جدًّا، مِنَ العَبَث التّفكير بالحفر فيها، لقد وضعوا في حُسبانهم أنّنا سنُفكّر في ذلك، فأضافوا إليها ما ليسَ في سِواها؛ إنّها تحتوي على ميزة لا تتوفّر في أرضيّات السّجون الأُخرى، إذا بدأْتَ الحفر فإنّ لونَها سيتغير إلى آخر بمجرّد أنْ أعملتَ فيها أوّل ضَربة، كان هذا اللّون سَهل الاكتِشاف، افعلْ

ذلك مرّة واحدةً وسيُلقون القبضَ عليكَ مُتلبِّسًا بالجُرمِ المشهود، غيرَ أنّ هذه الأرضيّات بالنّسبة للسّجن مثل الجسد بالنّسبة للإنسان، إنّ فيها تضاريسَ كثيرة، بعضُ أجزاء أجسادنا صلبة، أخرى أقلّ صلابة، وثالثة كتلك الّتي جِهةَ القلب، أو في الأطراف فيها بعضُ الرّخاوة، أرضيّة الحَمّام بهذا التّشبيه تُقابِلُ منطقة الإبط عندَ الإنسان، ليستْ ظاهرة كغيرها، فهي بعيدةٌ عن الأعين، ورخوة، فهي مُمكنة البَدء!

كيفَ يبدو السّجن من الخارج؟! قلعةً؟ ربّما. حِصنًا عصيًّا على الاختِراق والنّفاذ؟ ربّما. مُكعّبًا مُصمَتًا؟ ربّما. صخرةً مركوزةً غير قابلةٍ للطّحن أو الزّحزحة؟ ربّما. لكنّه في نظري لم يكنْ أكثر من ثُؤلول قبيح في خَدّ وطننا الحبيب، طفحٍ جلديّ يُشوّه أرضَنا الجميلة.

كان يُحيطُ بالسِّجن شارعٌ دائريٌّ تَجُوبُه الدّوريّات على مدار الساعة، وهناك كلابُ حراسةٍ مُوزَّعةٍ حول أسوار السّجن تُغطّي كُلّ المَسافات الفاصلة بينها، كلابٌ مُدرّبةٌ على العَقْر وعلى النُّباح المُرعِب، تشُمّ الرّائحة من بُعدِ أميال، كلابٌ لو كان (ريّان) بينَها لما نبستْ، وأبراجٌ عالية مُوزّعة على نقاط مُتفرّقة تُغطّي السّجن من الأطراف كُلّها، وكَشّافاتٌ تستقرّ على نواصبَ مَعدِنيّة ترتفعُ أكثر من ثلاثين مترًا، تُضيءُ كلّ سنتيمترٍ منه إذا حَلّ اللّيل. باختِصار؛ نحنُ خارجَ الكوكب!!

ليسَ هذا كلّ ما في السّجن من مُفاجآت؛ كانوا يَعُدُّوننا بسببٍ أو بلا سبب ثلاثَ مرّاتٍ في اليوم، كان على كلّ واحدٍ أنْ يقفَ أمام برشَه في هيئة الاستِعداد للاستِجابة لكلّ ما يُطلَب منه، وكان من المُمكن أنْ يتركونا على تلك الهيئة وقتًا طويلاً وهم يدورون في الغرفة باحِثين حتّى عن النّمل الّذي بَدّل مواقعه في الزّوايا، وفي كلّ مرةٍ كانوا

يطرقون على الأرضيّات والجدران بهراويهم طَرَقاتٍ مُتتابِعة ليتأكّدوا من عدم وجود صدى؛ لأنّ الصّدى يعني احتماليّة وجود حفر في هذه المنطقة الّتي يُطرَق عليها. كانوا يفعلون ذلك في إحدى المرّات، وكان يعقوب إلى جِواري حينَ همستُ في أذنه: «إنّهم يدلّوننا على الطّريقة المُناسِبة، كلّ إجراءٍ مُشكّكٍ لهم ننبذه بسهولة، إنّهم دون أنْ يدروا يقولون لنا: فكّروا بطريقةٍ مُختلِفة».

مضتْ أيّامُنا تركضُ على مَهَل، تفتيشٌ دوريّ، طَعامٌ مغموسٌ بالذُّلّ والقَهر، وسكونٌ في حركة، وأصواتٌ لا تُسمَع تتعالَى من أعماق التّائقين، هذا الشّوق الذّابح، هذا الحنين إلى كلّ مفقودٍ، وهذه المُدَى الّتي تغوصُ ببطءٍ في جوارِحنا تقتطع بمرور الأيّام من لَحمنا نُتَفًا صغيرة، ونحنُ ننظر إلى تلك النُّتَف تتناثر من حولنا ولا نملكُ إلاّ البُكاءَ بصمت.

يكتب (سليم) تاريخَنا. تاريخُنا أهمّ من كلّ تاريخ المُقاوَمات في العالَم، يتصدّرها بكلّ ما فيه من تفاصيل؛ تفاصيلُ لا تردُ إلاّ في هذه البِلاد المُقدَّسَة المُدنَّسَة، الأحكام العالِية، القتل السّهل، السّجون الكثيرة، التّعذيب، الإهمال، النّفي خارِجَك، قتلُ الإرادة فيك، التّهديد بأقرب النّاسِ إليك... يتّخذون أطفالَنا دروعًا بشريّة في الاقتِحامات، يقتلون بدمٍ بارد، مشهدٌ يتكرّر كلّ يوم بل كلّ ساعة، طفلٌ مُلقَى وسط بركة من الدّماء لا أحدَ يُسعِفه، امرأةٌ وحيدةٌ تنزفُ حتّى الموت، شيخٌ في التّسعين يُدفَع بأعقاب البنادِق ثُمّ تُصوّب نحوه الفُوهات، رصاصةٌ تخترقُ جسَد فتًى في العاشرة، دبّابةٌ تهرسُ عِظامَ فتاةٍ رفضتْ أنْ تتزحزح عن طريقِها... أنتَ مقتولٌ على أيّة حال، هذا ليسَ احتِلالاً دمويًّا فحسب، إنّه إحلالٌ، يسرقون ماضيك، يُصادِرون

تُراثَك، يُزوّرون وجودك، يفعلون كلّ الموبقات، وينتظرون منكَ في النّهاية أنْ تصمت!!

ظلّتْ أعوامُ سجن جلبوع مُدّى ناهِشة، إنّه ليسَ السّجن الأشدّ حراسةً فحسب، بل هو السّجن الّذي تُسلَب فيه الحقوق كُلّها، سجن الأحلام المخنوقة، سجنُ الموت المُعتّق، سجنُ الحكايات المؤلِمة، سجن الدّروب الّتي لا تُفضِي إلى شيء، وسجن النّهايات الّتي لا تأتي سريعة، ولكنّها إذا أتتْ كانتْ قاصِمة.

غُرفَتنا كانت الأكثر تبديلاً. كلّ شهرٍ يذهبون بسُجناء ويأتون بآخرين، كلّ سجينٍ - قادمٍ أو ذاهبٍ - تختبِئ خلفَ عينيَه آلاف الحكايات الّتي يُمكن أنْ تُروى، أُشفِقُ على (سليم)؛ كيفَ يُمكنه أنْ يكتب كلّ شيء، لن يستطيع شجرُ الأرض لو تحوّل إلى أوراقٍ أنْ يفي بكتابة حكاياتنا، نحنُ الحكاية المُمتدّة، الحكاية الّتي لا تنتهي، ولا أمل بأنْ يُكتَب الفصل الأخير منها إلاّ بزوال هذا الاحتِلال البغيض.

عاودتْ يعقوب آلام ظهره، كان يُضطرّ في أحيانٍ كثيرةٍ أنْ يلزمَ بَرْشَه لا يُفارقه لأسابيع، آلام الغُضروف المنزلق لا تُطاق، لم يكونوا يهتمّون بعلاجه، عليكَ أنْ تُواجِه آلامَكَ وحيدًا، كان يمشي كأنّه أعرج، يتكِئ عَلَيّ وهو يُحاول أنْ يَعبرَ الأمتار القليلة نحو الحمّام، يعصرني الألم لحالِه، فيما كان دائِمَ الابتِسام، دائِم الدّهشَة، يكتُمُ آهاتِه، وفي عينَيه كانتْ تختبِئ ضَحِكَاتُ الأطفال البريئة.



(٤٨)

قَهرُ الرّجال

ازززز... حرّكتُ كَفّي لا إراديًا وأنا نائمٌ من أجل أنْ أبعِدَها عن وجهي، ولكنّها استمرّت بإزعاجي إززززز، كان طنينُها يثقبُ أذني، تململتُ في الفِراش، وانقلبتُ إلى جهتي الأخرى لأتخلّص من الصّوت، لكنّه لم يتوقّف إززززز... صحوتُ مُنزعجًا، نظرتُ إلى مصدر الصّوت، كانتْ نحلةً وحيدةٌ تطوفُ في الفضاء الصّغير أمام وجهي، التقتْ عينايَ بعينَيها، توقّفتْ عن الحَوَمان، وظلّتْ أجنحتُها تهتزّ وهي تعلو قليلاً وتهبطُ محافظةً على توازنها، شعرتُ بأنّها تريدُ أنْ تقول لي شيئًا، ابتسمتُ لهذا الخاطر الغريب، نفضتُ رأسي لأتأكّد من أنّني أرى نحلةً على الحقيقة، لا بُدّ أنّ ليالي العذاب في هذا السّجن جعلتْني أرى ما لا يُرى، تحرّكتْ حركةً خفيفةً، وعاودتْ طنينَها كأنّها تُريد أنْ تقول لي: إنّها حقيقيّة. اعتدلتُ من اضطِجاعي، وجلستُ على حافّة السّرير، وأرسلتُ إليها نظرةَ عتاب، كان الوقتُ مُبكّرًا من صباحِ أحدِ الأيّام الدّافِئة، خاطبتُها: «ماذا تُريدين أيّتها النّحلة العزيزة؟». ابتعدتْ قليلاً، وظلّتْ تحوم في دوائر صغيرة في الاتّجاه الّذي مضتْ نَحوه، قلتُ لنفسي: «اذهبي أيّتها العزيزة، ودعيني أُكمِل نومي». وتمدّدتُ من جديدٍ على السّرير وسحبتُ الغِطاء نحوي محُاوِلاً أنْ أغطّ في النّوم، لكنّها عادتْ إليّ من جديد إززززز... وقفتُ هذه المرّة مُغضَبًا: «أوووه أيّتها النّحلة، هناك ستّة آخرون في الغرفة، لماذا عليكِ أنْ تُزعجيني من دونهم؟!». ابتعدتْ مرّة أخرى قليلاً، وحامتْ هناك دون أنْ تتحرّك مسافةً أخرى كأنّها تريدُني أنْ تقودَني إلى مكان ما، هكذا فكّرتُ: «تريدين أنْ أتبعكِ أيّتها النّحلةُ المُزعِجة؟ لا بأس». ومشيتُ خلفَها، فمضتْ باتّجاه باب

الحَمّام، طارتْ من فوقِ طَقّه الأعلى، وفتحتُ الباب لأرى إلى أينَ تريدُ أنْ تتّجه، مضتْ نحو النّافذة، «عجيب...» همستُ لنفسي، وأردفتُ: «كيفَ دخلتِ النّحلة من هذه النّافذة المُحكَمة؟!». سألحقُ بها، وأرى ما تريدُ قوله، حَطّتْ على زاوية النّافذة في أسفلها، حيثُ التّجويفُ الموجودُ هناك: «أوووه» ندّتْ منّي صرخةٌ خفيفةٌ وأنا أعاينُ الموضع الّذي حَطّتْ عليه، كانت قد اتّخذتْ من ذلك التّجويف قَفيرًا لها وبدأتْ تصنع خليّتها. ثُمّ اختفتْ فجأةً ولم تعدْ موجودة، هتفتُ وأنا أستعيدُ صوتَ طنينها: «أهذا كلّ ما تريدين قولَه أيّتها النّحلة؟!».

عُدتُ مُتثاقِلاً إلى بَرشِي، وتمدّدتُ عليه، واستجلبتُ النّوم. كانت شمسُ الضُّحى قد بدأتْ ترتفع خلفَ التّلال البعيدة، التّلال السّاجِية، خلفَ بلادِنا الغائبة عن أعيننا والمطبوعة في خيالات الطّفولة.

كنتُ قد غَطَسْتُ في النّوم، عندما رأيتُها هذه المرّة في الحُلم، كانتْ وادِعةً لم أسمع صوتَ أزيزها، لكنّني رأيتُها تحطّ على خَدّي، وتهمسُ بحنانٍ في أذني: «سأصنع لك عسلاً من زهور هذه السّهول الطّيّبة».

على طَعام الفَطور، سألتُ يعقوب: «هل رأيتَ النّحلة؟». ردّ مُستغرِبًا: «أيّة نحلة؟!». «تلك الّتي زارتْنا عندَ شروق شمس هذا اليوم». لم يردّ، ولكنّني رأيتُ في عينَيه نظرةَ استِنكار وإشفاق معًا، كان لسان حالهما يقول: «كيفَ تدخل نحلةٌ إلى هنا؟ هل فقدتَ عقلك؟». أردتُ أنْ آخذَ بيده إلى النّافذة وأُريه الخليّة الصّغيرة الّتي بدأتْ تكبر، ولكنّني تراجعتُ وتابعتُ مضغَ الطّعام في صمت.

في ليل ذلك اليوم سمعْنا صرَخات الجنود ووقع أقدامهم الثّقيلة على الأرض، وطرقِ البوّابة ثُمّ صوتُ انفِتاحها في ليلٍ باردٍ

دامس، استيقظْنا من نومنا مذعورين، هبَطْنا على أبراشِنا دون أنْ ندري ما يحدُث، بعضُنا لم يستيقظ مع كلّ هذه الجَلَبة العالية، أُضيئتْ كَشّافاتٌ في أيدي العسكر وسُلّطتْ علينا، سَمِعْناهم يصرخون: «وقّفْ... وقّفْ أمام برشك... اجْمَع...». اضطربَ الهلع، تذبذبتْ بناديل أرواحِنا، اهتزّتْ أجنحةُ أسئلتنا: «ما الّذي يحدث؟». لم تكنْ غُرفتنا الوحيدة الّتي حدثَ لها ذلك على ما يبدو، بنظرةٍ وجلةٍ إلى الخارجِ على ضوء الكَشّافات تبيّن أنّهم فتحوا أبواب الزّنازين كلّها، وأيقظوا القسم بأكلمه... كانتْ صَرَخاتُهم تشقّ الفَضاء: «هيّا إلى السّاحة». خرجْنا نتعثر بأقدامنا، ونضطرب في ثِيابنا، مُعظمنا لم يجدْ وقتًا لكي ينتعل حِذاءً أو حَفّاية، وبعضُنا سَقَطتْ على رأسِه هراوةٌ غليظةٌ لتُفزِعه من نومه الآمِن... كُنّا مثل الأغنام المحشورة حينَ تدفّقْنا مُسرِعين من أبواب غُرَفِنا إلى السّاحة، وصِياح الجنود لا يتوقّف، والذّهول ينهشُ عقولَنا، كانتْ هناك أعدادٌ أخرى من شرطة السّجن تقفُ مستعدّة على أطراف السّاحة، لا أدري كم عددُهم؟ ربّما أكثر من خمسين شرطيًّا، يلبسون الخُوذات على رؤوسهم، والسُّتَر الواقية على صُدورهم، ويتسلّحون بالرّشاشات، ويُمسِكون بالهِراوات.. حينَ صارتِ الكُتل اللّحميّة البشريّة في مُنتَصف السّاحة، هَجَموا علينا من كلّ صوبٍ، وراحوا يضربوننا بالهِراوات، وبأعقاب البنادق، لم تكنْ هناكَ رحمة، كانت الهراوات المَعدِنيّة تهوي على الرّؤوس فتشجّها فينثعبُ منها الدّم، وعلى العيون فتسيل، وعلى الضّلوع فتتكسّر، وراحَ بعضُنا يتكوّم فوقَ بعضٍ، ولم يكنْ هناكَ وقتٌ لكي نصرخ: «ما الّذي يجري؟ ماذا فعلْنا؟!» كُنّا مُنشغلين برفع أيدينا فوقَ رؤوسنا ووجوهنا، وتغطية عيوننا لحمايتها، ولكنّنا عبثًا نحاول، العيون الّتي لم تُصَب، أصيبتْ بدلاً منها الأذرع والسّيقان، وحاول بعضُنا الهرب

أو الإفلات باتّجاه الزّوايا البعيدة فكانت تتلقّاه الضّربات المُؤلِمة، وظلّ هذا الضّرب الهستيريّ المجنون مستمرًّا حوالي السّاعة، حتّى سمعْنا صوتًا يقول: «حتّى تُفكّروا بإدخال هاتفٍ مرّة أخرى». وصوتًا آخَر: «الحركة الّتي في غرفة (٨)، لا ترحموا نُزلاءَها». وصوتًا ثالِثًا: «عَرَب مُخرّبون... الموتُ لكم...». وأصواتٌ أخرى غاضِبة اختلطتْ بصرخاتنا وتأوّهاتنا. كانت الدّماء تتراشَق في السّاحة، وعلى الجدران، وتصبغ ثيابَنا، وتُلوّن أجسادَنا... وبعدَ أنْ تعبوا خرجوا وتركونا وسطَ بُحيرةٍ من الدّماء والذّهول والقَهر.

ثُمّ تولّتْ فرقةٌ أخرى إدخالنا إلى الغُرَف، وهناكَ كانَ عددُ الأسئلة الّتي تحومُ على الشّفاه أكثر من عددِ جراحِنا، وحاولنا أنْ نُداوي تلك الجِراح بما يُمكن، ولكنّ بعضَها كانَ يحتاجُ إلى رعايةٍ طبّيّة، ورُحنا نطرقُ على الأبواب طالبين أنْ يأخذوا ذوي الجراح الخطيرة إلى العيادة، ولكنّهم لم يفتحوا الأبواب إلاّ على العَدّ فجرَ اليوم التّالي.

لم نكنْ قادرين على الوقوف أمام أبراشِنا آنئذٍ، كانتْ ضلوعُنا مُحطّمة، وأقدامُنا مُكسّرة، وتحاملْنا على أنفسنا خوفَ مزيدٍ من العِقاب، وكان الدّم المُتخثّر الأسود ما زال يُغطّي وجوهنا كأنّنا قد خرجْنا من بين أفواه وحوشٍ مُفترِسة، ولمّا أتمّوا العَدّ طلبْنا العَرضَ على العِيادة، ولكنّهم أبَوا مُتعلّلين بأنّ طبيب العيادة لم يأتِ حتّى الآن، ولم يستطعْ بعضُنا أنْ يضطجع أو أنْ يمدّ يده ليأكل، وكانتْ بعضُ الغُرف تُعاني من انقِطاع المياه، فظلّتْ خُيوطُ الدّم مُرتسِمةً على أنحاء مُتفرِّقة من جسده، وفي الظّهر استجابوا لنا بالخروج إلى العيادة، فأجبرونا على الوقوف في طابورٍ طويل؛ طابور الذّلّ، وكان يقفُ في أوّل الطّابور من جهة باب العيادة جُنديّان مُتوفّزان، وكان كلّما جاء دورُ أحدِنا

للدّخول انهالتْ عليه هراوة التّرحيب فشجّتْ رأسَه ووَرّمتْ جسده. وأبى بعضُنا أنْ يتعرّض لهذا الموقف المُهين فرجع، في حينَ أنّ آخرين لم يكنْ لديهم الخِيار، إمّا أنْ يعيشوا مع آلامهم المُبرّحة دون أيّ عِلاجٍ أو مُسكّن، وإمّا يُضيفوا إلى الضّربات السّابقة ضربةً جديدة لِيحظَوا بشيءٍ من العِنايـة.

أمّا يعقوب فلم يخرجْ إلى العيادة، وكانتْ قد هوتْ على أسفل ظهره هراوةٌ ضاعفتْ معاناته مع آلام الظّهر. وبقي في برشِه مقهورًا مفتوح العينَين، زائِغَ النّظَرات، يَصُكُّ على أسنانه من الألم، مُحاوِلاً تفادي أيّة صرخةٍ تنفجر بها أعماقه المكلومة.

وخرجْنا من تلك الحادثة المُفجعة بأوجاعٍ لا يُمكن أنْ تبرأ، أقلّها قَهرُ الرّجال، وفُقِئتْ عيون اثنين من زُملائِنا، فيما كُسرتْ سيقانٌ وأذرعٌ كثيرة، ولم يعرفْ أحدٌ منّا السّبب الّذي دَعاهم إلى الهجوم الجنونيّ في تلك اللّيلة!؟

وفي العيادة، لم يكنْ هناك غيرُ طبيبٍ واحد، كان لا مُبالِيًا، لا يفحصُ المريض أو الجريح، بل يُعطيه حَبّتَين من (الأكامول) ويأمره بالعودة إلى زنزانته، وحينَ كان يقول له بعضُنا: «إنّ يدي مكسورة» ينظر إليها من بعيد، ويهتفُ بحقد وتَهكُّم: «إنّها سليمة، ليسَ بها أيّة عِلّة، مجرّد رضوض بسيطة، أنتم قادِرون على صُنع المُتفجرات، وتتحمّلون المشي وسط النّار وغير قادرين على تحمُّل بعضِ الآلام الخفيفة؟!». وكان بعضُنا يحمل مَن كُسِرتْ رجله، أو يسنده وهو يتكِئ عليه، وكان يصرخ صَرَخات قويّة من الألم، ولم يُكلّف الطّبيب نفسَه بشيءٍ، وكان يهزّ كتفَيه، ثُمّ يُعدّل النّظّارة على وجهه السّمين، ويهتف بصوتٍ أقربَ إلى فحيح الأفعى: «دلع»، ثُمّ يرمي في وجه المريضِ حبّتَي (الأكامول).

وقُيِّـدَ بعضُنـا وحُمِـلَ إلى المستشـفى القريـب، ورُبِـطَ في السّريـر، وبقـي أسبوعَين أو ثلاثـة حتّى يتعـافَى مـن آثـار الكسر، وحينَ عـاد كانـتْ إحـدى رجليـه مُغطّـاة بالجِبصين، وقـد اتّخذ عُـكّازًا يُعينـه عـلى العـرج في مِشـيته، وآخَـرون كانـتْ أذرعهـم مُعلّقـة في رِقابهـم.

أمّـا (شرف) فقـد بقـي في المُستَشـفى أكثـر مـن ذلـك، كانـتْ إصابتُـه خطيرة، وكان أحدَ نُـزلاء غرفتنا، ويبـدو أنّـه تلقّـى مـن الضّرب مـا لم يتلقّـه أحـدٌ آخَـر، وغرفتنـا كانـتْ أوّل الغُـرف في هجومهـم الوحشيّ. وعندمـا عـادَ بعـدَ غيبـةٍ طويلـة، كان يبـدو أنّـه تغيّر كثيرًا؛ فقـدَ كثيرًا مـن وزنـه، وشَـحُبَ وجهـه، وثَقُلَـتْ حركتُـه، وكان لا يسـتطيع النّـوم، وإذا نـامَ أيقظَـه الألم، وكان كثير الـتّردّد عـلى الحَـمّام، وحـينَ كُنّـا نخـرجُ إلى الفـورة كان يبقـى مُمـدّدًا عـلى سريـره.

حاولنـا التّخفيـف عنـه بـما نسـتطيع، لم يكـنْ لدينـا أدويـة، ولا مُعـدّات طبّيّـة، لم نكنْ نملـك غير الكلمـة الطّيّبـة، ومـع أنّهـا كانـتْ أنجـعَ أدويتنـا لـه، إلاّ أنّـه لم تكـنْ لتنجـح دائِـمًا في تخفيـف آلامـه الفظيعـة، كان يـصرخُ في هـدأة اللّيـل، ولا يملـك لـه أحـدٌ شـيئًا، وكنـتُ أبكـي في داخـلي عـلى مـا حـلّ بـه.

بـدأ جِلـدُه يتغيّر لونُـه، صـارَ يميـلُ إلى السّـواد، وانتـشرتْ فيـه البُثـور والتّجاعيـد، وكان لا يُفـارق الحَـمّام، يدخـل إليـه كلّ سـاعةٍ. وكانـتْ عينـاه تُغـوران، وتـبرزُ عِظـامُ وجنتَيـه، وبـدأ يتحـوّل إلى هيـكلٍ عظمـيّ، وكُنّـا نحثّـه عـلى الطّعـام، فيـأكل اللّقمـة واللُّقمتَـين ثُـمّ يعـافُ الأكل، ولمَ أكـنْ لأرضَى بـأنْ يستمرّ الأمـر عـلى هـذه الحَـال، فكنـتُ أحثّـه عـلى الطّعـام مـن أجـل أنْ يتعـافَى، وكان يقـول: «أودّ ذلـك يـا محمـود، ولكـنّ الطّعـام مُـرّ». «الـدّواء مُـرّ كذلـك، فصـبِّرْ نفسَـكَ يـا أخـي»، وكان يقـول: «إنّنـي

لا أقدر على بَلعه، ليتني أستطيع!». ورُحتُ أُجبره في النّهاية على أنْ يأكل، ولكنّ الطّعام ذاته الّذي كُنّا نأكله كان يقودُنا إلى الأمراض، وكان يُضاعِفُ من أوجاعنا. وانزويتُ في ليلة بعيدةٍ في برشي، وواجهتُ الحائِط، ورحتُ أبكي بصمتٍ.

(٤٩)

التّهديد

اجتمعْنا لمُناقشة الاعتِداء علينا والانتهاكات الصّارخة لحقوقنا اللّذَينِ لم يكنْ لهما مُسوّغ، فَوّضوني لأكون المُتحدّث باسم الغرفة. اعترضتُ قائِلاً: «لستُ أقدمَ سجينٍ، هناك مَنْ هو أحقّ منّي بأنْ يتكلّم باسمكم». تقدّم يعقوب، وهتف: «أنا أَقدَمُ السّجناء هنا، وأنا أُفوّضك، أعتقد أنّ الزّملاء الآخرين لا يُمانعون». هتفوا بالرّضا. فقُدّمتُ على أنّني غيرُ راغبٍ، ولكنّ ثِقَل المسؤوليّة أشعرني بأنّه يجب أنْ أكون قويًّا بما يكفي لكي لا نُهزَم. كان التّحدّث مع سلطة السّجن تتطلّب ذكاءً من جهة وقوّة في الحُجّة والكلمة من جهةٍ أخرى، وعليّ أنْ أتحلّى بالاستِعداد النّفسي بأنْ أتصدّى لأيّة مُحاولةٍ أُخرى للتّضييق علينا. كان الوقوف أمام إدارة السّجن وأنتَ تحمل تاريخكَ على ظهرِك يُشبِه إقدامًا على الجحيم بكامل الرّغبة والسّرعة والإرادة دون أنْ تكون هناك مساحةٌ للنّدم مهما كانتْ ضئيلة.

كان ذلك في مساءِ يومٍ من الأيّام الّتي لم نَعُدْ نَعُدّها لكثرتها، وانسرابها من تحتِ أرجلنا كأنّنا أَلِفناها، أو مَلَلْنا من مُراقبتها، فتمرّ غيرَ عابِئةٍ بنا، ولا شاعرةٍ أنّها تسرقُ أعمارَنا ونحن نكتفي بالنّظر إليها، أو ربّما بإشاحة رؤوسنا عمّا تفعله بنا؛ كأنّنا نقول لها: اعبُرينا على النّحو الّذي تُحبّين، لم يعد الأمر يعني لنا الكثير!

طرحتُ الأمر للنّقاش. قلتُ: «علينا أنْ نُفكّر في وسيلةٍ للرّدّ، إذا تركْنا الأمر يمرّ؛ فمعنى ذلك أنّهم سيتمادَون في المرّة القادِمة أكثر». اقترحَ يعقوب أنْ نؤجّل النّقاش حتّى تجتمع الغُرَف كلّها في القِسم، فوافقْنا.

في الفورة صبيحة اليوم التّالي، كان تدفُّقنا غيظًا، وحركتُنا قهرًا، ونَظَرُنا شَزرًا، وكانتِ الجِراحُ تنطقُ نيابةً عن ألسنتنا، ولا أبلغ من حديث الجِراح إذا تحدّثتْ. وقفتُ في وسط السّاحة، هتفتُ بصوتٍ عالٍ: «يا شباب... ممكِن نجتمع...»، ذهبَ الصّوتُ في أوّله سُدًى، لم يُرْعِ أحدٌ له انتباهًا تقريبًا، دحرجتُ برميلاً من البلاستيك القويّ إلى حيثُ قلبُ السّاحة، صعدتُه، صوتُ الموقف العالي أعلى: «يا شباب... أطالبُ باجتِماعٍ من أجل مصالِحنا». بدؤوا هذه المرّة يُنصِتون، ثُمّ راحوا يتقاطَرون، وهم يتهامَسون فيما بينهم، حتّى عرفوا الأمر، فاجتمعوا له. قلتُ: «نريدُ أنْ نبحثَ في كيفيّة الرّدّ على اقتِحام سُلطة السّجن مهجعنا». لم أكدْ أُكمِلُ الجُملة حتّى اعترضَ أحدُهم؛ تقدّمَ من موقعه الأبعد أمتارًا إلى الأمام، وهتف مُتهكّمًا: «مَنْ خوّلَكَ الحديث باسمِنا؟ مَنْ تكون حتّى تُنصّب نفسكَ في مقامكَ العالي؟!». رددتُ بسرعةٍ وأنا أقفز من على البرميل إلى الأرض: «لا أحد... لستُ مُتحدِّثًا باسم أحدٍ... نحنُ نريدُ مصلحتنا جميعًا». ومضيتُ نحوه، ودفعتُه بيدي باتّجاه البرميل: «يُمكنكَ أنْ تكونَ أنت مَنْ يُمثّلنا» فاجَأه موقفي، تردّد، كَعَّ بظهره إلى الوراء، ولم ينبسْ بحرفٍ. فيما راحتْ أصواتٌ تتعالَى هنا وهناك: «لا بُدّ من اختِيار أحدِنا». هتفتُ: «انتخبوا مَنْ تشاؤون، لا يُمكن أنْ نُؤثّر ما لم تكنْ كلمتُنا مُوحَّدَة». تعالتْ أصوات: «نعم... نعم». تقدّم يعقوب، ليقول: «كلّ غرفة تُقدّم المُتحدّث باسمِها، ومن ثَمّ نختار من بيننا جميعًا المُتحدّث باسم القسم بأكمله». لاقَى الأمر استِحسانًا. كانتْ هناك عشرةُ أسماء، بعضُ الغُرَف لم تُقدِّمْ مُتحَدِّثًا باسمها، وبعضُها كانتْ فارغة. هتفَ يعقوب: «على هذا، ننتخبُ جميعًا واحِدًا من هذه الأسماء العشرة»، وأردف: «على أنْ يُعطَى المُرَشَّح خمسَ دقائقَ للحديث عن

التّحدّيات الّتي نمرّ بها وكيفَ نُواجهها». هتفَ أحدُهم: «إذا كُنتَ تُجيد الاقتِراحات بهذه الطّريقة، وتُوجّه القِسم كلّه بهذه الكلمات، فلماذا لا تكون أنتَ يا يعقوب أحدَ المُرشّحين؟!». أجابه على الفور: «نحنُ لدينا مُتحدّثٌ باسم غرفتنا؛ إنّه محمود، الأمر محسومٌ بالنّسبة لنا».

ثُمّ بدأ كلّ مُرشّح خُطبته، قال أحدُهم: «علينا أنْ نُركّز على الطّعام، تحسين النّوعيّة والكمّيّة، بالطّعام يَقوى الجسد، وبه يُمكن أنْ نواصِلَ مُطالَباتنا الأخرى». قال الثّاني: «تعديل وقت الفَوْرة، إنّه قصيرٌ، يجب أنْ يكون أكثر من ساعتَين. والشّمسُ لا نراها إلاّ في زاويةٍ واحدةٍ من زوايا القِسم». قال الثّالث: «لا نلعبُ في هذه السّاحة إلاّ السّلّة، ماذا لو طالبْنا بتوفير ساحةٍ أكبر لُممارسةِ الرّياضة ولعب كرة القدم؟». ردّ عليه أحدُهم: «إنّهم لن يبنوا لنا ملاعبَ جديدة، ربّما يُضيفون زنازين انفراديّة جديدة، أمّا ملاعب فلا تحلم، علينا التّفكير بإيقاف الانتِهاكات قبل أنْ نُفكّر بجلب المنافِع». قال الرّابع: «الأقلام والدّفاتر. كُتّاب التّاريخ والرّواية والشّعر والحالِمون يحتاجون إلى ذلك، ربّما أكون أنا سطرًا في حِكاية، يكفيني ذلك!». قال الخامس: «مكتبة. ليسَ لدينا مكتبة. الكتب شِفاء. ونحنُ لا نقرأ هنا إلاّ ما نقومُ بتهريبه». قال السّادس: «الزّيارات. نريدُ زياراتٍ خاصّة. أنا منذُ ثماني سنواتٍ لم ألمسْ أطفالي». قال السّابع: «على التّفتيش ألاّ يكون مُهينًا، نحن لا نكاد نستقرّ في أسرّتنا حتّى يُفزِعونا بالتّفتيش، لو كان مرّة في اليوم لكان مُحتَملاً». ردّ عليه أحدُنا: «هذا في قانون السّجن، نحنُ لا نملك أنْ نقلّص التّفتيش من ثلاث مرّاتٍ في اليوم إلى مرّة». «لِمَ لا؟». «لنكنْ واقعيّين». «نحنُ خارجَ الواقع». «الأحلام إذا شَطَحتْ قتَلَتْ». قال الثّامن: «يجب أنْ يسمحوا بدخول

الملابس الّتي نطلبها، ليسَ من المعقول أنْ نلبسَ في الشّتاء الملابس نفسَها الّتي كُنّا نلبسها في الصّيف!!». «سيُفصّلون لنا بدلاتٍ أنيقة ويأتوننا بربطاتِ عنق»، استهزأ به أحدُهم. قال التّاسِع: «نحنُ نريدُ أنْ يُطفِئوا الأنوار في اللّيل، أنا لا أنام بشكلٍ جيّد بسبب الإضاءة الشّديدة». تهكّم صوتٌ قابعٌ في الأطراف: «سينقلوننا إلى فنادق فخمة عن قريب، كلُّ ما عليك هو أنتْ تصبر قليلاً!». وكنتُ العاشر، تلفّتُّ حولي، وراودني خاطِرٌ أنّني وقعتُ في ورطة، هل يُمكن أنْ أقول شيئًا مُختلِفًا؟! تنحنحتُ، هززتُ كَتِفَيّ استِعدادًا للحديث، أو ترتيبًا لفوضى الكلمات الّتي كنتُ أودّ قولَها، لا بُدّ من الحديث، عبَرَ بِذِهني جعفر بن أبي طالبٍ حينَ تحدّث باسم المُسلِمين أمام النّجاشيّ في مواجهة المُشرِكين الّذين جاؤوا يُطالِبونه بتسليمهم؛ كان معنى أنْ يقول هو أنْ ينجوَ وينجوَ معه المُسلِمون، كان يُدرِك أنْ كلمته الّتي سيقولها هي الوعد الوحيد لكلّ مَنْ خلفه بأنّ أعناقَهم لن تطير... وأنا هنا؟ عَلَيّ أنْ أكون حكيمًا، وأنتقي كلماتي بعناية، بهذا همستُ لنفسي قبل أنْ أهتف: «كُلُّ ما تَفَضّلْتُم به مُطالباتٌ مادّيّة، وأنا معها جميعها، ولكنّ تحقيقها لن يكون صعبًا على إدارة السّجن، وستتّخذها ورقاتٍ في صالِحِها من أجل الضّغطِ علينا في أمورٍ صعبةٍ قد نُذعِنُ تحت وطأتِها، نحنُ نريدُ كلمةً إذا وقعتْ في قلبِ العدوّ أخافتْه، كلمةً يقفُ لها شَعْرُ رأسِه، المُطالبات المادّيّة ستكون تحصيلَ حاصِلٍ بالنّسبة لنا إنِ امتلكنا تلك الكلمة». وصَمَتُّ وأنا أنظر في العيون، فرأيتُها ممدودةً نحوي تستزيدني، غيرَ أنّني لم أُتابع الحديث، حتّى صرخَ أحدُهم: «وما تكون تلك الكلمة؟». فأجبتُ كأنّني كنتُ أنتظر سُؤاله: «التّهديد». هتفَ أكثر من عشرينَ منّا بصوتٍ واحدٍ مُستفهِمٍ مُستنكِرٍ: «التّهديد؟». «نعم، التّهديد، نحنُ

الجانب الأقوى وإنْ كُنّا مَسجونين، وهم الجانب الأضعف وإنْ كانوا سَجّانين. نحنُ الحَقّ وهم الباطل، والباطل لا ينتصر على الحقّ مهما كان مُدَجّجًا بالسّلاح». وصمتُّ مرّة ثانيةً لأرى تأثير هذه الكلمات على وجوههم، فرأيتُهم شاخصةً أبصارُهم إليّ، جامدةً أجسادُهم فوقَ الأرض، ثابتةً هيئاتُهم كأنّ على رؤوسهم الطّير... وحينَ حلّ أحدثُهم جُمودَ هيئتِه، هتفَ مُتشوِّفًا: «ماذا تعني؟». فتقدّمْتُ إلى الوسط، ودُرْتُ بينهم أنظر في وجوههم دورةً كاملة بعيونٍ مُتحدّية، وهم يتابِعون حركَة جسدي كأنّهم مأخوذون بها، وقبل أن أُتِمّ دورتي هتفتُ: «سنشلّ أركانهم، سنبثّ الرُّعبَ في قلوبهم، ولن نجعلهم ينامون». طَرِبوا للكلمات الّتي فَخّمْتُ فيها صوتي حتّى تبدو كأنّ النّاطِقَ بها قائِدٌ مِغوارٌ يستعرضُ فرسان جيشِه في ساحة الحرب قبلَ البدء بالهجوم، وأكملتُ: «سنُهدّد بحرق السّجن...»، وتعالتْ صيحات الحماسة... وأردفتُ وسطَ الصّيحات: «ونهدّد بالإضراب عن الطّعام، وبالعِصيان لأوامرهم... إنّنا نملك قلوب الأسود، والأسود لا تعرفُ الخوف... سَنُهدِّدُ بخطفِ جنودهم إنْ لم يعتدلوا، سنتدّرب على الطّريقة الّتي ننظر بها إليهم منذُ اليوم حتّى تنخلع قلوبهم... والطّريقة الّتي نمشي بها حتّى تتزلزل الأرضُ من تحتِ أقدامهم... والطّريقة الّتي نتحدّث بها إليهم حتّى يظنّوا أنّنا سادتُهم نُلقِي إليهم بالأوامر، ونتوعّدهم بالعِقاب الأليم إنْ لم يمتثلوا». ولم تكفّ صيحاتُ التّأييد آنئذٍ حتّى قال يعقوب: «هيّا... هَيّا... سننتخب من بين العشرة... يكفي يا محمود لقد أخذتَ وقتَك كامِلاً في الحديث... الآن سننتخبُ المُتحدّث باسم المهجع كلّه قبل أنْ تنتهي الفورة». وركضَ إلى البرميل، فأعاده إلى وسط السّاحة، ثُمّ هُرِعَ إلى صندوق من الخشب، وطلبَ من أحدنا أوراقًا، وهتف:

«فليُشْرِفْ على التّصويت معي اثنان». ولم تمرّ نصفَ ساعةٍ أخرى حتّى حصلتُ في الانتِخابات على أعلى الأصوات، وصِرتُ المُتحدّث باسم قِسْمنا، وانتشرتْ أخبارُنا إلى الأقسام الأخرى، وكان كلّ شيءٍ فعلْناه في السّاحة مُشاهدًا على كاميرات المُراقبة، يراه لحظةً بلحظةٍ مُدِيرُو السّجن، وعرفوا أنّه أمرٌ دُبِّرَ بِنَهار!

ازدادتْ حالة (شرف) الصّحّيّة سوءًا. وطالبتُ بعرضِه على الطّبيب فورًا، وذهبَ إلى عيادة السّجن، وهذه المرّة ذهبتُ معه، ولم يُكلّفْ طبيبُ السّجن نفسَه أنْ يفحصه، ولم يقمْ من كرسيّه الوثير خلفَ مكتبه، وأعطاه على عادته حبّتَين من (الأكامول)، وطالَبه بالانصِراف. قلتُ للطّبيب: «لم تفحصْه». ردّ: «إنّه لا يُعاني من شيء». «إنّه لا يستطيع الوقوف، على الأقلّ قُمْ بفحصِه على نحوٍ حقيقيّ». وغضبَ الطّبيب فعدّل نَظّارته على وجهه الأسمر السّمين: «هل أنتَ الطّبيب أم أنا؟». تجاهلتُ سؤاله الاستِفزازيّ لأقول له: «ألا تراه؟!». «هل أنا أعمى؟! هل تريدُ أنْ تقول إنّني أعمى؟!». هتفتُ بتحدٍّ هذه المرّة: «نعم أنتَ أعمى وأطرش أيضًا». فاجأه رَدّي، وأرادَ أنْ يصرخ في وجهي ويستدعي شرطة السّجن، ولم أُتِحْ له الفرصة لذلك، إذ إنّني دُرتُ إليه من خلفِ مكتبه، وقبضتُ على ربطةِ عنقه وجذبْتُه منها جذبةً شديدةً أسقطتِ النّظارة من عينَيه، وهتفتُ بصوتٍ غليظ: «قُم بفحصِه قبل أنْ أقومَ بخنقِك». وراحَ يتلعثم وصوتُه يخرجُ مخنوقًا من بين شفتَيه وقد احمرّ وجهه: «سأفحصه، سأف... ولكنّني لا أرى... أريد أنْ أضع نظّارتي على عينَيّ» وأردفتُ وأنا لا أزال أشدّه بقوّة من ربطة العنق: «ألم أقلْ لكَ إنَّكَ أعمى... هاه.. ماذا قلتُ؟ هل ستفحصه على نحوٍ صحيح؟!». وأرادَ أنْ يضغطَ على جرسٍ ليستدعي الشّرطة، وبسرعة قبضتُ بيسراي -

وأنـا لا أزال أختنقـه - عـلى يـده، ولففتُهـا بشـدّة حتّـى صـار يـصرخ مـن الألم: «سـأفحصه... قلـتَ لـك سـأفحصه». أفلـتُّ يـدَه، فيـما تناولـتُ النّظّارة الّتـي سـقطتْ ووضعتُهـا مـن جديـدٍ عـلى عينَيـه: «والآن... هـل تـرى؟!». عَـدّل ثِيابَه وهـو يرتجفُ مـن الرُّعـب، ولم أُعطِه فرصةً ليفعل شيئًا غـير مهمّتـه الّتي يجـب أنْ يفعلهـا، وطلـبَ مـن (شرف) أنْ يستلقي عـلى السّريـر، وقـامَ بفَحصِـه، وأنـا فـوقَ رأسِـه، أهتـفُ بـه كلّ دقيقـةٍ: «كُـنْ طبيبًـا حقيقيًّـا لمـرّة واحـدةٍ أيّهـا السّـمين... أنـا الآن أمنحـكَ هـذه الفُرصـة الثّمينـة». وكان صـوتُ خشخشـة أنفاسِـه يركـضُ في صـدره، ورائحتـه الكريهـة تزكـمُ أنفـي!

(٥٠)

ماذا لو؟!

كيفَ يُمكن أنْ تقول للأيّام ذاتَ ليل: مُرّي بسرعة، لقد تعبْنا من كلّ هذا، ثُمّ تقول لها بعد زمن: ياااه ما أسرعكِ أيّتها الأيّام؛ أمعقول أنّها ثلاثةٌ وعشرون عامًا مرّتْ؟! هكذا؟! هكذا يسرقُ السّجن أعمارَنا... هكذا يخطفُ زهرةَ شبابِنا، ويمتصّ رحيقَ عطائِنا؟! هكذا يحبِسنا هؤلاء اللّصوص؟ ربّما نجحوا في أنْ يحبسوا أجسادَنا كلّ هذه السّنين، ولكنّهم لم يستعبدونا، ربّما منعوا هذه الخيول الجامحة من أنْ تركضَ في السّهوب الفسيحة، ولكنّهم ما قيّدوا خيولَ أفكارنا وهي تنطلقُ في البعيد هازِئةً بكلّ هذا، نحنُ أحرارٌ بوجهٍ ما وإنْ ضاقتْ على صُدورنا الجدران، نحنُ أسودٌ نافِرة وإنْ قيّدَتْنا فِئرانٌ مذعورة. لهم السّلطة الكاذبة ولنا التّراب والهواء والماء. لهم القبضةُ الزّائفة ولنا الوجه الحقيقيّ. لهم اليوم ولنا الغد. وإنّ غدًا لناظره قريب!

قال التّقرير الطّبّي: «إنّ شرف يعاني من مشاكل في الكبد. وإنّ الفحوصات التي أُجريت له كشفتْ من أنّه يُعاني تقرّحًا في الجلد، ومن مشاكل في المثانة تؤدّي إلى تراكُم البول وخروجه بطريقةٍ غير طبيعيّة، مِمّا يؤدي إلى إصابة الكلى».

كانَ واضِحًا أنّ الإهمال الطّبّيّ الّذي عانى منه (شرف) في البداية حين كان يشكو من تقرّحات جِلده، والّذي أثّر على الدّم، هو الّذي أدّى إلى مشاكل في الكبد، وهو الّذي أدّى إلى مشاكل في الكلى، وأنّ هذه المشاكل بسبب عدم سرعة مُعالجتها تفاقمتْ إلى الحدّ

الّذي اضطُرّ فيه (شرف) إلى أن يتمّ وضع أنبوبٍ له من أجل خروج البول عن طريقه.

لم يَعُدْ (شرف) إلى غرفتنا، أصبحَ سجينًا في المستشفى الّذي يُعالَج فيه، كانتْ يداه مُقيّدتَين إلى طرفَي السّرير العُلوِيَّين، كان يُعاني - إلى كلّ آلامه الّتي لا تنتهي - هذا الشَّبْح في اليدَين لطول بقائِهما مشدودَتين، وكان جِلدُه يتهرّأ، وصار يسيلُ قيحًا، لم نكنْ نعرفُ ما يحدثُ معه تمامًا، ولكنّ الّذين حُوّلوا من الأقسام الأخرى إلى المُستَشفى نقلوا بعضَ أخباره المُؤلِمة، كان على ما يبدو يحتاج إلى غسيل كلًى، وكان عليه أنْ يذهب إلى الحَمّام كلّ بِضع ساعةٍ، ولم يكونوا يُقدّمون له أدنى درجات الرّعاية اللاّزمة، كان يذبُل، وتسقطُ نَفْسُه نُتفةً نُتفة، كان يموت بصمت، ولم يكنْ من الّذين يُتقِنون الشّكوى.

مرّ القِطار من جانبِ أسوار السّور، منذُ سنواتٍ قليلةٍ مُدّتْ خُطوطُه هنا، كان يُشبِهنا في كلّ شيءٍ، في صوتِه الحزين، في حياتِه الّتي تمضي بسرعة، في وصوله إلى المحطّة الأخيرة، في نشيجِه في اللّيل السّاكن... لكنّه لم يكنْ يُشبِهنا في شيءٍ واحدٍ، كان يجدُ فضاءً واسِعًا ليمضي فيه إلى غايته البعيدة، وكُنّا لا نملكُ إلاّ الجدران ندور بينها.

كيفَ يُمكن أنْ يُفكّر بِنا مُرتحِلو هذا القِطار على نحوٍ ما؟! خطرتْ ببالي هذه الفكرة وأنا أهيمُ في خيالاتي ذاتَ ليلةٍ شتويّة من عامٍ على عادته حزين، هل يعرفون إذ يمضي بهم حُرًّا في الفَضاء الرّحب أنّ خلفَ هذه الأسوار مَن دَهَسه قِطار السّنوات؛ فهو يُحاول أنْ يخرج من تحتِ عجَلاتِه حَيًّا ولكنْ هيهات! هل يعرفون إذْ ينظرون من نوافذ القِطار أنّ هذه النّوافذ تُطلّ على مرج ابن عامر،

وتنفتح على أجمل ما في بلادِنا، وأنّ نوافذنا لا تُطلّ إلاّ على القُضبان والجُدران والكِلاب وكاميرات المُراقبة؟!

سمعتُ صوتَ (أيهم) في ذلك اللّيل، أين أنتَ (أيهم)؟ في أي منفًى تحطّ هذه الأيّام؟! اشتقتُ إليكَ يا صديقي، سمعتُه يُنشِد: «مرّ القِطار وَمرّ العُمرُ يا وَطَنِي... وَنَحنُ مِنْ حَزَنٍ نَمْضِي إلى حَزَنِ... وَلَمْ تَعُدْ فِي الصُّدُورِ الخُضْرِ سنبُلةٌ... وَلَمْ يَعُدْ غَيْرُ صَخرِ الجُوعِ والمِحَنِ... نمضي ونَأمُلُ أنّا في النِّهايةِ لَوْ... أَصابَنا المَوْتُ لَمْ نُذْعِنْ وَلَمْ نَهُنِ». وسالتْ دمعةٌ حارّة على خَدّي، وهمستُ: «حسبُكَ يا أيهم... حسبُك..». ونمت.

في الصّباح نقلَ إلينا أحدُ المرضى العائدين من المُستَشفَى خبر (شرف): «لقد مات منذُ ثلاثة أيّام». ماتَ وحيدًا إذًا، ماتَ في آلامِه الّتي لا تُطاق دون أنْ يكترثَ له أحدٌ، لقد تلذّذوا بموته، ماتَ كأنّه مقطوعٌ من شجرةٍ!! كلاّ نحنُ شَجَرتُه، ونحنُ أهلُه، وطلبتُ أنْ أقابل إدارة السّجن باسم كلّ المهجع. دخلتُ على المدير: «لقد قتلتموه». «لم يقتلهُ أحدٌ، قتله عَمَلُه، لو لم يكنْ مُخرّبًا ما دخل السّجن يومًا، ولكانَ بينَ أهله». «تُساوِمُنا على مُقاومتنا وعلى أنّ نكون أحرارًا أيّها العَبد». «ما بسمحلك». «ماذا ستفعل؟ ستُضيف إلى سجني عامًا آخر بتهمة الإهانة، اجعلْها عشرة، لديّ مؤبّدات كثيرة لن تؤثّر فيها عشراتُك أيّها القاتل». «انتهى اللّقاء». «لم ينتهِ، عليكم أنْ تأتوا به إلى قِسمْنا لنصلّي عليه صلاة الشُّهداء». «لقد ماتَ منذُ ثلاثة أيّام، واستلمه أهلُه ودفنوه». «لماذا أخفيتُم عنّا نبأ موته؟!». «ومَنْ أنتم حتّى أُخبركم بذلك؟». «نحن رفقاء دربِه، نحن أقربُ إليه من أهله، سترون ماذا سنفعل؟». «تُهدّدُني يا

محمـود؟». «أنـا أحسـنُ مَـنْ يُهـدِّدُ». وخرجـتُ مـن عنـده مُغضَبًـا، ومـع أنّنـي أردتُ أنْ أكـون قويًّـا في مواجهتـه، ولكـنّ مواجهـة العـدوّ الغـادر تتطلّـب ذكاءً كـما وعـدتُ رفقائـي، وعقـلاً أكثـر منه عاطفـة، ولكـنْ مـاذا أفعـل أمـام المـوت، مـاذا أفعـل وأنـا أرى رفقائـي يموتـون أمـام ناظِـرَيّ؟ إنّهـم يُعِدّوننـا للذّبـح كلّ يـوم. وعـدتُ إلى القِسـم وأنـا أتميّـز مـن الغيـظ والغضـب، وطُفـتُ عـلى النّوافـذ، واسـتدعَيتُ عـلى عجـلٍ كلّ متحـدّث باسـم غرفتـه، وقلـتُ لهـم كلمـةً واحـدة: «الحريـق». وفي صبـاح اليـوم التّـالي، أخرجْنـا مـن غُرَفِنـا كلّ مـا لا يلزمنـا مـن أدواتٍ زائـدة، أو مـا لمْ نعـدْ بحاجـةٍ إليـه، وكوّمنـاه في وسـط السّـاحة، وبـدأتُ أنـا النّـار، وسرى اللّهيـبُ رُويـدًا رُويـدًا، وامتـدّ حتّـى اشـتدَّ أُوارُه، وعلَـتِ النّـار، وكُنّـا نُنشِـدُ واللّهـبُ يتصاعـد، كأنّنـا في كامـل فرحنـا: «هَبّـتِ النّـار في راس الخَرّوبـة...».

ودوّتْ صَفّـاراتُ الإنـذار، وهُرِعـتْ فِـرقُ الجنـود مـع الهـراوات الغليظـة، وفِـرقَ الإطفـاء، وانهالـتْ علينـا الهـراوات مـن كلّ صـوبٍ، واتّقَينـا مـا استطَعْنا، وواصلْنا نشيدَنا مع الضّرب، وكان وَقْعُ الهراوات يهـونُ وحناجرنـا تـدوّي بالنّشـيد وبالهُتـاف، وكان يومًـا عصيبًـا، وانكفـأ بعضُنـا، ولامنـي عـلى أنّنـي قـرّرتُ ذلـك، فقـد أدّى الأمـر إلى عواقـبَ وخيمـة، وقلـتُ: «لم يكـنْ أمـام المذبـوح إلاّ أنْ يُدافِـع عـن نفسِـه. والمـوتُ بكرامـةٍ أهـونُ مـن العيـشِ بسـلامة».

وزّعونـا عـلى غُـرَفٍ كثـيرة بعـدَ تلـك الحادثـة، قامـوا بعَـزلِ قيـادات الغُـرَف، وكنـتُ عـلى رأسِـهم، عُـزِلَ بعضُنـا مـن شـهرٍ إلى سـتّة أشـهر، وقـرّرتْ إدارة السّـجن أنْ تعزلنـي سـنة؟ شـعرتُ بالفـرح للقـرار! لا أدري كيـفَ أُفـسّر هـذا الفـرح، العَـزل هـو سِـجنٌ مُضاعَـف إلى مِئـة

ضِعفٍ، فلماذا فرحتُ إذًا؟ هل كنتُ أريدُ أنْ أهربَ من النّظر في وجوه الّذين سَبّبتُ لهم الأذى بقرار الحريق الّذي اتّخذْتُه؟ أم أنّني أردتُ أنْ أرتاح من مسؤوليّات قيادة القِسم، وأقول للآخرين: ها أنتم رأيْتم أنّني لا أصلحُ لها، فاختاروا غيري؟ أم أنّني كنتُ أبحثُ عن هذه الخلوة وإنْ كانتْ صَعبة لأُفكّر فيما هو عظيم؟ لا أدري على وجه الدّقّة سبب هذه الفرحة الّتي تسلّلَتْ إليّ مع نهر الأوجاع المُتدفّق. وعُزِلتُ بالفِعل.

ليستْ أوّل مرة، لقد عُزِلت في هذه العقود الطّويلة ثلاث مرّاتٍ على الأقلّ، لكنّ العزل لا يصلح معه أنْ تقول إنّني مُعتادٌ عليه، لأنّه قاتِلٌ خَفِيّ، يأتي في كلّ مرّةٍ بوجهٍ مُختلف. أخذتُ مُخطّطات السّجن معي إلى العَزْل، أخفيتُها في ثيابي الدّاخليّة، قِصّة الحصول عليها ليستْ عندي، إنّها عندَ يعقوب، حينَ يخرج من السّجن سيُحدّثكم عنها، أعدكم بذلك.

ماذا يُمكن أنْ يحدث لكَ في العَزل؟ الجنون، ستُحدّثُ نفسَك بلا شَكّ بعدَ أربعةِ أشهرٍ على الأكثر حتّى ولو كنتَ أكثر السُّجناء صمودًا في العالَم. الهَذَيان، ستصحو من النّوم وأنتَ تهذي. فُقدان الصّوت، ستحاول مرّاتٍ كثيرة في الشّهر الخامس أو السّادس أنْ تتكلّم، أنْ تقول أيّة كلماتٍ، أن تَفُوه ببضعة حروف، ستجد ذلك صعبًا، وربّما هو أصعبُ من أنْ تَنتزِعَ كلاليبُ قِطَعًا من لحمك، ستختنق الكلمات في الجوف، ولن تجدَ تعبيرًا عن ذلك سِوى بضع قطراتٍ من الدّموع تسيلُ على خَدَّيك وأنتَ تَصُكُّ على أسنانِك. الأحلام، ستحاول أنْ تُعوّض الانِحباس المُخيف الّذي يُشعركَ بأنّك تعيش في تابوتٍ مُظلِم، هذه الأحلام ستحاول فيها أنْ تخرج من هذا القبر الحقيقيّ لتعيشَ في

شيءٍ من الفضاء الخياليّ، قد تنجح هذه الأحلام بالتّعويض في البدايات، ولكنّها ستتحوّل إلى كابوسٍ في النّهايات... أشياء كثيرة ستحاول تدميركَ وأنتَ في العزل، أشياء لا يُمكن التّنبُّؤ بها.

ولكنْ على الضّفّة الأخرى ماذا يُمكن أنْ يُضيفَ لكَ العَزل؟ صَفاء الذّهن، كنتُ أشدّ ما أكون احتِياجًا إليه في تلك الأيّام من عام ٢٠١٧م. ستشعر أنّ عقلَكَ بُحيرةُ ماءٍ زرقاء شديدة الزّرقة صافية، ينعكسُ عليها كلّ ما في السّماء من نَقاء. التّفكير العميق، ستقودك العُزلة إلى أنْ تُفكّر بهدوءٍ في القضيّة الواحدة ألف مرّة، وتحاول أنْ تجيبَ عن السّؤال الواحد بألفِ إجابة، وسيكون لديكَ الوقت لتختار من بينها - بعدَ الاستِبعاد - الإجابة الصّحيحة. ستكتشف أنّكَ ستطرح هذا السّؤال على نفسِكَ مئة مرّة في اليوم وخاصّةً في الشّهور الأخيرة من سنة العزل: ماذا لو؟ أعظَمُ سؤالٍ يُمكن أنْ يخطر في بال العباقرة، وهو السّؤال الّذي قادَ إلى ثلاثة أرباع الاكتشافات الّتي ينعمُ بها البشر اليوم. وعليه فإنّه سيكون لديك الوقتُ الكافي والذّهن الصّافي من أجل أنْ تُفكّر في عمليّة الهروب.

خرجتُ من العزل في عام ٢٠١٨م، قد أكون فقدتُ أشياء كثيرة، ولكنّني كسبتُ ما لا يُمكن أنْ يُعوَّض بثمن، الخُطّة.

حينَ خرجتُ، لم أعدْ إلى قِسمي الّذي كنتُ المُتحدِّثَ باسمه، ولا إلى غرفتي. لم آسَ على شيءٍ سوى على خليّة العسل الّتي نَمَتْ على تلك النّافذة وتركتُها ورائي. نُقِلتُ إلى قسم (٢) ووُضِعتُ في الغرفة رقم (٥)، ولم يكنْ معي فيها سِوى ثلاثةٍ، أحدُهم يعقوب، فرحتُ أنّه ظلّ معي، واثنان آخَران في قافلة الأسرى الّتي لا نهايةَ لها، لم أكنْ أعرفهم أو التقيتُ بهم من قبلُ.

(٥١)

شِطرَنج

فحصتُ الحمّام، قِسْتُ بمسطرة النّظر كُلَّ مسافةٍ فيه. المِسطرة الأدقّ من كلّ ما صُنِعَ، لقد درّبْتُها على مدى سنواتٍ طويلة عددًا من المرّاتِ لا يُمكن حَصْرُها. «الأفضل أنْ يكون الحفر هنا»، قلتُ لنفسِي. الخطيرون يتمتّعون بمزايا خطيرة، نحنُ كذلك باعتراف العَدوّ: «والفضلُ ما شَهِدَتْ بِهِ الأعداءُ».

إنّها أوّل ليلةٍ لي في هذا القِسم. الزّوايا من جديد، المساقط، الأعمدة، اتّجاه الغرفة، موقع الحمّام، عدد الأضلاع، المسافة بينها، زاوية الباب، اتّجاه الزّاوية بين الباب والنّافذة، إذا انفتَح الباب فكم بشريٍّ من الخارج يُمكن أنْ يرى مِمّن في الدّاخل؟ والعكس؟! درجات الشّمس، مساقطُ أشّعتها، المسافة بين الظّل والشّعاع، هذه المسافة صباحًا أو ظهرًا أو مساءً. لم تكنْ هناك شمسٌ؛ كنتُ أتخيّلها، ساعدَني السّؤال الأهمّ: «ماذا لو» على ذلك التّخيُّل.

كانتْ قدرات عقلي الّتي اكتسبْتُها في سنة العزل تتوجّه نحو غايةٍ واحدة: «كيفَ سأخرج من هنا؟». وكان عقل يعقوب يتوجّه إلى ذكريات الرّاحلين من أجل أنْ يُخفّف وطأة الواقع، كُنّا في وادِيَين مُختلِفَين، كان بإمكانه أنْ يأخذني بسهولةٍ إلى واديه، ولكنْ لم يكنْ بإمكاني في هذه المرحلة أنْ آخذه إلى وادِيَّ!

تذاكرْنا طرائف قديمة في الاختِباء أيّام المُطارَدات، قصصًا مرّ عليها أكثر من عشرينَ عامًا، هل نعودُ للماضِي لكي ننسَى؟! كان واضِحًا أنّ يعقوب يريدُ أنْ ينسَى، وكان عليّ أنْ أتذكّر، الّذين

لا ينسَون يحقّقون غاياتهم في زمنٍ أقلّ. «لو تدري يا يعقوب، نحنُ المُطارِدون الآن لا المُطارَدون!». همستُ لنفسي، أمّا هو فقال: «كنتُ لا آكلُ شيئًا يا محمود، لا شيء... هل تتخيّل ذلك؟ لا شيء، ربّما كنتُ آكُلُ نفسي، وإلاّ فكيفَ استطعتُ الصّمود أكثر من عشرينَ يومًا دون أنْ تدخل جوفي لقمةٌ واحدة؟! كنتُ أنام أيّام البرد والمطر وحيدًا في كهفٍ لا تدري ما فيه من المخلوقات؟ ولم يكنْ يُعينني على تحمّل أصواتٍ تبدو أنّها للجنّ أو لمخلوقاتٍ غريبة سِوى تذكّر أولادي وزوجتي الّتي تركتُها تعاني أكثرَ مِمّا أُعاني. كنتُ أركبُ حِمارًا ذات مرّة أيّام مُطارَدتي، وفوجِئتُ بعددٍ من الجنودِ برزوا أمامي في الطّريق التّرابيّة ولا أدري ما الّذي جاء بهم، وخِفتُ أنْ أقع في أيديهم، فسارعتُ إلى ركوب الحِمار بالعكس، وصِرتُ أطوّح برِجليّ كالأحمق، فتركوني ولم يُدقّقوا في هُويّتي. أمّا في الشّتاء فقد مرّتْ عليّ يا محمود أيّام من الصّقيع لم أكنْ أُشعِلُ فيها نارًا لأستدفِئ خوفَ أنْ تدلّ النّار على مكانِ وجودي، لقد فضّلتُ الموتَ بردًا على أنْ أقع في أيديهم...» وتأوّه قبل أنْ يُكمِل: «أوووه... ولكنّني وقعتُ في النّهاية!». وسالتْ بعضُ الدّموع على خَدَّيه، وأشاحَ بوجهه، وأرادَ أنْ يُنهِي حوارًا بدَأه بنفسِه: «لستُ حزينًا على ما مضى، ها أنذا في النّهاية معك». وأردتُ أنْ أحضنه، ولكنّني خِفتُ أنْ يرى دموعي فيحسّ أنّني ضعفتُ، فبقيتُ على قرفصتي، وحضنتُه في خيالي!

«ازززز». ظَنَنْتُ أنّه القِطار، لكنّ صوتَ القِطار أشبه بالصّفير منه بالأزيز. ثُمّ إنّ صوتَ القِطار يأتي من البعيد وإنْ كان لحظةَ مروره بجدار السّجن الخارجيّ يدوّي كأنّه في قلوبنا، وهذا الصّوت هنا، قريبٌ من أذني... «آه... أنتِ ثانِيةً يا نحلتي العزيزة، ماذا تريدين هذه المرّة؟». «لا تحزنْ على ما فقدتَ، لقد صنعتُ لكَ خليّة جديدة،

هذه المرّة ستكون لك». أووه كيفَ تصنعُ بنا الأحلام في السّجن؟ لماذا نشطح في أحلامنا إلى هذا الحَدّ الّذي لا يُصدّق، رويدكَ أيّها العقل، تحنّنْ أيّها القلب، ارفقي بنا أيّتها الأحلام؛ نحنُ من لحمٍ ودم.

على الفَطور، قال لي يعقوب: «النّحلة عادتْ، ألم ترَها؟». «أين؟». «في الموقع ذاته». «أوووه، لم أدقّق النّظر. هل هي مصادفةٌ أم أقدار؟!». إنّ وراء كلّ حَدَثٍ حِكمة، وعلى ذوي الألباب أنْ يستخلصوها ما استطاعوا.

بدأتُ الحفر. كان أزيز النّحلة في البدايات عامِلاً مُساعِدًا لي، يُحفّزني على المُواصلة، لن تكوني أكثر هِمّة منّي! الأداة الأولى الّتي ادّخرْتُها للأمر كانت المِلعقة. في التّبديل الأخير أخذتُها من سجينٍ حصلَ عليها في زيارةٍ خاصّة بطريقةٍ خاصّة. بقيتُ أحتفظُ بالمِلعقة دون أنْ يعرفَ سِرّها أحدٌ عامًا كامِلاً، كنتُ أراقبُها كما يراقبُ خبيرٌ لُغمًا يُمكن أنْ ينفجر في أيّة لحظة. لم يعرفْ بمكان وجودِها سِواي. لكنّني لم أستخدمْها في المراحل الأولى أبدًا.

لم أكنْ لأعتمدَ على المِلعقة من أجل الحصول على الأداة الّتي سأبدأ بها الحفر، سأنجح في ذلك على طريقتي؛ سأخلع – مثلاً – أحد قضبان السّرير على مدى أشهر، أو كنتُ سأعرّي جزءًا من أسلاك الكهرباء في الدّاخل، وأقطع بعضَها وأجمعه إلى بعضٍ حتّى تتشكّل لديّ أداة، أو كنتُ سأنبّش في الأسرّة الفارغة عن نُقطة ضعف، عن نُقرةٍ ولو كانتْ يتيمة لا تتّسع لنملة يُمكن أنْ تقودَ هذا النّمل إلى مساربه، الّتي تنقطع في النّهاية إلى أداة... كانتْ لديّ أفكارٌ بديلةٌ، لن أستسلم لواقعٍ صعبٍ، فالاستِسلام لم يكنْ حَلاً يومًا، وكنتُ ما زلتُ في مرحلة تجميع أدواتي، ومرحلة الإعداد للأمر برويّة.

حصَلتْ تبديلاتٌ جديدةٌ في الغُرَف، نُقِلَ أحدُ الأسيرَين الغريبَين من غرفتنا وجاؤوا بدلاً منه بثلاثة، كان أحدُهم تعويضًا جيّدًا، استقبلني بالشِّعر، كان الشِّعرُ بطاقة تعريفه، هتفَ وهو يحتضنني: «لا سِجْنَ يَنْفِينا، وَلا جُدْرانَ تُبْعِدُنا ولا سَجّانْ... نحنُ الطَّرِيْقُ الحُرُّ في هذا الزّمَانْ... نَحنُ الكَرامَةُ وَسْطَ طُوْفانِ الهَوَانْ». وانداحتْ مودّة لم تكنْ من قبلُ غامرةً كهذا!

«أريدُ أنْ ألعبَ معك الشِّطرنج». قلتُ لأيهم. ردّ: «ربّما يعقوب أفضل منّي». «سيأتي دوره». «أنا لا أُتقِنها كثيرًا». «إذا أتقنْتَ المُناورة فأنتَ لاعبٌ جيّد». «ما الصّعبُ في المناورة؟». «أنْ تُفكّر بعشرين خُطوةً قادِمةً مُحتَملة على الأقلّ، لن تخرج سالِمًا من الرّقعة دون ذلك!». وقبلَ أنْ يُحرّك أحدَ الجنود القابعين في المُقدّمة، والّذين يُغطّون صَفّ الملوك والوزراء والأحصنة والفِيَلة، ويحمون القِلاع والحصون، كانتْ حركاتُه: «في رُقْعَةِ الشِّطْرَنْجِ لَوْنانِ: البَيَاضُ يَسِيْلُ فِي شَرَكِ السّوادِ... تلكَ الحياةُ على امتِدادِ... وعليكَ دومًا كسبُ جغرافيا البِلادِ... وبأنْ تُناوِرَ بالجِيادِ... لا حَلّ لَكْ... النَّصْرُ يَعْنِي أَنْ يَمُوْتَ الجُنْدُ كَيْ يَحْيَا المَلِكْ... لا خَيْرَ فِي نَصْرٍ يُعبّأُ فِي كُؤُوسٍ من دَمِكْ...».

كنتُ قد حَفِظتُ مُخطّط السّجن أكثر من المُهندس الّذي صَمّمه، أنا في الغرفة رقم (٥) في هذا القسم الثّاني، أقربُ الغُرَف إلى الجدار الّذي يقع جهة الجنوب هي الغرفة رقم (١) الّتي عرضُها خمسةُ أمتارٍ، سأحفر تحتَ الغُرَف باتّجاه الجِدار، بين جدار الغرفة السّادسة وجدار السّجن خمسةَ عشر مترًا، ومترٌ عرضُ الجدار، وأربعة أمتارٍ خارِجه، ذلك يعني أنّ الحفر سيكون ما بين (٢٢) إلى

(٢٥) مترًا. يبدو ذلك مُمكِنًا. التّصميم ليسَ كامِلاً إلاّ في ذهن مَنْ تباهَى بِه.

مرّ القِطار ومرَ القَطا. لا زال صوتُه في اللّيل يبعثُ على الشَجى، تُرى كم فيه من صُور الحياة، القِطار هو الدُّنيا، ورُكّابه هم البَشر، يظنّون أنّهم يملكون أمورهم في هذه الحياة ويُوجّهون أفعالهم، وهم ليسوا إلاّ رُكّابًا في قِطارٍ سريعٍ، سيختار عنكَ المحطّة القادِمة الّتي ستنزلُ فيها. كان عَلَيّ أنْ أُوَقّت مرور القِطار هذا على أمور الحفر، جَلَبَتُه الّتي تُسمَع من هنا ستكون أمرًا حسنًا في إخفاء صوتِ الحفر، لكنّها أيضًا على الجهة الأخرى تمنعني من التّركيز، وتُقلّل من التِقاطِ أذنَيّ اللّتَين درّبْتُهما جَيِّدًا على التِقاط أخفضِ الأصوات، والتّنبّه لتلك الأصوات الخَطِرة الّتي تكون في جِواري.

طلبني المُدير إلى غرفته، قال لي (أيهم): «ماذا يريدُ منكَ المُدير؟». «لا أدري». «إنّه يظنّ أنّكَ قادِرٌ على افتِعال الشّغَب السّابق الّذي لم ينسوه». «من الجيّد أنّهم لم ينسَوا، أنا أريدُهم أنْ يتذكّروا على الدّوام أنّه لا أحدَ يمنعنا من فِعل ما نريد».

توجّهتُ إلى الإدارة، كانتْ يداي مُقيدتَين خلفَ ظهري ومعي شُرطيّان يهمزانني من الخلف بغِلظة، وأنا أحدّق فيهما فيتراجَعان خائِفَين، فكّرتُ وأنا أصعدُ الدّرجات أنّ هذه الجُثث الّتي تتحرّك أمامي من شرطة السّجن أو ضُبّاط الأقسام أو المدير هم صيدٌ ثمينٌ لو أنّنا استطعْنا اختِطاف عددٍ منهم. سيكون من المُمكِن المُفاوضة عليهم جيّدًا، لكنّ صوتًا آخر قال لي: «أنتَ بين الجُدران، لا يُمكن أنْ تفاوض على سَجينٍ هو سَجّانك، من السّهل أنْ يسحقك. خارج هذه الجُدران ربّما يكون هذا مُمكِنًا، أمّا هنا فيبدو ما تُفكّر به

ضربًا من الجنون!». عَدَدتُ الدّرجات الّتي صعدتُها، ولون الطّلاء، وحفظتُ الصّور الّتي انتشرتْ فوق بعضِ الجُدران، يبدو أنّها لمُديرين سابقين للسّجن أو لوزراء دِفاع أو لرؤساء الدّولة، تُرى كم تَعاقَب على وزارة الدّفاع أو على رئاسة الدّولة منذُ أنْ سُجِنتُ إلى اليوم؟! نفضتُ رأسي قبل أنْ أدخل، فُتِحَ الباب، ونَظَر المُدير ذو العينَين الزّرقاوَين الزُّجاجِيتّين البارِدَتين إليّ وقال: «نحن نُراقبُ تحرّكاتك، فلا...». قاطعتُه قبل أنْ يُكمِل: «هل نادَيْتَني لتقول إنّكَ تراقب تحرّكاتي؟! من أجل ماذا تدفعُ لك دولتَك الغاصِبة، أليسَ من أجل أنْ تُحصِيَ علينا أنفاسَنا؟!». «لا تتفلسفْ». قالَها بحدّة». رددتُ: «ليس لديّ وقتٌ لأضيعه في التّفاهات، إذا كان لديكَ شيءٌ مُفيدٌ فقُله، وإلاّ فدَعْني أَعُدْ إلى غرفتي». «ما هو الشّيء الّذي تراه مفيدًا يا محمود؟!» سأل مُستهزِئًا. رددتُ بصلابة: «أنْ تقول لجنود جيشِكَ ألا يبولوا في ثِيابهم حينَ يقتحمون جنين مرّة أخرى». لطمتْه العِبارة، ردّ وغمامة الذّهول ترشحُ من كلماته: «نحنُ في السّجن يا محمود، ما شأنُنا بهم؟». «أنتم من طينةٍ واحدة». «اغربْ عن وجهي». «أنا لا أريدُ أنْ أرى وجه غراب البين». ضغطَ على الزّرّ، وهُرِعَ اثنان: «خذوه من هنا، أعيدوه إلى غرفته بسرعة». «قبل أنْ يأخذوني، أريدُ أنْ أنصحك نصيحة». انقطعتْ أنفاسُه ترقُّبًا، هتفتُ: «لا تتركِ الحُرّاس ينامون في أوقات مُناوباتهم، عليكَ أنْ تُراقِبهم جيّدًا».

(٥٢)

شَيءٌ مِن رائحةِ أَهلِي

هَـوَسُ المُراقبـة مُتعِـب. أنْ تنظـر في كلّ زاويـةٍ لـترى مـا لا يـراه الآخـرون، أنْ تُعيرَ انتِباهَـكَ أشياءُ لم تكنْ في حُسبان الآخريـن قَطّ، نملـةٌ تسير عـلى ذرةٍ مـن حصـاةٍ لا تتجـاوز حَبّة الفول، كلمـةٌ عابرةٌ سـقطتْ على الأرض فرأيتَهـا تتكسّر كِسَـفًا. نَفَسٌ لعاشِـقٍ مرّ من جانـبِ أُذُنِك فـزادَتْ حرارتُـه حـيرة. ورقـةٌ يابسـةٌ جلبتْهـا الرّيـح إلى هنـا دَهَسَـتْها قـدَمٌ لم ترهـا، وتـودّ أنْ تقـول لتلـك القـدم ترفّقـي بـما مـرّ مـن عُمـر هـذا اليَبـاس، لكنّـك لا تقـول فتسـمع صـوتَ انسِـحاقِها المُؤلِم تحـتَ تلـك القـدم العميـاء. نظـرةٌ أطلَقهـا سـجينٌ في الزاويـة البعيـدة نحَـوكَ، هـو يعـرفَ أنّـكَ لا تـراه، ولكنّـه لا يعـرفُ أنّـكَ تـرى حتّـى شُـعاعَ نَظرتِـه، إنّ نظرتَـه تقـول: «مـا أنـت؟!». تنظـر في الفـراغ فـترى عـدد ذرّات الهـواء، تـكاد تـرى تركيبـة الأكسـجين فيهـا، ثُـمّ شيءٌ مـا، شيءٌ مـا واضـحٌ تمامًـا بالنّسـبة لـك، لكـنّ الآخريـن جميعًـا لا يرونـه، إنّهـم لا يملكـون عينَيـك ولا أذنَيـك ولا قلبَـك، تُفجّـرُكَ السّـعادة، تُحـرّكك أقدامُـكَ المُبصِـرة إليـه، تُعطيـه ظَهـرك، تُغطّيـه حتّـى لا يـراك أحـدٌ وأنـتَ تفـوز بغنيمـةٍ جديـدة، تسـتحوذ عليـه دون أنْ تلتقِـطَ كامـيرات المُراقبـة، إنّهـا تلتقـطُ مـا يُـرى، وأنـتَ في هـذه اللّحظـة تلتقـطُ مـا لا يُـرى. وتأخـذُه مـن موضعـه هنـاك عـلى طَـفّ النّافـذة، وبحركـةِ خبـيرٍ تضعـه في جيبِـك، وتمـضي سـعيدًا بهـذه الهديّـة الرّبّانيّـة.

اسـتخدمتُ تلـك الهديّـة في اليـوم التّـالي في الفَـوْرة عـلى الفَـوْر، بـدأتُ أحـزّ بالبرغـيّ الّـذي كان بطـول عـشرة سـنتيمترات ذا طـرفٍ مُدبّـبٍ وقـويّ أطـراف البلاطـة، كانـتْ أصعـبَ مرحلـةٍ مـرّتْ عَـلَيّ إلى الآن، أنْ تحـزّ في باطـونٍ سـميكٍ، يتغـيّر لونُـه، وببرغـيّ، وبيـدٍ واحـدةٍ،

ووحدي، فذلك كان نوعًا من اجتِراح المُعجِزات، ولكنّ تصميمي على الخروج وكَسْرِ هيبةِ السّجن الّذي يُسمّونه (الخَزنة) كان يتفجّر في أعماقي كلّ يومٍ، وكانتْ حماستي لتحقيق الحُلم تتأكّد كلّ لحظة، وكلّما حززتُ في البلاطة سنتيمترًا واحِدًا كنتُ أشعرُ أنّني اقتربتُ من الحرّيّة عامًا كامِلاً.

حززتُ اثنَين وعشرين يومًا في خطوط البلاطة الّتي تبعدُ مسافةً مدروسةً عن مِقعدة الحمّام. ثلث المسافة ما بين طرف المِقعدة إلى البلاطة، والثّلثان المُتبقّيان إلى باب الحمّام، والزاوية لتثليث المسافة هي زاوية (٤٥ درجة)، والموقع؟ تحتَ المِغسلة تمامًا مع الاحتِياطِ لمسافة بلاطةٍ أخيرة تحتَ هذه المقعدة لا يتمّ المَساسُ بِها. كان عليّ أنْ أحزّ حدود البلاطة ببطءٍ شديد وتمهّلٍ وعناية، على البلاطة أنْ تظلّ سليمةً من الكسر طَوال مدّة الحفر كاملة، على الأغلب سيستمرّ الحَفرُ ما بين عشرة أشهرٍ إلى سنة، وسأُحدّد توقيت الخروج باليوم والسّاعة، لكنّ ذلك يعتمد على الشّهور الأربعة الأولى في الحفر.

بعدَ بِضعة سنتيمترات من الحَزّ بالبرغيّ في الباطون واجهتْني شبكة الحديد الّتي كانتْ شديدة التّشابُك والتّصالُب، الحديد الّذي صُنِعتْ منه الشّبكة لم أرَ مثله حينَ كنتُ أعمل في أعمال البناء قبل ثلاثين عامًا، إنّه حديدٌ يحتاجُ إلى منشارٍ كهربائيّ خاصّ، أو ربّما أكثر من ذلك، ولا أدري كيفَ وفى البرغيّ بالغَرض، وخلال شَهرٍ كاملٍ من العمل المُضني الدّؤوب استطعتُ أنْ أقصّ ما يسمحُ لعبور جسدِ آدميٍّ خفيف الوزن، كان ذلك انتِصارًا عادلتْ فرحتي فيه فرحةَ خروجي من هنا، ولم أُصدِّقْ أنّني فعلتُها لولا أنّني فعلتُها بالفعل، وقالتْ لي النّحلة: «لا تقلْ يضعُ سِرّه في أصغرِ خلقِه!»

مَـرَّ القِطـارُ كَأَنّـا لَمْ نكُـنْ فِيْـهِ... مَـرَّ القِطـارُ عَلَى آثَـارِ مَاضِيْـهِ... تَقَاذَفَتْنـا المَنـافِي غَـيْرَ عَابِئَـةٍ... وَبَعْثَـرَتْ عُمْرَنـا المَذْبُـوحَ فِي التِّيْـهِ... مَـرَّ القِطـارُ فَقَالَـتْ لِي بَنَفْسَـجَةٌ... أَمَـا لَدَيْكَ حَدِيْـثٌ فِيَّ تَرْوِيْـهِ؟!... فَقُلْـتُ: نَحْـنُ هُنـا يَـا أُخْـتَ عَوْدَتِنـا... حِكَايَـةُ الحُلْـمِ تُـرْوَى فِي لَيَالِيـهِ... مَـرَّ القِطـار.

بـدأتُ الحفـر عموديًـا، هـذه أوّل مـرّة أرى فيهـا الـتّراب، بعـدَ شـهرَين مـن الحَزّ في الإسـمنت وقَـصّ الحديـد، تدرّبْـتُ أنْ أضبِـطَ أنفـاسي، أنْ تتحـرّكَ أُذنـايَ رادارًا يلتقِـطُ كلّ حركـةٍ غريبـةٍ في الغرفـة أو في الخـارج، حـينَ كنـتُ أسـمعُ ذبذبـاتِ كلـماتٍ أو حفيـفَ أقـدامٍ في الغرفـة أُسـارِعُ إلى إنهـاء مـا أنـا فيـه، أُعيـدُ البلاطَـة إلى مكانِهـا بهـدوءٍ وانضِبـاطٍ ودِقّـة، أقِـفُ مُتّشِـحًا بالـتُّراب وبالأمـل، أفتـحُ صنبـور المغسـلة بأقـصى طاقتـه مـن أجـل أنْ يسـمع مَـنْ في الخـارج أنّ الحـمّام مشـغولٌ، ثُـمّ أغسّـل يـدَيّ مـن الأتربـة ووجهـي ورأسي، وتكـون مِنشـفتي معـي فأنظّـف كلّ شيءٍ، وأخـرج بهـدوءٍ مُشـعِرًا مَـنْ كان في الغرفـة أنّنـي لا أراه، ولم أعـرفْ أنّـه دَخَـلَ إليهـا.

راحَ الـسّرّ يثقـل. أنْ تحفـر وحـدك، أنْ تمـلأ راحتَيـكَ مـن الـتّراب، وأنْ تُذيبـه في المغسـلة، أنْ تنظّـف كلّ شيءٍ... سـيبو ذلـك بعـدِ فـترةٍ وجيـزةٍ صعبًـا، عليـكَ أنْ تضـمّ واحِـدًا عـلى الأقـلّ مـن أجـلِ أنْ يُسـاعِدكَ في مُراقبـة الغرفـة قبـل أنْ يدخـل إليهـا أيّ أحـدٍ... فكّـرتُ؛ لكـنْ ليـس مُمكِنًـا إشراكُ أيّ أحـدٍ في هـذه المرحلـة عـلى الأقـلّ، في الغرفـة مَـنْ تثـق فيـه، وهنـاك مـنْ لا تسـتطيع الاعتِـماد عليـه، ذلـك أنّـه لا يسـتطيع أنْ يبلـع الكلمـة تمامًـا، بـل إنّهـا دائِـمًا مـا تُغالِبـه في الخـروج مـن جوفـه، وربّـما إذا غالبتْـه أكثـر وأصرّتْ عـلى الخـروج فإنّـه يَنتُقُهـا في آخـر المطـاف ليقـضي عـلى عَمَـلٍ تعبـتُ في التّخطيـط لـه كلّ هـذه العمـر.

«تفتيش» صاح ضابطٌ يقفُ خلفه عشرة جنودٍ، وقفْنا على أبراشِنا، لم يكنْ أحدٌ ليشعر بارتِجافةٍ في القلبِ سِواي، البقيّة من النّزلاء لا يعرفون عمّا يدور في غرفة الحمّام شيئًا، بدأتِ العمليّة، فتّشوا الأسِرّة، الملاءات، الأغطية، المِخدّات، نثروا الأغراضَ على الأرض، دَقُّوا على الأرضِ بهراوات، هناك خبيرُ سَماعٍ عندهم، يُصغي إلى إيقاع الدّقّ وإلى صَداه، ويُقرّر ما إذا كانَ هناك تجويفٌ ولو بسيطٌ تحتَ أيٍّ من البلاطات الّتي يدقّون عليها... استمرّ الدَقّ حوالي ربع ساعةٍ، هَزّ الخبير رأسَه أنّ الأمور تمام، ولا يُوجد أيّة خلخلةٍ تحتَ البلاطات، أطلقتُ ضحكةً ساخِرة بعدَ أنْ خرجوا، وضربتُ كَفًّا بِكَفّ، وهمستُ لنفسي: «لا بُدّ أنّهم اختاروا خبيرًا أصمّ». سألني أيهم: «ما بك؟». بقيتُ صامِتًا. أردفَ يعقوب: «لِمَ تضحك؟ هل بدَرَ منهم شيءٌ أضحكك، أنا أرى أنّ هذا المنظر الّذي تركوه خلفهم من نثر أغراضنا يدعو إلى العبوس لا إلى الضَحك». لم أنبِسْ بكلمة. لكنّني قلتُ لنفسي: «البلاطة الخامسة من الصّفّ الثّاني تحتَها فراغُ بمقدار ملّيميترين، والثّالثة من الصّفّ الرّابع تحتَها صَدًى كأنّ بعضَ الملاط قد تهرّأ أو تحتها خلخلة بمقدار مليّمتر... أيّها الخبير الأصمّ: إذا كنتَ لا تسمع ألا ترى؟!».

التّنقّلاتُ بين الغُرَف محمومة. يشعرون أنّ هناكَ شيئًا يحدُث ولكنّهم لا يعرفون أين، ومَن؟ التّنقّل رُبّما يُتيح لهم أنْ يتفرّق مَنْ كان مُجتمِعًا على فِكرةٍ ما، هذا التّشتيت يُمزّق القُوّة، لكنّهم لو عرفوا أنّني كنتُ أنا سبب هذا الشّعور فماذا سيفعلون بي؟! سينقلونني إلى الغرفة رقم (١) مثلاً أو الغرفة رقم (١١) أو أيّ غرفةٍ أخرى، أو حتّى أيّ قسمٍ آخر؟! مُخطّط السّجن لديّ، وأنا أحفظُ صورةً منه بالألوان في رأسي، وسأحفر من أيّ غرفةٍ نقلتموني إليها، ولن يُحدِث

ذلك فرقًا إلاّ في المُدّة الزّمنيّة الّتي سأقضيها في الحفر، قد يطول الأمر شهرًا أو اثنين على زمن الخُطّة، ولو نقلتموني إلى أبعدِ مكان فقد تطول المُدّة إلى عامٍ إضافيّ على أبعدِ تقدير، وماذا يُحدثُ العام في المُؤبّد من فرق؟!

نَمتْ خليّة العسل. كانت النّحلةُ رفيقتي في بعضِ أيّام الحفر. كانتْ كأنّها تقول: «أنا أُراقب مدخل الغرفة عنك». وكانتْ تفعل ذلك على الحقيقة، كانتْ تطير من فوقِ الطّفّ وتحلّق هناك في حركةٍ اهتزازيّة دون أنْ تُغادِره، وأستمرّ أنا في الحفر ما دامتْ هناك، فإذا أقبلتْ نحوي، فمعني ذلك أنّ أحدهم قد دخل الغرفة، وعَليّ أنْ أتصرّف، كانتْ أوّل أصدقائي الّذين ساعدَوني على الحفر، إضافةً إلى أنّها قالتْ لي: «في نهاية الشّهر الثّامن من هذا العام سيكون عسلُكَ جاهِزًا، ويُمكنك أنْ تأخذه إلى أُمّك كما وعدْتَها»، «كيفَ عرفتِ أنّني أريدُ هذا العسل لأمّي أيّتها النّحلة العزيزة؟ «لقد سمعتُ حِوارَكُما هذا في اللّقاء الأخير عزيزي محمود!».

دخَل الشّتاء والبرد في أوائل عام ٢٠٢١م، البرد قارسٌ في سهل مرج ابن عامر، أسوار السّجن العالية لا تحمينا منه، لم يكنْ بردًا واحِدًا، كان السّجن بردًا آخر، والعُمر الّذي يمضي، والأهل الّذين يبتعدون، والأحلام الّتي تهرب، والشّوق والحنين، وأشياء أخرى لا يُقارَن بها البرد الحقيقيّ، إنّها أشدّ وطأةٍ من كلّ ألمٍ مُمكِن، لكنّنا نعيشُ على أمل النّجاة، والأمل حتّى ولو لم يتحقّق كفيلٌ بأنْ يهزمَ اليأس وأنْ يُداوي الجِراح النّازِفة.

طلبتُ انتقال ابن عمّي (محمّد) إلى غرفتنا، ناداني مدير السّجن: «لماذا تريدُ أنْ ينتقل إليك؟». «شيءٌ من رائحة أهلي».

«أنتَ رومانسيّ على هذا يا محمود؛ فلماذا قتلتَ خمسين جنديًّا ومستوطِنًا؟!». «لستُ قاتِلاً، أنتمُ القَتَلة، أمّا أنا فمُقاوِمٌ أعمل على تحرير بلدِي». «بلدك، لم تعدْ لك، هي لنا، نحنُ مَنْ حَوّلها إلى جَنّة، العِلم لا الجهل هو الّذي رفَعَها إلى مرتبة الدُّول العُظمى ونحن مَنْ صنعنا ذلك لا أنتم». «أنتم حوّلتُموها إلى خَرابة، كلّ يومٍ تقتلون أطفالَنا ورِجالَنا ونساءَنا، في كلّ لحظةٍ تعتقلون واحِدًا منّا، تقنصون في الشّوارع، تستقوون على النّساء في الطُّرُقات، تهدمون البيوت، تُصادرون البَشَر والشّجر والحَجر، هل تعتبرون ذلك حضارة؟! أنتم أسوأ قَتَلةٍ مَرّوا في التّاريخ». انفجرَ صوتُه: «هل جِئتَ إلى هنا كي تُجادِلني أيّها المُخرّب؟!». «أنتَ الّذي بدأت». «ماذا تريد الآن؟». «قلتُ لك: أنْ ينتقل ابن عميّ (محمّد) إلى غرفتنا». «ولماذا تُريدُ ذلك؟ هل ستخطّطون للهربَ معًا؟!». «ربّما». «نحنُ لم ننسَ محاولتكَ للهربِ من سجن شَطّة قبل سبع سنوات». «وأنا لم أنسَ، وسأحاول من جديد». «هل تتحدّانا؟». «أنا دائمًا في تَحَدٍّ لسُلطتكم». «لِنرَ، إنْ كنتَ تستطيع، هذا ليسَ سجن شَطّة يا حبيبي، هذا السّجن لا يعرفُ مدى تحصينه سِواي». خرجتُ من عنده وأنا أكتم ضحكةً كادتْ تتفجّر في أعماقي حينَ لفظَ الكلمة الأخيرة: «سواي».

بعدَ أسبوعٍ انتقلَ إلى غرفتنا (محمّد) كما طلبتُ، استقبلْتُه بالأحضان، كيفَ يُمكن أنْ ترى وجه مُناضِلٍ يلحقُ بالقافِلة الّتي مشيتَ فيها قبلَه بستّ سنوات، عينَين واسِعتَين، ومُقلتَين وادِعتَين، وحاجِبَين عريضَين فوقَ جفنَيه لكنّهما خفيفان، ووجهًا قمحيًّا كأنّ صورةَ الأرضِ فيه، وخدَّين لا ممتلِئَين ولا حادَّين، كأنّهما بينَ بين، ومشية واثِقة، وقَوامًا يُغري بالاحتِضان، وبسمة شفيفة كأنّها رَفّة جناحَي حمامةٍ بيضاء، هذا الفتى العربيّ الجميل، أداتْه سُلطة الإجرام

بالمؤبّد، وصار في غرفتنا، كلُّنا من أهل المُؤبّد الّذي نحتاج فيه حتّى نقضي سنواتِ الحُكم إلى أنْ يسجنوا قبورَنا بعدَ موتنا، ولكنّنا لن ننتظر حرّيتنا بالموت، سنخرج من هنا أحياء، وسنقبّل الأرضَ الّتي أَطْلَعَتْنا رغمًا عنهم.

أكملتُ حفر عشرينَ سنتميترًا في التّراب، ثُمّ جاءَتْني طبقةٌ من الصّفيح، كان الحَزّ عليها بالبُرغِيّ أمرًا لا بُدّ أنْ يلفتَ الانتِباه مهما احتطتُ لذلك، في هذه المرحلة قرّرتُ أنْ أُشْرِكَ غيري في هذه العمليّة الحُلم.

تفتيش... صوتُ غرابِ البين لا ينفكّ ينعق. كُوّمت أغراضُنا كلّها في الوسط، هتفَ الضّابط: «وصلْتنا أخبارٌ أنّكم تُخبِئون هاتفًا خلويّا». «مَنْ أخبركم؟ العصفورة؟». وانفجرتُ بالضَّحِك.

(٥٣)

لم أعرفْ، لقد رأيتُ!

«أريدُ أنْ أقول لكَ سِرًّا». قلتُ ليعقوب. ردّ: «أعرف». «ماذا تعرفُ؟!». «تحفر نفقًا». لم أستطعْ أنْ أبلعَ المُفاجأة: «هل رأيتَني أفعل ذلك؟». «كلاّ، عيناكَ قالَتا، أنتَ أستاذي، أتذكُر؟! تعلّمتُ منكَ قبل ثلاثة عقودٍ أنْ أعرفَ ما تقوله عيناك». «ولماذا لم تُفاتِحْني في الأمر من قبلُ؟!». «أدبُ التّلميذ مع أستاذه، لم أشأ أنْ أقول قبل أنْ تقول أنت، ثُمّ خِفتُ أنْ أكون مُخطِئًا. دَعْكَ من هذا... لقد انتظرتُ هذه اللّحظة طويلاً». عانقتُه وأنا لا أزال مدهوشًا. «هل نُخبِر الآخرين؟». سألتُه من خلفِ كتفيه وأنا لا أزال أحيطُ جِذعه بذراعَيّ. ردّ: «أيهم ومحمّد على الأقلّ». «مَنْ بقي في الغرفة إذًا؟» قلتُ ذلك وأنا أرسل ذراعَيّ لأتركه وأنظر في عينَيه، وأضحك ضَحِكةً خفيفة. رَدّ: «بقي قُصَيّ وخلدون، ومَنْ يدري مَنْ سيأتي خلال التّنقّلات الكثيرة، أنتَ تعرفُ أنّهم يقومون بهذه التّنقّلات كلّ ستّة أشهر على الأكثر». «كم عددُنا في هذه الغرفة؟». «سِتّة». «إذا قُدّر لنا الخروج هل نكون نحن؟». «لا أحدَ يدري، سيخرجُ مَنْ في الغرفة حينَ تحينُ ساعةُ الصّفر». «والّذين تعبوا في الحفر ثُمّ نُقِلوا قبل يوم الخروج؟». «سيكون ذلك قَدَرَهم، إنّهم جزءٌ من نجاح الخُطّة، أتمنّى ألا يحدث التّنقّل كثيرًا في غرفتنا حتّى يخرج مَنْ شاركَ في الحفر، ولكنْ مَنْ يدري؟ قد ينقلونني أنا في اللّحظة الحاسِمة، وأنا صاحبُ الفكرة من الأساس، لن أغضب، لن آسى، يكفيني شرفُ المُساعَدة، وسأفرحُ للّذين خرجوا. يجب أنْ يفهم الّذين يُقاسِموننا هذه الغرفة هذه الفِكرة». «الخوف من التّنقّلات أنْ تنتقل معها أخبارُنا، فيكون قد قُضِي علينا». «لا تخفْ، مَنْ يدخل

غرفتنا هو من الأسرى الأمنيّين، هذا نوعٌ من الأسرى عالي التّدريب، صدرهُ جوفُ بِئرٍ مُعتِمة، يُمكننا الاعتماد عليهم، والأمر إلى الله في النّهاية».

مشيتُ مع (أيهم) في الفَورة، همستُ في أذنه: «ماذا قلتَ من الشِّعر؟». رَدّ: «السّرّ أولى بِمَنْ أولاكَ تأمنه؟». «وأنتَ تعرفُ أيضًا؟». «أعرفُ ماذا؟». قلتُ له وأنا أُطوِّحُ بيدي في الفراغ: «لا عليك». «ماذا هنالك؟». رَكَزْتُ رأسي على رأسه بصورةٍ مُتقابلة كي أُسَيطر على رَدّةِ فِعله إذا أخبرتُه بالأمر، وهتفتُ بصوتٍ أقربُ إلى الهمس: «سنخرج من هنا يا أيهم». ردّ: «سنخرج». «أنا أقول لك إنّني أحفر نفقًا منذُ أكثر من شهرَين». «سأحفر معك غدًا». أغاظَتْني برودة أعصابه، وعدم توقّعي لردّة فِعله، فسألتُه بصوتِ آمرٍ مُستخبِر: «هل تعرفُ أنّني كنتُ أحفر نفقًا؟ اصدُقْني القول». «لا يا صديقي». «ولماذا تلقَّيتَ الخبر كأنّه خبرٌ في جريدةٍ ملقاةٍ على طاولةِ طعامٍ في المطبخ». «لأنّني أُفكّر فيما تُفكّر فيه، وقد أشرتُ لكَ بذلك قبل سبع سنوات حينَ كُنّا معًا في سجن شَطّة، ثُمّ إنّ التّفكير في الهروب وسماع خبره هو الوضع الطّبيعي الّذي يخطر ببال كلّ سجينٍ من نوعيّتنا ويتوقّعه في أيّة لحظة». «لقد أفسدتَ عليّ حماستي». ضَحِكَ هذه المرّة، واستدرك: «لا يا صديقي، ستشتعلُ الحماسة فينا من جديد، متى أتابع معكم؟».

دُقْ... دُقْ... دُقْ.... طرَقَاتٌ شديدةٌ على الأرضيّات؛ سليمة. طرَقاتٌ أشدّ على الجدران؛ سليمة. طرقاتٌ على النّوافذ؛ سليمة. طرقاتٌ على الأسِرّة، فحصوا الحديد ومتانته، والعوارض وتلاحمها؛ سليمة. كلّ شيءٍ سليمٌ. «يا للعجب! أينَ يطرقُ هؤلاء الأغبياء؟!»، صفعتْني رُؤيتهم يدخلون الحَمّام أوّل ما أنهيتُ السّؤال الّذي دار في

خاطري، تحرّكَتْ عضلة القلب في أحشائي، ولكنّني طمأنتُ نفسي: «لقد أتقنتُ عمليّة التّنظيف بعدي». طرقوا على أرضيّة الحمّام، طرقةً، اثنتَين، في الثّالثة أصاخَ الخبير سَمعَه، هَزّ رأسَه هَزّاتٍ خفيفيةً يمنةً ويسرة، وهتف: «سليمة». كنتُ أضحكُ في أعماقي: «لماذا لم تطرقوا تحتَ المِغسلة، كنتم ستسمعون شيئا، لماذا لم تفعلوا؟ إنّكم لا تُريدون أنْ تنحنوا، ولا أنْ تجثوا على رُكَبِكم لكي تدخلوا تحتها وتقوموا بالطّرق... لكنّني أعدكم أنّكم ستنحنون وتجثون على رُكَبِكم قريبًا».

صِرْنا أربعةً نعرفُ بالأمر، أنا ومحمّد وأيهم ويعقوب، كان أحدُنا يحفر، وأحدُنا يراقِب، واثنان ينتظران دورهم في الحفر بالتّناوب، لم نعدْ نحفر في الفورة فحسبُ، صِرْنا نحفر في اللّيل، في اليوم الّذي قرّرْنا فيه الحفر في اللّيل، صارَ لِزامًا أنْ نُخبِرَ كلّ مَنْ في الغرفة، كان قَسَم الشّرف يجمعنا: «ما نفعله هنا يموت هنا. وإنْ كُشِفْنا فأنا مَنْ خَطّطتُ ودَبّرْتُ ونَفّذْتُ، وأنتم لم تكونوا تعلمون بشيءٍ». حاول يعقوب أنْ يعترض، فأمرتُه بحُكم موقعي التّنظيميّ أنْ يُوافِق على ما قلت. وعلى هذا رُحْنا نعمل بطاقةٍ أكبر.

كُنّا في شهر آذار، بدأ الجوّ يميل إلى الاعتِدال وإنْ كانتْ ستائر البرودة لا تزال تجرّ أذيالَها، وكان الرّبيع الّذي لا نراه ولكنّنا نشمّ عبقَه من وراء هذه الجُدران يمشي بالحرّيّة، إنّه مثلها؛ أخضر، مُمتدّ، لا شيءَ يَحُدّه، جميل، ورائحته فَوّاحة.

كُنّا نُذيب الرّمل في مجرَيَين، مجرى المِقعدة، نصبّ فوقه الماء حتّى يُصبح كأنّه شوكلاته سائِحة، ونصرّفه هناك، أو نصرّفه بالهيئة ذاتها في المِغسلة، لكنْ كان علينا أنْ ننتبِه إلى المراوحة في الكمّيّات الّتي نُصرّفها، وكان علينا أنْ نحفر بهمّة لكنْ بذكاء بحيثُ لا تكون المادّة

المُذابة في المجاري أكبر من احتِمالها، أو تزيدُ نسبة اكتشافِها، فأنا أعرفُ أنّهم يفحصون المجاري في كلّ السّجون، ويراقِبون لونَها، ويُحدّدون فيما إذا كان غيرَ طبيعيّ، قادَتْني هذه المُعادلة إلى أمرَين: تخفيف التّوتّر النّاتج عن سرعة الحفر حتّى يبدو أنّنا نقوم بعمل طبيعيّ، وزيادة الحذر من جهةٍ أخرى؛ لأنّ اعتِياد الخطر يُنسِي شِدّته.

كان (خلدون) يعمل بصمتٍ، لقد بدأنا الآن الحفر في التّراب عموديًا بعدَ أنْ أنهَينا قصّ شبكة الحديد، واستطَعنا كسر طبقة الباطون الّتي تحتَها، وقُمنا بقصّ الصّفيح الرّابض أسفلَها، والآن جاء دور التّراب، من معرفتي لمخطّط السّجن، قدّرتُ أنّ التّراب لن تكون طبقته سميكة، ربّما لن تزيدَ عن نِصف متر، ومع أنّ الخمسة الآخرين خالفوني هذا الرأي، إلا أنّني أكّدتُ لهم ألاّ يحكموا حتّى يَروا.

(خلدون) يحفر، يملأ التّراب بأكياسٍ من البلاستيك، يتناولها منه (قصيّ) يُذيبها في المغسلة، و(أيهم) على باب الحَمّام يراقب الأمر، وأنا على باب الغرفة ينتظرون منّي الإشارة التّحذيريّة، و(محمّد) و(يعقوب) ينتظران دورهما. كانت العمليّة تجري بديناميكيّة دقيقة، كُلّ واحدٍ في هذه السلسلة يعرفُ دوره تمامًا، لا مجال للخطأ، ولا مجال لأخذ الأمر على غير محمل الجِدّ، ولا مَجال للتّراجع، كُنّا نشعر أنّنا نمضي إلى حتفنا، غير أنّ صوتَه في البعيد كان عذبًا، كانتْ موسيقاه تتغلغل في أرواحنا، وكُنّا نتبعه كأنّنا مأخوذون بسِحره!

نركضُ في السّاحة. الفورة فورة. نُمارِسُ الرّياضة. يلعبُ بعضُنا السّلة. في المنتصف مشرعةٌ رُقعة الشّطرنج، لاعِبان مُحترِفان يُفلسِفان الحياة من خِلالها، لقد امتلكا ذِهنَين صافِيَين، وتجربةً تطول لِعَقدَين من أجل أنْ يتوقّعوا خمس خُطُواتٍ قادمة مع أكثر من مئة احتِمال، لو

خرجَ أحدُهم من هنا سيُنافِس على بطولة العالَم في الشِّطرنج. نركضُ من جديدٍ، الهروب غريزتنا، الانطِلاق سَجِيّتنا. نجلسُ بعدَ ساعة الرّياضة، نتناول ما بعثتْ به السّماء إلينا، نُرتّب أمورنا في (الكانتين) ونُحاول أنْ نتحكّم بأوزانِنا، قلتُ لهم في المرّة الأخيرة: «على أوزاننا أنْ تكون بين سبعين كيلو غرامًا وخمسةٍ وسبعين، عليكمْ أن تُمارِسوا الرّياضة باستِمرار، وتَضبِطوا إيقاع تناول الطّعام».

بعدَ أقلّ من نصفِ مترٍ من التّراب ستَعرِضُ لنا طبقةٌ من الباطون، نظَر الشّباب في وجوه بعضَهم، وسألني (أيهم): «كيفَ عرفت؟». «لم أعرفْ؛ لقد رأيت!». «لدينا مُشكلة»، هتفَ يعقوب، وأردف: «كيفَ نتغلّب على طبقة الباطون هذه؟». أجبتُ: «كما تغلّبْنا على سابِقتها». «ولكنْ ربّما تكون سميكة، قد تصل إلى متر». «لن تكون كذلك، إنّها لن تزيد عن عشرين سنتيمترًا». نَظر بعضُهم في وجوه بعضٍ، وسأل (يعقوب) السّؤال ذاته: «كيفَ عرفتَ؟». «لم أعرف، لقد رأيت!».

استمررنا في الحفر في طبقة الباطون الجديدة، كان أيهم يحفر، ويعقوب يُساعد، وخلدون على باب الحَمّام يُراقب، وقُصيّ ومحمّد ينتظران دورَهما، وكنتُ أقف على طاقة باب الزّنزانة أنظر إلى السّاحة، وكان ذلك في ليلةٍ من ليالي نيسان الهادِئة، وشعرتُ بالنّعاس وبالتّعب، وهممتُ أنْ أتخلّى عن موقعي لأتمدّد على السّرير، قلتُ لنفسي: «خمس دقائق فقط، إنّ ضلعي تُوجِعني لوقفتي هذه، لن تُؤثّر هذه المُدّة القليلة في شيء، وسأعود بعدَ أنْ يأخذ عمودي الفِقري وضع راحته إلى هذا المكان لأُتابع مَهمّتي... خمسَ دقائق لن تُؤثّر في المعادلة شيئًا». وبالفِعل استدرتُ وأردتُ أنْ أمضي إلى سريري، وخطوتُ أوّل خطوةٍ...

ثُـمّ توقّفـتُ حيـنَ سـمعتُ صوتَـها: «ازززززز». التفـتُّ لأراهـا في وجهـي: «مـاذا تريديـن أيّتهـا العزيـزة؟». «كيـفَ تُخليـنَ موقعـك؟!». «إنّهـا خمـسُ دقائـق فحسـب». «إنّ لحظـةَ غفلـةٍ واحـدة قـد تهـدمُ كلّ شيءٍ». «أنـتِ لا تعرفـين شـيئًا، مـن أيـن تعلّمـتِ الحِكمـة؟!». «في عمـلي، أنـتَ لا تعـرف كيـفَ نعمـل، لـو كانـتْ لديكـم قلـوبٌ تفقهـون بها أيّهـا البـشر لاسـتفدُتم مـن تجربتنـا ومـن طريقـة عملنـا». «لا أريـدُ أنْ أسـتمع إلى مُحاضرةٍ في عمـلِ النّحـل، مـاذا تريديـن الآن؟!». «عُـدْ إلى موقعـك، ولا تُبارِحـه ألبتّـة، كنـتُ ربّـما سـأعذر هـذه الفَعلـة مـن جنـديٍّ مع أنّـه لا عـذر لـه، أمّـا أنْ تـأتي منـكَ وأنـتَ القائـد فتلـك طامّـة... ازززززز». كان يبـدو أنّهـا غاضِبـة. اسـتعدتُ الخُطـوة الّتـي منحتُهـا لطاقـة البـاب، وعُـدتُ إلى موقعـي، ورُحـتُ أنظـر في السّـاحة الّتـي كانـتْ هادِئـةً تمامًـا، وخالِيـةً مـن أيّ كائـنٍ... ومَـرّ القِطـار.

(٥٤)

الفراغ

الحرّيّة تحتاج إلى قُوّة. ليسَ من المُمكن أنْ تنتزعها وأنتَ ضعيف. كان استِعدادُنا النّفسيّ خيرَ قُوّة نُواجه بها الآلة العسكريّة الضّخمة. لم يكنِ السّجن العائق الأكبر، كان الاستِسلامُ إساءةً لتاريخنا الطّويل في النّضال، لن نستسلم، لن نيأس، وسنُقاتِل بالأمل حتّى آخر نَفَس.

كنتُ أحفر في طبقة الباطُون، قَدّرتُ أنّها ستنتهي بعد بضعة سنتيمرات، هكذا وعدتُ الشّباب، لقد قلتُ لهم : «إنّني رأيت». لن تُكذّبني هذه الطّبقة، لقد رأيتُ فِعلاً! في عام العزل في الزّنزانة الانفراديّة تجلّتْ لِيَ المعرفة الحقّة، وانكشفتْ لي سُتُرٌ حُجِبتْ بقلّة النّظر، كنتُ موجودًا هناك ولكنّ أحدًا لم ينتبه لي، كان يُمكن أنْ تروني لو نظرتم، ولكنّكم غضضتُم أطرافكم. ها أنذا؛ طبعتُ مُخطّط السّجن كامِلاً في ذهني، الطّبقات، سُمكها، حدود الغُرف، المسافات بينها، المسافات بين الأقسام، واتّجاهاتها، كانتْ بلا اتّجاهٍ مُحدَّد، كانوا يخلطون مداخلها ومخارِجَها حتّى تبدو على غير انتِظام، جُزءٌ من بعثرة العلاقات بين سُجناء كلّ قسم، كان علينا أنْ نمرّ - فيما لو قادونا إلى أيّ جزءٍ من السّجن خارجَ قِسمنا - عبر بوّابات أمنيّة زُوّدتْ بالمجسّات الحسّاسة الّتي كانتْ تُصوّر كلّ شيءٍ وترى في الظّلام، وكنّا نمضي عبر ممرّات المُراقَبة هذه يتقدّم السّجين الواحد منّا ثلاثة أو أربعةٌ من الحُرّاس، ويتبعه العدد ذاته، كلُّ شيءٍ مُحصًى عليك... نعم، استطاعوا أنْ يفعلوا ذلك، تلك نِقاطُ قوّتهم إذا جاز التّعبير؛ لكنّني لم أكنْ أُفكّر في العشرين شهرًا الماضِية في نِقاط القُوّة، كنتُ أبحثُ عن نِقاط الضّعف، أبحثُ

عـن الثّغـرة، عـن تلـك الغَلطـة لذلـك الحكيـم الّـذي أنجزَ كلّ شيءٍ عـلى نَحـوْ مُذهِـل!

سنتيمتران فقـط؛ هـذا مـا يجب أنْ يتبقّـى عـلى هـذه الطّبقـة حتّـى تنكسر وتنتهـي، لـن يكـذبَ هـذا الحـدس، ولا تلـك المعرفـة، أنـا أعنـي مـا أقـول وأُدرك، لديـكِ سـنتيمتر واحِـد أيّتهـا الطّبقـة اللّعينـة، «يـا يعقـوب»، ناديتُـه بصـوتٍ عـالٍ مليئًـا بالفَخـر، جـاءني، قلـتُ لـه: «عليـكَ أنْ تشـهدَ صِـدْقَ مـا أقـول، لم يبـقَ إلاّ سـنتيمترٌ واحِـد حتّـى تنفلـق هـذه الطّبقـة، وتنتهـي مرحلـة مـن مراحـلِ هـذا الحفـر المُضنـي». هتـف: «أُصدّقـك». قلـتُ لـه: «لا تُصدِّقْني صَدِّقْ عينَيـك. ثُـمّ، هويـتُ بالضّربـة الأخـيرة، أو الّتـي ظننتُهـا الأخـيرة، وسـقطتْ طبقـة الباطـون وهـوتْ في الفـراغ، كان فراغًـا جعلنـي أصرخ: «أووووووووه». ويـصرخ معـي (يعقـوب)، ثُـمّ راحَ يسـأل وهـو يفتـحُ عينَيـه عـلى اتّسـاعهما مـن الدّهشـة: «مـا هـذا؟». وأجبتُـه، وأنـا في غمـرة الذّهـول مثلـه: «لا أدري». «لكـنْ ألم تكـنْ تتوقّـع ذلـك؟!». «كنـتُ أتوقّـعُ أنْ تنتهـي طبقـة الباطـون وتبـدأ بعدَهـا طبقـةٌ مـن الـتّراب، ولكـنْ أنْ يـأتي بعدَهـا الفـراغ، فذلـك مـا لم يبلغْـه حتّـى خيـالي». «ولكـنْ... مـا هـذا؟ ألا تحفـظُ مُخطّطـات السّـجن؟». «أحفظُهـا... أحفظُهـا يـا صديقـي عـن ظهـر قلـب، ولكـنّ المُخطّطـات قالـتْ إنّ هنـاك طبقـةً تحـت طبقـة الباطـون الثّانيـة، ولكنّهـا لم تقـلْ إنّهـا طبقـةٌ مـن الهـواء!!». كانـتْ تلـك هـي الحقيقـة، إنّ سـجن جلبـوع يتشـكلّ مـن طابـقٍ واحـدٍ مـن الزّنازيـن وليـسَ فوقـه طابـقٌ ثـانٍ، غـير أنّ هـذه الطّبقـة مـن الزّنازيـن تقـفُ عـلى طبقـةٍ مـن الفـراغ، كان هـذا جُـزءًا مـن مشروعهـم (الخزنـة) حتّـى لا يسـتطيع أحـدٌ الهـروب!

نـادَى (يعقـوب) بقيّـة الشّـباب، طلبـتُ مـن (خلـدون) أنْ يبقـى عـلى بـاب الزّنزانـة يراقـبُ سـاحة الفـورة، لا نُريـدُ مزيـدًا مـن المُفاجـآت،

قال (قُصيّ): «ماذا تقترح يا محمود؟ هل تريدُني أنْ أنزل لأكتشف عمق هذا الفراغ وإلى أينَ يُؤدّي؟». «كلاّ، سنؤجّل ذلك إلى الغدَ». «وماذا نفعل اللّيلة إذًا؟». «علينا أنْ نحتفل».

وأتينا بالحلويّات والعصائر من (الكانتين)، واجتمعنا وسط الغرفة، وأكلْنا وشربْنا، وغَنَّيْنا وصدَحْنا، وضَحِكْنا، ورأينا الشّمس بعد ليلٍ طويل: «هَذا غِناءُ الذّاهِبِينَ إلى الجِنانْ، هَذِي الدُّرُوبُ المُغلَقاتُ سَتَنْتَهِي، وَسَيَنْتَهِي هَذَا الهَوَانْ...». ونِمْنا كأنّ بوّابات السّجن كلّها ستنفتحُ أمامنا حالمًا نَصحو!

وواصلْنا الحفر، كُنّا نُنَظِّمُ الدّور على الّذين سينزلون ويحفرون، وعلى الّذين سيراقبون وينتظرون، كنتُ أوّلَ مَنْ نزل في الفراغ، كان فراغًا بقدر ارتفاع مترَين، مُحاطًا بالباطون من جهاته الأربع، إلاّ من الأرضيّة فقد كانتْ رِخوة، وكان يُمكن البدء بها، رحتُ أتفحّص المكان على الضّوء الهزيل القادم من الفتحة في الأعلى الّتي في الحَمّام، وكانتِ المُفاجأة الثّانية، لقد وجدتُ بعضَ قُضبان الحديد متناثرة في المكان، يبدو أنّها من مخلّفات البِناء الّتي لم تُنَظّف، والّتي ترَكَها العُمّال وراءَهم في غفلة من الرُّقباء أو المُهندسين، أو لأنّهم فكّروا في استحالة الوصول إلى هذا المكان الّذي يقع خارجَ المكان!

فكّرتُ وأنا في هذا الفراغ: «سنحفر ما يقرب من مترٍ إلى الأسفل، ثُمّ سنتّجه إلى حيثُ جدار السّجن الخارجيّ. سيُكلّفنا هذا المتر ربّما أسبوعَين أو ثلاثة إضافِيَّين، ماذا لو وجدْنا ثغرة في هذه الجدران نستطيع أنْ نحفر فيها مُباشرة؟!» طرقتُ عليها واحدًا واحِدًا، وتفحَّصْتُها بدقّة، كانتْ صلبةً مُصمَتة، النّفاذ منها مُمكنٌ، ولكنّه قد يكلّفنا شهورًا إضافِيَّة، ولا ندري كم سُمك هذه الجدران، فقررتُ أنْ

أحفر عمقًا بِما يسمح للواحدِ منّا أنْ يُقعي في هذا العُمق المحفور، ثُمّ نتّجه في الحفر جِهة جِدار السّجن الخارجي. أخذتُ هذا القرار وأنا في الأسفل ثُمّ صعدت.

دعوتهم إلى الاجتِماع، أطلعتُهم على الوضع، وقلت: «لو نزلَ ثلاثةٌ مِنّا إلى الأسفل فإنّنا خلال أسبوعٍ واحدٍ سنكون حفرنا حفرةً بعمق متر نستطيع أنْ نجلسَ فيها لنحفر باتّجاه الحُرّيّة، علتْ وجوههم ابتِسامات التّحدّي، وشرَعنا في الأمر على الفور، وكانت هذه المرحلة سهلة. كُنّا نحفر، ونُخبّئ أدوات الحفر في الجُزء الخالي، ونخرج من فتحة بلاطة الحَمّام، كان هذا (أيهم)، يُطلّ بقُمع رأسِه أوّلاً، يصعد الرّأس كأنّه قادِمٌ من الغيب، ثُمّ تظهر الجبهة المُضيئة، ثُمّ عينا الصّقر، ثُمّ اللّحية وقد تناثرَ عليها بعضُ غُبار الأرض والسّنين، ثُمّ صدره المُتماسِك، ثُمّ ذراعاه المفتولان، ثُمّ كَفّاه وهو يحطّهما على أرضيّة الحَمّام، ثُمّ جذعه الممشوق، ثُمّ يقفز وهو يطلقُ تنهيدةً حَرّى، ثُمّ يقف على قدَمَيه، فينفض بقايا ما عَلِق، وقد بانتْ شَعَرات صدره فوقَ الشّيّال، ثُمّ ينحني إلى المغسلة، فيغسل رأسَه ووجهه، ثُمّ يحمي بالمِنشفة ندى الماء المُتقاطر، ثُمّ يلبس قميصَه، ويربّت على جانِبَيه، ويُعدّله على كَتِفَيه، ثُمّ يخرجُ بطلاً يُمارِسُ بقيّة اليوم كالمعتاد.

«الآن هو دور الحفر باتّجاه الجدار، إنّها المسافة الأطول، مُخطّطات السّجن المطبوعة في ذهني تقول إنّها ستكون عشرين مترًا». «لن تُعجِزنا»؟. «هل أنتم مُستعِدّون». «أتمّ الاستِعداد». «سنُعيدُ التّوزيع هذه المرّة، اثنان سينزلان للحفر، واحدٌ في الأعلى عند بلاطة الحَمّام للمتابعة، وواحدٌ عند باب الحَمّام للمُساندة، وواحدٌ على باب الزّنزانة للمُراقَبة، والسّادس للتّبديل حينَ يحينُ دوره، والحلقةُ مُتّصلة، مَنْ كان في المراقبة اليوم سيكون في المُساندة غدًا، وسينزل للحفر بعدَ غدٍ، وهكذا... ليس فينا مَنْ يُستثنى

أو يُعطَى ميزة الرّاحة، كُلّنا جنود، مسؤوليّتي تتحدّد في إدارة العمليّة، ولكنّني لستُ خارِجها، وستمرّ بي الأدوار كلّها: الحفر والإسناد والمُراقبة والمُتابَعة». وصمتُّ قليلاً قبل أنْ أُتابِع: «هناك أمرٌ مهمّ، في البداية سنملأ الرّمل في أكياس، سنذيبه في المغسلة لمدةّ أسبوعٍ على الأكثر، سيُلاحِظون إذا استمررنا في إذابته دون أنْ نحتاط، بعدَ هذا سوف نركنُ أكياس الرّمل في الفراغ الموجود تحت هذا الحَمّام، الزنازين كما تعلمون تقفُ على فراغاتٍ مُدعّمةٍ بُجدران وقواعد إسمنيّة شديدة التّسليح. وبدأنا ونحن نريدُ أنْ نفلق الصّخر بِهمّتنا.

أين سيُؤدّي هذا النّفق الّذي نحفره؟ هل تعرفُ يا محمود؟ أعرف. على أيّة جهة، هل تعرف؟ أعرف؟ وتحتَ أي جانبٍ، جانب بيسان أم العفّولة أم جنين أم النّاعورة أم القُدس، هل تعرف يا محمود؟ أعرف. هل سيُولّي وجهه إلى الدّاخل فنصل في النّهاية إلى إدراة السّجن فيُمسكون بنا كالعصافير الصّغيرة لنقع في أقفاصهم، أم إلى الخارج... هل تعرفُ يا محمود؟ أعرفُ... أعرف كلّ شيءٍ، اطمئنّ نحن نحفر بالاتّجاه الصّحيح.. كيفَ عرفتَ أنّه الاتّجاه الصّحيح؟ لقد قال قلبي ذلك!

إنّ إدارة السّجن تشُمّ. أو كأنّ قادتهم يستعينون بالعَرّافين والسَّحرة. لقد ازداد سُعارُهم، إنّهم يصرخون بلا سبب، ويشتمون من غير داعٍ، ويعزلون في الزّنازين الانفراديّة كما يحلو لهم، ويُضيّقون علينا في كلّ شيءٍ، حتّى الفورة صِرنا لا نخرج إليها إلاّ نصفَ ساعة. بدأتْ النّقمة تنمو. لا يُمكن احتِمال ما حدث. أغلقوا الكانتينات ومنعونا أنْ نأخذ منها شيئًا. ثُمّ ذاتَ مرّة فعلوا ما لا يُمكن تَصوّره؛ لقد سرقوا الطّعام من هذه الكانتينات، سرقوا طَعامَنا، هؤلاء الشّرهون الجوعى إلى كلّ شيءٍ عديمو الشّرف، اللّصوص القَذِرون لم يكتفوا بذلك، بل أحرقوا جزءًا منها انتِقامًا مِنّا!

صَرخَتِ الغُرَف. ضَجّتِ الأقسام. تعالتِ الصّيحات. تأوّه المرضى. نزلتْ بِنا الأدواء. نهشتْنا أنياب الظُّلم. بعثرتْنا الدّروب. أكلتْنا الأيّام. قضمتْ عافِيتنا الآلام. لِمَ تفعلون ذلك بِنا؟ لأنّكم قَتَلة؟ مَن القَتَلة؟ نحنُ أم أنتم؟

قال لي (خلدون): «لن يصبر النّاس على ذلك، وسيُطالِبونكَ بموقفٍ أمام ما يفعلونه بنا». وأردف (قُصَيّ): «أنتَ المُتحدِّث باسم القِسم كلّه، في عنقك ذِمّة أكثر من مئة سجين، لا أدري إنْ كانت الأقسامُ الأخرى تُعاني ما نُعاني، ولكنْ لا بُدّ من أنْ نفعل شيئًا». وقال (يعقوب) وهو يشدّ بظاهر كفّه اليُمنى على أسفلِ ظهره من الألم: «إنهم يسمعون منك، فقلْ شيئًا». وسألتُهم: «ماذا ترون؟». «علينا أنْ نردّ على هذه الأفعال بالتّهديد، ألم تُعلّمْنا ذلك؟». «بلى، سنُهدِّدُهم، ولكنْ بِمَ؟». «بالحريق». «لقد هَدّدْناهم بذلك، وجاءتْ على رؤوسنا». «بِمَ إذًا؟». «بالإضراب عن الطّعام». وفي الفورة اجتمعتُ ببقيّة متحدّثي الغُرف ورؤساءِ الأقسام، وأخبرتُهم بما نوينا عليه. فكانت المُوافقة.

وطلبتُ مقابلة مدير السّجن، وكان يُعطيني ظهره وهو جالِسٌ على كرسيّه الهَزّاز، واستدار وهو يعبثُ بقلمٍ فاخرٍ بين أصابِعه دون أنْ ينظر إليّ ليقول: «هاااه يا محمود؛ ماذا تريدُ هذه المرّة؟». وقبل أنْ أجيبه عن سؤاله، أكمل: «هل ما زلتَ تريدُ الهرب من هذا السّجن؟». فأجبتُه: «بالنّسبة للهرب من هذا السّجن نعم، أنا ما زلتُ أريدُ الهرب منه، ولكنّ هذا أمرٌ جانبيّ لم آتِ لأناقِشه معك، بل جِئتُ لأُخبِركَ أنّ السّجنَ كُلّه سوف يبدأ الإضراب عن الطّعام غدًا». رَدّ عليّ ببرود: «هل تظنّ أنّ هذا سينفع؟». «ربّما». وصرخ هذه المرّة وقام وخبطَ على الطّاولة: «سوفَ ينفع ربّما مثلما ينفع هروبكَ من السّجن». «سنرى».

(٥٥)

الجِسمُ يأكلُ نفسَه

لم نأكلْ. الماء فقط. يبدأ الجِسم بالتّعب أوّل يومٍ، ثُمّ ينهار في نهايته، وحينَ يظنّ أنّه استسلم، يقع في وادي النّوم، فإذا استيقظَ استيقظَ نشيطًا، كيفَ يُمكن أنْ يبعثَ التّوقّف عن الطّعام في هذا الصّباح هذا النّشاط، لقد تخلّصْتَ من ثِقَلٍ كان فيك فنشطت. في اليوم الثّاني يضحك المُضرِب عن الطّعام، ويبدأ يرى أنّ الأمر الّذي أقدمَ عليه بسيط، لم يكنْ يستحقّ هذه المُعاملة من السّجن من حيثُ عزل القِيادات، وعدم السّماح للأفراد بالخروج من زنازينهم.... يمرّ اليوم الثّالث والرّابع لطيفَين هادِئَين، تَشغَلهما بالذِّكر أو التّذكّر، يأتي اليوم الخامس والسّادس كأنّهما لم يأتِيا... ثُمّ يمرّ الأسبوع تشعر حينئذٍ بخفّةٍ في الرّوح بعدَ أنْ كانتْ خِفّة في الجسد... تبدأ هذه الرّوح بالتّحليق خارجَ أسوار السّجن في اليوم العاشر؛ ما الّذي حدَث؟ لقد بدأ الجِسْمُ يأكل نفسَه، وبدأتِ الرّوح تتخلّص من سِجن هذا الجسد، لقد كانتْ في سِجنَين إذًا، وتخلّصتْ من الأوّل بهذا التّوقّف عن الطّعام، ثُمّ ها هي تحلّق في البعيد، رأيتُ أمّي في اليوم الخامس عشر تلوّح لي وهي تضحك مقبلةً نحوي في مرج ابن عامر وهي تهتف من الفرحة: «اطلعتْ من السّجن يا ابني... طلعت...» ثُمّ تحتضنني، أشعر بأنّ جسدي القابع هنا في هذه الأرض الباردة قد حلّق في الأعالي، طار مثلَ فراشة، ها هو يرفرف، أشعر بذارعَيها الحانيتَين تلتفّان حول جذعي، تغوصان فيه، تتحولان إلى شتلتَين من الياسمين، تطير أوراق الياسمين كما تطير الفراشة، كما أطير، أنا، وأنفضُ رأسي... وأستيقظ.

ماذا يحدثُ مع رؤساء الأقسام الأخرى؟ ليتني أعرف. كنتُ متكوّرًا على الأرض، أضمّ رِجلَيّ إلى بطني، غارقًا في نومٍ غير النّوم، عيناي مُغمَضَتان لكنّني مُستيقِظٌ حينَ سمعتُ صوتَ انفِتاح باب الزّنزانة، قلتُ لنفسي: لا بُدّ أنّني أحلم، رفعتُ رأسي قليلاً فلم أرَ شيئًا، عُدتُ للنّوم، ولكنّني سمعتُ هذه المرّة صوتًا: «يا محمود... قُمْ يا محمود... المدير يريدك..». حدّثتُ نفسي: «هُراء، لقد صَوّر لي الجوع كلّ هذا الهَذَيان». غيرَ أنّني صرختُ صرخةً واهنةً من الألم، حينَ ركلني الجنديّ الواقف فوق رأسي صائِحًا: «قُمْ يا كلب».

وقفتُ بين يدي المدير مُقَيّدَتان يدَاي أمامي، وأنا لا أكادُ أقدر على الوقوف، سألتُه أنْ يسمح لي بالجلوس، فأبى: «شو بتفكّر حالك بفندق؟!». تماسَكتُ وأنا أراه شبحًا من خلال عينَيّ الزّائغتَين، وسألت: «ماذا تريدُ منّي؟». «أنا لا أريدُ منكَ شيئًا، أنتم ماذا تريدون مِنّا؟ لماذا هذا الإضراب؟ الأمر ليس في صالِحكم». «هل يُمكن أنْ تُعيدني إلى العَزل، أنا لن أشبع من سماع هذه المُهاترات». لكزني الجنديّ الواقف ورائي بهراوته في خاصرتي: «تأدّبْ». «يلعنْ أبوك». صرختُ. «خذْ هذا المعتوه». وعُدتُ إلى زنزانة العَزل.

ماذا حدثَ للرّفاق في الغرفة رقم (٥)؟ هل تمكّنوا من متابعة الحفر في النّفق؟ قُواهم مع الإضراب عن الطّعام لن تسمح لهم بذلك. صارت اللُّقمة حُلمًا. تركتُ نفسي لأحلامٍ أخرى، في اليوم الرّابع والعشرين رأيتُ (رَيّان)، هل ما زلتَ حَيًّا أيّها الكلب؟ أينَ أنت؟». «أنا هناك». وأشار إلى الأفق، فرأيتُ في الأفق الشّجرة الّتي رأيتُه عندها أوّل مرّة في أحراشِ يعبد. «هل جِئتني إلى هنا حَقًّا؟ لماذا لا تدخل إلى الزّنزانة وتعيش معي؟! أنا الآن أحوجُ ما أكون إلى رفيق». هَزّ ذيله ولعق أرنبة أنفه: «أنا معك». «يا كلب، أنتَ لستَ معي، أنتَ كاذب،

أنا هنا وحيد، لقد تخلّيتَ عنّي». «لا تقلْ ذلك يا صديقي، أنتَ الّذي تخلَّيتَ عنّي حينَ تركتَني منذُ خمسةٍ وعشرين عامًا، أنا أوفى منك، بقيتُ مرابِطًا في غرفتك، وأنام على سريرك أكثر من عشر سنواتٍ، ثُمّ نادَتْني الشّجرةُ الّتي خرجتُ منها، فذهبتُ، ماذا تريدُني أنْ أفعل أكثر من ذلك؟».

جَرُّوني إلى الإدارة جَرًّا. صرخَ المُدير: «عليكُمْ أنْ تفكّوا الإضراب عن الطّعام». «فُكّوا أوّلاً عَنّا». «ماذا تعني؟». «أعيدوا كلّ شيءٍ إلى مكانه، الكانتينات، لا تسجنوا الشّمس، نريدُ أنْ نراها يا ذا العينين الزُّجاجِيّتَين، ربّما أنتَ لا تُحبّها لأنّها تُفسِدُ لونَ عينَيك، نحنُ نحبّها أيّها اللّصّ، نُحبّها لأنّها ترسم المجدَ على جباهنا، ولأنّها تُشبِهنا، عالية، ماضِية غير عابِئة.... زيدوا فترة التّشميس والرّياضة، والزّيارات... هل كلامي مفهوم؟». كِدتُ أقع بعد الكلمة الأخيرة من الغضب ومن وهن الجسد، كان يسمع ويهزّ رأسه، نظَرَ إليّ بذات العينَين الزُّجاجِيّتَين، وقال: «سأفعل يا محمود، هل هناك طلَبات أخرى». «نعم. نريدُ زيارات خاصّة». «لن تكون لمثلك». «لا أريدُها لي، أريدُها للّذين لم يروا أمّهاتهم أو زوجاتهم ولم يحضنوهنّ منذُ عشرين عامًا يا ذا العينَين الزُّجاجيّتَن». على مَنْ تنطبق هذه الصّفات يا محمود». «على أكثر من مِئة، أنا أعرفهم، وأنتَ تعرفهم كذلك». «تريدُني أنْ أفعل ذلك لهم جميعًا». «ولماذا وضعوك على هذا الكرسيّ؟». كَظَمَ غضبةً فائرة في صدره، وصَكَّ على أسنانه، وهتف: «تمام، سأوافق لكَ على ذلك. هَيّا قُمْ بدوركَ لأقوم بدوري، هل بقي هناك شيءٌ آخر؟». «نعم، مثلما تُفتّشوننا في اليوم ثلاث مرّات، تعرفُ هذا التّفتيش القذر يوسّخ الملابس، نريدُ توفير غسّالات، أو السّماح لنا بإدخال الملابس النّظيفة». «يا محمود...» وهَزّ رأسه:

«هل أنتَ في عقلك؟!». «أنا أعقل من كلّ مجانينك». «الأمر مفاوضة وليس حسمًا، هل تريدُني أنْ أنصاع لكلّ مطالبك مقابل مطلبٍ واحدٍ لي؟». «مطالبي كلّها لا تُساوي نصف مطلبكَ مِنّا، ولو كُنّا في غير هذه الظّروف لما تجرّأتُم أنْ تضعوا القيود في يَدَيّ». «دَعْنا نُنْهِ الأمر، الغَسّالات جُنون، ولكنْ سنسمح لكم بإدخال مزيدٍ من الملابس. هَيّا اذهب إلى رِفاقك وأخبرهم بأنّ الإضراب عَنِ الطّعام قد انتهى».
بقيتُ واقِفًا في مكاني كالصّخرة الصّمّاء ولم أتزحزح، رفعَ نظَرَه إليّ فوجَدَ عينَيّ تُحدّقان فيه بقوّة، خفضَ طرفَه كالمهزوم وسأل بتلعثُم: «أنسيتَ أنْ تطلبَ شيئًا آخر؟». «نعم، أريدُ صُحُفًا يوميّة، كُتُبًا، أنا أريدُ أنْ أقرأ وكذلك كلّ زملائي، لدينا من الوقتِ ما يكفي أنْ نقرأ كيفَ تُفكّرون...». وتوقّفتُ قليلاً قبل أنْ أُكمِلَ كأنّني أحادثُ إنسانًا أعرفه لفترةٍ طويلة: «هيه... أريدُ أنْ أقرأ يوميّات بيغن، بالمناسبة هل قرأتَها؟!».

هذي الكأس من أجلكَ يا وطني، هذا الدّم لك، كلّ هذا العُمر لك... لم أعدْ لدَيّ ما أخاف منه ولا ما أخاف عليه، خرجَ كلّ ذلك إليك، أخاف منك أنْ تبكي، وأخافُ عليكَ أنْ تُسرَق.

«ازززز». ابتسمتُ وأنا أراها تقودُني إلى النّافذة، كأنّني سمعتُها تقول: «هذه هي المرّة الأخيرة الّتي ستسمع فيها أزيزي، لقد انتهيتُ من العَمل». تبِعتُها. لا يُوجدُ أكثر من النّحل إتقانًا للعمل. قالتْ: «من زهور هذه الأرضِ الطّيّبة. صار بإمكانكَ أنْ تأخذه إلى أمّك، سيكون فيه الشّفاء لها». أردتُ أنْ أُقبّلها، لا خَدّ للنّحل، ضحكتُ، أتيتُ بالقطرميز الّذي أعددتُه من قبل لهذه اللّحظة: «أنا ممتنٌّ جِدّا لكِ أيّتها النّحلة العزيزة؛ لقد تعلّمْتُ منكِ الكثير».

وعـادتِ الحياة في السّجن إلى طبيعتهـا. مشـتْ ميـاهٌ كثيرة. مـضى أنـاس، وأتـى أُنـاس. وجـاءتْ أخبار، وطـارتْ أخـرى. ووُلِـد نفـر، ومـاتَ مثلُهـم، ودارت الحيـاة دورتَهـا، وكُنّـا قطـرةً في دوّامتهـا، ومضينـا في تلـك الدّوّامـة نبحـثُ عـن قُـوّة طـارِدةٍ قـادِرَةٍ عـلى أنْ تقذفنـا خارِجَهـا!

مـضى النّفـق باتّجـاه الجِـدار مـترًا واثنـين وثلاثـة. حفـرَ معنـا (خلـدون) شـهرًا ثُـمّ خـرجَ، وغـابَ في تلافيـف الأقسـام كأنّـه حُلـم، وحفـر معنـا قُصَيّ (شـهرَين) ثُـمّ خـرجَ، وبقينـا نحـن الأربعـة: أنـا ويعقوب وأيهـم ومحمّـد، وبـدا أنّ النّفـق صـارَ لنـا وحدَنـا، وأمّنّـا مَـنْ خـرَج ألا يفـوه عـن الأمر بكلمـة، وكانـتْ عيونهـم تنطق بذلـك الحقّ. وسـار الحفـر بطيئًا بعـضَ الـشّيء، بسـبب خروجهـا، ولكـنّ أربعـةً يحملـون الـسّرّ خـيرٌ مـن سـتّة، ثُـمّ أرسـلتْ لنـا إدارة السّـجن سـجينًا جديـدًا اسـمه (مناضِـل)، كان شـابًّا مُتحَمِّسًـا، مُندفِعًـا بشِـدّة، يذكّـرني بنفـسي حـين كنـتُ في عمـره، وللشّـباب طيشُـهم إلى حماسـتهم، وللكهُـول هدوؤُهـم إلى حكمتهـم. ولا أدري لماذا بعثـوا بـه إلينـا؟ واشـتراكه معنـا في الفِكـر والتّوجّـه ليـسَ سـببًا، إذْ إنّ هنـاكَ العـشرات الّذيـن يشـتركون معنـا في الفكـرة ولهـم في السـجن عـشرة أو عـشرون سـنة وهـم أولى بالانضِـمام إلى غرفتنـا منـه، إذ إنّـه اعتُقِـل قبـلَ مـا يقـربُ مـن عامَـين فقـط. ولم أهـربْ مـن التّوجّـس منـه، كـما أنّني لم أهـربْ مـن إخبـاره بـما نفعـل، إذْ لا يُمكـن أنْ يحـدثَ ذلـك وهـو يُشـارِكُنا في هـذه الغرفـة كلّ شيء!

غـيرَ أنّـه عـلى الجهـة الأخـرى سـيكون هـذا التّوجّـس مـن جانبـه تُجاهنـا أكـبر مـن توجّسـنا مـن جانبنـا تُجاهـه، فهـو ذو محكوميّـة قصـيرة نسـبيًّا، وسـيخرج مـن السّـجن قريبًـا، وسـتكون لـه الفرصـة أنْ يحيـا بعـدَ خروجـه حيـاةً طبيعيّـة، وأنْ تطلـبَ منـه المُشـاركة في مغامـرةٍ مجنونـةٍ كالّتـي نفعـل، فهـذا يعنـي أنْ تطلـبَ مـن شـخصٍ أنْ ينتحـر، وأنْ يقـضيَ

على مستقبله الّذي يراه واضِحًا أمامه، ووقعتُ بين هذين الخَيّارَين المُحَيّرَين، وهما على ما يبدو أمران أحلاهُما مُرّ، ولم أستطعْ أنْ أتنبّأ بردّة فِعله، وتركتُ الأقدار تجري.

كان مناضل طُوالاً. نحيفًا من غير ضعف، جسدٌ مستقيم، وذراعان قويّتان، وجبهةٌ عريضةٌ عالية، وعينان كبيرتان لا غائِرتان ولا بارِزتان، وشفتان غليظتان، ووجهٌ أسمر، وأنفٌ كبيرٌ فيه أَنَفَةٌ وشموخ، وإذا ضَيّق عينَيه أخاف، وإذا بَسَطَهما طمْأن، صِفاته الجسديّة هذه نتيجةٌ لطبيعة عمله، فقد كان خبيرًا في حفر الآبار، وتلك أهمّ ميزةٍ نحتاجُها في عملنا هذا، وفكّرتُ أنّ الأقدار ساقَتْه إلينا لنستفيد من خبرته في هذه اللّحظة من الحفر، وقد حفرنا ما يقرب من خمسة أمتار جهة الجدار الخارجيّ. وكان عليّ حينَ أُفاتِحه أنْ أضعَه أمام خَيارٍ صعبٍ، إنّ رفضَه غير مُمكن لأنّه يُشارِكنا الغرفة، وإذا بقي فيها فسيقع عليه لو اكتُشِفْنا لا سمح الله ما يقع علينا، وإذا طلبَ النّقل من عندنا فلربّما سيرفضون النّقل وخاصّة أنّه ما زال جديدًا، وستشكّ الإدراة بأمره، وسيدخل في ألفِ سؤال وسؤال. وعلى الضّفّة الأخرى إنّ قَبولَه لم يكنْ مُمكِنًا كذلك، إذ إنّه لو قَبِلَ فإنّه سيُغامر بحياته كلّها من أجل بضعة أشهر هي الفترة المُتبقّية من حكمه ليحظى بعدَها بالحُرّيّة. وحرتُ في الأمر وأنا أتخيّل نفسي مكانه، ثُمّ قرّرتُ في النّهاية أنْ أُفاتحه في الأمر صبيحة اليوم التّالي لنقله إلى غرفتنا، وقبل أنْ نضرب في النّفق ضربةً واحدةً جديدة!



(٥٦)

اهربْ إلى الأمام

«هـل أنـتَ معنـا؟». سـألتُه. ردّ: «معكـم بـكلّ شيء». «ولكنّـك ستخرج بعد ستّة أشهر يا مُناضِل، فلَمِ تُورّط نفسَك بذلك؟». سكَتَ قليلاً قبل أنْ يقول: «إنّها أشياء كثيرة يا محمود، ربّما لـن أستطيعَ قولَها كلّهـا، ولكنّنـي سـأحاول أنْ أقـول، الحُلـم يـا محمـود، الحلـم بـأنْ تنتـزع حرّيّتـك انتِزاعًـا لا أنْ تكـون مِنّـة منهـم، ثُـمّ الحلـم بـأنْ تُمـرّغ أنفهـم في الـتّراب، أنْ تمـرّغ حلمهـم هـم في الـتّراب، أريـدُ أنْ أرى حِصنهـم المنيـع هـذا يتهـاوي بـين أيدينـا، هـذا حلـمٌ كبـيرٌ يـا محمـود أغامـر بـما تبقّـى مـن حيـاتي لأعيشـه، ثُـمّ إنّهـا الطّريـق، تعـرف، لقـد مشـيناها معًـا، لـن أتخلّى عنكـم حتّـى لـو كنـتُ أصغركـم أو آخركـم لَحاقًـا بهـذا السّـجن، أنـا معكـم في كلّ شيء». «هـل فكّـرتَ في العواقـب يـا مُناضـل؟». «فكّـرتُ، لـن يجـري إلا مـا جـرَى في اللّـوح، لـن أكـون لونًـا شـاذًا في اللّوحـة، ولـن أكـون حجـر عثـرة، أنـا معكـم».

«هيّـا يـا شـباب، ثيابكـم الدّاخليّـة». قلـتُ لهـم. نظـروا في وجـوه بعضِهـم مُسـتغربين، أردفـتُ: «الشّـيّالات فقـط، لا أريـدُ شـيئًا آخـر». تـردّدوا قليـلاً، تابعـتُ: «القديمـة، لا أريـدُ مـا بُعِـثَ لكـم مُؤخّـرًا». أخذنـا نُمـزّق الشّـيالات، ونصنـع منهـا حبلـين، نعقـدُ طـرف الشّـيال بالّـذي يليـه، قلـت: «نُريـدُ حبلَـين طـول كلّ واحـدٍ منهـما خمسـة أمتـار عـلى الأقـلّ»، صمـتُّ قبـل أن أتابـع: «عـلى كلّ واحـدٍ منكـم أنْ يتـبرّع بشـيّالَين»، وضحكـت. رُحنـا نعقـد الأطـراف، لم يمـرّ وقـتٌ طويـل حتّـى تشـكّل لدينـا الحبـلان اللّـذان نريدهمـا، أمسـكتُهما، ورحـتُ أتأكّـد مـن متانتهـما، وأشـدّ بعـضَ العُقـد حتّـى تتماسـكَ أكثـر، ثُـمّ قلـت: «سـنربط أحدَ الحبلـين

بطرف الوعاء الّذي سنملؤه بالتّراب، والحبل الثّاني بالطّرف الآخر، سيكون أحدُنا في الدّاخل يجمع إليه الوعاء، يملؤه بالتّراب، وبعدَ أنْ يمتلئ يشدّ طرفه الّذي إلى الخارج، وسيكون أحدُنا في فم النّفق مُمسِكًا بهذا الطّرف، وحينَ يشعر باهتزازة الحبل، سيسحب الوعاء، يُعبِئ التّراب في كيسٍ ثُمّ يركنه في الغرفة الفارغة الّتي تقوم عليها غرفتنا، لن تبقى تلك الأكياس هناكَ طويلاً، ولن نُصرّفها في المجاري، لقد صرّفْنا ما فيه الكفاية، سنجدُ طريقةً ما للتّخلّص منها. اتّفقْنا يا شباب». «جاهزين». «والآن هَيّا إلى العمل».

رائحة الرّطوبة في الأسفل خانقة. الهواء في النّفق لا هواء، الاختناق محتوم، على الواحد ألاّ يبقى أكثر من ساعة، التّبديل يجب أنْ يكون سريعًا. نحنُ لسنا في غزّة، لن نحفر على أعماقٍ كبيرة، ولا أنفاقًا عريضة، نحن نحفر لحدًا أو أضيق من اللّحد، الفرق أنّه لحدٌ ممتدّ، ستشعر أنّكَ في القبر، بل هو قبرٌ فِعلاً. ليسَ لدينا حسابات لاهتِزازات الأرض، لدينا حسابات لاستجابات السّماء، من المتوقع إضافةً إلى الاختناق أنْ يملأ التّراب فَمَكَ وعينَيك، ومن المُمكن أنْ يجعلك تُدفَن في الظّلام. الحذر والقوّة هما ما نحتاجهما، إذا أصابكم الخوف، فذلك أمرٌ طبيعيّ، سنؤجّل الشّجاعة حتّى نخرج من هنا. هل تعرفون ما أنتم مُقبِلون عليه؟! فترة المزاح انتهتْ، دخلْنا في أكثر الأمور جِدّيّة وخطورة، نحن الآن في النّفق، النّق البعيد، حينَ تدخلون إليه ستغيبون عن أحبّتكم، سيكون التّراب الطّريّ الّذي يُمكن أنْ ينهار في أيّة لحظةٍ فوقكم، وسيكون تحتكم، ويكون عن يمينكم، وعن شِمالكم، وسيُحيطكم من كلّ جهة، ولن يكون معكم أحدٌ، أخوكَ الّذي تركتَه في فم النّفق سيغيب عنك بعدَ ثلاثة أمتارٍ أو أربعة، ستغيبُ عن الوجود كلّه، بل ستغيبُ عن نفسِك، عليكَ أنْ تظلّ حَذِرًا

متيقّظًا، مُستعِدًّا لأيّ احتِمال، ادفع الهواجس والوسوسات، واهربْ إلى الأمام، لا حلّ إلاّ بإحداث فجوة أمام وجهك لكي تتنفّس، من أجل ذلك احفر بكلّ طاقتك وعزيمتك، وفكّر بالنّور الّذي سينداح والّذي ستحظى به في نهاية المطاف!

كان دوري هذا اليوم، صار طول النّفق عشرة أمتار، زحفتُ مثلَ جُنديّ متمرّس، على كوعَيّ، دافِعًا جذعِي بساقَيّ اللّتين أدفعهما بقدمَيّ مُستعِينًا بِرُكبَتَيّ، دافِعًا أمامي وعاءً من البلاستيك، مربوطًا بالحبل من الجهتَين، ملأتُ الوعاء، شددتُ الطّرف البعيد إيذانًا لمن هو في فم النّفق أنْ يسحبه، سَحَبه وملأه في كيسٍ ووضعه جانِبًا، ملأتُ حوالي ثمانية أكياس، كان من المُفتَرَض أنْ أُبدّل مع أيهم، إنّه دوره، ولكنّني وجدتُ في نفسي قُوّة عجيبة، فرحتُ أحفِرُ أكثر، كان النّفق مُظلِمًا تمامًا، أنتَ تغطس في الظّلام غطسًا، غير أنّني كنتُ أرى بأصابعي وكفَّيّ اللّتين تحفران حفرًا، تذكّرتُ في تلك اللّحظة أمّي، وجهها أعادَ لي الشّوق والذّكريات فبكيت، وضعتُ خَدّي على التّراب فاختلطَ دمعي به فالتصق بخدّي شيء من الطّين، شعرتُ بالقَهر وأنا هنا محبوسٌ في هذا النّفق أحاول أنْ أصنعَ حكايتي على طريقتي، أردتُ أنْ أخبِطَ الأرض بيدَي، لكنّ يدي الّتي رفعتُها لتُعينني على ذلك سرعان ما اصطدمتْ بأعلى النّفق، حتّى يدي محبوسةٌ هنا، إنّها لا تُطاوعني، أضفتُ إلى القهر والشّوق والحزنِ الغَضبَ، حرّكَ هذا الغضب في أعماقي قُوّة إضافِيّة، فرحتُ أحفرُ في التّراب بقوةٍ وسرعة كأنّني خُلد، ونسيتُ نفسي، وبقيتُ ماضِيًا، ولا أدري إنْ مرّ زمنٌ طويلٌ علَيّ وأنا كذلك أم لا، غير أنّني لم أعدْ أشعرُ بشيءٍ، هل غبتُ عن الوعي؟! هل شعرتُ بحركةٍ ما في الوعاء الّذي لم أدرِ متى ملأتُه آخر مرّة؟! هل سمعتُ صوتًا بعيدًا عميقًا قادِمًا من بِئر كأنّه آخر نِداءٍ لغريق...؟! لا أدري... غير أنّ شيئًا آخر كان يجري في الأعلى.

خبطاتُ أقدامٍ عسكريّة، عددٌ من الجنود يقرب من عشرين، يدخلون بالخُوذات والهراوات والواقيات الزّجاجيّة، وعددٌ آخر بلباس الحرس، يتقدّمهم ضابِطٌ تقدح عيناه شررًا، تحفُّزٌ في السّجن كلّه، «ما الّذي يجري؟» سأل (محمّد). ردّ (يعقوب): «لا بُدّ أنّها عمليّة تهريب». «تهريب ماذا؟» «تليفون أو راديو صغير، ماذا يُمكن أنْ يهرّب السُّجناء مثلنا؟». «ولكنْ ألا ترى. تعالَ انظر». وشَدّ (يعقوب) يدَ (محمّد) لينظر من طاقةِ باب الزّنزانة: «إنّهم مسعورون». وأردف مناديًا على أيهم الّذي يقف على باب الحَمّام: «بسرعة، دعْ محمود ومناضل يخرجان، إنّه تفتيشٌ كبير». رَجَّ البَيْتُ، رَجَفَ الوَقْتُ، هَرَبَ الصَّوْتُ، اقْتَرَبَ الفَوْتُ... صرخ (أيهم) حانِيًا جِذعه أسفل المِغسلة: «مُناضل... يا مُناضِل... تفتيش... بسرعة... اطلعوا». ردّ (مناضل) الّذي يقف في الأسفل على باب النّفق من الخارج: «طيّب... طيّب...»، واقتربَ أكثر من فم النّفق، وصرخ: «محمود... محمود... هَيّا... اخرج». وانتظر بِضع ثوانٍ، ولكنّني لم أخرج. ثُمّ صرخ: «بسرعة يا محمود لا تتأخّر، صاروا قريبين، سيفتّشون زنزانتنا الآن، هيّا...». وغاب الصّوت مرّة أخرى، وراحَ (مُناضل) يشدّ الحبل الّذي يربط الوعاء من الخارج بقوّة ولكنّ الحبل ارتخَى قليلاً، ثُمّ انسحبَ معه، وشَدّه أكثر إليه، وحصل على الوعاء مليئًا بوجبته من التّراب، لكنّ محمود لم يظهر... صرخ ثانية: «أرجوك يا محمود... ليس لدينا وقت، ستقع المصيبة علينا كلّنا... أين أنتَ...؟!». وضاعتْ صرخاته في الفراغ المُعتِم للمرّة الثّالثة، وفكّر في أنْ يزحفَ جِهَتي إلى النّفق ليعرفَ بنفسه، فقد تخيّل أنّني وقعتُ في غيبوبة أو أنّني متّ أو حدثَ لي مكروه، لكنّه تردّد، إنّ الدّخول إلى هناك سوف يُفاقِم المشكلة ولن يحلّها، وفكّر أنّه إذا كنتُ ميّتًا أو غائِبًا عن الوعي فلن يتمكّن في هذه الفترة القصيرة جدًّا أنْ يسحبني إلى

الخارج، وراودتْه أفكارٌ غريبةٌ مجنونة، أنْ يُغلِق باب النّفق بأيّة طريقة، أنْ يدخل معي ويحبس الهواء في صدره حتّى يسقط في الغيبوبة معي، وفكّر أنّه إذا تركني وحدي في النّفق وخرج إلى الشّباب في الأعلى فإنّهم سيسألونه أين محمود، ويُمطرونه بالأسئلة المُشكّكة الذّابحة: «لماذا تركتَه وحده؟! كيفَ تتركه في ورطته وتخرج بنفسِكَ سالِمًا؟! لماذا لم تجدْ طريقةً لحلّ المسألة؟ هل أنتَ مجنون؟ لقد كشفتَ أمرنا؟ عشرات الأسئلة دارتْ في ذهنه قبل أنْ يُقرّر أنّ أهون الشّرور كلّها أنْ يخرج إلى الأعلى، وهناك يُمكن في أقلّ من دقيقةٍ قبل أنْ يُفتح باب زنزانتهم للتّفتيش يُمكن أنْ يُفكّر مع زملائه في حلّ، وعلى هذا استقر به الأمر المُتأرجح المُتذَبذب، وصعدَ إلى الأعلى، ووضع كفَّيه على أرضَية الحمّام وقفز وهو يرشح عرقًا ورُعبًا. وما كادَ يخرج من باب الحمّام حتّى شاهدَ باب الزّنزانة يُفتَح، وتمايل، وغامَ مشهدُ الباب في عينَيه، ورأى الجنود ينبعجون ويتمايلون ويُصبحون ضبابًا، وكادَ يسقطُ على الأرضِ مغشيًّا عليه لولا أنّ (أيهم) هَزّه من كتفه هَزّات عنيفةٍ ليصحو بعدَها، ويقول له: «أين محمود؟». «تحت؟». «كيفَ تحت، مجنون؟». «ناديته ولم يخرج». «طيّب، بلاطة الحمّام رَجّعْتَها لمكانها؟». «لا». «كيف لا؟». «نسيت أخ بس». ولم يقلْ شيئًا، فقد صمتوا جميعًا حينَ صار الحرسُ والجنود والشّرطة كلّهم في وسط الغرفة، وتبادل الأربعة النّظرات بينهم مذهولين، وفتّشوا من خلال هذه النّظرات عن محمود وهم يعرفون أنّه لم يخرج، وأيقنوا بأنّ الكارثة صارتْ فوقَ رؤوسهم، وأنّ النّار قد أوقدتْ في طرفِ الغرفة، وأنّها تزحفُ نحوهم وفي ثوانٍ ستبلعهم... واصطفّ الجنود في حركةٍ استعراضيّة، وخبطوا الأرضَ خَبطاتٍ طويلة، وراحوا يضربون بالهراوات على الواقيات الضّخمة الّتي تنتصب أمام وجوههم ويمّرون في مشهدٍ استعراضيّ مُخيف،

وكان الهدفُ بالفِعل إلقاء الرّعب، وكان الرّعب قد أُلقِي حَقًّا في قلوب الشّباب ولكنْ ليس بسبب هذا المشهد الاستِعراضيّ المُزلزِل بل بسبب عدم خروجي من النّفق، فلو اكتشفوا أنّ عددنا ينقصُ واحِدًا فإنّ جهنّم ستكون بانتِظارِنا، وعبثًا حاول الشّباب ابتلاع رِيقهم، عندما أراد الضّابط أنْ يطلبَ من الجنديّ المُكلّف أنْ يقوم بالعَدّ، إذ إنّه لسبب ما لم يفعل ذلك، بل طلبَ أولاً التّفتيش، وعلى عادتهم في التّفتيش، انقلَبَ كلّ شيءٍ على الأرض، المخدّات الأغراض، الكراسيّ، السّلال، كلّ شيْ تكّوم في بضعِ دقائق، «تريدُون إخافتنا؟ لن تستيطيعوا». قال ذلك (أيهم) للضّابط المسؤول وهو يفغر فمه، محاولاً أنْ يُسيطر على خفقان قلبه الغارق في الخوف. نظرَ الضّابط في وجهه ولم يقلْ له شيئًا، غير أنّ نادَى على الجنديّ: «خُذ العدد». وراح الجنديّ يصيح: «واحد». فيردّ أحدُنا، حتّى أنهى «أربعة». وحين قال «خمسة» لم يردّ أحدٌ، ومرّتْ ثوانٍ بطيئة جِدًّا، وأيقنَ الشّباب أنّ الأمر قد حان، وأنْ المصيبة الّتي تأمّلوا أنّها ربّما تنتهي ستحلّ بهم الآن، وصرخَ هذه المرّة الجُنديّ مُغضَبًا: «خمسة». وسمعنا صوتًا من الحَمّام يأتينا: «موجود... هيني موجود» كانت يدَ محمود، كيفَ خرجَ من النّفق، كيفَ أنقذنا في اللّحظة القاتلة؟ مَنْ بعثَ به من باطن الأرضِ إلى ظاهرها، لم نَرَ إلاّ يدَه، لكنّنا سمعناه يُكمل: «أنا موجود، شو يعني ما بقدرش الواحد يتحمّم مرّة واحدة في الأسبوع؟!». وتنفّسنا جميعًا الصّعداء، افعلوا الآن ما بدا لكم.

(٥٧)

اقتربَ الحلم

تغيّر كلّ شيءٍ فينا. ماذا تبقّى لنا مِنّا؟ لا شيءَ سِوى الحُلم. والحُلم كافٍ لمن قضمتْ عُودَه الغَضّ السّنوات. لكنّه في مرحلة اليَباس الأخيرة يبدو هَذَيانًا، شيئًا لا يُمكن أنْ تتمسّك به في عالَمٍ متوحّش؛ العالَمَ الّذي يصنعه البشر.

في المتر التّاسع أهدانا الله هديّة جديدةً، فراغًا عن يمين النّفق، يُمكن أنْ نُخبِّئ فيه أكياس الرّمل، كان فراغًا كافِيًا، من ذلك النّوع من الفراغات الّتي تحدثُ في الأبنية المُكتمِلة، غلطةٌ جديدةٌ من الغلطات الّتي تنقصُ الكَمال، كنتُ أفكّر في هذه الغلطات وأبحثُ عنها، ولم أكنْ أريدُ أكثر من واحدةٍ من أجل أنْ أبدأ منها، لكنّ هدايا الله لا تُرَدّ ولا تُعَدّ.

في المتر الثّاني عشر قدّرتُ أنّنا تجاوزنا حدود القسم وبدأنا نحفر تحت الأرض الّتي تفصل بين جدار القِسم وبين الجدار الخارجيّ، الأرض الّتي تُشرِق عليها الشّمسُ مباشرة، خطَرَ ببالي أنْ أحفر في هذه المرحلة صعودًا إلى الأعلى وأتنفّس بعضَ هواء الحرّيّة الجُزئيّة ثُمّ أعود... لم يكنْ أكثر من خاطرٍ مجنون سمحتُ لخيالي بأنْ يَرِدَ عليه، إنّ الخيال يُعلّمك كيفَ تحيا، ولكنْ عليكَ أنْ تحذر من الوقوع في فِخاخه الجميلة أحيانًا.

«يا شباب، أريدُ أنْ أخبركم بعدَ هذه المرحلة الّتي وصلْنا إليها أنّ الحفر يتّجه نحو برج المراقبة الخاصّ بقسمنا». ضَيّقوا جميعًا عيونَهم، ونظروا إليّ مُستغرِبين، فَكّ (محمّد) عُقدَةَ الصّمت: «باتّجاه

بُرج المراقبة؟ هل تعني ما تقول؟». «نعم». «ولكنْ لماذا؟ أليسَ من الأفضل أنْ نحفر إلى الزّاوية البعيدة المقابلة للبرج؟». «كلاّ، ستخرجُ فتحةُ النّفق من تحت البرج مباشرة، ستبتعد عن جِداره المُصفّح مترًا». «ولكنْ لماذا؟». «إنّه يُشبِه أنْ تحفر تحتَ قدَميك، فأنتَ لن ترى، مساحة النّظر المُستقيمة لا تتيح لك أنْ ترى، أفضلُ مكانٍ هو هذا الّذي قرّرتُه وحدي من البِداية لكنّني لم أطلِعكم عليه حتّى الآن لكي أتجنّب النِّقاش الّذي قد يُبطِّئ العمل، أمّا الآن فقد صار واقِعًا لا يُمكن تخطّيه، أنْ تحفر تحتَ أقدامِ عدوّك يعني أنْ تخرجَ أنتَ سالِمًا ليسقطُ هو من بعدِك!».

في تلك اللّيلة من ليالي آب، كنتُ لا أزال أُفكّر في الاتّجاهات، كان الجميعُ نِيامًا، وكنتُ وحدي المُستيقظ، وكنّا قد استرْحنا في نهاية هذا الأسبوع، راحة ليومٍ واحد. الاتّجاهات، كانتْ تتشابَك في خَيالي وأنا أراها كأنّها حُلم، وتتاقطع، وتتناظر، أصابني الهَوس وأنا أتخيّلها تتداخل فيما بينها في عقلي حتّى أتعبتْني، أردتُ أنْ أوقِظَ صديقي الأوثق يعقوب، الأوفى، الّذي مشيتُ معه هذه الدّرب من بداياتها، أنْ أقول له: «هل يُمكن أنْ نستريح يا يعقوب أنا وأنتَ والشّباب بعدَ هذا التّعب الطّويل؟» هممتُ بالفِعل أنْ أُوقِظَه لكي يُشارِكني خواطري وهواجسي فإنّني لم أشعر بالوحدة من قبلُ كما شعرتُ بها الآن، ولّما نظرتُ إليه وجدتُ وجهه الّذي رُسِمَتْ عليه خارطةٌ واضحةٌ من خرائط النّضال في فلسطين يغطّ في النّوم، مُناضِلٌ صلب، ولكنّه ينام كطفلٍ، تراجعتُ، وتركتُه، ربّما كان يحلم بالحرّيّة، ويراها حقيقةً واقِعة، فلمَ أوقِظه من هذه الأحلام الجميلة؟!

وعُدتُ إلى أفكاري، وتساءلت: «ماذا لو حفرتُ باتّجاهٍ آخر، الاتّجاه المُتعامِد مع هذا الحفر بزاوية (٩٠) درجة فإلى أينَ سأصل؟

ليستْ صعبة؟ أجبتُ نفسي. سنصل إلى إدارة السّجن، فلماذا لا نقوم بخطفِ مدير السّجن، وعددٍ من مساعدِيه، ونفاوض عليهم كلّ أسرانا الأبطال؟ هل هذا ممكن؟ «مُمكِن» أجبتُ نفسي لو أنّني أريدُ أنْ أحفر ثلاث سنواتٍ أُخريات، لأنّه عليّ أنْ أحفر ما لا يقلّ عن ثمانين مترًا حتّى أصل إلى الموضع الّذي تربضُ فوقَه غُرَفُ الإدارة. إنّه خاطِرٌ رومانسيٌّ على أيّةِ حال، ولا مجال إلا للتّفكير بواقعيّة وبإصرار في هذا الظّرف. ونمت.

في الصّباح على الفَطور، رأيتُ الأربعة طيورًا تستعدّ للتّحليق. سنبدأ المرحلة الأخيرة في الحفر. دعوتُهم إلى اجتِماع في الغرفة بعد أنْ تركتُهم يمشون ويشمّون هواء الصّباح لنصف ساعة: «أريدُ أنْ أخبركم باليوم الّذي سنخرج فيه من هذا السّجن». برقتْ عيونُهم، كانوا يشعرون أنّني لا أقولَ إلاّ ما أؤمن به، كانوا يبدون وهم يستمعون إليّ مثلَ مجموعةٍ من المُسافِرين يتلقّون معلوماتٍ من قائد الطّائرة، إنّها معلوماتٌ يقينيّة، ولا مجال للتّشكيك فيها، ابتسموا، حلّقتْ أحلامهم أعلى من سَمائِهم، المُؤبّدات ستُصبِح ذِكرى، سيسخرون من الّذين حكموا عليهم بها، سيخرجون رغم أنوفِ السّجّانين... أمالوا أعناقَهم إليّ: «هيه يا محمود...». قلتُ وأنا أُحدّق فيهم بثقة: «سنهربُ ليلة عيد رأس السّنة العبريّة، منتصف أيلول القادم يا شباب، أتعرفون لماذا اخترتُ هذه اللّيلة؟! سيقول بعضُكم لأنّ الصّهاينة سيكونون منشغلين بالاحتِفال بهذه اللّيلة عن الاحتِياطات المُتبعة في السّجن لتشديد الحراسة، كلّا ياشباب، لا أُنكِر أنّه جزءٌ من الخُطّة، ولكنْ سنهربُ في ليلة اكتمال القمر لسبَبين الأوّل لأنّكم أنتم القمر المُكتمل وهم المُحاق المُنسحِق، وثانِيًا لأنّ رَيّان سيكون بانتِظارنا، سوف يكون قادِرًا على الاهتِمام بكلاب الحراسة حتّى لا تنبح، أسوأ ما يُمكن أنْ يحدث في هروبنا هو أنْ تنبح الكلاب، إذْ

إنّ نُباحَها مُؤكّد، قد ينام البشر في غرفة المُراقبة فلا يروننا، ولكنّ الكلاب لا تنام، وإذا نامتْ فإنّها تسمع، وستسمع وقعَ أقدامنا الغريبة. وإذا لم تسمع فستشمّ، وستشمّ روائِحنا ونحن نختلطُ بزعفران الأرض... وكلّ ذلك سيتكفّل ريّان لنا بالتّغلب عليه». سأل مُناضِل: «وَمَنْ يكون رَيّان هذا؟ هل هو مُعاوِنٌ لنا من عرب النّاصرة؟». وضَحِكت، لأقول: «إنّه كلب. كلب يا شباب». «كلب» هتفوا جميعًا باستثناء يعقوب، أردفت: «أخبرهمْ يا يعقوب».

عُدْنا إلى الحفر. لا بُدّ أنّنا وصلْنا إلى الجِدار الخارجيّ تمامًا. اقتربَ الحُلم. كيفَ يُمكن أنْ يكون الشّعور. هناك على بُعدِ ثلاثة أمتار أو أربعة سيكون الخروج. تخيّلوا يا شباب، اسمحوا لأنفسكم أنْ تهيموا في تخيّلاتكم... نحن سنخرجُ من هنا، ولكن احذروا، ربّما تكون العَجَلة في المراحل الأخيرة سببًا في انهِيار الأمر وانتهائِه على غير ما نحبّ. سنظلّ ماضِين ولكنْ بثقةٍ وهدوء. إنّها ثلاثة أسابع تلك الّتي تفصلنا عن النّهايات الكُبرى.

العتَمات تزداد قتامةً في النّهايات، الإرادة القويّة تتخلّى عن بعضِ صلابتها في الخُطُوات المُتبقّيات. كلاّ. يعضُدُ بعضُنا بعضًا. سنمضي. سنخوضُ هذه المخاضَة إلى نهايتها. (يعقوب) لا يزال يشكو وجع الضّلع، حاولتُ كثيرًا أنْ أجعل دوره في المراقبة عند باب الغرفة أو باب الحمّام، ولكنّه أبى مع أنّه أكبرُنا في السّنّ، كان يتفانى في العمل دون أنْ يشكو، مع أنّني كنتُ أرى الوجعَ في عينيه، وأعرفُ أنّ هذا الوجع كان يحرمه من النّوم في كثيرٍ من اللّيالي.

تذكّر (يعقوب) معي عهد الكهوف أيّام المُطارَدات. حَنّ إلى أهله في تذكاره، عبرتْ زوجتُه في بالِه فهاجَه الشّوق فبَكى، ضممتُه إلى

صَدْري وهَدَّأتُ من رَوْعِه، كان يبكي كطفلٍ وينامُ كطفل، ولكنّه في المُقابِل يُواجه العدوّ كوحش، قلتُ له وأنا أضمّه إلى صدري: «ستراها قريبًا، هذا وعد».

«اسحبْ يا خوي. اسحب»، سحبَ (أيهم) الوعاء. لم يعدِ الأمر صعبًا بعد ذلك اليوم الّذي اكتشفْنا فيه الفراغ في إخفاء الرّمل فيه. صِرْنا نوقِدُ القَدّاحات في الظّلام العتيق، صار هناكَ بعضُ النّور. «اسحب»، كان (محمّد) يقول ذلك وهو يشدّ الحبل من الجهة القريبة من (أيهم)، وما كادَ يسحبُ الوِعاء حتّى غَطَسَ في العتمة الكاملة، صرخَ، ملأ التّراب فمه، صرخ، خرجتْ صرخته الثّانية غمغمةً، راحَ يسحب جسده إلى الخارج، لكنّ الحوافّ كانتْ ممتلئة بالتّراب، لقد انهار عليه النّفق، وغَطّاه بالكامل وصار كأنّه مدفونٌ حَيًّا. راحَ يُحاول بكلّ ما في ذراعَيه ورِجلَيه من قُوّة أنْ يدفعَ نفسَه إلى الخارج، لكنّ الحركة كانتْ صعبة بين هذا الرّكام المَهُول، راحتْ أنفاسُه تختنق، أصابَه الفَزَع، فاقَم الفَزع من اختناقه، تذكّر من محمود: «إذا انهار عليكَ النّفق، لا تخفْ، عليكَ أنْ تُفكّر باحتِمالات النّجاة لا باحتمالات الموت، ربّما يكون انهارَ جزءٌ منه، واطلب المُساعَدة». قرّر في عقله: إنّ الّذي انهار جزءٌ من النّفق لا النّفق، لا يُمكن أنْ يكون قد انهار بأكملة كأنّه قِطعةٌ واحدة، هذا نفقٌ طويل يبلغ الآن طوله عشرين مترًا، سأجدُ النّجاة في مترٍ منه إنْ فقدْتُها في هذا المتر الحالي. دفع هذه المرّة جسده بقوّة الإيمان بالنّجاة إلى الخارج، وجدَ عندَ قدمَيه فُرجَة، دَفَع أكثر، لكنّ أنفاسَه راحتْ تتقلّص بسرعة، وبدا كأنّه ذُبالةٌ من فتيلٍ ستنطفِئ بسرعة، قُبيل الانِطفاء بقليلٍ امتدّتْ إليه يدٌ من الغيب، إنّهما ذراعا (أيهم) القويّتان، حفرتا حولَ قدَمَيه، وسحَبتاه ببطءٍ وحذر، وأخرجتاه، حينَ خرجَ كان قد فقد الوعي، رَشّوا على وجهه شيئًا

من الماء فصَحا على الفور. كانتْ غيبوبةً قصيرة. ضَحِكَ: «لقد كدتُ أموت». ردّ أيهم: «لا تخفْ. نجوت».

طلبْنا رأي خبير حفر الآبار (مُناضل): «ما رأيُك؟ هل هذا الانهِيار خطير؟ هل سيُعيق عملنا؟» نزل إلى الأسفل، تفحّص المكان، ثُمّ خرجَ وهو ينفضُ يديَه ويضحك: «لا تخافوا يا شباب. الأمر بسيط. إنّه انهيارٌ جزئيّ، يُمكن إزاالة المنهار كأنّه يوم عملٍ آخر أو أقلّ. هذا مُمكن الحدوث، بسبب نوعيّة الرّمل في بعضِ المناطق من الحفر، بعضُها يكون ليّنًا يسقطُ بسهولة، لا تقلقوا، يُمكن الاستِمرار بالحفر كأنّ شيئًا لم يحدث». تدّخلتُ في الحوار: « أعتقدُ أنّنا وصلْنا إلى المتر الأوّل خارج الجدار الخارجيّ، المتر الّذي يكون هَشًّا أكثر من سِواه بسبب تعرّضه عند الجِدار لعمليّات البِناء والحفر والهدم والرّدم، فتكون فيه فراغات، إنّها بشارة خيرٍ يا شباب، لا بُدّ أنّ يوم الخروج الّذي أخبرتُكم به سيبقى كما هو، لن يُؤثّر هذا فيه شيئًا، هَيّا الآن لنرتاح قليلاً».

(٥٨)
قِطُّ الشّوارع

أصابتْه الرّصاصة فأخذتْ جزءًا من لَحمِ ساقِه وهو في الثّالثة عشرة من عمره أيّام الانتِفاضة الأولى، ومُبكّرًا كأيّ طفلٍ في فلسطين عرفَ كيفَ يكون وجه الاحتِلال بَشِعًا وبغيضًا، وقاتِلاً على نحوٍ استثنائيّ، دخل بعدَ الرّصاصة المُستَشفَى فخرج بثلاث عمليّاتٍ جراحيّةٍ، وبرجلٍ أقصر من الأخرى، فتراه يمشي في الشّارع كأنّ عَرْجةً خفيفةً مسّتْ قدَمي الأسد، وإنْ ظلّتْ عيونُه تحتفظُ بذلك البريق الّذي لا يخبو!

مع الزّمن يبتكر المُقاوِم أساليب نِضاله الخاصّة، لا يعود الرّشّاش إلاّ رمزًا كلاسيكيًّا يحمله على كَتِفَيه أيّ مناضلٍ لا يؤمن بالخنوع أو الخضوع، أمّا وسائله المُبتكرة، فيمكن أنْ تكون القنابل خاصّة الصُّنع الّتي طُوِّرتْ داخل العقول الجَبّارة، كان يعلم علمَ اليقين أنّ التحرير لا يُمكن أنْ يمرّ إلاّ عبر طريقٍ واحدة، هي البندقيّة، وتشعله رصاصةٌ واحدة لا تُصوّب إلاّ إلى هدفها الواضِح.

غير أنّ اقتِحام جنين على يد (شارون) الّذي أخذ أشلاء وضحايا ينفلتون من الحصر، أخذَ أعزّ ما يملكُ هذا الفتى المُقاوم، أخذَ أمّه وشقيقه. أمّا أُمّه الّتي كانتْ أمّ المناضِلين، فقد أطلقَ عليها قنّاصٌ يعرفُ تمامًا من هي، ويُدرك حجم دورِها في النّضال، أطلقَ عليها رصاصةً متفجّرة، فحَوَّلَتْها إلى أشلاء.

مُعَبَّأ بإرثٍ ثقيلٍ من القِتال المُرّ عَبرَ هذا البطل فلسطين كلّها، وكتبَ فوقَ كلّ شبرٍ حكاية، حكايةً يُمكن أنْ تكون مُلهِمةً للأجيال، قادرةً على أنْ تصنع النّماذج الأسطوريّة في المُستقبل إذا هي آمنتْ به.

طـاردَ الجنـود في كلّ مـكانٍ، كانـوا يسـقطون كـما تسـقطُ الثّمـرة النّاضِجـة، وتدهسـها الأقـدام العابـرة، لم يكـنْ أحـدٌ يعـرفُ مـن أيـنَ تنطلقُ الرّصاصـة، ولم يكـنْ أحـدٌ قـادرًا عـلى التّنبُّـؤ بموعدهـا، ولا باتّجاههـا، كانـتْ تأتيـه عـلى غفلـةٍ وخـوفٍ معًـا فيسـقط... يسـقطُ آخـر... دوّامـة مـن السّـقوط كان يعزفُهـا هـذا المُقـاوم القنّـاص الّـذي كان يختبِـئ خلـفَ قناعـه الغامـض. إنّـه بطـلٌ مـن نـوعٍ مُختلـف.

قـرّر الاحتِـلال تصفيتـه؟ ضحـك. لقـد فجّرتُـم أمّـي، وذبحتـم أخـي، وقتلتـم العشـرات مـن أعـزّ أصدقائـي ثُـمّ تظنّـون أنّنـي غـير قـادرٍ عـلى أنْ أجعلكـم تشربـون مـن الـكأس الّتـي شربـتُ منهـا؟ كلاّ. سـتكون كأسي أشـدّ مـرارةً وأحـدّ طعـمًا.

أربعُ محـاولاتٍ لاغتيالـه لم تنجـح. لماذا؟ لأنّـه كان أسـدًا في المواجهـة، فهـدًا في السّرعـة، صقـرًا في الانقضـاض، وأطلـقَ عليـه رئيـس الشّـاباك: قِـطّ الشّـوارع لأنّـه كان بسبعة أرواح. يعـرفُ كيـفَ يخـرج مـن كلّ مـأزق، ولا شيءَ يُعيقـه لأنّـه لا يُمكـن الإمسـاك بـه، إنّ قدرتـه عـلى التّماهـي والتنقّـل والتّخفّـي لا حَـدّ لهـا. وكان كلّـما ظَنّـوا أنّـه سـقطَ قـام بخِفّـة عـلى قدَمَيـه ليبـدأ مـن جديـدٍ، كأنّـه كان يهـوى أنْ يعـدّ محـاولات اغتِيالـه، ليعتبرهـا مجـرّد أرقـام للتّسـلية!

طلبـتُ مـن إدارة السّـجن أنْ ينتقـل إلى غرفتنـا. قـال لي (محمّـد) وهـو يُحـدّق في عينَـيّ مُسـتغرِبًا: «إنّـه ليـس مـن تنظيمنـا». رددتُ: «مـن أجـل ذلـك طلبـتُ أنْ ينتقـل إلينـا، إنّ وجـوده إضافـة، وسـيُبعِد الشّـبهة عـن أنّنـا نفعـل شيئًا، طريقـة التّفتيشـات في الأيّـام الأخـيرة تثـير الشّـكوك، سـنخطّط بطريقـةٍ أذكـى مِمّـا يظنّـون».

نظـرَ إليّ مديـر السّـجن ترتسـمُ عليـه علامـات الاسـتغراب، ثُـمّ تتحـوّل إلى هَـزّاتٍ في الـرأس كأنّـه يقـول: «أمعقـول؟». ثُـمّ تتحـول إلى

ضحكةٍ تنفجر صغيرة ثُمّ تكبر: «محمود، هل أنتَ بعقلك؟». «لا، أنا مجنون»، أجبتُه، فانفجرتْ ضَحِكتُه أكثر حينَ اعتبرها دُعابةً من جهتي، وأقام جذعه المائل إلى مسند الكرسيّ ليتكِئي بذراعيه على سطح مكتبه الزُّجاجيّ مُتصنّعًا الجِدّيّة، ويقول: «ولكنْ لماذا؟». «لماذا ماذا؟». «لماذا تريد أنْ ينتقل زكريّا إلى غرفتكم؟». «ابن بلدي». وانفجر في الضّحك من جديد، لينتزع من خلال قهقهاته الكلمات: «نصف السّجن أولاد بلدك يا محمود؟ لماذا هو بالذّات؟». «لأنّه راوي قصص جيّد، نحتاجُ في الوقت الفائض الكثير الّذي نقضيه في اللّيل وحدنا أنْ يحكي لنا الحكايات». هذه المرّة زَمّ شفتَيه وغلّظ صوتَه: «يحكي لكم حكايات المُخرّبين؟! صحيح؟!». «بالطّبع أنتم المُصلِحون والدّيمقراطيّون لن يحكي لنا حكاياكم.. بالطّبع سيحكي لنا حكايانا». «ولكنْ هل شاورتموه؟ ربّما لا يريدُ أنْ ينتقل إلى غرفتكم، فهو يعرفُ أنْ رؤوسكم مغلقة؟». «له الحرّيّة بالطّبع و...» وتلعثمتُ، كدتُ أقول له إنّنا قد شاورناه من قبل وإنّه قد وافق، وأنْ يكون هذا مزلقًا غير محسوب يقودُ إلى أسئلة لا نهاية لها عن أنّنا نُخطّط لشيءٍ ما مع أنّنا من تنظيماتٍ مختلفة، فابتلعتُ الشّطر الأخير من الجملة وصمتّ، لكنّ المدير لاحظَ ذلك، فخفضَ رأسَه ناظِرًا إليّ من أسفل: «و... ماذا؟». أسرعتُ إلى القول: «وهو قادرٌ على اتّخاذه قراره بنفسِه، فهذا أمرٌ يخصّه». نَحّى ورقة الطّلب جانِبًا، وأشار بيده إلى الجنديَّين خلفي ليعيدوني إلى الزّنزانة: «سننظر في الطّلب».

في اليوم التّالي، نقلوه إلى غرفتنا. لم أتوقّع أنْ يقبلوا بهذه السّرعة. رحّبتُ به صديقًا قديمًا، جمعنا به كما يجمعنا بقافلة لا تنتهي النّضالُ ووحدة المصير. عانقناه جميعًا، قال له (محمّد) وهو يرسم ابتسامةَ فرحٍ واسِعةٍ على شفتَيه: «أريدُ أنْ أخبركَ بشيءٍ يا زكريّا». حَثّه

(زكريّا) على القول. أردف: «والدتُك المناضلة أخفتْني عام ٢٠٠٢ في بيتكم شهرَين، هل كنتَ تعلم؟». «ربّما، لا أستطيع أنْ أتذكّر عشرين عامًا أو أكثر، كان بيتُنا قبل أنْ تُستَشهد أمّي محطّة للمُناضِلين، كان يجتمع فيه أحيانًا أكثر من عشرةٍ مرّة واحدةٍ، بعضُهم يبقى لأيّام أو لأسابيع أو أكثر ثُمّ يمضي في طريقه، لم أكنْ أعرفُ على وجه الدّقّة من يأتي ومَنْ يُغادر». «ربّما يا صديقي، أنتَ لكثرة من دخل بيتكم لا تعرفني، لكنّني أعرفُك، مع أنّكَ كنتَ بين كثيرين، كنتُ أعرفكَ جيّدًا... المهمّ أنتَ اليوم هنا، وقلوبنا لك قبل... وتوقّفتُ وضحكْنا، وأردفوا قبل: زنزانتنا... ثُمّ احتفلْنا وغَنّينا، وأنشدَ (أيهم) بعضَ أشعارِه، حتّى طارتْ غِربانُ اللّيل.

وانتظَم عِقدُنا بزكريّا، كُنّا سِتّة، كان لكلٍ منّا حكاية، بل حكايات، وكُنّا مَدًّا هائِلاً قادِمًا من الغيب، وكُنّا ننامُ وقُلوبُنا هناك، وكُنّا نرى القيد في هذه الأيّام يتحوّل من حديدٍ إلى حرير، ومن ضِيقٍ إلى فَرج.

وجهه الأسمر، وجنتاه البارزتان عظمتان من أسى، عيناه العميقتان حَدّ الحزن، جسدهُ النّحيل، وحركتُه الخفيّة علاماته الّتي تدلّ عليه، وما دلّ عليه أكثرُ من فِعله، وما دَلّ علينا أكثر من رصاصاتنا، كُنّا صافين كالماء حادّين كالسّيف. سأله محمّد: «يا زكريّا؛ لِمَ كلّ هذا الحزن في عينيك؟» «إنّه الحُزن الّذي يصنع الثّورة يا محمّد، إنّه حُزنُ الغَمام على الأرضِ الجديبة، لا يملك الغَمام إلاّ أنْ يبكي، إنّ بُكاءً من هذا النّوع هو الّذي يجعل الرّبيع يأتي مُبكّرًا يا صديقي».

وقلتُ له: «يا زكريّا إنّا نبشّرك». فردّ: «فَبِمَ تُبشّرون؟». كان اللّيل يسري، والقمر يتّجه نحو الكَمال، والنّهايات تأتي على غير

مِيعـاد: «إنّنـا نحفـر نفقًـا لنخـرج مـن هنـا، ولم يتبـقّ عـلى ذلـك شيء، فهـل أنـتَ معنـا؟». «أنـا الّـذي معكـم، أنـا الّـذي لم يدخـل في مـأزقٍ إلاّ خـرجَ منه، ولم يوضَـع القيـد في مِعصَمَيه إلاّ فكَّـر كيفَ يكسره، أنـا معكـم». كان جوابًـا واثِقًـا وواضِحًـا لا لَبْـسَ فيـه.

«سنحفر إلى الأعـلى» قلـتُ لهـم. الآن وصلْنـا إلى النّقطـة العموديّـة الّتـي يجـب أنْ تظهـر منهـا الشّـمس. سـنحتاج إلى (مُناضِـل) أكثـر مـن أيّ فـردٍ فينـا في هـذه المرحلـة، سـيكون الخبـير في كيفيّـة الحفـر حتّـى لا تنهـار الجوانـب علينـا، نحـنُ الآن في الجـزء الأخـير، في النّهايـات، علينـا ألاّ نسـتعجل حتّـى لا نُحـرَم. الهـدوء والثّقـة والرّويّـة والتّفكـير بـكلّ احتـمال كلّهـا مطلوبـة الآن».

مـترٌ، يومـان، مـترٌ جديـدٌ يـومٌ ثالـث، وثلاثـة أمتـارٍ إلى الأعـلى في خمسـةِ أيّـام. مَـنْ سـيكون أوّل مَـنْ يـرى الشّـمس؟ مَـنْ سـيكون أوّل مـن يـرى النّـور خـارجَ هـذه الأسـوار البغيضـة، مَـنْ أوّل مَـنْ سيمدّ يـده فيلفـح كَفَّـه هـواءُ سـهل ابـن عامـر المُنعِـش؟ قالـوا بصـوتٍ واحـدٍ: سيكون لـكَ يـا محمـود، لا أحـقّ بهـذا النّصر منـك؟ أنـتَ صاحـبُ هـذه الفكـرة المجنونـة العبقريّـة، وأنـتَ مَـنْ رعاهـا وتابَعهـا مـن أوّلهـا إلى آخرهـا؟

وكنـتُ في المـتر الأخـير، ومـددتُ ذراعـي رويـدًا رويـدًا، وخرجـتْ بالفعـل، وشَـمّت النّسـيم فشـعرتُ أنّ النّسـيم سرى فمـلأ فـؤادي، وكـدتُ أبكـي مـن الفرحـة، غـير أنّنـي انتظـرتُ: لـن يصـدر منّـي خطـأ في هـذه المرحلـة، أعـرفُ اتّجـاه الكامـيرات، وأعـرفُ كيـفَ تُغـيّر هـذا الاتّجـاه كلّ خمـس دقائـق، سـأنتظر اللّحظـة المُناسـبة... لقـد حانـتْ، رفعـتُ رأسِي رويـدًا رويـدًا، وصـوتُ (يعقـوب) مـن تحـتُ أكادُ أسـمعه وإنْ لم يكـنْ موجـودًا: مـاذا تـرى يـا محمـود؟ هـل سـألتَني مـاذا أرى؟

أهذا سؤال يُسأل؟! أرى الجنّة يا يعقوب. أرى فلسطين يا أصدقائي؟ أتعرفون كيفَ تكون قطعةٌ أرضيّة قد هبطتْ من السّماء إلى هنا؟ إنّها فلسطين... وأغمضتُ عَينَيّ، وسحبتُ نفسًا عميقًا ملأتُ به صدري من هواء بلادي، وتمنّيتُ أنْ يظلّ مُختَزَنًا في صدري حتّى يخضرّ هذا الصّدر، وينسى عذابات السّنين الماضِيات كلّها.

وخفتُ أنْ يجرّني الشّوق إلى بقاء رأسي فوق الحفرة طويلاً، فيقع المحذور، فأرسلتُ نظراتٍ طائِفاتٍ في المكان، لا وقتَ لأتخيّل يعبد، ولا الشّيخ عبد السّلام، ولا المُناضلين الأوائل، عليّ أن أعود الآن، هذا يكفي.

جذبتُ حشائش يابسة كانتْ حولَ الحفرةِ وغطّيتُها بها، ثُمّ هبطتُ إلى قاع النّفق، وزحفتُ بطوله إلى أنْ وصلتُ إلى الشّباب، وعانقتُهم جميعًا: «الأمور كلّها تمام يا شباب. وسنبقى على موعدنا بعدَ عشرة أيّام، لن نستعجل، والتّوقيت مهمّ، والهروب في العيد كما اتّفقنا أفضلُ توقيتٍ مُمكن». ولم نستطع تلك اللّيلة النّومَ من الفرحة!

(٥٩)

الهُروب

«لماذا تريدُ أنْ تهرب؟ أنتَ تكلّم». أنا؟ نعم. سألتَني إذًا. الأمر بسيطٌ، إنّ حبيبتي تنتظرني في الخارج، وقد حدّدَتْ موعدًا للزّفاف بعد عشرة أيّام، وأنا لا أريدُ أنْ أخذلها؟». «وأنت؟». «ابنتي لم أحتضنْها منذُ عقدَين من الزّمان، أليسَ هذا سببًا معقولاً؟». «وأنت؟». «أريدُ أنْ أرى الشّمس، الشّمس الّتي تسرقونها وتُقسّطونها علينا ليستْ ما نريدُ، نريدُ شمسًا ساطِعةً كامِلةً يُغطّي نورُها ترابَ فلسطين كلّها». «وأنتَ؟». «أبي يريدُ أنْ يزور قبر أمّي، وقد وعدتُه أنْ أزورَه معه هذه المرّة، التّوقيتُ الّذي حَدّده مُقدّس، زيارة الأحباب الرّاحلين لا يُمكن تأجيلها». «وأنتَ؟». «أنا أريدُ أنْ أكسرَ هيبتهم، لديّ أسبابٌ أخرى، ولكنّني أفضّل الحديث عن هذا السّبب بالذّات، أشعر بفرحةٍ لا يُمكن وصفُها وأنا أتخيّلُ تعابير وجوهكم في اللّحظة الّتي يكتشفون فيها هروبنا». «وأنت؟». «أنا لا سبب لديّ، أريدُ أنْ أهرب فقط، لقد تعوّدتُ على ذلك منذُ طفولتي المُبكّرة، لا يُمكن لأحدٍ أنْ يقبضَ عليّ، غريزة الهروب مُركّبةٌ في جيناتي، قد لا تستطيع أنْ تفهم هذا السّبب، ولكنّه حقيقيّ».

نمارسُ أيّامنا الأخيرة هنا بشكلٍ اعتِياديّ، نركضُ في السّاحة، نلعبُ السّلّة، نقيم مباريات الشّطرنج، نستمع إلى دروس العِلم، نأكل، نضحك، ونُلقي النُّكات اللاّذعة، في انتِظار اليوم الموعود. غيرَ أنّ السّرّ الّذي نحتفظُ به ثقيل، كلّ ما أرجوه ألاّ تفضحنا عيوننا قبل أنْ نغادر هذا المكان.

«تفتيش». لا يتوقّف التّفتيش، ثلاث مرّات في اليوم. يتثاءَب بعضُ النّائمين، يصحو الرّابِضون في مجاثِمهم. الإهانات المُتعمّدة. قريبًا لن نُعطيكم هذه الفرصة، ولن نسمع هذه العبارة مُجدّدًا. نثروا كلّ شيء. «ممنوع تغطية الأبراش». «نعرف. لا أحدَ يُغطّي برشَه». «تفتيش». «ألمْ تُفتّشوا ما يكفي؟!». «كلاّ». «ماذا بعدُ؟». «بقي الحمّام». دخلَ الضّابط المسؤول إلى الحمّام، دَقّ على أرضيّته لم يسمع ما يبعثُ على الرّيبة، دَقّ على الجدارن لم يرَ شيئًا لافِتًا، دَقّ على النّوافذ تأكّد من أنّ كلّ شيءٍ على ما يُرام. كانت النّحلة في زاوية النّافذة تضحك.

حينَ اقتربَ من المِغسلة، خفقَ قلبي وأنا أنظر بطرفِ عيني خائفًا من أنْ تكون لحظةٌ - خارج الحُسبان قد أفلتتْ منّا - تهدمُ كلّ شيءٍ، اقتربَ من المِغسلة، اضطربَ قلبي هل سيَحنِي جِذعه ويدقّ أسفلَها، طرقةٌ واحدةٌ كفيلةٌ بجعل النّهاية تأتي على نقيض ما نشتهي، لكنّه على عادته وعادة كلّ مَنْ سبقَوه في استِخدام هذه الهراوة الخاصّة بالطَّرق لم يدقّ أسفل المغسلة؛ إنّ كبرياءه الكاذب لا يسمح له بالانحِناء.

لم يخرجِ الضّابط من الحمّام بقي هناك ينظر في أرجائِه كأنّه شعَرَ أنّ شيئًا غريبًا فيه، أنّ أنفاسًا وأصواتًا تختلطُ في فضائِه، اقترب مرّة ثانِية من المِغسلة، فحصَ تماسُكَها، إنّها متينة، كنّا نراقبه جميعًا وقلوبنا تضطرب، وخِفنا أنْ يُلاحِظ بقيّة الجنود المُدرّبون على قراءة تعابير الوجه ذلك علينا، فحاولْنا التّظاهر بعدم الاكتراث، ظلّ الضّابط في الحمّام واقِفًا أمام المغسلة، راحَ يمرّر أصابِعَه على أطرافِها، ويرفع تلك الأصابِع أمام ناظرَيه فيتفحّصها تارةً ويشمّها تارةً أخرى، إلى أنْ أرى أثرَ بعضِ التّراب على إصبعه، برقتْ عيناه، وأرادَ أنْ يُفصِحَ عمّا جال في خاطره بسؤال، ولكنّه فيما يبدو آثَر الصّمت، وتظاهر بأنّه لم يُلاحِظْ شيئًا، وقبل أنْ يخرجَ هتفَ فينا: «سيُنقل يعقوب غدًا إلى القسم (٣)».

وقعَ الأمر علينا كالصّاعقة. الأمر تطوّر إلى حدّ دراماتيكيّ، يجب اتّخاذ الصّائب بسرعةٍ، الوقت سيف. يبدو أنّهم وجدوا في النّهاية هذه هي الغلطة الّتي سينفذون من خلالها إلى بنائِنا فيخرّ من عليائه، كما وجدتُ أنا غلطتهم في بنائهم المُحكَم هذا، والنّصر سيكون لمن سبق، فقرّرتُ مباشرةً أنْ نتغدّى بهم قبل أنْ يتعشّوا بنا.

جمعتُ الشّباب وهتفتُ: «علينا أنّ نغادر اللّيلة». «اللّيلة؟ ألم تقلْ في منتصف أيلول؟». «كلاّ، لم يعدْ ذلك مطروحًا الآن، إمّا أنْ نخرجَ اللّيلة، وإمّا سينتهي كلّ شيء». «ولكنْ....». «لا توجد هناك لكن، ثُمّ إنّهم سينقلون يعقوب غدًا، وأنا أريدُه أنْ يخرج».

كانت السّاعة الواحدة والنّصف بعد منتصف اللّيل هي ساعة الصّفر. عانقَ كلّ واحدٍ منّا في وسط الغرفة أخاه، وبكى بعضُنا: «لم أعتقدْ أنّ الأمور ستأتي سريعةً على هذا النّحو». وضّبوا أغراضهم، حمل كلّ واحدٍ منهم أهمّ ما يعنيه في هذه الحقيبة الصّغيرة، ملأنا عبوات الماء من أجل أيّام العطش، وبعضَ الطّعام، لن تبخل علينا الأرضُ حينَ نخرج، ستحضننا كما كانتْ تفعل على الدّوام.

كانت خُطّة الزّحف واضِحة، يدٌ إلى الأمام ويدٌ إلى الخلف، والمشي بطريقة الحلزون، وهناك نقطتان سيتطلبّ الأمر عندهما الزّحفَ على الظّهر. سنخرج اثنين اثنَين، ينتظر الأوّل الثّاني، وحالَ الخروج يجبُ الاختِباء بين الحشائش الرّابضة خلفَ الشّارع.

هبطَ (مناضل) أوّلاً، وطبّق خُطّة الزّحفِ تمامًا، عَبَرَ الأمتار بسلاسة، وحينَ صار على الحفرة في الخارج، أزاحَ بفرحٍ غامرٍ الأعشاب اليابسة الّتي تُغطّيها، وقفزَ برشاقةٍ إلى الخارج، نَظَر حولَه نظَراتٍ سريعةٍ وهو يحني جِذعه مُقوّسًا ظهره، وركضَ على هذه الهيئة واختبأ خلفَ الشّارع.

هبطَ بعده (محمّد)، زحفَ كأنّه ذاهبٌ إلى لقاء حبيبة، كانَ يدفع حقيبته أمامه، تخيّلها شتلة من الورود، ضَحِكَ للخاطر ومَضى، من خلفَ الشّارع كان (مناضل) يراقبُ الفتحة وينتظر خروجه. لحظاتٍ صعبة، أينَ كاميرات المراقبة، إنّها موجودة، فلماذا لم نسمعْ صفّارات الإنذار، الجنديّة المكلّفة بمراقبة الكاميرات نائِمة، أو ربّما كانت مشغولة بلعبةٍ على هاتِفها، أو تشاهِدُ فلمًا على التّلفاز... إنّها لم تلحظْ شيئًا. والكلاب؟ لماذا لم تنبح، ألم تسمعْ ما قاله (محمود) من قبل: إنّ (ريّان) قد تكفّل بها.

كنتُ لا أزال في الغرفة فيما كانَ رفقائي يخرجون واحِدًا واحِدًا، لم أشعرْ بأنّ عليّ الاستِعجال، طُفتُ بهدوءٍ في أرجاء الغرفة، وأنا أنظر إلى كلّ شيءٍ فيها كأنّني أودّعه، تعجّبتُ من هدوئي الّذي خَيّم على مشاعري، نظرتُ إلى الأبراش، إلى السّاحة، إلى الجدارن، تخايلَتْ أمام ناظِرَيّ كلّ السّجون الّتي عبرتُها، تمشهدَتْ أمامي، إنّها أكثر من عشرةِ سجون، كيفَ يُمكن أنْ أصِفَ هذا الشّعور؟ كلّ هذا الانحِباس، وأنتَ تتمشّى بهدوء هنا، لِمَ لا تُسارِع بالخروج، هل هو نوعٌ غريبٌ من الألفة مع المكان؟ أمْ أنّه عدم التّصديق بأنّ هذا يحدثُ بعد أكثر من رُبعِ قرنٍ في هذه المنافي؟ هل أشعر أنّني في حلم؟ هل أنا مستيقظٌ أم نائمٌ؟ أمعقولٌ أنّني فعلتُها؟ أمعقول أنّني خططتُ لهروب ستّة سجناء من أشدّ سجون العالَم تحصينًا؟! لا أكادُ أُصدّق نفسي!!

ثُمّ هبطَ (يعقوب)، خبرته الطّويلة، سنواته المريرة كانتا تدفعانه عبر النّفق إلى الخارج، غير أنّ عموده الفقريّ كان يتلوّى مع كلّ مترٍ يقطعه، إنّه يضغطُ عليه، ماذا يفعل مع هذا الألم الّذي رافقه منذُ ذلك اليوم البعيد حين هربَ من قذيفةٍ أطلقَتْها طائرةٌ عموديّة لتغتاله، فسقطَ في هروبه وصاحَبَتْه الآلام المُبرّحة منذئذٍ، غير أنّ إرادة

الحرّيّـة أقـوى مـن الأوجـاع، وعليـه أنْ يمـضي إلى قَـدَرِه كـما مـضى مَـنْ قبلـه. خـرجَ يعقـوب، وفَـرِحَ مُناضـل ومحمّـد حـين رأيـاه خارجًـا مـن تلـك الفوّهـة الّتـي ستُصبح شـهيرةً عـمّا قليـل، إنّهـا تبـدو ثُقبًـا عاديًّـا، ثقبًـا حُفِـر في الأرض عـلى غـير انتظـام، هـذه ليسـت مُجـرّد حُفـرة، إنّهـا حُفـرةٌ في رؤوس قـادة الاحتِـلال، تُنسيهم طعـم الهـدوء وراحـة البـال وتُصليهـم شـقوة الفضيحـة والخـزي أمـام مجتمعهـم، ثُقـبٌ آخـرُ في أسـطورة الوطـن الآمـن. خـرجَ (يعقـوب) إذًا.

انتظـر الثّلاثـة (زكريّـا)، انتظـروه حـوالي رُبـع سـاعة، كان عليـه أنْ يخرج منذُ عشرِ دقائق، لِمَ تأخّـر مـاذا يُمكـن أنْ يكـون قـد حـدثَ لـه؟ لقـد عَلِـق، أراد أنْ يقـول ليعقـوب إنّـه عالِـق، رمـى لـه حقيبتـه، أخذهـا، لكنّـه علـق مـن جديـدٍ، ليـسَ لضيـق النّفـق، ولكـنْ لأنّـه لم يتـدرّب مثلهـم عـلى الدّخـول إليـه، لقـد دخلـوا إليـه وخرجـوا منـه مِئـات المـرّات قبلـه. شـعَر بأنّـه يختنـق، وأحـسَ أنّ المـوتَ يقـترب منـه، وأنّـه أصبـحَ في الـبرزخ، لكـنّ رغبـةَ الحيـاة تنتـصر في النّهايـة، والمحـاولات تـأتي بـما تشـتهي إذا دفعتْهـا غريـزة البقـاء وفضيلـة الانتِصـار، خـرجَ بعـد أنْ خافـوا أنّـه لـن يخـرج. وبـدا لهـم في اللّيـل فهـدًا أسـودَ يعـبر الشّـارع بخفّـة ويلتحـق بهـم، لقـد صـاروا أربعـة.

مـا زلـتُ في الغرفـة. عـليّ أنْ أقـول شـيئًا لا أدري مـا هـو. عـليّ أنْ أوجّـه بعـضَ الكلـمات، بعـضَ الامتنـان، أَنْ أقـول مـا يعتلـج في جوارحـي، أنْ أبكـي مثـلاً، فقـد وصلـتُ إلى نهايـة حلمـي، كيـفَ تخـونُ الكلـمات شـعوري الآن؟! تأكّـدتُ مـن أنّ قطرميـز العسـل ملفـوفٌ بقـماشٍ وفلّـين حافـظ، وموضـوعٌ في الحقيبـة، ارتسـمتْ صـورة أمّـي أمامـي، لا أدري كيـفَ سـمعتُها تقـول: «أنـا بانتِظـاركَ يـا بُنـيّ، فـلا تتأخّـرْ عَـلَيّ».

هبطَ خامسنُا (أيهم)، أليسَ لديكَ ما تقوله شعرًا في هذه اللّحظات يا أيهم؟ كانتْ لحظاتُنا أكبرَ من كلماتنا، وخروجُنا أكبر من قصائد الشّعر كلّه. زحفَ، وهو يرى النّور في الظّلام، كانت الحياة كلّها أمامه، كانتِ الأفراح بانتِظاره، ووراءه خلّف ما جمَعَ من مرارات وسَكَبَ من عبرات.

جاءَ دوري، أطلقتُ نظرةً أخيرةً على غرفتنا، سمعتُ صوتَ ضحِكاتنا فيه ترنّ في الأجواء، رأيتُ طيوف كلماتنا تجولُ في الفضاء، شممتُ عبقَ أخوّتنا يملأ صدري بالياسمين، ليسَ لديّ ما أقوله أيّتها السّنون أكثر مِمّا قُلته، اسمحوا لي أيّها الرّفقاء المتبقّون من بعدنا أنْ أقول لكم وداعًا، سامحنا يا (قُصيّ) ويا (خلدون) ويا كلّ الّذين ساعدونا على الحفر ولم يكتب لهم الله أنْ يكونوا من بيننا، نحن ممتنّون لكم، لكنّ الله قدّر أنْ نكون سِتّة، فكُنّا هؤلاء الّذين نخرج الآن، وكان يمكن أنْ يكون هؤلاء السّتة سِوانا. وأطلقتُ قبلة حارّة في الهواء، ومضيت.

صعدتُ من الحفرة، كان الشّباب ينتظرونني على أحرّ من الجمر، وقفتُ على قدَمَيّ كاملتَين كأنّني أتحدّى الكاميرات وأبراج المُراقَبة، ومضيتُ خطوتَين إلى الشّارع ورفقاء النّضال يراقبونني من الطّرف الآخر وهم على أعصابهم في انتظار أنْ أقطع الشّارع، لكنّهم رأوني أعود إلى الحفرة، فرجفتْ ضلوعهم: «ماذا يفعل محمود؟». عدتُ إلى الحفرةِ فجمعتُ الحشائش، وغَطَّيتُها بها كما كانتْ قبل أنْ نُحدِثَها في هذا المكان، وفي كلّ مكانٍ في العالَم.

كُنّا ستّة نمشي في الحقول الفسيحة، نُغنّي، ونضحك، كأنّنا ذاهِبون إلى حفل زِفاف، نُلوِّحُ بأيدنا في الهواء. نشمّ رائحة التّراب الغَضّ، ونرى أشجارَنا العالِية، نحن لا نحلم، إنّها الحقيقة، نحنُ أحرار، لا تُوجَد قوّة في الأرضِ كلّها يُمكن أنْ تصادر حرّيتنا.

وهـا نحـن؛ لا جُـدران، لا سَـجّان، لا قيـود، لا تفتيـش، لا تعذيـب، لا وجـوهَ بغيضـة، هـا نحـن... إنّ يومًـا واحِـدًا في الحرّيـة يُنسِي عذابـات قـرنٍ كامـلٍ في السّـجن، نحـنُ أحـرار، وسـنبقى كذلـك حتّـى نمـوت.

انتهت

أيمـن العتـوم

الرّباط - المغرب

١٢-٦-٢٠٢٢م

شهادات حَيّة

«لم يكنْ هناك من هو أشدّ فرحًا منّي، لقد كانت هذه الأيّام القليلة الّتي عشتُها خارجَ السّجن كفيلةً بأنْ تفرحني العُمر كلّه».

التوقيع

مناضل نفيعات

«أفضل أيّام حياتي هي الأيّام الخمسة الّتي قضيتُها في هواء فلسطين الطَّلْق دون قيود، خلال وجودي في قرية (إكسال) رأيتُ أطفالاً مع أهاليهم لأوّل مرة منذ مدّةٍ طويلة فذهبتُ وقبّلتُ أحدهم. زُرتُ قرية (المنسي) قريتي الأصليّة في جبال الكرمل، وتناولتُ العديد من أصناف الفاكهة كالبوملي والبرتقال الأخضر والصَّبْر. وهذا أجمل ما حدث معي».

التّوقيع

يعقوب القادري

في أيّام حُرّيّتي المعدودة نظرتُ إلى السّماء، وخاطبتُ النجوم، وشعرتُ بانتزاعي للحرّيّة أنّني عُدتُ إلى الجنّة، كُنتُ أنوي زيارة قبر أمّي، لكنّني لم أستطعْ».

التوقيع

أيهم كممجي

«ذهبْنا لاستِكشاف أرضٍ ما حولنا، ورأينا أرضًا بها خرّوب فأكلنا منه، وبالصّدفة مرّ شخصان بتراكتور، نزل أحدُهم وأعطانا ماءً، وبعدَ أنْ ذهبوا

حاولنا الرّكض، لأنّنا شعرْنا بأنّهما سيُبلّغان عنّا، فاختبأنا حوالي ساعتَين تحتَ شجرة، وكانتْ سيّارات الشّرطة تمرّ من جانبنا وتذهب، بعدها رآنا شخصٌ كانتْ برفقته طفلةٌ صغيرة، فتحدّث معه محمّد، وأنا جلستُ وسلّمتُ على الطفلة».

التّوقيع

زكريا الزبيدي

«لقد تجوّلتُ في ربوع بلادي، وفي أحد الحقول في مرج ابن عامر أكلتُ من ثمار الصّبر الّذي لم أتذوّقهْ من اثنين وعشرين عامًا».

التوقيع

محمّد العارضة

«أُمّي...

بعد التّحيّة والسّلام حاولت المجيء لأعانقك قبل أن تغادري الدنيا لكنّ الله قَدّر لنا غير ذلك. أنتِ في القلب والوجدان، وأُبشّرك بأنّني أكلتُ التّين من طول البلاد، والصَّبْر والرُّمّان، وأكلتُ المعروف والسُّمّاق والزّعتر البرّيّ، وأكلتُ الجوافة بعد حرمان (٢٥) عامًا، وكان في جُعبتي علبة العسل هديّةً لك، سلامي لأخواتي العزيزات باسمة، رُبى، خِتام، وسائدة وكل الإخوان؛ فأنا مشتاق لهم كثيرًا.

تنسّمْتُ الحرّيّة ورأيتُ أنّ الدُّنيا قد تغيّرتْ، وصعدتُ جبال فلسطين لساعاتٍ طويلة، ومَرَرْنا بالسُّهول الواسِعة، وعلمتُ أنّ سهلَ عَرابة بلدي، قطعةٌ صغيرةٌ من سهول بيسان والنّاصرة.

سلامٌ إلى كلّ الأهل والأصدقاء. سلامي إلى ابنةِ شقيقتي «أفيهات» الّتي

لبستُ جرابينها وقطعتُ بها الجبال، سلامٌ إلى عبد الله وهديل ويوسف وزوجة رداد، والأهل جميعا سارة ورهف وغادة ومحمد والجميع. سلام خاصٌ إلى هدى وأنا مشتاق إليها كثيرًا وسأبعث لها كل القصة والحكاية.

******

«لن يسألك الله لماذا لم تنتصر، أو لماذا لم تنجح، ولكن سيسألك لماذا لم تعمل؟ حينَ أعودُ إلى زنزانتي لا يَضِيرني بعدَها ما حدث، فأنا على عبق هذه الأيام الخمسة الأخيرة سأعيشُ كما لو كنتُ حرًّا.. إنّ جناحَين قد حلّقتُ بهما في سماء فلسطين خمسة أيام لن تستطيع أيّ دولةٍ في الأرض، ولا أيّة قوّة فيها أنْ تحبِسَهما من جديد... لقد حقّقتُ ذلك الحلم البعيد... وهذا يكفي... لقد كان يكفي بالفِعل... لن تفعل السّنوات القادمة خلف هذه الجدران في حياتي شيئًا، لن تكون قادرةً على أنْ تُصادِرها، ولا أنْ تُحدِثَ فيها ثقبًا إلاّ بمقدار ذلك الّذي رآنا نرى السّماء العالية من دون أنْ يكون لأحدٍ علينا أيّة رقابة».

التوقيع
محمود العارضة



الفهرس

مَـرَّ القِطـارُ كَأنّـا لَـمْ نكُـنْ فِيْـهِ... مَـرَّ القِطـارُ عَلَى آثَـارِ مَاضِيْـهِ... تَقَاذَفَتْنـا المَنـافِي غَيْرَ عَابِئَـةٍ... وَبَـعْثَرَتْ عُمْرَنـا المَذْبُـوحَ فِي التِّيْـهِ... مَـرَّ القِطـارُ فَقَالَـتْ لِي بَنَفْسَـجَةٌ... أَمَـا لَدَيْـكَ حَدِيْـثٌ فِيَّ تَرْوِيْـهِ؟!... فَقُلْـتُ: نَحْـنُ هُنـا يَـا أُخْـتَ عَوْدَتِنـا... حِكَايَـةُ الحُلْـمِ تُرْوَى فِي لَيالِيهِ...

صدر للمؤلف عن الإبداع الفكري

رواية أرض الله



